

رسائل جماعية

الكلمات الشرعية  
في القرآن الكريم

تأليف  
الدكتور المحسن حربيفي

المجلد الأول

دار ابن عفان

دار ابن القيم

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾

الكلمات في الشعية  
في القرآن الكبير

رقم الإيداع : ٢٠٠٢ / ٢٦٧٨

الترقيم الدولي :  
I.S.B.N :  
977-6052-46-0

جميع حقوق الطبع محفوظة

○ الطبعة الأولى

م ٢٠٠٢ - هـ ١٤٢٣

# دار ابن عفان

للنشر والتوزيع



دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤

الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥

الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر

الجيزه - ت: ٣٢٥٥٨٢٠ - ص.ب: ٨٠٠٢ السرايات  
القاهرة: ١١ ش درب الأتراك - الأزهر - خلف الجامع الأزهر  
هاتف حموي: ٠١٠٥٨٣٥٠٦ - ٠١٠٥٨٣٦٢٦

جمهورية مصر العربية

E-mail: ebnaffan@hotmail.com

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم :

## الثابت والمتحير في التشريع الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه،  
وبعد:

فلقد تقرر في القرآن الكريم: أن البشر على اختلاف ألوانهم وأذمنتهم وأمكنتهم يعودون إلى أصل واحد، قال - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَارٍ فَجَدَكُمْ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَيْتَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء، الآية: ١]، والآية دلت على أن الجماعة الإنسانية واحدة، مردها إلى رب واحد، وخالق واحد، وتعود إلى أصل واحد<sup>(١)</sup>.

وهذه التفاصيل - في الجماعة الإنسانية - حيث قسمت إلى شعوب وقبائل، «وهذا الاختلاف في الأشكال والألوان والألسن، كان الغرض منه أن يعرف الناس بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض»<sup>(٢)</sup>، قال - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَابِلَ لِتَعَارِفَةٍ﴾ [الحجرات، الآية: ١٣]، فلما دلت الآية الكريمة على الاستواء في الأصل، كان ذلك برهاناً على وحدة البشر، ومن ثم فخصائص البشرية واحدة على الرغم من

(١) في ظلال القرآن ٥٧٤/١.

(٢) أصوات البيان ٦٣٥/٧.

اختلافهم في الشكل، مما يدعو إلى القول: إن البشرية قابلة ومستعدة إلى هذه الوحدة التكاملة.

غير أن الوحدة لن تتم إلا إذا تحقق الهدف الذي من أجله وجدت البشرية، وهو عبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، قال - تعالى - : **فَوَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّاً وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ** [الذاريات، الآية: ٥٦]، فتحقيق هذه الغاية يتم بالرجوع إلى هذه الرسالة المترفة على الرسول محمد ﷺ والتي دعا الحق - سبحانه - إلى التحاكم بها وجعلها قانوناً عالمياً للناس<sup>(١)</sup>، وهو القانون العالمي الوحيد الذي يصلح حكم الإنسانية وإصلاحها، الحكم الذي يسع الناس على اختلاف الزمان والمكان؛ حيث أراد الله - عز وجل - أن تكون هذه الشريعة لجميع البشر، ويكون الرسول ﷺ المبلغ عن ربه رسولًا للبشرية جموعاً.

وشمول هذه الرسالة من الخصائص التي تميز بها هذا الدين عن كل ما عرفه الناس من الأديان والمذاهب، إنه شمول يستوعب الزمان كله، ويستوعب الحياة كلها ويستوعب كيان الإنسان كله، فهي كما عبر حسن البنا - رحمه الله - : «الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباء الزمن، وامتدت عميقاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عميقاً حتى استواعت شؤون الدنيا والآخرة»<sup>(٢)</sup>، ويتحدث الدھلوی - رحمه الله - في هذا الصدد؛ فيقول: «ولا ينبغي أن يظن عند تلاوة القرآن الكريم أن جداله ومحاجته كانت مع أناس قد انتهوا وانقضوا، كلا بل إنه بحكم ما جاء في الحديث: «لتبعن سنن من كان قبلكم» فليست هناك من فتنة كانت في عهد الرسالة ﷺ إلا ولها نماذج وأمثلة في عصرنا، ولذلك فالمقصود الحقيقي هو بيان كليات هذه المقاصد والمعاني، لا خصوص الحوادث والتفصيلات الجزئية»<sup>(٣)</sup>.

(١) خصائص الشريعة الإسلامية ص: ٤٧

(٢) الخصائص العامة للإسلام ص: ١٠٥

(٣) الفوز الكبير في أصول التفسير ص: ٦٢

وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في كثير من الآيات؛ كقوله - عَزَّ وَجْلَ - : **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** [الفرقان، الآية: ١]، قوله - تعالى - : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ﴾** [سبأ، الآية: ٢٨]، قوله - تعالى - : **﴿قُلْ يَكَبِّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾** [الأعراف، الآية: ١٥٨]، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرباع مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان الرجل يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»<sup>(١)</sup>.

فمن هذه النصوص، نقطع بأن رسالة الإسلام رسالة لكل الأزمنة، والأجيال «ليست رسالة موقوتة بعصر معين، أو زمن مخصوص يتهمي أثرها بانتهاه، كما هو الشأن في رسالات الأنبياء السابقين؛ فقد كان كلنبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة - كما صرَّح الحديث - حتى إذا ما انقطعت، بعث الله نبياً آخر، أما محمد ﷺ، فهو خاتم النبيين، ورسالته رسالة خالدة وسمها الله بسمة البقاء إلى قيام الساعة، فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد كتابها كتاب، ولا بعد رسولها رسول»<sup>(٢)</sup>؛ لذلك زينها مُنْزَلُهَا بمنزلة الكمال، فقال - عَزَّ وَجْلَ - : **﴿الَّيْمَنْ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾** [المائدة، الآية: ٤]، وبهذا الكمال، كانت تسُعُ الحياة بكل أطراها وأبعادها، وافية لصالح الإنسان، غير متناقضة في أحکامها كما تحدث به الكتاب؛ قال - عَزَّ وَجْلَ - : **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَاجًا﴾** [الكهف، الآية: ١] «إنها هداية الله التي تصحب الإنسان أئمَّةً اتجه، أئمَّةً سار في أطوار حياته إنها تصحبه طفلاً ويعافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وترسم له في كل هذه

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٤٣٤/١ (كتاب التيم باب ١).

(٢) خصائص الإسلام العامة ص: ١٠٥ - ١٠٦.

الراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يحبه الله ويرضاه<sup>(١)</sup>؛ فهي - إذا رسالته في مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري، فلا تدع جانبًا من جواب الحياة الإنسانية إلا كان لها فيه موقف، وقد يتمثل في الإقرار والتأيد، أو التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد تتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتفنين، وقد تسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد تتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كل في موضعه.

وها هنا دلائل حقة تبرز شمولية القرآن؛ وذلك حين يخاطب «الإنسان»، هذه العبارة التي بتها كتاب الله في كثير من الآيات، قال - تعالى - ﴿وَالْعَصِيرِ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العمر، الآيات: ٣-٤]، فالتعريف في الإنسان للجنس، أريد به الاستغراب حيث يشمل أفراد النوع الإنساني، فهو حكم عام في حق الإنسان الذي بلغته الدعوة<sup>(٢)</sup> وقال - تعالى - ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْعَمُ إِنَّ رَبَّهُ أَسْتَغْفِرَ﴾ [العلق: ٦-٧]؛ وهو حكم على طبع الإنسان كله في الحاضر، والماضي، والمستقبل حيث «يبيت الآية حقيقة نفسية من الأخلاق وعلم النفس»<sup>(٣)</sup>، وقال - تعالى - ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل، الآية: ٤]، وهي حقيقة أخرى يحليها القرآن من خلال تلك النقلة الضخمة بين النطفة المهينة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم حالقه فيكفر، ويجادل في وجوده أو في وحدانيته، وليس بين مبدئه من نطفة، وصيروته إلى الجدل والخصومة فارق مهلة، فيقف الإنسان بين مشهدتين وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة، ومشهد الإنسان الخصم المبين<sup>(٤)</sup>؛ وقال - تعالى - ﴿وَإِنْ تَعْذُّدُوا يَعْمَلَ اللَّهُ لَا تُحْصِنُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٦]، فبعد ذكره للامتنان

(١) خصائص الإسلام العامة ص: ١٠٩.

(٢) التحرير والتنوير ٥٣٠/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٤٤٤/٣٠.

(٤) في ظلال القرآن ٤/٢١٦٠.

على الخلق في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إجمالاً لما ذكر من النعم، عَقَب بتسطير هذه الحقيقة وهي أن الإنسان كثير الظلم كثير الكفر، وقال - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَ رَحْمَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّمَا لَيَشْوِسْ كَفُورُ﴾ (١) [هود، الآية: ٩] والآية من الآيات التي تطلعنا على شمولية العلم ودقة الخبرة بكونها هذا الإنسان من قبل خالقه، فقد انبعثت منها صورة حقيقة لهذا الخلق العجل القاصر الذي لا يعيش إلا للحظته الحاضرة وينسى مآلها، فلا يفكر فيما هو آت، يؤوس من الخير، كفور بالنعمة، بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له﴾<sup>(١)</sup>.

ومثل ما قيل في هذه الآيات، يقال في نظائرها التي تناولت الإنسان بالحديث؛ فأحاطت به علمًا في ظاهره، وباطنه وكشفت عن علم الصانع الخبيث وإحاطته بأخفى وأدق أسرار الصنعة.

أولاً يكون هذا الصانع، هذا العالم، هذا الخبيث جديراً بأن يضع قانوناً يعصم هذه الصنعة من الخلل - بلـه الضياع والفساد - ودستوراً يحوي قواعد جامعة تكون قواسم مشتركة لهذا الإنسان في كل زمان ومكان لا يعتورها ضعف، ولا يجد القصور إليها سبيلاً؟!

إن القرآن حين تحدث قائلاً: ﴿فِطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْدِرِيزُ الْفَيْمُ﴾ [الروم، الآية: ٢٩]، أراد أن يوجه حديثه إلى الفطرة الإنسانية وهي شركة بين بني البشر، ومن ثم فخطابه - عقدياً كان أم شرعاً - مقبول عند ذوي الفطرة السليمة التي لم تتبدل فطرتهم، ولم تتحول، ولم يتلها تغيير، بحيث ستتناول الشريعة حياتهم من جميع أطرافها وتضع مبادئ كلية وقواعد أساسية فيما يتطور ويتحور بتغير الزمان والمكان، فهي بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية على ما تحتاجه حياة الإنسان من ضوابط، وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات.

(١) انظر: في ظلال القرآن /٤١٨٦٠.

ومن ثم فقد راعت الشريعة في خطابها للإنسان منهجاً تجلّى في ورود كثير من النصوص القرآنية مورد العموم؛ حيث جاءت هذه النصوص في صورة تعبيرات كليلة جامعية؛ وذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» [البقرة، الآية: ١٨٥]، قوله - تَعَالَى - : «وَلَكُمْ فِي الْفِضَّاصلِ حَيَاةٌ يَتَأْوِلُ إِلَيْنَا لَعَلَّكُمْ تَتَقَوَّنُ» [البقرة، الآية: ١٧٩]، قوله - تَعَالَى - : «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» [الزلزال، الآية: ٨]، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» [الزلزال، الآية: ٧]، وكذلك سارت أحاديث رسول الله ﷺ على هذا المنهج من ذلك قوله: «عَنْ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : «لَا ضَرُرٌ وَلَا ضَرَارٌ»<sup>(١)</sup> ، قوله: «وَمَنْ عَمَلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرَنَا فَهُوَ رَدٌ»<sup>(٢)</sup> ، قوله: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ اِمْرَئٍ مَا نَوَى»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يتحدث الإسلام إلى البشرية بهذا المنطق، بهذه القوانين، والقواعد التي تنسجم وطبيعة الحياة الإنسانية العامة والخاصة، ويدعو - أول ما يدعو - إلى التسليم للخالق، ثم يفتح الطريق نحو هذا التسليم، وذلك بتوجيهه أبناء البشر نحو سلسلة من العقائد، والأخلاق والأحكام الثابتة الضرورية التي ليست قابلة للتغيير في كل الظروف<sup>(٤)</sup>.

فالمنهج المتبّع في القرآن بالنسبة للإنسان في مسيرته الحياتية يتمثل في أحكام وقوانين ذات طابعٍ متميّزٍ كل منها على الآخر:

١- أحكام وقوانين ترتبط بالمحافظة على المصالح الحياتية للإنسان، ولها صفة ثابتة؛ لأنها تنصرف إلى تنظيم أساس حياتية في كل زمان ومكان.

(١) سنن ابن ماجه ٢/٧٨٤ (كتاب الأحكام، باب منبني في حقه ما يضر بجاره).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، (كتاب البيوع، باب النجاش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع...).

(٣) نفسه ٩/١ (كتاب بده الوحي، باب كيف كان بده الوحي إلى رسول الله...).

(٤) انظر: الإسلام والتغيير الاجتماعي، ص: ١٨.

-٢- أحكام وقوانين ترتبط بالجانب المؤقت الخاص للإنسان، وتختلف هذه باختلاف طريقة الحياة، وتتغير بتغير المدنية، وتطور المظاهر الاجتماعية. وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله - : «الأحكام نوعان: نوع لا يتغير، على حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة؛ كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك. والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً؛ كمقادير التعزيزات، وأجناسها وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.. ثم قال: وهذا باب واسع اشتتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة الالزمة التي لا تتغير بالتعزيزات التابعة للمصالح وجوداً أو عدماً»<sup>(١)</sup>، فالثابت لا إشكال فيه؛ إذ يستند إلى طبيعة الإنسان وخصائصه، والتغير يين من خلال ما يطرأ من تغييرات مصالح الناس في الأزمنة والأمكنة المختلفة، والأمر منوط بالعلماء المجتهدين الذين يشخصون الاحتياجات ضمن إطار المصلحة الزمنية وفي ضوء أحكام الشريعة الثابتة دون أن يطرأ تغير على الأحكام الثابتة<sup>(٢)</sup>. ومن الأدوات الفاعلة في هذا المجال: العلل، والحكم، «التي هي من مدركات العقول لا تختلف باختلاف الأمم والعادات، وقد أجمع علماء الإسلام في سائر العصور - إلا الظاهرية وقلة من غيرهم - على أن علماء الأمة مأمورون بالاعتبار في أحكام الشريعة والاستبساط منها، وجعلوا من أدلة ذلك قوله - تعالى - : ﴿فَلَنَفُوا اللَّهُ مَا مَا أَسْتَطَعُتُمْ﴾ [التغابن، الآية: ١٦] قوله - تعالى - : ﴿فَأَعْتَرُوا يَتَأْفِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحضر، الآية: ٢٣]، وهما دليلان خطابيان، ولكتنا نتمسك في هذا بالإجماع وعمل الصحابة وعلماء الأمة في سائر العصور»<sup>(٣)</sup>.

(١) إغاثة اللهفان / ١ / ٣٤٦-٣٤٩.

(٢) انظر: الإسلام والتغير الاجتماعي ص: ٢١.

(٣) مقاصد الشريعة ص: ٨٩.

قسم الثابت في القرآن هو المتمثل في تلك الآيات الكليات من نحو قوله - تعالى -:

**﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُتَنَّ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٥]، قوله - تعالى -:

**﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾** [البقرة، الآية: ٢٠٥]، قوله - تعالى -:

**﴿لِقَوْمَ الَّذِينَ يَأْفِسُونَ﴾** [الحمد، الآية: ٢٥]، قوله - تعالى -:

**﴿وَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَّةٌ﴾** [البقرة، الآية: ١٧٩]، فهذه كلها أصول دلت على أن القرآن قد استوعب الأحكام بطريقة كلية، ومن ثم وجوب القياس على هذه الأصول؛ فالنصوص محدودة غير أنها تستوعب جميع التطورات اللامحدودة متى نظر إليها المجتهد، وقياس الغائب على الشاهد، فاستقراء الشريعة في تصرفاتها، قد أكسبت فقهاء الأمة يقيناً بأنها ما سوت في جنس حكم من الأحكام جزئيات متکاثرة إلا ولتلك الجزئيات اشتراك في وصف يتعين عليهم أن يكون هو موجب إعطائهما حكماً متماثلاً، ومن ثم استقام لهم من عهد الصحابة إلى هلم جرا أن يقيسوا بعض الأشياء على بعض؛ فينوطوا بالمقيسة نفس الأحكام الثابتة بالشرع للمقيس عليها في الأوصاف التي أثبتوا أنها سبب نوط الحكم، وأنها مقصود الشارع من أحکامه<sup>(١)</sup>، فالقرآن الكريم - إذا - تمثلت فيه القواعد العامة، والكليات الجامعة التي لا تتعرض للتغريب اكتفاء بما تقرره من مبادئ عامة في تشريع الأحكام العملية سواء في الأحكام المدنية والدستورية والجنائية والاقتصادية، ففي البيع - مثلاً - اقتصر القرآن على تقرير أربعة من أحکامه فقط فأباحته آية:

**﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحْرَمَ الرِّبَا﴾** [البقرة، الآية: ٢٧٥]، واشترطت فيه التراخي آية:

**﴿يَتَأْمِنُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرِيَةً عَنْ تَرَاضِيْكُمْ﴾** [النساء، الآية: ٢٩]، وأوجبت الإشهاد فيه آية:

**﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَاعِتُمْ﴾** [البقرة، الآية: ٢٨٢]، ونهت عنه وقت النداء للصلوة من يوم الجمعة آية:

**﴿وَدُعِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَأَسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذِرُوا الْبَيْعَ﴾** [الجمعة، الآية: ٩]، هذا مع العلم أن أحکام البيع التفصيلية في الفقه الإسلامي كثيرة تختلف في مذهب عنها

(1) مقاصد الشريعة ص: ١٠٨.

في مذهب آخر.. وفي القانون الدستوري اكتفت بعض النصوص بتقرير المبادئ الأساسية الثلاثة لكل سياسة دستورية عادلة وهي: الشورى والعدل والمساواة، فالشورى تقررها آية: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأُكْمَانِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٥٩]، والعدل تقررها آية: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء، الآية: ٥٨]، والمساواة تقررها آية: ﴿إِنَّا أَمْمَنَّنَ إِخْرَجْ﴾ [الحجرات، الآية: ١٠]، أما تفاصيل حكمها جميعاً بما يكفل المصلحة، فقد تركته لكل أمة تقضي فيه بما يلائم بيئتها وأحوالها وما يحقق مصلحتها.

على أن من بين هذه النصوص التي تمثل الكليات نجد نصوصاً أعم وأشمل مما سبق ذكره حيث تقرر من خلالها مبادئ عامة، وذلك كالنصوص التي قررت أن الأصل في الأشياء الإباحة؛ مثل قوله - تعالى - : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٩]؛ وكذلك قوله - تعالى - : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَيْنَكُمْ قَنْ حَرَجَ﴾ [المائدة، الآية: ٦] فهي من النصوص التي جعلت أساس التشريع رفع الحرج واليسير بالناس، وقوله - تعالى - : ﴿يَتَابُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودَ﴾ [المائدة، الآية: ١]، فهي من النصوص التي أوجبت الوفاء بالالتزام وأداء الحقوق، وهكذا<sup>(١)</sup>.

ومن أشرف على مراحل وأطوار تاريخ الشريعة الإسلامية، يجد أن المبادئ الكلية والأصول العامة من القرآن، هي أول ما نزل، وكان ذلك بمكة، وليس عفواً أن تكون هذه القواعد هي الأولى في التنزيل؛ وإنما كان ذلك لبيان وزنها وقدرها في مجال التشريع، وبيان أنها أساسه الذي يُشيدُ عليه فيما بعد بالمدينة البناء التشريعي بكل جزئياته وتفاريقه، وفي هذا الشأن يعبر الإمام الشاطبي - رحمه الله - بقوله: «اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والذي نزل به القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة كُملَت بها تلك القواعد التي وُضعَ أصلها بمكة، وكان أولها

(١) انظر: المصلحة في التشريع الإسلامي وجم الدين الطوفي لمصطفى زيد ص: ٢٢.

الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة؛ كالصلة والإإنفاق وغير ذلك، ونهى عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر؛ كالافتراط على الله وسائر ما حرموه على أنفسهم أو أوجبوه من غير أصل مما يخدم أصل عبادة غير الله، وأمر مع ذلك بمحاسن الأخلاق كلها، كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد، وأخذ العفو والإعراض عن الجاهل، والدفع بما يحيى هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشکر ونحوهما، ونهى عن مساوى الأخلاق من الفحشاء، والمنكر، والبغى، والقول على الله بغير علم، والتطفيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنا، والقتل، واللاؤد وغير ذلك مما كان سائراً في عهد الجاهليه.. ثم قال: وإنما كانت الجزئيات المنشروات بمكة قليلة، والأصول الكلية في النزول والتشريع أكثر، ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام، كملت هناك الأصول الكلية على تدريج؛ كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية، وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالخفيفات، والرخص وما أشبه ذلك كله تكميلًا للأصول الكلية<sup>(١)</sup>.

فتأسیس الشريعة بهذه الكيفية، وتقنين الأحكام بهذا المنهج، يوحی بقصد من أنسى المقاصد القرآنية، هو العمل على ترسیخ القواعد والأصول الدينية في المكلفين؛ ليرقى - بعد ذلك - إلى مستوى التشريع الجزئي غایته - هو الآخر - إحدى القواعد المثبتة في ثايا الرسالة الربانية هي رفع الحرج عن المكلف ودرء العنت عنه؛ «خشية لحوق الضرر أو الملل به أو خوف تعطيل الأعمال الشرعية»<sup>(٢)</sup>.

فإذا تقرر هذا، فلا يعني التقليل من شأن الجزئيات، وإنما هو تأكيد قيمة هذه القواعد الشرعية الكبرى التي أرادها الحق - سبحانه وتعالى - وأهلها لتبقى موسومة

(١) المواقفات ٦٢، ٦٢/٣.

(٢) المواقفات ٤٤٦/٢.

بسمة الديومة، وخصائص أخرى؛ كالقطعية، والثبات، والأبدية، والعموم، والوسطية، والإحكام وعدم منافاتها للعقل، وغيرها مما سنأتي على بسطه بإيجاز، مع بيان أهميتها التشريعية وورودها في القرآن الكريم، وذلك بعد تعريفها في اللغة والإصطلاح.

## ١- تعريف الكلية:

### أ- في اللغة:

أصل الكلية لفظة مأخوذه - اصطناعاً - من لفظ: «الكل»، كالمجزئية من الجزء، وما أشبه ذلك مما يُصنَع في صنيع المصدر الاصطناعي، إلا أنها لم تخرج عن الاسمية؛ ولكن الفائدة منه هو استقلالها بالدلالة الاصطلاحية التي لا يشار إليها فيها غيرها. ومعنى الكلية في اللغة يساعد عليه معنى الكلمة: «كل»، وقد عرَّفها أهل اللغة بعدة تعريفات، منها:

- \* عرَّفها ابن عساكر بأنها: «الإحاطة بالأجزاء»، وذكر أن أصل الكل من قوله تعالى أَيْ أَحاطَ بِهِ، ومنه الإكليل سمي لإحاطته بالرأس<sup>(١)</sup>.
- \* ذكر صاحب اللسان: أن «الكل» اسم يجمع الأجزاء، يقال: كلهم منطلق، وكلُّهُمْ منطلقة<sup>(٢)</sup>.
- \* ذكر الفيروزآبادي: أن الكل يكون بمعنى التناهي<sup>(٣)</sup>.

(١) الفروق اللغوية لابن عساكر، ص: ١١٥.

(٢) لسان العرب ١١/٥٩٠، مادة «كلل».

(٣) القاموس المحيط ٤/٤٥.

◦ وذكر الفيومي: أنها تكون بمعنى الكبير؛ كقوله - تعالى - : ﴿تُدَمِّرُ كُلُّ شَيْءٍ  
بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف، الآية: ٢٥]؛ أي كثيراً لأنها إنما دمرتهم ودمرت مساكنهم  
دون غيرهم<sup>(١)</sup>.

ولو تأملنا هذه المعاني والاستعمالات وجدناها آيلة إلى أصل واحد هو الإحاطة، وهو الذي ورد عند ابن عساكر، وابن منظور. وما سوى هذا المعنى، فهو من لوازمه؛ إذ الناهي والكثرة والاستغراق إنما هي من لوازيم الإحاطة، فالكلية - إذا - هي ما يحيط بأجزائه إحاطة استغراق وتناه.

## ب - في الاصطلاح :

ولا يتعد معناها في اصطلاح العلماء كثيراً عن معناها اللغوي، فالإحاطة ولوازمها هي جوهر مدلول الكلية في الاصطلاح، إلا أنها قاصرة فيها على ما له صلة بالأحكام الشرعية، ومن هنا سميت بالكلية الشرعية؛ لأن مدارها على أحكام الشرع.

◦ عرف القرافي الكلية: بأنها القضية المسورة بالسور الكلي، ككل، وما، ومن وغيرها من صيغ العموم المحكوم فيها على كل فرد من أفرادها إيجاباً أو سلباً<sup>(٢)</sup>.  
◦ كما عرفها - أيضاً - بأنها الحكم على كل فرد من أفراد الموضوع بحيث يشمل الحكم على استقلال<sup>(٣)</sup>.

◦ وعرفها أبو البقاء الكفوي بأنها: الحكم على كل فرد فرد، نحو كلبني تميم يأكلون الرغيف<sup>(٤)</sup>.

(١) المصباح المنير، ص: ٥٣٨.

(٢) شرح تبيح الفضول، ص: ٢٨ وفي ١٩٦.

(٣) شرح تبيح الفضول، ص: ٢٨ وفي ١٩٦.

(٤) كليات أبي البقاء، ص: ٧٤٥.

فالكلية - إذا - هي حكم ينطبق انتساباً كلياً على موضوع ما بكلة أفراده دون أن يختلف أي فرد منه، هذا بإطلاق، فإذا كان الحكم الشرعي وارداً من الشرع وأخوذأ منه، فالكلية توسم - حينئذ - بأنها شرعية؛ تمييزاً لها عمماً سواها من الكليات الأخرى، فقولنا - مثلاً - «الخرج مرفوع» هذه كلية شرعية؛ لاشتمالها على حكم كلي هو رفع الخرج، وانطباق هذا الحكم على كل الجزئيات التي تدخل في التكليف الشرعي، فالمتبوع لنصوص الشرع، يجد أن رفع الخرج مراعي في كل من الأحكام الشرعية التكليفية، فهو من مقاصد الشرع وأصل من أصوله، ومن ثم فالكليات الشرعية هي أصول الشرع وقواعد العامة التي عليها بُنيتُ أحكامه، وهي - أي الكليات الشرعية - غير القواعد الفقهية؛ إذ الفرق بينهما كالفرق بين الشرع والفقه.

فالكليات الشرعية معلومة من نصوص الشرع المظاهرة المتعاضدة، أو معلومة من الدين بالضرورة، ولا يختلف فيها العلماء<sup>(١)</sup>.

أما القواعد الفقهية فهي مستبطة من أدلة الشرع النقلية، والعقلية عن طريق الاجتهاد، وإعمال قواعد الفهم، والاستنباط؛ ولذلك وُصفت بالفقهية؛ لأنها تبعث من فقه الفقهاء، وهو ظني ويرد عليه الاختلاف كما هو معلوم.

وقد نجد إطلاقات أخرى على الكليات من قبل علماء الفقه، والأصول، من ذلك:

- \* الأصول الشرعية؛ ولذلك حينما عرَّف أبو عبد الله المقرى - رحمه الله - القاعدة الفقهية جعلها وسطاً بين الأصول «أي الكليات الشرعية»، وبين الضوابط الفقهية، فقال: «هي كلي أخص من الأصول ومعانٍ عقلية العامة، وأعم من العقود وسائر الضوابط الفقهية الخاصة».

(١) أعني أنهم لا يختلفون من حيث هي كليات ومن حيث ثبوتها ودلائلها العامة، أما من جهة فروعها وما يدخل فيها وما لا يدخل فهذا مما يرد عليه الخلاف؛ لأنه من قبيل الفروع.

\* القواعد الشرعية، أو القواعد الكلية العامة، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -:  
«إن المراد بالأصول: القواعد الكلية، كانت في أصول الدين، أو في أصول الفقه، أو في غير ذلك من معانٍ الشريعة الكلية»<sup>(١)</sup>.

\* العمومات الشرعية: لأنها تشمل - كما تقدم - على حكم شرعي كلي، أو على معنى عام في الشريعة؛ فالكلية الشرعية حكم كلي عام يضبط بالقوة جملة كثيرة من الجزئيات، ومن ثمًّ أطلقَ عليها العمومات الشرعية؛ لدورانها على الأحكام الشرعية العامة<sup>(٢)</sup>.

\* المقاصد الشرعية؛ لأن الكليات الشرعية هي أحكام ومعانٍ كلية عامة مقصودة للشرع؛ فرفع الحرج - كما تقدم - هو - بالإضافة إلى كونه حكماً عاماً كلياً - مقصود من قبل الشرع، وقد يطلق الشاطبي - رحمه الله - الكليات - أحياناً - على المقاصد الشرعية الثلاثة: الضروريات، وال حاجيات، والتحسينيات<sup>(٣)</sup>. كما أنه قد يطلقها أحياناً أخرى على المصالح<sup>(٤)</sup>؛ لأنها مقصود الشرع.

ولا يعدم القارئ إطلاقات أخرى على الكليات الشرعية عند العلماء؛ فليس المقصود في هذا المقام جرد الإطلاقات، وإنما الذي يهمنا هو بيان محتوى الكلية الشرعية ومضمونها وطبيعتها بصرف النظر عن ألقابها وأسمائها؛ إذ لا مشاحة في الاصطلاح.

فمهما كان هناك ما يدل على حكم شرعي كلي عام ينطبق على أفراده، وجزئياته على سبيل الاطراد والاستغراق والتناهي، فشمة الكلية الشرعية، ولا جناح على العلماء - بعد ذلك - أن يسموها كليات، أو أصولاً، أو قواعد أو غير ذلك من الأسماء والألقاب.

(١) الموافقات ٥٩/٣.

(٢) انظر: الموافقات ١٥٢/٣ بتصرف.

(٣) انظر: الموافقات ٧٠/٣.

(٤) نفسه ٩٩/١.

## ٢- خصائص الكلية الشرعية:

لمزيد من بيان حقيقة الكلية الشرعية، والنظر إليها من عمق داخلها وصميم ماهيتها، فإنه يحسن أن نورد جملة من خصائصها التي تميزها، والتي منها:

**أ- الشمولية والعموم:** ومعنى ذلك أن مضمون الكلية عام يسري على كل أفرادها، وجزئياتها وعمومها، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - : «إنه قد ثبت في الأصول العلمية أن كل قاعدة كليلة أو دليل شرعي كلي إذا تكررت في مواضع كثيرة، وأتي بها شواهد على معانٍ أصولية، أو فروعية ولم يقتربن بها تخصيص، ولا تقييد مع تكررها وإعادة تقررها، فذلك دليل على بقائهما على مقتضى لفظها من العموم»<sup>(١)</sup>.

و واضح في كلامه أن خاصية العموم، والشمولية في الكلية الشرعية، لا تتحقق إلا بعدم ورود تخصيص، ولا تقييد عليها، وبتكررها وإعادة تقررها في نصوص الشرع، وكل ذلك حاصل فيها وثبت لها بالاستقراء، قوله - تعالى - مثلاً: ﴿وَمَا جَعَلْتُ عَيْنَكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج، الآية: ٧٨]، كلية شرعية شاملة؛ لأنّا وجدنا بالاستقراء أنها باقية على عمومها، وشمولها وإطلاقها، فليس هناك ما يخصصها من النصوص ولا ما يقيدها، ثم إن معناها ومضمونها متكرر في القرآن والسنة بشكل لا مزيد عليه.

ومثله يقال في قوله - تعالى - : ﴿وَلَا نَزَّرُ وَازْرَهُ وَزَرَ أَخْرَى﴾ [فاطر، الآية: ١٨]، وقوله - تعالى - : ﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [الجم، الآية: ٣٩] فهما كالتالي قبلهما.

فالعموم والشمول - إذا - صفة لازمة للكلية الشرعية، وهذا ما يفسّر تسمية العلماء لها - أي الكلية الشرعية - واصطلاحهم عليها بالعمومات الشرعية كما تقدّم.

وقد أكَّد الإمام الشاطبي - رحمه الله - هذه الخاصية في مواطن كثيرة من كتابه: «الموافقات» من ذلك قوله - يقرّر ذلك - : «فلذلك جرت الأحكام الشرعية في أفعال المكلفين على الإطلاق، وإن كانت أحادها الخاصة لا تتناهي، فلا عمل يفرض، ولا حركة ولا سكون إلا والشريعة عليه حاكمة إفراداً وتركياً، وهو معنى كونها عامة وإن فرض في نصوصها أو معقولها خصوصٌ ما، فهو راجع إلى عموم»<sup>(١)</sup>.

ويلزم من اتصف الكلية الشرعية بخاصية العموم، والشمول، والإطلاق اتصفها بخصائص أخرى هي لازمة لهذه الخاصية غير منفكة عنها:

**١- الاطراد:** وتعني به أن انطباق الكلية الشرعية على جزئياتها هو مطرد لا يتخلّف، على خلاف القواعد الفقهية، فانطباقها على جزئياتها إنما هو أغلبي.

وإنما كانت الكليات الشرعية مطردة لعمومها المقطوع به، فعمومها موجب لاطرادها وملازم له، وكما عُلِّم العموم في الكلية من طريق الاستقراء والتبّع، فكذلك الاطراد معلوم من الاستقراء، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - يؤكِّد ذلك، ويقرره: «إذ العلم بها مستفاد من الاستقراء العام الناظم لأنّيات أفرادها؛ حتى تصير في العقل مجموعة في كليات مطردة عامة ثابتة غير زائلة، ولا مستبدلة، وحاكمة غير محكوم عليها»<sup>(٢)</sup>.

**٢- الديمومة والاستمرار ،** وقد عبر عن ذلك الشاطبي - رحمه الله - في كلامه السابق بقوله: «ثابتة غير زائلة ولا مستبدلة»، ومعنى ذلك أن الكلية الشرعية

(١) نفسه.

(٢) المواقفات ٥٤/١

دائمة، وأن العمل بها لا ينضي ولا ينتهي ما دام هناك مكلّفون، فهي صالحة لكل زمان، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - في سياق ذلك: «فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدیاً وكلیاً عاماً في جميع أنواع التكليف والمكلفين وجميع الأحوال»<sup>(١)</sup>.

ودوام الكلية الشرعية، وأبديتها متفرع عن عمومها؛ لأن هذا العموم يدخل فيه: عموم المكلفين وعموم أحوالهم وعموم أزمانهم.

٣- التجريد: ويعني بذلك أن من خصائص الكلية الشرعية أنها مجردة عن الزمان والمكان والإنسان، فهي صالحة لكل زمان ولكل مكان، ولكل إنسان، وهذا بمقتضى عمومها؛ لأنها لما كانت عامة، لزم من عمومها أن لا تكون خاصة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان ولا بإنسان دون إنسان، فمضمونها موضوعي لا عيني، ومن ثم فإنه يدخل في دائرة تجريدها أنها غير قاصرة على جزئية أو مجموعة محدودة من الجزئيات.

ب- القطعية: هذه هي الخاصية الثانية للكلية الشرعية وهي أنها قطعية في دلالتها وثبوتها؛ وذلك لأنها عبارة عن حكم شرعي كلي ظهرت عليه نصوص الشرع، وتضافرت، واستفیدت منها بالاستقراء التام، فكانت بذلك قطعية الوجود، قطعية الدلالة؛ لأن الاستقراء التام قطعي، وما يتتجه القطعي فهو قطعي، وقد أكد هذا الإمام الشاطبي، حين قال: «إن القواعد الكلية القطعية مأخوذة من تضافر وتواتر الأدلة بحيث تفيق القطع، بخلاف الأحكام الجزئية، فإنها تستند إلى أحد الأدلة فتبقى على أصلها في الظن»<sup>(٢)</sup>.

(١) نفسه .٢٩/٢

(٢) المواقفات: .٢٩/١

### ج - الأحكام ويدخل في ذلك أمران :

أولهما : انتفاء التشابه عنها: وذلك أن الكلية الشرعية محكمة لا يلحقها التشابه؛ لأن التشابه إنما يلحق الفرع لا الأصل، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - يقرّر هذا: «التشابه لا يقع في القواعد الكلية، وإنما يقع في الفروع الجزئية، والدليل على ذلك من وجهين:

أحدهما : الاستقراء أن الأمر كذلك.

والثاني : أن الأصول لو دخلتها التشابه لكان أكثر الشريعة من المتشابه وهذا باطل، وبيان ذلك: أن الفرع مبني على أصله يصح بصفته، ويفسد بفساده، ويتبين بالاتضاح، ويختفي بخفايه، وبالجملة، فكل وصف في الأصل ثبت في الفروع؛ إذ كل فرع فيه ما في الأصول، وذلك يقتضي أن الفروع المبنية على الأصول المتشابهة متشابهة، ومعلوم أن الأصول منوط بعضها ببعض في التفريع عليها، فلو وقع في أصل من الأصول اشتباه، لزم سريانه في جميعها، فلا يكون المحكم أُمّ الكتاب، لكنه كذلك، فدلّ على أن المتشابه لا يكون في شيء من أمهات الكتاب<sup>(١)</sup>.

الأمر الثاني : انتفاء النسخ، فكما أن الكلية الشرعية محكمة من جهة أنها لا يقع فيها التشابه، فهي محكمة أيضاً من جهة أنه لا يرد عليها النسخ، وهذا معلوم بالاستقراء التام، قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - في شأن ذلك: «لما تقرر أن المنزل بمكة من أحكام الشريعة هو ما كان من الأحكام الكلية، والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر، اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل - يعني في أحكام الشريعة عامة المنزلة بمكة -؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات وقوعاً وإن أمكن عقلاً، يدل على ذلك الاستقراء التام»<sup>(٢)</sup>.

(١) المواقفات ١ / ٥٨، ٥٩.

(٢) المواقفات ٣ / ٦٣.

### ٣- أهمية الكليات الشرعية وقيمتها التشريعية :

لا شك أنه قد تبين - مما سبق - أن للكليات الشرعية قيمة عظيمة، وأهمية بالغة في مجال التشريع، وضبط مضامين الشرع، واستيعاب وقائع الحياة بها؛ إذ لا سبيل إلى هذا الضبط، والاستيعاب إلاً عن طريقها، أما الجزئيات فلا تنتهي، والضبط والاستيعاب حصر لا يكون بما لا ينتهي؛ ولذلك نبه القرافي - رحمة الله - على هذا فقال: «ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية، تناقضت عليه الفروع وانهارت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت ، وضاقت نفسه لذلك وقطعت ، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تنتهي، وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب منها، ومن ضبط الفقه بقواعدة، استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات، لأندرجها في الكليات»<sup>(١)</sup>.

وإنما كانت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومستوعبة لكل تطورات الإنسان ومستجدات حياته، بما هي مشتملة عليه من الكليات والأصول والآحكام العامة، وهذا هو السر في كون نصوص الشرع - وهي محدودة متناهية -، حاكمة على المكلفين وضابطة لكل حوادثهم ووقائعهم، وهي غير متناهية، فاستمرار حاكمة الشرع، وضبطه لأفعال المكلفين، إنما هو حاصل لمضامين الشريعة من جهة أن كلياتها من خصائصها الديمومة والاستمرار كما تقدم.

## ٤- الكليات الشرعية في القرآن الكريم :

إننا بالنظر في نصوص القرآن الكريم، ومقارنته مكيه بمنديه، نستطيع أن نقرر أن أكثر مضامين الإسلام، وجمل محتويات الشريعة، قد بسطت وتقررت في القرآن المكي؛ إذ فيه كل ما يتعلق بأصول الإسلام وفكته العامة، وكليات الشريعة وقواعدها الكبرى، أما القرآن المدني فإنما جاء بالتفصيل والتزليل؛ ولذلك قرر الشاطبي - رحمة الله - أن القرآن المدني مبني على المكي<sup>(١)</sup>، والأمثلة على ذلك كثيرة نقتصر منها على مثال واحد، هو: الإنفاق، فقد قرر القرآن المكي مبدأ الإنفاق وأنه ضروري في حياة المكلفين أفراداً وجماعات، وأن خيانتهم بدونه تختل، ثم حدد بعض الجهات التي لها الأولوية في الإنفاق، كذوي القربي، واليتامي، والمساكين، وابن السبيل، فلما جاء العهد المدني نزل القرآن - حينئذ - في التفصيل والتزليل، فيبين ما يجب وما يُنْدَبُ من الإنفاق، والمستحقين للنفقة الواجبة والمندوبة، ثم بين جملة من آداب الإنفاق وغير ذلك مما هو مكمل وتتابع لما ورد في القرآن المكي.

وقد حرر الإمام الشاطبي - رحمة الله - هذه المسألة، بما لا مزيد عليه، من ذلك قوله: «إنما كانت الجزيئات المشروعتات بمكة قليلة، والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر، ثم لما خرج رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ إلى المدينة، واتسعت خطة الإسلام، كملت هنالك الأصول الكلية على تدرج، كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملاها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيقات والرخص، وما أشبه ذلك كله تكميل للأصول الكلية»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر المواقفات ٦٢/٣.

(٢) انظر المواقفات ٦٢/٣.

ومن هنا كان القرآن الكريم - مكبه ومدنيه - قد اكتمل فيه التشريع، وتناول في ما يصلح الناس في معاشهم، ومعادهم؛ مصداقاً لقوله - تعالى - : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية: ٣٧]، وأنه متضمن - بأحكامه - كل ما ليستوعب تطورات المكلفين ومستجداتهم في دينهم ودنياهم؛ مصداقاً لقوله - تعالى - : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٨]، على أساس أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم كما سنبينه لاحقاً - إن شاء الله -، وإنما كان القرآن جاماً غير مفروط في شيء عن طريق ما اشتمل عليه من الأصول، والكليات التي وصفناها بالخصائص السابقة، وليس نفي التفريط عنه أنه أحصى كل الجزئيات، فهذا فهم لا يستقيم، وهو ما نبه عليه عبد الله كون - رحمة الله - وخطأ القائلين، وبين أنه منفذ للباطنية وغيرهم من فرق المبدعة، فقال: «إن من المعلوم أن كثيراً من أمور الدين غير مبينة في القرآن، فضلاً عن أمور الدنيا، فمثلاً الصلاة - وهي أهم أمور الدين بعد التوحيد - لم يبين فيه عددها ولا كفيتها، ولا شيء من تفصيلاتها التي ينتها السنة، ولكن بما أن القرآن أثبت وجوب اتباع الرسول صار دالاً على ثبوت كل ما ورد في السنة، فكان بذلك غير مفروط في شيء»، يرجع إليه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم، وإلى هذا الحد ينبغي أن ينتهي بعموم الآية إذا أريد بالكتاب القرآن، فإن حواننا الذين يستشهدون بها على الجزئيات والدقائق من نظريات، وأحكام، ومخترعات، ونوميس طبيعية، وحوادث تاريخية وما إلى ذلك - زاعمين أن القرآن أشار إليها بالتصريح، أو التلميح - وأنه لا يخلو من الدلالة على كل ما جد أو يجده في الكون من هذه الأمور محملين لكتير من ألفاظه ما ليس يحمله إلا على كثير من التحمل والتتكلف، إنما يذهبون في غير مذهب، ويقولون على الله - عزوجل - وكتابه العزيز ما لم يقله، وهذا قول الباطنية الذين زعموا أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن الظاهر هو خطأ القوم من هدايته، والباطن قد يحتوي على الغيب، والأسرار، والمعارف الربانية خاص بأهل نحلتهم لا يطلع عليه غيرهم، فمن يريد اليوم

أن يحمل القرآن الكريم هذه الدلالات البعيدة، ويطبقه على كل حادثة وكل جزئية كما يتعلق بأصل تنزيله، إنما يذهب مذهب هؤلاء الباطنية المبتدعين<sup>(١)</sup>، فالقرآن - إذًا - جامع لكل ما تستقيم به حياة المكلفين من الأحكام، والتشريعات، شامل لكل ما يفتقرون إليه مما به تجلب المصالح لهم وتندرى المفاسد عنهم، مستوعب لكل تطوراتهم ومستجدات أمورهم في العاجلة والأجلة، وذلك لأنه نص على ما يضبط الخلق كله في زمانه كله ومكانه كله بواسطة الكليات؛ إذ الكلية - كما تقرر - غير محدودة بزمان ولا مكان ولا إنسان، بل حكمها ومحتوها موضوعي صالح للانطباق على كل ما جد ويجدد من الجزئيات التي هي نظائر لجزئياته التي وُجدت زمان النزول، قوله - تعالى - : **﴿وَيَحْلُّ لَهُمُ الظِّبَابُ وَيَحْرِمُ عَنْهُمُ الْخَبَثُ﴾** [الأعراف، الآية: ١٥٧]، كلية شرعية قرآنية استوعبت كل ما كان في عهد النبوة من: المطعومات، والمشروبات، والمشيمومات، والمنكوحات وغير ذلك مما ينتفع به من الطبيات أو يضر من الخباث، ثم هي صالحة - على الدوام والاستمرار - لستوعب كل ما يجد في حياة الناس مما هو نظائر لذلك ومتحد معه في مناط الحكم.

ومن كليات القرآن هذه، إحالته على سنة الرسول ﷺ في مثل قوله - تعالى - : **﴿وَمَا أَنْتُمْ بِرَسُولٍ فَحْذِرُوهُ وَمَا يَهْنَكُمْ عَنْهُ فَانْهُوَا﴾** [الحشر، الآية: ٢٧]، قوله - تعالى - : **﴿وَأَنَزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾** [النحل، الآية: ٤٤]، قوله - تعالى - : **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء، الآية: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات التي ظهرت، وتضافت في ثبوت هذه الكلية الشرعية وتقديرها في القرآن، فالسنة النبوية وبيان الرسول ﷺ هي باب واسع من أبواب القرآن وأبدية أحكامه وخلودها.

وهذه الكليات الشرعية كثيرة في القرآن مختلفة في الموضوعات متفاوتة في المشمولات، فمنها الكليات التي تنظم كافة فروع الشريعة أو جلها، ومنها التي تنظم

(١) مفاهيم إسلامية، ص: ٥٠

الشريعة في قسم من أقسامها؛ كالعبادات أو العادات أو المعاملات، ومنها ما ينظم دوائر أقل حجماً من ذلك، وكلها تتكامل فيما بينها، لتضبط حياة المكلفين بأسرها في كل زمان ومكان.

وقد أمعنت النظر والتقليل في أي القرآن الكريم، فوجده حافلاً بهذه الكلمات، حتى لكان كل آية تنطق بأنها كلية إذا نظرت إليها بوجهه من الوجه، وبلوتها بنوع من الاعتبارات.. وفيما يأتي نماذج من هذه الكلمات:

\* «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَةِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» [النحل، الآية: ٩٠].

\* «وَمَا مَا أَنذَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا» [الحشر، الآية: ٧٣].

\* «وَيُحِلُّ لَهُمُ الظِّبَابَتِ وَيُحِرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَثَ» [الأعراف، الآية: ١٥٧].

\* «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ» [السباء، الآية: ٨٠].

\* «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» [الأنعام، الآية: ٥٧].

\* «فَسْتَلُوا أَهْلَ الْذِكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [النحل، الآية: ٤٣].

\* «إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا» [الأنفال، الآية: ٧٠].

\* «إِنَّ صَلَاقِي وَسُسَكِي وَحَمَيَّا وَمَمَّاقِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الأنعام، الآية: ١٦٢].

\* «وَأَنَّ لِيَسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى» ٣٩ [الجم، الآية: ٣٩].

\* «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُسُرَ» [القرآن، الآية: ١٨٥].

\* «وَلَكُمْ فِي الْفَصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأْوِلُ الْأَلْبَابُ» [القرآن، الآية: ١٧٩].

- \* «وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا» [البقرة، الآية: ٢٧٥].
- \* «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْتَكُمْ بِإِلْبَاطِلٍ» [النساء، الآية: ٢٩].
- \* «وَشَارِزُهُمْ فِي الْأَثْرِ» [آل عمران، الآية: ١٥٩].
- \* «أَوْفُوا بِالْمُعْوَدَ» [المائدة، الآية: ١].
- \* «وَأَمِنْ بِالْعَرْفِ» [الأعراف، الآية: ١٩٩].
- \* «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» [الإسراء، الآية: ٣٤].
- \* «أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ مَا هُنَّ بِهِ أَهْلٌ» [المؤمنون، الآية: ٩٦].
- \* «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» [البقرة، الآية: ٢٥٦].
- \* «إِنَّ يَصْرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ» [آل عمران، الآية: ١٦٠].
- \* «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» [الرعد، الآية: ٣٨].
- \* «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ» [النساء، الآية: ٤٨].
- \* «وَتَعَاوِنُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا تَنَاهُوا عَنِ الْأَنْوَارِ وَالْمُعْدُونَ» [المائدة، الآية: ٢].
- \* «الرِّجَالُ قَوْمُوكَ عَلَى النِّسَاءِ» [النساء، الآية: ٣٤].
- \* «إِنَّ الْإِنْسَنَ لِيَطْغِيْ \* أَن رَءَاهُ أَسْقَنَ» ⑦ [العلق، الآية: ٧، ٦].
- \* «إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» [يونس، الآية: ٣٦].
- \* «إِنَّ النَّفْسَ لَآمَارَةٌ بِالسُّوءِ» [يوسف، الآية: ٥٣].
- \* «أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُم بِأَلْقِي هِيَ أَهْسَنُ» [النحل، الآية: ١٢٥].

\* ﴿وَلَا تُئْرِفُ وَازِرَةً وَنَذَ أَخْرَى﴾ [الأنعام، الآية: ١٦٤].

\* ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنساب، الآية: ٣٠].

\* ﴿وَلَا يَحِيقُ الْكُرُّ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر، الآية: ٤٣].

\* ﴿وَلَا سَتَوَى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت، الآية: ٣٤].

والبحث في هذه الكليات القرآنية وغيرها مما هو مودع في القرآن، ولم أذكره هنا، لا تسعه أطروحة واحدة، أو مجموعة محدودة من الأطروحات، بل هو مشروع علمي واسع وكبير يجب أن يتضطلع به كتبية من الباحثين المخلصين الجادين؛ لاستخراج هذه الكنوز ودراستها ونفع الأمة بها.

غير أنني نظرت في هذه الكليات، فوجدتها على كثرتها، وتشعبها، وتفرع بعضها عن بعض، وتمكيل بعضها البعض تغول - بمجموعها - إلى ثلاثة أنواع كبرى، كل الكليات القرآنية داخل دائراتها وصادر عنها، راجع إليها:

١- كليات تنظم دائرة الاعتقاد والتصور، والفهم النظري للإسلام الذي به تستقر فكرة الإسلام بكمالها، وترسو فيه أصوله العامة ومصالحة الكبرى، مما يفضي تحصيله إلى تشكيل العقل المسلم الذي يحمل المفاهيم الإسلامية، والمعتقدات الصحيحة السليمة التي هي أساس للحياة العملية في الإسلام.

٢- كليات تحدد مقاصد الشارع من خلق الخلق ووضع الشريعة لهم.

٣- كليات تحدد المطلوب من المكلفين وترتيب الجزاء على الامتثال أو عدمه.

فالكليات الشرعية القرآنية كلها لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة، وكل واحدة منها مستودع فيها باقي الأصول، فهي أوعية لها شاملة موعبة.

وإذا نظرنا إلى هذه الكليات من حيث ابناها في الأنواع الثلاثة وتوزعها عليها، وجدنا أنها من جهة ذاتها، تؤول إلى أصول ثمانية، كل ما سواها من الكليات، فهوتابع لها ومتفرع عنها نوعاً من التفرع، ومندرج فيها نوعاً من الاندراج، وهي:

١- **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى، الآية: ١١]، فهذه كلية فرائية جامعة لأصول الاعتقاد، متضمنة لما عداها من الكليات القرآنية التي تنظم دائرة العقيدة، إذ مدار العقيدة على معرفة الله المعبود: ذاتاً، وصفاتاً، وأفعالاً.. وما يتبع ذلك من الإيمان به وبملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وسائر ما يدخل في عالم الغيب.. وكل ذلك داخل في محتوى هذه الكلية، فهذه الكلية هي أم الكليات، ومفتاح لما سواها؛ لأن أول ما يجب على المكلف معرفة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن عبادته والتدين له يعظمان بعظام معرفته، يؤكّد ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾** [محمد، الآية: ١٩]، فالعلم بالله - سبحانه - مقدم على ما سواه، بل إنَّ العلم بما سواه مأثاره العلم بالله وإنْ كان به خلل.

٢- **﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الأعراف، الآية: ٣٨] وترتيب هذه الكلية السابقة، مناسب جداً؛ لأن الكلية الأولى قررت القضية الكبرى، وحقيقة الحقائق التي لا انطلاق إلا منها، ولا صدور إلا عنها، وهي: ضرورة معرفة الله، والإيمان به، فهو المتفرد باستحقاق العبادة، وأن التدين لا يصح إلا بمعرفته - عَزَّ وَجَلَّ -، فلما تقرر فيها ذلك، لزم أن يليها ما يبينه، ويوضحه بياناً شافياً، وتوضيحاً وافياً، ولا يكون البيان والتوضيح كذلك، إلا إذا كان متلقى عن الله، فكان بذلك كتاب الله هو المصدر الحق الذي يعرف بالله، ويبيّن ما يجب له - سبحانه - من الحقوق.

ومن ثُمَّ كان الأصل الثاني بعد معرفته - سبحانه - ، معرفة ما جاء عنه من العلم الذي به يعْرِفُ اللهُ، ويعرف ما يجب له، وهو مودع في كتابه الجامع الذي ما فرط في شيء مما تُحَصِّلُ به المعرفة ولو ازماها.

فهاتان الكليتان تتكملان في باب الاعتقاد، وتنتمزان في دائرة الأصول النظرية للإسلام، وتستوعبان جميع الكليات الشرعية القرآنية التي تحيط بأمور العقيدة، وتنظم مسائلها ومضامينها التي هي أسس الدين وأركانه وأعمدته؛ لذلك آخينا بينهما في باب واحد، وأدرجنا فيها ما سواهما من الكليات العقدية.

وإنما أدرجنا الثانية مع الأولى في باب الاعتقاد؛ لأن الحديث عنها هنا مراد به الجانب التصوري، ومقصود به جهة الاعتقاد أي اعتقاد أن القرآن جامع شامل ما فرط في شيء مما تستقيم به أمور المكلفين في دينهم ودنياهم، وفي معاشهم ومعادهم.

فالنظر إلى الكتاب هنا هو نظر عام من جهة أنه المعْرُف بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وأنه دليل شرعه ومنبع أحكامه، وهذا كله من صميم الاعتقاد، أما النظر إليه من جهة تحصيل مضامينه وأحكامه الشرعية وأوامره ونواهيه وزواجره وما إلى ذلك من مسائل الشريعة وتفاصيلها فهو موزع في الأصول الآتية.

٣- ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْحَنَّ وَالْإِنَسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ (٥١).

٤- ﴿وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْجِعَ سَيِّلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٥- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

هذه الكليات الثلاث تنظم كلها في الباب الثاني الذي يضم الكليات القرآنية الناظمة لمفاصد الشرع، وهي بثلاثتها أصول لما سواها من الكليات التي تدخل في هذا النوع ووضعها بعد النوع الأول هو - أيضاً - مناسب جداً، لأنه إذا كان المنطلق

الهادى في الدين هو معرفة الله ومعرفة ما يجب له، والتسليم والإقرار بأنه لا يصلح الابداء إلا بهذا والاعتقاد بأن المصدر الحق والمنبئ الصافى لتحصيل ذلك هو كتاب الله الجامع، فإن العقل السليم يقتضى أن يلي ذلك ويتبعه معرفة مقاصد الشرع بالنظر في مضامين الكتاب؛ لتزيل أحكام الشريعة على حياة المكلفين وتصرفاتهم تزيلاً سليماً، وإقامة الدين إقامة صحيحة؛ لأن تحصيل الشريعة واستيعاب أحكامها على الوجه الصحيح الدائم المستمر مأته تحصيل مقاصد الشارع من وضع الشريعة، فالشريعة ببناء أركانه وأصوله وأسسه هي مقاصدها، وأصول هذه المقاصد ثلاثة:

١- عبادة الله.

٢- جلب المصلحة ودرء المفسدة.

٣- رفع الحرج عن المكلفين .

وما سوى هذه الثلاثة كله مندرج فيها بوجه من الوجوه كما سيتضح من خلال الدراسة والتحليل لها.

فتحقيق العبادة، وما يلزمها من تحرير العبودية لله قولًا وعملاً ونية، هذا هو القصد الأكبر من وضع الشريعة، بل هو القصد الأول من خلق الخلق أجمعين، والناظر في طبيعة هذه العبادة، ومادتها التشريعية المثبتة في القرآن، يجد أنها ترمي في كافة أمرها إلى جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم، ورفع الحرج فيها عنهم، ومن ثم آثرنا الجمع بينهما في باب واحد موزع إلى ثلاثة فصول.

ثم أتبناه بكليات ثلاث تعتبر أصولاً لما سواها من الكليات التي تدخل في إطار العمل والجزاء وهو نوع ثالث من أنواع الكليات القرآنية، وهي:

٦- ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَوْلَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

-٧ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾ [الزلزلة، الآية: ٨، ٧].

-٨ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ بِهِ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا يَأْتِيُّهُمْ ۝﴾ [الرعد، الآية: ١١].  
فإذا كان النوع الأول يحدد الأسس الاعتقادية، والتصورات النظرية العامة التي يقوم عليها الدين، والنوع الثاني يحدد طبيعة الشريعة ومقاصدها العامة، فإن هذا النوع الثالث يتنتقل إلى الخطوة النهاية والمرحلة الأخيرة، وهي وجوب العمل بهذه الشريعة وترتيب الجزاء على ذلك امتثالاً وعصيائنا.

فالكلية الأولى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ﴾ [النساء، الآية: ٥٩]، تحدد ما يجب لله على عباده من حقوق الطاعة والخضوع لأمره وذلك باتباع شرعه. والكليتان الثانية والثالثة تحددان ما يتربّ على أفعال المكلفين من الجزاء العادل إلا أن إحداهما: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾؛ تحدد قانون الجزاء فيما يتربّ على اتباع الشرع وطاعة الشارع في أحکامه وأوامره ونواهيه، أو مخالفته وعصيائه في ذلك، وثانيتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ بِهِ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا يَأْتِيُّهُمْ ۝﴾؛ تحدد قانون الجزاء العام الذي يسري على الكون كله، وينظم ما يتعلق بأفعال الخلق في دائرة الأسباب والمسببات، وغير ذلك من سنن الله الكونية التي يخضع لقانونها الخلق كله.

وهذه الأصول الثمانية مودعة كلها في أُم الكتاب، قال ابن عاشور - رحمه الله -، وهو يعلل تسميتها بأُم الكتاب: لأنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناء جاماً لوصفه بجميع الحامد وتزييه عن جميع الناقص وإنبات تفرده بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿إِنَّا نَعْبُدُهُ﴾، والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخرها.

فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملة لها؛ لأن القصد من القرآن إبلاغه مقاصده الأصلية، وهي صلاح الدارين، وذلك يحصل بالأوامر والتواهي، ولما توقفت الأوامر والتواهي على معرفة الأمر، وهو الله الواجب وجوده، خالق الخلق، لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقيق الوعد والوعيد، والفاتحة مشتملة على هذه الأنواع<sup>(١)</sup>، فلواحظ - مما سبق - أن الفاتحة «أوجزت معاني القرآن كله؛ إذ إن معانيه كلها تدور حول العقائد والعبادات ومناهج الحياة والجزاء، والسورة بدأت بالعقيدة وثبتت بالجزاء وثبتت بالعبادة»<sup>(٢)</sup> وهي أمهات المطالب العالية كما قرره ابن القيم<sup>(٣)</sup>، « فهي مشتملة على مجمل ما في القرآن الكريم، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها»<sup>(٤)</sup>، وهكذا نستطيع أن نقرر أن مضمون القرآن التي بینت شرع الله، وعرضت أحكامه وقواعد مجده كلها في كلياته وأن كلياته مجموعة في هذه الأصول الثمانية.

فتحصيل هذه الكليات هو تحصيل للشرع وأحكامه، وتحصيل لما به يتنزل الشرع على حياة المكلفين في كل الأعصار والأمسار.

وفي هذه الأطروحة عرض لكليات القرآن من خلال أصولها الثمانية، وقد جاء ذلك انطلاقاً من التوضيحات السابقة في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

- أما المقدمة فقد حاولنا أن نثير فيها ما يُثْرِيُّ القيمة العلمية للموضوع، وأن العمل فيه الآن إنما هو رسم للمعالم العامة لمشروع علمي ضخم هو استخلاص الكليات الشرعية القرآنية ودراستها، وبيان أنها قد عرضت مضمون الدين كله، ومحفوبي الشريعة كلها، وهذا هو الجواب العلمي الشافي للتساؤل الذي طالما أثاره العلماء، وهو

(١) التحرير والتبيير ١٣٣/١.

(٢) انظر: الرسول، ص: ٢٦٤ بتصريف.

(٣) انظر: مدارج السالكين ١/٧.

(٤) تفسير الثمار ١/٣٥.

أن نصوص الشرع محدودة وقضايا الناس غير متناهية، بل هي كثيرة ومتزايدة، فكيف للمحدود أن يضبط ويستوعب اللامحدود؟!

وقد ألمنا في هذه المقدمة بما هو ضروري من إبراز معنى الكلية وخصائصها، وقيمتها العلمية وأهميتها التشريعية، متحاشين فيها الخوض في كثير من المسائل والقضايا المرتبطة بذلك ما هو مطروق ومبحث ومكرور في الأبحاث والدراسات التي قدّمت في موضوع القواعد والأصول والكليات.

وأما الباب الأول: فقد أفردناه للكليات الشرعية في العقيدة، وأدرجنا فيه كليتين جامعتين لما سواهما، جعلت كل واحدة منها في فصل مستقل وهما:

الفصل الأول: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَسْبَعُ الْبَصِيرُ﴾**.

الفصل الثاني: **﴿مَا فَرَّطَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾**.

وأما الباب الثاني: فقد خصصناه للكليات الشرعية في مقاصد الشرع وأدرجنا فيه ثلاث كليات هي أصول لما سواها، وهي:

الفصل الأول: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴽ٦١﴾**.

الفصل الثاني: **﴿وَأَصْلِحَ وَلَا تَنْجِعَ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾**.

الفصل الثالث: **﴿وَمَا جَعَلَ عَيْنَكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**.

وأما الباب الثالث فقد خصصناه للكليات الشرعية في الطاعة والجزاء وأودعنا فيه ثلاث كليات هي أصول لما سواها، وهي:

الفصل الأول: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**.

الفصل الثاني: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْكَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴽ٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْكَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴽ٨﴾**.

الفصل الثالث: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وأما الخاتمة فقد جعلناها سجلاً لما وصلنا إليه من نتائج البحث، وخلاصاته.

هذا وقد كنت حريضاً في أبواب البحث وفصوله على إبراز ما بين الكليات القرآنية من الترابط والتكامل، وتفرع بعضها عن بعض، وأخذ بعضها بحجز بعض، كما كنت حريضاً على أن أودع في كل أصل من الأصول الثمانية أكثر ما يمكن من الكليات الأخرى المندرجة فيها بوجه من الوجوه، وقد سلكت في عملي هذا خطة تشمل على العناصر الآتية:

- ١- إيراد الكلية الشرعية القرآنية بنصها القرآني.
- ٢- إيراد بعض مظانها وشواهدها ومحال ورودها في القرآن.
- ٣- بيان معناها.
- ٤- بيان قيمتها.
- ٥- إيراد بعض ما يتفرع عنها من القواعد القرآنية التي غالباً ما كانت نصية.
- ٦- إيراد تطبيقات وتفرعيات عليها.

ولا أدعى أنني بهذا العمل قد فوزتُ وبرزتُ، ولا أنني قد أحطتُ واستوَّعتُ وحسبي أنني اهتديتُ إلى عرض معالم فكرته التي عليها قام وابني، والتي سبق القول: إنها مشروع علمي واسع لا تنہض به وتجلي بناءه إلا كتبية من الباحثين المجددين المخلصين، أرجو الله أن يقيض لي الإسهام في إتمامه، إنه على ذلك قدير، وهو المستعان، وبه التوفيق.

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات.

الباب الأول :

## كليات في الاعتقاد

الفصل الأول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

الفصل الثاني : ﴿مَا فَرَطَنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾



بين يدي الباب :

إن المتأمل في القسم المكي من الكتاب يلحظ أنه يغلب عليه البناء العقدي، وتأسيسه للتصورات والمفاهيم الإسلامية الكلية العامة التي تعرض الإسلام في أصوله وقواعد他的 الجامعية، وهو أمر طبيعي؛ لأن بناء الأفراد والجماعات وإعدادهم لحياة إسلامية رائدة وراشدة تابع لبناء العقول والتصورات ومترفرع عنه ومتأثر به.

فالخطوة الأولى لإقامة الدين، هي ترسیخ أصوله ومفاهيمه الكبرى في الأذهان، وأول ما يدخل في ذلك معرفة الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي لا معبد بحق سواه، والذي منه المبدأ وإليه المنتهي.

ولا سبيل إلى هذه المعرفة إلا عن طريق الوحي الذي جاءنا بواسطه رسوله ﷺ، فهما إذا أمران كبيران وكليتان عظيمتان في باب العقيدة ومجالها.

١- معرفة الله ذاتاً وصفاتها وأفعالاً، وما يتبع ذلك من معرفة لوازم الألوهية والريوية وما يجب على العبد بمقتضى هذه المعرفة.

٢- العلم والإيمان بما به تحصل المعرفة؛ أي العلم بمصدرها الحق، وهو القرآن الكريم الذي عرض ذلك وبسطه بما لا مزيد عليه.

فقضايا العقيدة كلها متضمنة فيهما، وأيلة إليهما، فهما جامعتان لهما دون أن يشذ عنهما شيء منها؛ لأن القضية الكبرى في العقيدة هي معرفة المعبد، فهذه هي محور العقيدة ولبها وسرها وجوهرها، والطريق الموصل إليها هو القرآن، وما سوى ذلك من مسائل الاعتقاد فهو تابع لهما، ومتفرع عنهما؛ لذا فإن حديثاً عن كليات العقيدة في القرآن الكريم سينحصر فيهما، على أن تتناول كل واحدة منهما في فصل مستقل،

معتمدين في صياغتهما على القرآن ذاته وصياغته بنفسها مجتهدين في ذلك أن نختار العبارات القرآنية التي نراها أجمل وأشمل، وهكذا نتناول هذا الباب من خلال الفصلين الآتيين:

الفصل الأول: كلية **﴿لَنَسَ كَمِيلُهُ شَفَّٰ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**.

الفصل الثاني: كلية **﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾**.



## الفصل الأول :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

المبحث الأول : بسط بعض مظان ورود الكلية القرآنية

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : توحيد الربوبية

المبحث الخامس : توحيد الأسماء والصفات

المبحث السادس : توحيد الألوهية

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية

المبحث الثامن : تطبيقات



## المبحث الأول :

### بسط بعض مظان الكلية

ليس من السهل إحصاء جميع متعلقات الكلية من أسماء وصفات واردة في القرآن؛ إذ القرآن كله حديث عن العقيدة، فكيف بهذه الأسماء والصفات، ولله في كل آية اسم وصفة ذات آثار عديدة في تصرفاته المناسبة لغرض هذه السورة أو تلك، وذلك لتعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسني الموجبة لمحبته، ولإرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطيشه وجبروته.

وها هي الأحكام الشرعية المختلفة من أحكام: الطهارة، والنساء، والإرث، والأموال وحكمته - تعالى - في الخلق والتدبير وغيرها لم ترد إلا وهي مقرونة بالعديد من الأسماء والصفات - مع مراعاة وضع كل اسم أو صفة في الموضع المناسب له من علم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة ورضا وما يقابل ذلك - .

بل إن من السور من استأثر ب موضوع العقيدة وما تجب معرفته من صفات الله - تعالى - وما يتبع ذلك من هدم هياكل الشرك، وتقويض أركانه. كما هو مسطور في سورة الأنعام، وقد عبر بعض المفسرين في هذا الشأن بقوله: «في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد»<sup>(١)</sup>.

ومنهم من علل نزولها جملة واحدة؛ لما اشتملت عليه من أصول العقيدة وبيان جلاله ورفعه هذا العلم، وأن إزالتها جملة واحدة ما تم إلا لبيان الحاجة، والضرورة إلى هذا العلم وأنه واجب على الفور لا على التراخي<sup>(٢)</sup>.

(١) التحرير والتبيير ١٢٣/١٧.

(٢) انظر : التفسير الكبير ١٤٩/١٢.

قال صاحب المنار عن هذه السورة: «لو سميت سور القرآن بما يدل على جل ما تشتمل عليه كل سورة أو على أهمه، لسميت هذه السورة سورة عقائد الإسلام أو سورة التوحيد - على ما جرى عليه العلماء من التعبير عن علم العقائد بالتوحيد؛ لأنَّه أساسها وأعظم أركانها»<sup>(١)</sup>. واستهل صاحب الظلال حديثه عنها بقوله: «إن مطلعها يرسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة، فحق لها أن تصدر بالحمد لله ثناء عليه وتسبيحًا له واعترافًا بأحقيته لهذا الحمد وهذا الثناء على الوصية المتجلية في الخلق والإنساء»<sup>(٢)</sup>.

وما يقال في هذه السورة يقال في الفاتحة، فقد قيل عنها: إنها «كلها توحيد فـ **«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١) توحيد، **«الرَّبُّنُوكَ الْجَيْحَةَ** توحيد، **«مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** (٢) توحيد، **«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٣) توحيد، **«أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٤) توحيد متضمن لسؤال الهدایة إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم **«غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**»

الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال - تعالى -: **«شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (٥)

; [آل عمران، الآية: ١٨]، فتضمنت الآية إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال؛ كما تضمنت أَجْلَ شهادة وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به<sup>(٦)</sup>.

(١) تفسير المنار ٢٧٠/٨، والتَّوْحِيدُ مُصْدَرُ وَحْدَ يَوْجِدُ، وَمَعْنَى وَحدَتُ اللَّهَ: اعْقَدْتَهُ مُنْفَرِدًا بِذَنَّهُ وَصَفَاتِهِ لَا نَظِيرٌ لَهُ لَا شَيْءٌ، وَقِيلَ سُبْلَتْ عَنِ الْكِيفِيَّةِ وَالْكَمِيَّةِ، فَهُوَ وَاحِدٌ فِي ذَنَّهُ لَا انْقَسَامٌ لَهُ وَفِي صَفَاتِهِ لَا شَيْءٌ لَهُ فِي أُوْهِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ وَتَدْبِيرِهِ لَا ربُّ سُواهُ وَلَا خَالقُ غَيْرُهُ. انظر فتح الباري ١٣/٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠٣٠ بتصريف يسبر.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ١/٤٣، ٤٤.

وكذلك سورة الإخلاص التي نصت الأحاديث الصحاح أنها تعدل ثلث القرآن، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردها، فلما أصبح، جاء النبي ﷺ فذكر له ذلك - فكأن الرجل يتقالها - فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»<sup>(١)</sup>؛ وذلك لما حوتة «من تعليم المخلفين إخلاص العبادة لله - تعالى -، أي سلامه الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية»<sup>(٢)</sup>.

والحق أن المجال العقدي، قد اتسعت ساحتته، فعمت أرجاء القرآن الكريم، سواء على مستوى الآيات أو السور، وهو نسق واضح؛ إذ القارئ يلتقي في كل آية وسورة بحقيقة العقيدة في جانب من جوانبها، فكل سور القرآن داعية إلى التوحيد شاهدة به، متضمنة له؛ لأن القرآن إما خبر عن الله، وأسمائه، وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الصفات، فذاك مستلزم لهذا متضمن له، وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له، وهذا هو توحيد الإلهية، وهو مستلزم للنوعين الأولين متضمن لهما. وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيد وطاعته وما فعل بهم في الدنيا، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا وعاقبتهم في الأخرى، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، وهذه جملة من الآيات الدالة على الأسماء والصفات سمعناها في هذا البحث كما هو الشأن فيما سيأتي من الكليات.

\* قوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الْمُنْفَعُ الْجَيْحَةُ مُنْلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة، الآية: ٣٠-٣١].

\* قوله - تعالى -: ﴿سَبِّحْنَاهُ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [البقرة، الآية: ٣١].

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٣٤٧/١٣ (كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ - أmente في توحيد الله - تبارك وتعالى).

(٢) التحرير والتنوير ٦٠٩/٣٠.

\* قوله - تعالى - : ﴿وَلَنَجِدَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمًا أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةً وَمَا هُوَ بِمُزَخرِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرُ وَاللَّهُ بِصَيْرًا بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٩٦].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ نَطَقَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية: ١٥٨].

\* قوله - تعالى - : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُمْ سِنَةٌ وَلَا نُوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا يَأْذِنُهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيُهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَا يَئُودُ حَفْظُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿رَبَّنَا لَا تُغْرِي قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَذْنَا رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ﴾ [آل عمران، الآية: ٨].

\* قوله - تعالى - : ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعِيَاتِنَّ اللَّهُ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٩٨].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَنَفَّيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء، الآية: ٦].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء، الآية: ١٣٠].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَيْرُ﴾ [الأنعام، الآية: ١٨].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَفِيلٌ﴾ [الأنعام، الآية: ١٠٢].

\* قوله - تعالى - : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ الْأَطِيفُ الْغَيْرُ﴾ [الأنعام، الآية: ١٠٣].

◦ قوله - تعالى - : ﴿هُوَ اللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَنْدَةُ فَإِذْ عُرِّفَ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَتَحَمَّلُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيَجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٨٠].

◦ قوله - تعالى - : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ﴾ [الأنفال، الآية: ٣٠].

◦ قوله - تعالى - : ﴿هَذِلَّكَ بِمَا فَدَمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ كَذَابٌ مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِعِيَاتِ اللَّهِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال، الآيات: ٥١، ٥٢].

◦ قول - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ [هود، الآية: ٥٧].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ لَّمِحْبِبٍ﴾ [هود، الآية: ٦١].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا حَمِيدٌ مُّحَمَّدٌ﴾ [هود، الآية: ٧٢].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبِّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود، الآية: ٩٠].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبِّكَ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود، الآية: ٩٢].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود، الآية: ١٠٧].

◦ قوله - تعالى - : ﴿وَيَصَدِّحِي السِّجْنَ مَأْزِيَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف، الآية: ٣٩].

◦ قوله - تعالى - : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقدَارٍ﴾ [٨] عَلَيْهِ الْغَنِيَّ وَالشَّهِدَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [٩] [الرعد، الآيات: ٨، ٩].

(١) والتعالي : المتره عن صفات الخلق، وقد يكون: العالى فوق خلقه، الاعتقاد، ص: ١٩.

\* قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا﴾ [الإسراء، الآية: ٦٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَدَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّجِيمُ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [٢٤-٢٢].

\* قوله - تعالى - : ﴿هُنَالِكَ الْوَلَدُهُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ [الكهف، الآية: ٤٤].

\* قوله - تعالى - : ﴿هَرِبَ لَا تَدْرِي فَرِدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَرَثَاتِ﴾ [الأنبياء، الآية: ٨٩].

\* قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج، الآية: ٦٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنِيلِفِي مُنْزَلًا مُبَارِكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَتَّلِينَ﴾ [المؤمنون، الآية: ٢٩].

\* قوله - تعالى - : ﴿يَوْمَ يُوقَّمُ اللَّهُ دِينَكُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْمَيِّنُ﴾ [النور، الآية: ٢٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿لِيُوْفِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر، الآية: ٣٠].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان، الآية: ٣١].

(١) «والسلام» هو الذي سلم من كل عيب وبريء من كل آفة، وقيل: هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته والمؤمن: هو الذي صدق نفسه وصدق عباده المؤمنين، فصدقه لنفسه: علمه بأنه صادق، وتصديقه لعباده: علمه بأنهم صادقون، وقيل: المؤمن: الذي يؤمن عباده المؤمنين يوم القيمة من عقوبته». الاعتقاد، ص: ١٥، وانظر كتاب الحدائق ٤٢/١.

\* قوله - تعالى :- **﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبَّهُ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾** [النمل، الآية: ٤٠].

\* قوله - تعالى :- **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطَلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [لقمان، الآية: ٣٠].

\* قوله - تعالى :- **﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْلَمُ شَيْءًا عَلَيْمًا﴾** [الأحزاب، الآية: ٥٤].

\* قوله - تعالى :- **﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾** [غافر، الآية: ١٢].

\* قوله - تعالى :- **﴿أَلَمْ يَرَ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتْسُطُ الرِّزْقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّمَا يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْمًا﴾** [الشورى، الآية: ١٢].

\* قوله - تعالى :- **﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يَعْلَمُ الْمَوْتَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الشورى، الآية: ٩].

\* قوله - تعالى :- **﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّиِّنُ﴾**<sup>(١)</sup> [الذاريات، الآية: ٥٨].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَإِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ نَدْعُوكُمْ إِنَّمَا هُوَ الْبَرُ الرَّاجِحُ﴾**<sup>(٢)</sup> [الطور، الآية: ٢٨].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَكُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنِّي وَيَسِّئَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْأَكْرَامِ﴾**<sup>(٣)</sup> [الرحمن، الآية: ٢٦، ٢٧].

(١) «المتين» هو الشديد القوة الذي لا تقطع قوته ولا يمسه في أفعاله لغوب ويرجع معناه أيضاً إلى صفة القدرة» الاعتقاد، ص: ١٨.

(٢) «والبر: المحسن إلى خلقه، عمهم برزقه وخص من شاء منهم بولايته ومضاعفة الثواب على طاعته والتجاز عن معصيته» الاعتقاد، ص: ١٩.

◦ قوله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد، الآية: ٢٩].

◦ قوله - تعالى - : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> [الحديد، الآية: ٣].

◦ قوله - تعالى - : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ إِلَهُ الصَّمَدُ ۖ لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ۖ وَلَمْ يُولَدْ ۖ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾<sup>(٢)</sup> [الأخلاص].

\* \* \*

(١) «والأول» هو الذي لا ابتداء لوجوده، والآخر: هو الذي لا انتهاء لوجوده والظاهر هو: الظاهر بحججه الباهرة وبراهينه التيرة وشواهد أعلامه الدالة على ربوبيته وحججه وحدانيته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة، والباطن هو الذي لا يستولي عليه توهם الكيفية» الاعقاد، ص: ١٩.

(٢) «والصمد هو: السيد الذي يقصد إليه في الأمور ويقصد في الواقع، وقيل هو: الباقي الذي لا يزول، وهو من صفات الذات» الاعقاد، ص: ١٨.

## المبحث الثاني :

### فقه الكلية

إن النفس الإنسانية العالية لا تكتفي بالحقائق النظرية وحدها، فهي في حاجة إلى قاعدة عملية قادرة على توجيه نشاط المكلف في كل وقت وحين، وذلك حينما يتعرف مع نفسه وفي أثناء علاقته مع غيره أو مع خالقه.

وهذه القاعدة لا يشملها إلا التأثير الإيماني باعتباره موجباً من موجبات التصديق، فيبعث في القلب من اللذات الروحية والحلووة الإيمانية والعبدية الخالصة ما تسعد به القلوب، وتنشرح له الصدور، فينصلح بذلك التصور، ويقوم الفكر، فتنتفتح البصيرة على إدراك علاقة هذا الوجود بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ذاتاً وصفات، فيلاحظ في كل زاوية هذا الوجود معنى عظيماً دلت عليه أسماؤه وصفاته - تَعَالَى - .

والقرآن الكريم يرسم منهاجاً لسلوك هذه الغاية تجلت في التعريف بالله - عَزَّ وَجَلَّ - بذاته وصفاته وأفعاله.

قال الغزالى - رحمه الله - : « وأنفس هذه المراتب: معرفة الذات، فهي أعندها مناً وأعصابها على الفكر، ولا يشمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق؛ كقوله - تَعَالَى - : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى، الآية: ٩]، وسورة الإخلاص، والتعظيم المطلق؛ كقوله - تَعَالَى - : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [١٠١، ١٠٠] بـ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام، الآيات: ١٠١، ١٠٠].

أما صفاته - سبحانه - فالمجال فيها أفسح؛ ولذلك ألفينا القرآن قد اشتمل على آيات كثيرة في ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر، وأما

الأفعال، فقد اشتمل القرآن على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة؛ كذكر السماوات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء، وهي الظاهرة للحس، وعجب خلقه الإنسان نفسه»<sup>(١)</sup> قال - تعالى - : «سَرِّيْهُمْ إِيْنَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَحَقُّ» [فصلت، الآية: ٥٣]، فأخبر سبحانه أنه سيري الإنسان من آياته المشهودة ما يظهر أن هذه المثلة حق وصدق، فنم بذلك نوعان من الآيات.

١- مشهودة : وطريقها النظر إلى المخلوقات قال - تعالى - : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِذِكُلِّ أَيْتِلِ وَأَنْهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَغْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخِيكُمْ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَئْثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَصَرِيفٍ أَرْبَيْحٍ وَالسَّحَابِ الْمَسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَكُلُّتِ لِقَوْمٍ يَقْلُوْنَ» [البقرة، الآية: ١٦٤].

٢- مسموعة : وهي الدعوة إلى التدبر والتفكير في ملوكوت الله، من خلال كتابه، قال - تعالى - : «أَفَلَا يَدْبَرُونَ الْقُرْمَانَ» [النساء، الآية: ٨٢]، قوله - تعالى - : «أَفَلَمْ يَدْبَرُوا الْقَوْلَ» [المؤمنون، الآية: ٦٨]، «كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ بُرْكٌ لَيَدْبَرُوا إِيْنَتِهِ» [ص، الآية: ٢٩]، إنها دعوة قرآنية مفتوحة للنظر في الآيات المسموعة، ولا مراء في أن المفهولات المسطرة في هذا الكتاب دالة على الفعل، وأن الفعل دال على الصفة وذلك يستلزم الوجود، والعلم والقدرة والمشيئة والحكمة والرحمة والغضب والمحبة والبغض، وأثار هذه الصفات واقعة من خلال التدبر والمشاهدة.

وخطاب كهذا في القرآن الكريم يخاطب القلب البشري، والعقل البشري بدليل الحلق ودليل الحياة ممثلين في الآفاق وفي الأنفس، من خلال تضافر الآيات العيانية الخلقية والآيات السمعية القولية يولد - ولا شك - الأثر ومن ثم التأثير في السلوك،

(١) باختصار عن كتاب جواهر القرآن، ص ٢٥، ٢٧.

بل الحياة جميعها فيبقى الكيان الاجتماعي برمته على أساس سليمة، على عقيدة راسخة وأصول ثابتة، وتلك هي العقيدة التي كانت منصرف الرسل فانقادت لها الفطرة السليمة، واهتدت إليها العقول الصافية التي تفكّرت في خلق السماوات والأرض فنطقـت بتنزيهـ الخالق عن العبـشـية **﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذـا بـطـلاً سـبـحـنـك﴾** [آل عمران، الآية: ١٩١]، ولا ريب أنـ هذا لمـ يـ شـمـرـهـ إـلـاـ التـوـحـيدـ الـذـيـ هوـ «أـصـلـ أـصـوـلـ الـبـرـ وـعـدـمـ أـنـوـاعـهـ»؛ لأنـهـ يـتـوقـفـ عـلـيـهـ الإـخـبـاثـ لـرـبـ الـعـالـمـينـ الـذـيـ هوـ أـعـظـمـ الـأـخـلـاقـ الـكـاسـيـةـ لـلـسـعـادـةـ، بـهـ يـحـصـلـ لـلـإـنـسـانـ التـوـجـهـ التـامـ تـلـقـاءـ الـغـيـبـ»<sup>(١)</sup>، ومتى استقرت عقيدة «لا إله إلا الله» في أعماقها الغائرة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تمثل فيه (لا إله إلا الله) ومعنى أنه النظام الوحدـيـ الـذـيـ تـرـضـيـهـ النـفـوسـ التيـ استـقـرـتـ فـيـهاـ العـقـيـدةـ، وـاستـسـلـمـتـ هـذـهـ النـفـوسـ لـهـذـاـ النـظـامـ اـبـتـدـاءـ حـتـىـ قـبـلـ أنـ تـعـرـضـ عـلـيـهـ تـفـصـيـلـاتـهـ، وـقـبـلـ أـنـ تـعـرـضـ عـلـيـهـ تـشـريـعـاتـهـ، فـالـاسـتـسـلـامـ اـبـتـدـاءـ هوـ مـقـتضـيـ الإـيمـانـ»<sup>(٢)</sup>.

فالتوحيد - إذا - هي القضية التي يستهدفها القرآن - كما مؤ - «وليس هي قضية وجود الله، فلقد كانت المشكلة في تاريخ البشرية، هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق بصفاته الحقة، ولم تكن هي مشكلة الإيمان بوجود الله»<sup>(٣)</sup>. وحتى يؤتي هذا التوحيد ثماره وأكلمه، ألمينا القرآن يبني صرح العقيدة في ضمائر الأفراد، واحتاج في ذلك إلى عهد ليس باليسير؛ لأنـ الأمرـ لمـ يـكـنـ مـتـعلـقاـ بـدـرـاسـةـ نـظـرـيـةـ فـحـسـبـ، ولكنـ الـأـمـرـ أـجـلـ وـأـعـظـمـ، فـكـانـتـ المـرـحلـةـ الـمـكـيـةـ مـرـحلـةـ لـبـنـاءـ الـعـقـيـدةـ وـالـوـجـودـ الـفـعـلـيـ»<sup>(٤)</sup>.

(١) حجة الله البالغة ١ / ١٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ١٠٠٩.

(٣) نفسه ٢ / ١٠٣٢.

(٤) نفسه ٢ / ١٠١٢.

ولا ريب أن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل؛ ولذلك حين يتناول القرآن الحديث عن التشريع غالباً ما يصدره بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح<sup>(١)</sup>:

فينا أن نمضي إلى هدفنا المحدد من هذه التوطئة، وهو أنه - تعالى - بث في كتابه العديد من أسمائه العلي وذلك لتقرير الوهية وربوبيته، وبين الألوهية والربوبية أفيانا حشداً من الأسماء والصفات إعلاناً منه - عَزْ وَجَلْ - بما يجب على المؤمن اعتقاده من هذه الأسماء والصفات المكملة لإصلاح الاعتقاد؛ لأن تصور الإله موصوفاً بصفات غير كاملة يُؤثِّر المقصود من إثبات وحدانيته؛ لأنَّه إذا كان واحداً ولم يكن كاملاً، كانت وحدانيته مفتقرة إلى سواه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - فالحاجة إلى تقرير ما يجب على المؤمن من معرفته مع اعتقاد عموم علمه وقدرته على ما يريد، حاجة أكيدة.

ولئلا يقع المكلف في خطأ تصور عن الله - سبحانه -، نصَّ على ذلك في آية كلية جامعة هي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ، شَنَّٰٰ وَهُوَ أَسْمَيُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، واعتبرت أصلاً في تنزيهه - عَزْ وَجَلْ - عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل<sup>(٢)</sup>.

قال الراغب - رحمه الله -: «المثل يقال على وجهين: أحدهما بمعنى المثل نحو شبه وشبه، وقد يعبر بهما عن وصف الشيء نحو قوله: ﴿وَمَثُلَ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد، الآية: ٣٥] والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني - أي معنى كان -، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للتشابه، وذلك أن النَّدَّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط. والشكل يقال فيما يشار�ه

(١) انظر التحرير والتنوير / ١٥ / ٦٧.

(٢) التحرير والتنوير / ٢٥ / ٤٧.

في القدر والمساحة فقط.. ثم قال: والمثل عام في جميع ذلك؛ ولهذا لما أراد الله - تعالى - نفي الشبيه من كل وجه. خصه بالذكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ، شَنَّٰٰ﴾.

وقيل المثل - هنا - هو بمعنى الصفة، ومعناه: ليس كصفته صفة، تنبئها على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر؛ فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر<sup>(١)</sup>، وقيل: المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته<sup>(٢)</sup> وفي الجمع بين الكاف والمثل، تأكيد للنفي؛ تنبئها على أنه لا يصلح استعمال المثل ولا الكاف؛ فنفي بليس الأمرين جميماً<sup>(٣)</sup>، وقد منع الله - تعالى - عن ضرب المثال بقوله: ﴿فَلَا تَقْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالُ﴾ [النحل، الآية: ٧٤]، ثم نبه أنه قد يضر بنفسه المثل، ولا يجوز لنا أن نقتدي به فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، الآية: ٧٤]، ثم ضرب لنفسه مثلاً، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل، الآية: ٧٥] وفي هذا تنبئه على أنه لا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف به البشر إلا بما وَصَفَ به نفسه.

والآية الكريمة نفت أن يكون شيء من الموجودات مثلاً لله - تعالى - في صفاته وذاته؛ لأن ذات الله لا يماثلها ذوات المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذاتها، فهو منتف عن ذات الله ولفظ التشبيه الوارد في الآية قد صار في كلام الناس لفظاً مجملأ يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقلُ من أن خصائص الرب - تعالى - لا يوصف بها شيء من المخلوقات. ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاتاته، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ، شَنَّاٰٰ﴾ رد على المثلة المشبهة، قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على النفاوة المعطلة<sup>(٤)</sup>؛

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٨٢، وانظر بصائر ذوي التميز / ٤، ٤٨١، بصيرة في «مثل».

(٢) التفسير الكبير / ٢٧ / ١٥٢.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٨٢.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية / ١ / ٥٧.

ولذا كان أعدل المذاهب؛ مذهب أهل السلف، فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تشبيه ولا تعطيل؛ وذلك لأن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله - تعالى - وصفاته إلا ما هو اللاقى بالخلق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التعطيل والتمثيل، فمثلوا أولاً وعطلوا آخرًا، فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته - تعالى - بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاته، بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة، فإنهم يصفون الله - سبحانه - بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ من غير تحريف، ولا تشبيه، قال الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله - : «أهل السنة مجتمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لم يكيفوا شيئاً من ذلك، والجهمية والمعزلة والخوارج كلهم ينكروها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة، قال الذهبي: صدق والله؛ فإن من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام أداه ذلك السلب إلى التعطيل<sup>(١)</sup>»، وقال ابن القيم - رحمه الله - : «وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام - وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً - ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة، الكلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجزها، ولم يقل منهم أحد: يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأجروها على سنن واحدة، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين، وأقرروا بعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقرروا به وأثبتوه<sup>(٢)</sup>».

(١) انظر محسن التأویل ١٤ / ٢٩٥.

(٢) إعلام الموقعين ١ / ٤٩.

فحقيقة التوحيد - إذا - إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات.

قال الواسطي: «ليس كذاته ذات ولا كاسمها اسم ولا ك فعله فعل ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ»<sup>(١)</sup>.

ووَرِيبٌ مِنْ هَذَا نَصًّا عَلَيْهِ الطَّحاوِي، حِينَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ سُمِيَّ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسُمِيَّ بَعْضُ عَبَادِهِ بِهَا كَذَلِكَ، وَكَذَلِكَ سُمِيَّ صَفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسُمِيَّ بِعِصْبَعِهَا صَفَاتُ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ الْمُسْمَى كَالْمُسْمَى، فَسُمِيَّ نَفْسَهُ حِينًا عَلَيْهَا قَدِيرًا رَوْفًا رَحِيمًا عَزِيزًا حَكِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُلْكًا مُؤْمِنًا جَبَارًا مُتَكَبِّرًا، وَقَدْ سُمِيَّ بَعْضُ عَبَادِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ الْمُتَّمَّنَ مِنَ الْمُتَّمَّتِ﴾ [الأنعم، الآية: ٩٥]، وَالرُّوم، الآية: ١٩]، وَقَالَ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامِ عَلِيِّر﴾ [الذاريات، الآية: ٢٨]، وَقَالَ: ﴿فَبَشَّرَنَاهُ بِغُلَامِ حَلِيمٍ﴾ [الصفات، الآية: ١٠١]، وَقَالَ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه، الآية: ١٢٨]، وَقَالَ: ﴿فَاجْعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الدهر (الإنسان)، الآية: ٢] وَقَالَ: ﴿قَالَتْ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف، الآية: ٥١] وَقَالَ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف، الآية: ٧٩] وَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ﴾ [غافر، الآية: ٣٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَمْلِأُ الْحَيُّ الْحَيُّ، وَلَا الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ، وَلَا الْعَزِيزُ الْعَزِيزُ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَسْمَاءِ<sup>(٢)</sup>، وَمِنْ هَذَا يَنْتَفِي التَّمَاثِلُ اِنْتِفَاءً مُطْلَقاً بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْخَلُوقِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعُقْلِ وَنَصْوصِ الشَّرْعِ.

وَهَذَا النَّفِيُ الْوَارِدُ فِي الْكَلِيلِ لَيْسَ فِيهِ مدحٌ وَلَا كَمَالٌ مَا لَمْ يَتَضَمَّنْ إِثْبَاتًا؛ لِأَنَّ النَّفِيَ الْمُحْضَ يَعْتَبَرُ مِنْ قَبْلِ الْعَدْمِ الْمُحْضِ، وَهُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَامَةً مَا وَصَفَ بِهِ اللَّهُ نَفْسَهُ مِنْ نَفِيٍّ، مِنْ تَضَمَّنِهِ إِثْبَاتٍ مَدْحُورًا - تَعَالَى - : ﴿الَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا تَوْمَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ؟ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ

(١) العقيدة الواسطية، ص: ٣٥ وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٩.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٥٨.

عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَنْدُو حَفَظُهُمَا وَهُوَ أَعْلَى<sup>(٢)</sup> الْعَظِيمِ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، فنفي السنة والنوم، متضمن لكمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم.

وفي قوله - تعالى - : **﴿وَلَا يَنْدُو حَفَظُهُمَا﴾** أي لا يكرره، ولا يثقله وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها، ومثله يقال في قوله - تعالى - : **﴿لَا يَغْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾** [سباء، الآية: ٣] لأن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السماوات والأرض الذي هو الإحاطة - كما ذكره أكثر العلماء - ولم ينف مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يحيط به وإن رؤي كما أنه لا يحيط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحيط به علمًا؛ فكذلك إذا رؤي لا يحيط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدخلاً وصفة كمال، وهو دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، غير أنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) محسن التأويل: ١٤ / ٢٤٦، ٢٤٧ بتصريف يسير وانظر دقائق التفسير ٣ / ١٢٦. وانظر الرسالة التدمرية من الفتاوى ٣ / ٣٥-٣٧.

## المبحث الثالث :

### قيمتها

#### أ - التعريف بالذات الإلهية إحدى مقاصد القرآن الكبرى :

لقد تقرر - فيما مضى - أنّ ما تدور عليه معانى القرآن التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال وما ينزعه عنه من سمات النقص، وأنّ هذا ثالث الأصول التي تم بها بعث الأنبياء.

ولن يستقر حال المكلف على الخضوع المطلق والعبودية الحالصة لهذا الإله، ما لم تتم معرفته حق المعرفة، وما كان مأوى الخلل لدى أهل الكتاب والشركين إلا من جهلهم بالله وعدم تقديرهم له حق التقدير.

أخرج البخاري - رحمه الله - «عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنّهما - أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا محمد، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾<sup>(١)</sup> قال الشاطبي - رحمه الله - : «فالآلية بینت أن كلام اليهودي حق في الجملة وذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَيْعَانًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَسْبِيْنِهِ﴾، وأشارت إلى أنه لم يتأدب مع الربوبية؛ وذلك - والله أعلم -

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣ / ٣٩٣ (كتاب التوحيد، باب قول الله - تعالى - : «لما خلقت بيدي»).

لأنه أشار إلى معنى الأصابع بأصابع نفسه<sup>(١)</sup>، وذلك مخالف لتنزيه الباري - سبحانه - فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾<sup>(٢)</sup> [الزمر: ٦٧]، وبمثل هذا خطوط المشركون، وذلك حين جعلوا أصنامهم مماثلة لله - تعالى - في الألوهية، فجاءت جملة: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ تذيلاً للمثل المضروب<sup>(٣)</sup>، بأن عبادتهم الأصنام مع الله - عَزَّ وَجَلَّ - استخفاف بحق الألوهية؛ إذ أشركوا معه أحقر الموصوفين والضعفاء العجز، وهو - سبحانه - الغالب القوي، وهو الذي نصّ عليه في آخر الآية؛ حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾<sup>(٤)</sup> [الحج، الآية: ٧٢]، ومن وفاحتهم - أيضاً - سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينسب لهم ربه، فأنزل سورة الإخلاص جواباً على سؤالهم، فجمعت السورة وأوّلت: حتى «سميت بسورة المعرفة؛ لأنها أحاطت بالصفات التي لا تم معرفة الله إلا بها»<sup>(٥)</sup> وعلى رأسها الأحادية التي أريد بها إثبات الوحدانية الكاملة لله تعليماً للناس جميعاً، وإبطالاً لعقيدة المشركين.

قال صاحب الظلال - رحمه الله - في لفظ ﴿وَاحِدٌ﴾: «هو أدق من الواحد؛ لأنه يضيف إلى معنى «واحد» ألا شيء غيره معه وأن ليس كمثله شيء»<sup>(٦)</sup>، فهو دال على أنه - تعالى - واحد من جميع الوجوه، حتى يدرك المخاطبون السائلون عن نسبة الله هذه الحقيقة التي تتنافي وما يعتقدونه من كون أصنامهم آلهة، كما أن فيه إبطال الشليط الذي أحدثه النصارى والثنوية المخترعة من قبل المجروس.

(١) فإن اليهود مشبهة وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل في باب التشبيه. نفسه / ١٣ / ٣٩٨.

(٢) المواقفات / ٣ / ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) في قوله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ شَرِبَ مَئُونٌ فَانسَتَهُ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَنَعَّمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذِكْرَاهُمْ وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ ...﴾ في الآية: ٧٣ من سورة الحج.

(٤) وانظر التحرير والتنوير / ١٧ / ٣٤٢.

(٥) نفسه / ٣٠ / ٦١٠.

(٦) في ظلال القرآن / ٦ / ٤٠٠٣.

## ب - معرفة الله من الفطرة :

كل ذلك دال على «أن هذه العقيدة عقيدة واضحة مقبولة؛ إذ العقل ينشد دائماً الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، وهو مبدأ ليس بالغريب على الفطرة الإنسانية، بل هي مُوافقة له تماماً وهو ما صرخ به القرآن قال - تعالى - : ﴿فَأَقْدِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَسِيقًا فِطْرَتَ اللَّهَ أَلَّقِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي بَعَثَنَا وَلَنَكُنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> [الروم، الآية: ٣٠]، فظاهر الآية أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله ﷺ: «فَأَبْوَاهُ يَهُودَانِهُ أَوْ يَنْصَارَانِهُ» ولا ريب أن أرقى أساليب الإقناع وأبلغ وسائل الإذعان بأسوأ العقيدة، إحالة المخاطب إلى غريزته وفطرته، وإلزامه الحاجة بمحاسبة عقله لنفسه على تعارض الأفكار، وتناقض الأقوال بسبب مخالفة التقاليد والمسلمات للغرائز والملكات<sup>(٢)</sup>.

## ج - ربط هذه العقيدة بالواقع والمحيط :

والصورة العقدية الواضحة تثمر تعمقاً في الحياة على مستوى قيامها فتندو العقيدة منهاجاً عملياً في جميع رحاب هذه الحياة وتبدو آثارها جلية في التشريع بعد أن بدت في الاعتقاد، وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها الحاكمة، ومتى تخلفت آثار العقيدة، عرف أنه لا يزال خلل قائم؛ إذ لا يتأتى الإتيان بشيء من المأمورات - عموماً - على قصد الامتثال التام ولا الانفكاك عن شيء من النهييات على قصد الانزجار التام، إلا بعد معرفة الأمر والنافي.

(١) وانظر الإيمان والحياة، ص: ٣٨، ٣٩ . (٢) تفسير المغار / ٨ / ٢٧٣ .

فمدار التصور النقي على المعرفة الحقة والإيمان الحق الصافي الحالي من كل شأنه<sup>(١)</sup>. ومن مثمرات هذا النقاء في المعرفة وهذا الصفاء في الإيمان، استيعاب العقيدة المتمثل في كون الألوهية لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، قيوم السماوات والأرضين، له الأسماء والصفات العلي<sup>(٢)</sup>.

هذه الأسماء والصفات هي التي شملتها الآية الكلية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَكْبَرُ الْبَصِيرُ﴾ فهي آية عظيمة فيها تعليم شامل، يحل جميع الإشكالات،

(١) انظر في ظلال القرآن: ٤٠٣-٤٠٦.

(٢) الحق الذي لا مفر منه أن الأمة الإسلامية تعيش أزمة عقدية وأن ما يعتورها من تأخر وما تلاقيه من أزمات، إنما هو متشعب من هذه الأزمة، وأفرادها في حاجة إلى إيمان قلبي تترجمه الجوارح أما تردّيد جملة لا إله إلا الله دون استيعابها والتعمق في فحواها تلقينا وفهمنا ومن ثم سلوكاً، أمر بات غير مجد لمجريات الحياة كلها إذ العقيدة هي المキーـة لحياتنا المؤسسة لصرحي الدين والدنيـا معاً. وعقدة الفطرة البشرية - كما قال سيد - رحـمه الله - هي عقدة العقيدة، وما لم تتعقد هذه العقدة فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي في ظلال القرآن ٧/٩٧٣.

- ولا يفوتي في هذا المقام أن أشيد بالسلوك وما له من برهان على صدق صاحب العقيدة؛ لأن الكثير في زماننا من يتسمون بالسلفية وهي منهم براء، ويتجرون بها يقعون في جلة من السلوكيات والأخلاق المختلفة للوازام هذه العقيدة، فيدعى أحدهم أن عقيدته في غاية الصحة والسلامة، وإن وقع في تلك الاعترافات، ولعل السبب في هذه الفجوة بين التوحيد ولوازمه السلوكية، ما يسلك هؤلاء في تعلمهم لعلم التوحيد من الفصل بين هذا العلم ولوازمه ومقتضياته بحجـة أن هذا علم التوحيد، وتلك الوازام تتعلق بعلم السلوك والأخلاق، فأدـى ذلك إلى إهمـال هذه الجوانـب السلوكـية إلى حدـ أن صـير هذا التـوحـيد مجرد جوانـب علمـية فقط، ولذلك نجد الكـثير منـهم لا يـتـورـع عنـ السـبـ والـشـتمـ بأـفـحـشـ العـبارـاتـ وأـقـذـعـهاـ ورمـيـ الغـيرـ وقـذـفـهـ، وتبـعـ عـورـاتـهـ وهـزـهـ ولـزـهـ، وكانـ الأولىـ بهـؤـلـاءـ أنـ يـلـمـواـ أنـ منـ لـواـزـمـ هـذـهـ العـقـيـدةـ:ـ العـفـافـ،ـ وـالـطـهـارـةـ مـنـ الـفـوـاحـشـ وـالـقـادـورـاتـ،ـ يـقـولـ ابنـ القـيـمـ - رـحـمهـ اللهـ -ـ:ـ "ـ التـوـحـيدـ أـلـطـفـ شـيـءـ وـأـنـزـهـهـ وـأـنـظـفـهـ وـأـصـفـاهـ،ـ فـأـيـ شـيـءـ يـخـدـشـهـ وـيـدـنـسـهـ وـيـؤـثـرـ فـيـهـ،ـ فـهـوـ كـأـيـضـ ثـوـبـ يـكـونـ،ـ يـؤـثـرـ فـيـهـ أـدـنـ أـثـرـ،ـ وـكـلـرـأـةـ الصـافـيـةـ جـلـداـ،ـ أـدـنـ شـيـءـ يـؤـثـرـ فـيـهـ،ـ وـهـذـاـ تـشـوـشـ الـلحـظـةـ وـالـلـفـظـةـ وـالـشـهـوـةـ الخـفـيـةـ،ـ فـإـنـ بـادـرـ صـاحـبـهـ وـقـلـعـ ذـلـكـ الـأـثـرـ بـضـدـهـ،ـ إـلـاـ اـسـتـحـكـمـ وـصـارـ طـبـعـاـ يـعـسـرـ عـلـيـهـ قـلـعـهـ"ـ الفـوـائدـ،ـ صـ:ـ ١٨٤ـ،ـ وـالـلـهـ الـمـسـتـعـانـ.

ويجيز عن جميع الأسئلة حول موضوع الأسماء والصفات ذلك؛ لأن الله - تعالى - قال: **﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن الله - تعالى - يشير للخلق ألا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**.

فالله - جل وعلا - له صفات لائقة بكماله وجلاله، والخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شك فيه<sup>(١)</sup>. ولا يقال إن المسألة لا تعلق لها إلا بالسمع والبصر المذكورين؛ لأن الآية - والله أعلم - ما ساقتهما إلا نموذجاً لباقي الصفات الأخرى تزييها لله - عز وجل - عن أن يُشبَّه شيءٌ من صفاتيه شيئاً من صفات الخلوقين وهو ما دل عليه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ولن يكون الإيمان بهذه الأسماء والصفات كافياً ما لم تستعمل بمعنى وجود غايتها وألا يبحث عنها أكثر من استعمالها، وعليه مضت القرون المشهود لها، قال **ﷺ**: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله - عز وجل -»<sup>(٢)</sup> وقد ذُكر عند أبي عبيد القاسم بن سلام أحاديث مفادها: «أن الله - تعالى - يضحك من قنوط عباده»، «والكرسي موضع القدمين»، «أن جهنم لتماليء فيضع الرب قدمه فيها» وأشباه هذا؛ فقال أبو عبيد: هذه

(١) انظر منهج دراسات الآيات الأسماء والصفات، ص: ٤.

(٢) وسند الحديث ضعيف؛ لأن فيه الوازع بن نافع الذي رواه عن سالم. قال البخاري: «منكر الحديث» وقال النسائي: «متروك» وقال ابن معين وأحمد: «ليس بثقة» ميزان الاعتدال: ٣٢٧/٤، والمحدث رواه الطبراني في الأوسط من هذا الطريق وقال فيه الهيثمي: «وفي الوازع بن نافع وهو متروك» انظر مجمع الزوائد ١/٨١. غير أن لهذه الرواية أصلاً منها ما ورد في البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لن يريح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟» صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣/٢٦٥ (كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه...) ولا شك أن التساؤل ضرب من التفكير المنهي عنه في الرواية أعلاها.

الأحاديث عندنا حق يرويها الثقة بعضهم عن بعض إلا أنا إذا سئلنا عن تفسيرها، قلنا: ما أدركتنا أحداً يفسر منها شيئاً، ونحن لا نفسر منها شيئاً نصدق بها ونسكت<sup>(١)</sup>، وقد سُئل الإمام مالك والأوزاعي وسفيان الثوري - رحمهم الله - عن الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية؟ فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف<sup>(٢)</sup>. والتفكير في آلاء الله بدل التفكير في ذات الله مهين يكسب العقل ما به يستنبط عظمة هذا الإله في صنعته وحكمته وما يليق به من صفات الكمال والجلال، فيعرفه المتفكر حق معرفته<sup>(٣)</sup> قال ابن حجر - رحمه الله - : «وغاية علم العالم أن يقطع بوجود فاعل لهذه المصنوعات متزه عن التشبيه، مقدس عن النظير، متصف بصفات الكمال. ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه كما هو طريق السلف، وما عداه لا يؤمن صاحبه من الزلل. وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقتهم فكفاه ضلالاً»<sup>(٤)</sup>، فجاء منهج هذه القرون جلياً واضحاً لا كما يُقال: طريقتهم أسلم، وطريقة الخلف أحكم، فإن هذا القول فيه غمز للسلف بحيث يفهم أن طريقتهم مجرد الإيمان بالفاظ القرآن والحديث من غير فقه في ذلك! والحق أنهم في غاية المعرفة بما يليق بالله - تعالى - وفي غاية التعظيم له والخضوع لأمره والتسليم لمراده<sup>(٥)</sup>؛ فأثبتوا لله من الصفات ما أثبته لنفسه من غير تكيف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل<sup>(٦)</sup>. وهو ما نطق به الآية الكلية حيث اشتملت على ثلاثة أركان:

**الأول: الإيمان بالاسم أو الصفة، ويتم الإقرار والاعتراف بأنه لله - عَزَّ وَجَلَّ .**

(١) انظر أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة / ٢، ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة / ٢، ٥٢٥، ٥٢٦.

(٣) بتصرف عن دقائق التفسير / ١ / ٣٥.

(٤) فتح الباري / ١٣ / ٣٥٢.

(٥) نفسه / ١٣ / ٣٥٢.

(٦) انظر الفتوى / ٣ / ٣.

الثاني : الإيمان بما يدل عليه هذا الاسم من معنى، أي بالدلالة الوضعية اللغوية<sup>(١)</sup>؛ إذ العلم بالكيفية مما استأثر الله به، «فتأنويل ما أخبر الله - تعالى - به عن نفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الأسماء والصفات هو حقيقة لنفسه المقدسة المتصفة بما لها من حقائق الصفات، وتأنويل ما أخبر به - تعالى - من الوعد والوعيد، هو نفس ما يكون من الوعد والوعيد؛ ولهذا ما يجيء في الحديث نعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه؛ لأن ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر، فيه ألفاظ متتشابهة يشبه معانيها ما نعمله في الدنيا لفظاً ومعنى، ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته، فأسماء الله - تعالى - وصفاته أولى وإن كان بينهما وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه أن لا يكون لأجلها الخالق مثل المخلوق، ولا حقيقته كحقيقته<sup>(٢)</sup>.

الثالث : الإيمان بما يتعلق به من آثار، سواء كانت هذه الآثار آثار كونية تتعلق بالموجودات، أو وجودانية قلبية تتعلق بالقلب من تعظيم الرب وتقديره بما يدعوه إلى القيام بشتى العبوديات، كالخوف والرجاء والحبة والتوكل ونحوها<sup>(٣)</sup>. «فلكل اسم من أسمائه - عَزَّ وَجَلَّ - آثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتبه عليه كترتيب المزروع والرزق على الرازق<sup>(٤)</sup>، وتترتب أسباب المرحوم والرحمة على الراحم، ونظائر ذلك في

(١) انظر ضوابط المعرفة، ص: ٢٤.

(٢) الفتاوى، ٣ / ٥٧.

(٣) القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف / ١، ٨١، ٨٢.

(٤) الأنفع للMuslim أن يتفكر في تعلقات الصفات الإلهية بالمخلوقات من إحياء وإماتة ورثيق ورعاية، إلى غير ذلك من معاني صفات الله - عز وجل -، فإذا قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْفُوْزِ الْمُتَّبِعُ﴾ النذريات، الآية: ٥٨، فينبغي أن يتفكر في خلق الله لهذا الرزق الموضوع بين يديه في كل أوقات طعامه، أين زرع، ومن زرعه، ومن حمله إليه، وكيف خرج من بذرة هامدة إلى أن غدا غذاء نافعا؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يجب أن تطرح، ويلعلم من خلالها علم اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتن، فهذا هو الطريق الصواب إلى التفكير، فمن خالله يعظم الرب - سبحانه وتعالى - في الأنفس، فترتداد إيماناً ويقيناً.

جميع الأسماء «فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عِبَادِهِ مَنْ يَخْطُئُ وَيَذْنُبُ؛ لَيَتُوبَ عَلَيْهِ وَيَغْفِرَ لَهُ وَيَعْفُو  
عَنْهُ، لَمْ يَظْهُرْ أَثْرُ أَسْمَائِهِ: الْغَفُورُ، وَالْعَفْوُ، وَالْحَلِيمُ، وَالتَّوَابُ وَمَا جَرِيَ مَجْرَاهَا»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا تكون هذه القاعدة الكلية جامعة لشتات ما تفرق في قواعد كثيرة من  
أصول هذا الباب، حيث حوت الأصول الإيمانية التي ينبغي على المسلم الحق أن  
يدركها ويفهمها إلى أن تؤثر في مجريات محطيه، فقد عالجت جانباً مهماً من  
جوانب وجوده، وذلك حين يرتقي الإيمان إلى أعلى الدرجات، فيغدو سلوكاً بعد أن  
كان عملاً قليلاً.

فمن التصور العقدي للأسماء والصفات، إلى التأثير الوجداني الذي تفجره العقيدة  
من داخل الإنسان، إلى علاقة هذا التصور بالتأثير في الوجود الخارجي، فترتبط العقيدة  
بالواقع والسلوك. فالمدار - إذا - على معرفة الأسماء والصفات حق المعرفة وتعهدها  
لأجل تعميتها وذلك بالتبصر في الشواهد، قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ أَهْنَدُوا رَبَّهُمْ هُنَّ  
وَإِنَّهُمْ لَفَوَّهُمْ﴾ [محمد، الآية: ١٧] وقال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ  
أَهْنَدُوا هُنَّ﴾ [مرim، الآية: ٧٦]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّقُوَّمٍ  
يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الرعد، الآية: ٣]، وغياب حس المشاهدة المتبصرة مذموم في كتاب الله -  
 تعالى - قال الله: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف الآية: ١٠٥] فالمأمور في هذه الآية مكتن بـ عن التتحقق  
والمشاهدة، وتغيبه لدى القوم بالإعراض وضرب الصفح عن الحق<sup>(٢)</sup>. قال الطبرى -  
رحمه الله - : «لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن  
الألوهية لا ثبّاغى إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبّرها»<sup>(٣)</sup>.

(١) مفتاح دار السعادة، ١ / ٢٨٧.

(٢) انظر التحرير والتتوير ٦٣/١٣.

(٣) جامع البيان ٨ / ٧٦.

على أن الآية الكلية حين نطقت بالتعريف بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، ودعت إلى الإيمان بالأسماء والصفات؛ رسمت منهجاً لذلك، خلاصته: الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات وهو محصل ما يُعثَّ به الأنبياء والرسل، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «والله - سبحانه - بعث رسالته بإثبات مفصل ونفي مجمل، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال - تعالى -: ﴿فَاعْبُدُهُ وَاصْطَبِرْ إِعْنَادِيَّهُ هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَمِيَّاهُ﴾ [مرim، الآية: ٦٥]، قال أهل اللغة: «هل تعلم له نظيرًا يستحق مثل اسمه»<sup>(١)</sup> وقال - تعالى -: ﴿لَمْ يَكُلْدَ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، وقال - تعالى -: ﴿فَلَا يَخْعَلُوا لِهِ أَنْدَادًا وَأَنْشَمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْجِذِدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الْلَّهِ﴾ [البقرة، الآية: ١٦٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلْقَهُمْ وَرَحِيقُ الْمُبَيِّنَ وَبَنَتِيهِ يَغْرِي عَلَيْهِ سُبْحَانَنَّ وَتَعَلَّمَ عَنَّا يَصْفُونَ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَرْجَهٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٍ وَعِلْمٌ﴾ [الأنعام، الآيات: ١٠١، ١٠٢]، وقال - تعالى -: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَنْجِذِدْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَقَدِيرًا﴾ [الفرقان، الآيات: ٢١، ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿فَأَسْتَفْتَهُمْ أَرْبَيْكَ الْبَنَاثُ وَلَهُمُ الْبَسُورُ﴾ أَمْ حَكَمْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا وَهُمْ شَهِيدُونَ﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصْفُونَ﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات، الآيات: ١٤٩-١٨٢]

سبحانه - نفسه عمما يصفه المفترون المشركون، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه؛ إذ هو - سبحانه - المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع الخلق.

(١) لسان العرب، مادة «سمى»، مادة ١٤٣.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه ما أنزله في محكم آياته؛ كقوله - تعالى - : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نُوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِنِّي يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسَعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَعْوِدُهُ حَفْظُهُمْ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، قوله - تعالى - : ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَهُ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ لَمْ يَكُلُّهُ وَلَمْ يُولَدْ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، قوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم، الآية: ٢]، قوله - تعالى - : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر، الآية: ٥٦]، قوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم، الآية: ٥]، قوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس، الآية: ١٠٧]، قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج، الآية: ١٤]، قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد، الآية: ٣] إلى أمثال هذه الآيات في أسماء الله وصفاته، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -<sup>(١)</sup>، وما سيقت هذه النصوص لمجرد تقرير الكمال المطلق له - سبحانه - فحسب؛ بل ذكرت لهذا الغرض ولبيان أنه المستحق للعبادة دون سواه، فأفاد الأصلين الذين يتم بهما التوحيد وهما: إثبات صفات الكمال ردًا على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو ردًا على المشركين.

\* \* \*

## المبحث الرابع :

### توحيد الربوبية

أ - مفهوم الربوبية : هي مصدر يقال في الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والرب في الأصل: التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، يقال ربه ورباه وربيه<sup>(١)</sup> ويطلق رب في اللغة ويراد به المالك والسيد والمدير والمربي والقيم والنعم، ومن اللغويين من جعله على ثلاثة أقسام: يكون للملك، وللسيد المطاع، والمصلح<sup>(٢)</sup>. كما أطلق - أيضاً - على السيد الذي يسوس مسوده ويربيه ويدبره<sup>(٣)</sup>، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله - تعالى - المتكلف بمصلحة الموجودات قال - تعالى - : ﴿بِلَدَةٌ طَيْبَةٌ وَرَبٌ غَفُورٌ﴾ [سبأ، الآية: ١٥] وقال: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْجِذُوا الْمُتَكَبِّرَةَ وَالَّتِي هُنَّ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران، الآية: ٨٠]، ولم يكن من حق الرب أن يجمع؛ إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا الله - تعالى - لكن أتي بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه<sup>(٤)</sup>.

أما بالإضافة، فإنه يقال لله ولغيره نحو: رب العالمين، ورب الدار، ومنه قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا رَبِّ أَخْسَنَ مَشَوَّى﴾ [يوسف، الآية: ٢٢]

والحق أن هذه المعاني جميعاً تصدق على اسم الرب، فهو المربي للخلائق، والمدير لشيونها، وسائل أمرها، وبلغها كمالها، وسيدها، والقيم على مصالحها، والنعم

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٨٨ حرف الراء.

(٢) لسان العرب ١/٤٠٠، مادة: «رب».

(٣) تفسير المنار ١/٥٠.

(٤) انظر بصائر ذوي التمييز ٣/٢٩، ٣٠ بصيرة في الرب، وانظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٨٩ حرف الراء.

بشتى النعم عليها، والمالك لأذمة أمرها، وهو الذي ينبغي أن يطاع في أوامره، وهو المصلح لكل شأن من شئون معاشها ومعادها. ومن ثم قال بعض أهل العلم: «هذا الاسم هو الأحق بالاستعانة والمسألة، ولهذا يقال في القرآن: ﴿وَرَبِّتْ أَغْفَرْ لِي وَلِوَالدَّائِي﴾ [نوح، الآية: ٢٨]، ﴿وَرَبَّنَا طَلَّنَا أَنْفُسَنَا وَلَنَّ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنْ كُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٢٣]، ﴿وَرَبِّتْ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي﴾ [القصص، الآية: ١٦]، ﴿وَرَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شَاءَنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، فهو اسم قد تضمن خلق العبد ومبتهاه كما تضمن أنه - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي يربيه ويتولاه<sup>(١)</sup>.

ولما كانت التربية هي إحدى الخصائص البارزة في الربوبية؛ فإن هذا المعنى يلاحظ من وجهين:

١- تربية خلقية، وذلك بما يكون به نحو الخلق وكمال أجسادهم وقوتهم النفسية والعقلية.

٢- تربية تعليمية، وتم بما يوحيه الله من شرائعه إلى المصطفين من عباده من أجل تسييج الفطرة والإبقاء على أصلها متى اهتدى الإنسان بهذا الوحي؛ إذ لا هداية إلا بما شرعه رب الناس، فليس لغيره أن يشرع؛ لأن الخلق خلقه، وما أوجدهم إلا ليرعاهم ويصلحهم ويربيهم، فهو وحده الذي له الربوبية المطلقة.

وهذا النوع من التوحيد - توحيد الربوبية - لم ينكروه المشركون ولم يجعلوا لله فيه شريكًا، وهذه حكاية القرآن عنهم في ذلك، قال - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الرخرف، الآية: ٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الرخرف، الآية: ٩]، ﴿فَلَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُنْجِي الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ

(١) دقائق التفسير / ١٧٦، ١٧٧. بتصريف يسir.

الْحَقِّيْ وَمَن يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقْلَ أَفَلَا تَنْقُوْنَ ﴿٢١﴾ [يونس، الآية: ٢١]، ﴿فَقْل لِمَنْ أَلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾٤٣﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾٨٥﴿ [المؤمنون، الآيات: ٨٤، ٨٥]، ﴿فَقْل مَن رَبُّ الْسَّمَوَاتِ الْسَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾٨٦﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوْنَ ﴾٨٧﴿ [المؤمنون، الآيات: ٨٦، ٨٧]، ﴿فَقْل مَن يَبْرُوْهُ مَلْكُوتُ كُلِّ شَقْوٍ وَهُوَ يُحْبِرُ وَلَا يُجَاهِرُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾٨٨﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّ شَرَوْبَوْنَ ﴾٨٩﴿ [المؤمنون، الآيات: ٨٨، ٨٩]، فكل مشرك مقر بأن الله خالقه وخالق السماوات والأرضين ومن فيهن ورازق المخلوقات.

ولهذا ساغ احتجاج الرسل - عليهم السلام - بقولهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل، الآية: ١٧]، وقولهم: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ [النحل، الآية: ٢٠]، ومن هنا يتبيّن أن عمل الرسل هو تقرير هذا النوع من التوحيد، ثم الدعوة إلى توحيد الألوهية - وقد يسمونه توحيد العبادة - بحيث يفرد الحق - سبحانه - بالعبادة دون سواه، وهذا هو الذي جعلوا الله فيه شركاء، بل إن لفظ «الشريك» يشي بكون هؤلاء مُقرّين بالله - تعالى -، وبهذا علم أن عبادة هذه الأوّان والأصنام والجحن والملائكة والمسيح لم يتخدوا ذلك معبوداً لهم لأجل أنهم أشركواهم في خلق شيء، بل اتخذوهم آلهة وعبدوهم، فهم كانوا يعلمون أن ذلك الله وحده ولم يكفهم الحصول على إسلامهم؛ إذ لابد لهم أن يأتوا بلازمة الذي هو توحيد الألوهية، ولذلك حكى القرآن عنهم قوله - تعالى -: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾٢٣﴿ [يوسف، الآية: ١٠٦] قال مجاهد - رحمة الله - في هذه الآية: «إيمانهم بالله: قولهم: إن الله خلقنا ويزقنا ويميتنا»<sup>(١)</sup>، وزاد الطبرى: فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره<sup>(٢)</sup>، فبيّن أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكته وقوته وكأنوا مع ذلك يعبدونه عبادة إشراك، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم عن صراطه

(١) تفسير مجاهد ١ / ٣٢٢.

(٢) جامع البيان ٨ / ٧٨.

ناكبون، فقد بين القرآن ذلك فقال - تعالى - : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا وَلِكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦٧]، وقد جاء إبراهيم بالتوحيد وأعلنه إعلاناً لم يترك للشرك مسلكاً إلى نفوس الغافلين وأعلن العبودية لله - تعالى - بقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام، الآية: ٨٠]، وأخلص القول والعمل لله، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشَرَّكُتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشَرَّكُتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام، الآية: ٨١]، وكسر الأصنام بيده ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وتصدى للاحتجاج للوحديّة وصفات الله، فقال للنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَاءِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٨]؛ وذلك كله ليأس المشركون من كونهم على ملة إبراهيم على حد زعمهم!

\* \* \*

## المبحث الخامس :

### توحيد الأسماء والصفات

من خلال ما تقرر في مبحث الربوية، علم أنها تكون منه - تعالى - لعباده؛ ولذلك لا يزال - عَزَّ وَجَلَّ - ييرز كمالاته من خلال أسمائه وصفاته، التي تعتبر الأصول الكبرى لإثبات هذه الكلمات.

١- أما أسماؤه - عَزَّ وَجَلَّ - فقد وسمها بأنها حسنة، فقال - عز من قائل :-

**وَإِنَّ اللَّهَ الْأَكْبَرَ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** [الأعراف، الآية: ١٨٠]، والحسنى هو المتصف بالحسن الكامل في ذاته، وما وصفت بالحسنى إلا لأنها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أما بعضها لأن معانيها لم تثبت إلا لله نحو الحي، وأما البعض الآخر فلأن معانيها مطلقا لا يحسن الاتصاف بها إلا في جانب الله؛ نحو التكبر والجبار؛ لأن معاني هذه الصفات وأشباهها كانت تقضى في الخلق؛ من حيث إن المتسنم بها لم يكن مستحقا لها لعجزه أو حاجته، بخلاف الإله؛ لأنه الغني المطلق<sup>(١)</sup>، وقد حضر الشرع على إحصائها ووعد بالثواب عليه لما دلت عليه من الحامد له - سبحانه -، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مائةً إِلَّا وَاحِدًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٢)</sup>، قال ابن القيم - رحمه الله -: «إِلَحْصَاؤُهَا

(١) التحرير والتورير ٩ / ١٨٧.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٣ / ٣٧٧. والإحصاء - كما ذكره الأصيلي - العمل بها لا عدتها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق كما في حديث الخوارج يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم، وقال ابن بطال: الإحصاء يقع بالقول والعمل، فالذى بالقول فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها، وأما الإحصاء الفعلى فإن لله أسماء يختص بها كالأحد والتعالى والقدير ونحوها، فيجب الإقرار بها والخصوص عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء في معانيها كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها فتح الباري ١٣ / ٣٧٨.

والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم<sup>(١)</sup>، وليس أسماء الله منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث؛ لأنَّه ليس فيه ما يقتضي الحصر؛ وإنما وقع التخصيص لهذه الأسماء، لأنها أشهرها وأينتها<sup>(٢)</sup>، ويدل على هذا التأويل حديث ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَّ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْدَكَ» فهو دال على أنَّ لله أسماء لم ينزلها في كتابه حجبها عن خلقه<sup>(٣)</sup>.

ومن العلماء من عَدَ اللَّهُ أَسْمَاءً أُخْرَى زادت عَلَى التسعة والتسعين، كابن برجان الإشبيلي - رحمه الله - تَعَالَى - في كتابه: «أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحَسَنِي»، فقد عَدَ اثنين وثلاثين ومائة كلها مستخرجة من القرآن والأحاديث المقبولة، وذكر القرطبي - رحمه الله - أنَّ له كتاباً سماه: «الأُسْنَى فِي شَرْحِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِي» ذكر فيه من الأسماء ما ينفي على مائتي اسم<sup>(٤)</sup>. والصواب أنَّ كلَّ ما أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ حَقٌّ، وَأَنَّ لَا يَسْمُّ اللَّهُ - تَعَالَى - إِلَّا بِذَلِكَ الْاسْمِ الَّذِي أَطْلَقَهُ الشَّرِيعَةُ، وَأَنَّ يَكُونَ مَدْحَى خَالِصًا لَا شَبَهَ فِيهِ (وَإِنْ كَانَتْ صَفَاتٍ سَلْبَ مَحْضٍ فَإِنَّهَا لَا تَدْخُلُ فِي أَوْصَافِهِ - تَعَالَى) - إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَتَضْمِنَةً لِثَبَوتٍ، كَالْأَحَدِ الْمَتَضْمِنِ لِانْفَرَادِهِ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَالْأَلْوَهِيَّةِ، وَالسَّلَامُ الْمَتَضْمِنُ بِرَاءَتِهِ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يَضَادُ كَمَالَهُ)<sup>(٥)</sup>، وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ قَوْلُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: «اللَّهُ وَتَرِ يَحْبُّ الْوَتَرَ»<sup>(٦)</sup> (وَالْوَتَرُ: الْفَرْدُ، وَمَعْنَاهُ فِي وَصْفِ اللَّهِ أَنَّهُ

(١) بِدَائِعِ الْفَوَائِدِ ١/١٦٣.

(٢) انظر أسماء والصفات، ص: ١٧.

(٣) كتاب الحدائق، ١/٣٨، ٣٩، وانظر الحديث في مستند أحمد ١/٣٩٣، قال الهيثمي رواه أحمد وأبويعلى والبزار والطبراني ورجال أبوالحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهنمي، وقد وثقه ابن حبان مجمع الزوائد ١٠/١٣٦.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٩/١٨٨.

(٥) بِدَائِعِ الْفَوَائِدِ، ص: ١٣٣.

(٦) انظر سنن ابن ماجه ١/٣٧٠ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الوتر).

الواحد الذي لا شريك له ولا نظير<sup>(١)</sup>، فالمعتبر إذن في هذا الباب إطلاق الاسم أو الصفة التي أخبر بها الكتاب أو أخبرت بها السنة النبوية الصحيحة.

وإذا كان الإحصاء - كما تقدم - قولها وفعلها، فإن هذا الأخير لا يتم إلا بعد إلخاطة بمعانيها ومدلولاتها، ولا مسلك إلى ذلك إلا بالبحث عن مراميها ومفاصدتها ومتعلقات كل اسم وأثاره - وهي أشرف المرامي -؛ إذ في معرفتها كمال العلم بالله - عَزُّ وَجَلُّ - الموجب له كمال الحب والخوف والرجاء، فإن من نظر في أسماء الله نظر تدبر - وكذا في صفاته -؛ بان له من تعلقها وارتباطها بخلقه وأمره ما يزيده إيماناً وثبيتاً ويقيناً. وحسبك أن تتأمل ارتباط الخلق بهذه الأسماء الثلاثة وهي: الله والرب والرحمن، وكيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب وكيف جمعت الخلق وفرقتهم.

فاسم الرب له الجميع الجامع لجميع الخلوقيات، فهو رب كل شيء وحالقه والمقدر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الألوهية فألهوا السعداء، وأقرروا له طوعاً بأنه الله لا إله إلا هو، وهذا هنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، فالألوهية هي التي فرقهم بعد أن كانوا مجتمعين تحت الربوبية، فالذين والشرع والأمر والنهي من صفة الألوهية، والخلق والإيجاد والتديير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب من صفة الملك وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووقفهم وهداهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدهله، وكل هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة فهي التعلق، والسبب الوacial بينه وبين عباده بها، أرسل إليهم رسلاً، وأنزل كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم،

وينهم سبب الرحمة<sup>(١)</sup>.

-٢- وأما صفاته - تَعَالَى - فإن معرفتها أصل عظيم، ورمز كبير لكماله وعلامة وجوده - عَزُّ وَجْلٌ -، «إذ ما لا صفة له لا تحقيق له في العيان ولا وجود له إلا في الأذهان»<sup>(٢)</sup>، وكتاب الله - عَزُّ وَجْلٌ - وسنة رسوله ﷺ قد جاء بالوصف للرب - جل شأنه - وذلك بنوعين من المعاني:

**الأول** : صفات ذاتية، «وتضبط بأنها الصفات التي لا تنفك عن الرب - عَزُّ وَجْلٌ - بحال من الأحوال»<sup>(٣)</sup>، وذلك كقوله - تَعَالَى -: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» [المائدة، الآية: ٦٤]، قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [القصص، الآية: ٨٨]، قوله: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» [طه، الآية: ٣٩]، فكل هذا من صفات الذات يستحيل وجوده عاريا عنها، ويستحيل وجودها على وجه النسبة إليه إذا فرض انفصالها عنه.

**الثاني** : صفات فعلية حيث يصف - تَعَالَى - ذاته العلية بأفعاله على وجوه متعددة من الإطلاق والتقييد والتعدية واللزوم، وهي مما يخضع حوله لإرادة الفاعل ومشيئته، فعلم أنه ما نسبها لنفسه إلا ليوصف بها وأنها تابعة لمشيئته وإرادته كما قال - تَعَالَى -: «ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى أَسْكَنَاءِ» [البقرة، الآية: ٢٩]، قوله - تَعَالَى -: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ» [البقرة، الآية: ٢١٠]، فوجب أن تنسب إليه نسبة الفعل لفاعله؛ ولذلك جرى التعبير عن هذا النوع من صفات رب العالمين بالأفعال الاختيارية؛ لتعلقها في الوجود والحصول بتعلق المشيئة والإرادة بها.

وما يهمنا من هذا التقسيم، هو الوقوف على ما تقتضيه من آثار اقتضاء ظاهرا، هذه الآثار التي تعتبر «نتيجة تعلق فعل الصفة بمحموله، فهو بمنزلة الحال النحوية في دلالتها

(١) التفسير القيم، ص: ٣٤، ٣٥.

(٢) القواعد الكلية للأسماء والصفات ١ / ٨٨.

(٣) القواعد الكلية للأسماء والصفات ١ / ٧٨.

على هيئة المفعول<sup>(١)</sup>، «فالأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكونين، فلكل صفة عبودية خاصة، هي من موجباتها ومقتضياتها؛ أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تعالى - بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة، يشمر له عبودية التوكل عليه باطناً ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يشمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيشمر له ذلك الحياة باطناً ويشمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناء وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويشمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه، تشمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وكذلك علمه بكلماله وجماله وصفاته العلي، يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه - سبحانه - وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وأثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم<sup>(٢)</sup>، فظهور آثار الصفات لابد منه، إذ هو من مقتضى الكمال المقدس والملك التام؛ لذلك كان من الواجب توحيده - سبحانه وتعالى - في أسمائه وصفاته.

\* \* \*

(١) القواعد الكلية للأسماء والصفات ٩٦ / ١.

(٢) مفتاح دار السعادة ٩٠ / ٢.



## المبحث السادس :

### توحيد الألوهية

ليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية - وهو كما أسلفنا اعتقاد أن الله وحده خالق هذا الكون -، فلا يظن أن من اعتقد ذلك فقد أثبت غاية التوحيد ومتناه، فإن المكلف لو أقر بما يستحقه الرب من الصفات، ونزعه عن كل ما تنزعه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحداً حتى يشهد ألا إله إلا الله، ويأتي بهذه الشهادة على وجهها فيقر بوحدانية الله المستلزمة للعبادة له وحده لا شريك له.

ولذلك كان هذا هم الرسول، فكل واحد منهم أول ما يشرع به أسماء قومه هو قوله: ﴿يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف، في الآيات: ٨٥، ٧٣، ٥٩]، وفي الآية: [٨٤، ٦١، ٥٠]، ويقرر هذا كله بقوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْبَأَنَا لَهُمْ أَنْجَنَّبُوا أَنَّطْغُوتَ﴾ [النحل، الآية: ٣٦]، فهذا هو النداء الذي كان يُتَبَّعُ به المشركون من قبل الأنبياء والرسل وجملة «في كل أمة»، أفادت أن ما من رسول إلا وطلب من قومه توحيد العبادة؛ ليعلم أن هذا النوع من التوحيد هو رأس مهمة الرسل وأساس ما يبني عليه المعتقد، وهو ما أفادته كلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، ومن ثم لم يقل: لا خالق ولا رازق ولا رب إلا الله؛ لأن هذه التراكيب لا تفيد ما أفاده اسم الجلالة الذي يعني المألوه أي المعبود، وقد تفطن المشركون لهذا بما أوتوا من ملكة لسانية فتعجبوا معتبرين بقولهم: ﴿أَجَعَلَ اللَّهَ إِلَهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَنُّ عَجَابٌ﴾ [ص، الآية: ٥]؛ لأنهم كانوا يعرفون في لغتهم معنى الألوهية ومن ثم معنى الإله «وكانوا يعرفون أن الألوهية نفي الحاكمة العليا، وكانوا

يعرفون أن مؤدى هذا النوع من القول والنطق به، هو بداية نزع السلطان عن كل أحد إلا الله الواحد، ولذلك استقبلوا هذه العبارة ذلك الاستقبال العنيف<sup>(١)</sup>.

أ- مفهوم الألوهية والإله: الألوهية هي العبادة - كما قدمناه بين يدي المبحث - مأخوذة من الإلهة والألهانية<sup>(٢)</sup>. والإله هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وكل ما اتخد من دونه معبودا إله عند متخرجه والجمع آلهة، وتطلق على الأصنام وما سميت بذلك؛ إلا لاعتقادهم أن العبادة تتحقق لها<sup>(٣)</sup>، والله - عَزَّ وَجَلَّ - ينص على أن العبادة له دون سواه: **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾** [الرخرف، الآية: ٤٨]، فأفادت الآية نفي الشريك مطلقا في الإلهية، وقصد بذكر السماء والأرض، الإحاطة بعوالم التدبرين، والخلق؛ لأن المشركين جعلوا الله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة - إذ جعلوهم بنات الله - فكانت الآية إبطالا للفرقيين مما زعمت إلهيتهم<sup>(٤)</sup>، ونظير هذه الآية قوله - تعالى -: **﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾** [الأئم، الآية: ٤]، وللذين جعلوا أهواءهم آلهة، ذكرهم بقوله: **﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَنْتَخَذَ إِلَّا هُوَنَّهُ﴾** [الفرقان، الآية: ٤٣]، حيث عبدوا الأصنام، وكانت شهواتهم وهوائهم<sup>(٥)</sup>.وها أنت ترى أن الأهواء المتبعه أطلق عليها اسم الإله، وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقم.. الحديث»<sup>(٦)</sup>، وقال - تعالى - على لسان إبراهيم: **﴿وَإِذْ قَالَ**

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١٠٠٥.

(٢) لسان العرب ١٢ / ٤٦٧، مادة «الله» والنهاية في غريب الحديث ١ / ٦٢ .

(٣) لسان العرب، ١٢ / ٤٦٧ ، مادة، «الله».

(٤) التحرير والتبيير ٢٥ / ٢٦٧ .

(٥) التحرير والتبيير ١٩ / ٣٥ .

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦ / ٨١ (كتاب الجهاد بباب الحراسة في الغزو في سبيل الله) والخميسة: ثوب خنز أو صوف معلم. النهاية في غريب الحديث، ٢ / ٨١، ٨٠ .

إِنَّهُمْ لِأَيِّهِ مَا زَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا مَالَهُ إِنِّي أَرَنَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ [الأنعام، الآية: ٧٤]، فتضمن ما حكي من كلام إبراهيم - عليه السلام - جعله الصور المنحوة آلهة، وهي ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية، كما تضمن إنكار تعدد الآلهة.

وإذا كان هذا النوع من التوحيد هو المطلوب من العباد، كان اسم «الله» هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء والصفات، فهو الغاية لجميعها؛ ولهذا ترد الأسماء الأخرى والصفات غالباً مقرونة به، فيقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢١٨]، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٢]، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٢]، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢٤٠]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَدَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَشِيكُونَ ﴿٤﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحضر الآيات ٢٤-٢٢]، فأجرى الأسماء الباقيه كلها صفات له.

إذ إنه الاسم العلّم المتضمن جميع معاني الأسماء والصفات، ومن ثم قال بعض العلماء - رحمهم الله - : «الله أعرف المعرف»، ومرادهم أنه دال بالعلمية على الذات المقدسة الموصوفة بالصفات العلية، وما يدل على ذلك وصفه على وجه الخصوص تارة وأخرى على وجه العموم، كقوله - تعالى - : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحضر، الآية: ٢٤]، قوله - عز وجل - : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْقَيُومُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، قوله - تعالى - : ﴿وَلَلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف، الآية: ١٨٠]، فوصف ذاته العلية في هذه الجمل القرآنية بأنه الخالق البارئ المصوّر الأحد الحي القائم، وفي الأخيرة أضاف الأسماء الحسنة إليه بلفظ العام<sup>(١)</sup>.

(١) انظر مجموعة الرسائل المفيدة عن أعلام السنة المشهورة، ص: ٢٥ بتصرف يسير.

ووجه دلالته عليها، دلّ على الإلهية المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفاته الإلهية، هي صفات الكمال المترفة عن التشبيه والمثال والعيوب والقائص، فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته وجميع الصفات الأخرى؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بمحظى ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فقال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، صفات الجلال والجمال أخص باسم الله<sup>(١)</sup>.

وهذا التوحيد الذي هو توحيد الألوهية أول الدين وأخره، فإن المتأمل في هذا، يجد أنه أول ما دعا إليه الرسول ﷺ هو شهادة ألا إله إلا الله، قال - عليه الصلاة والسلام -: «أُمِرْتُ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهُدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وقال - عليه الصلاة والسلام - معاذ - رضي الله عنه - : «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ؛ فَلَيَكُنْ أَوْلَى مَا تَدْعُهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ».

كما أن الأمر ملحوظ فيه أنه ختم بهذه الجملة، فعن عثمان - رضي الله عنه - ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»<sup>(٢)</sup>، وعن معاذ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وفي المسند: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلْمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ حِينَ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَ رُوحَهُ لَهَا رُوْحًا»، وهي الكلمة التي عرضها على عمه عند الموت.

فهو - إذا - أول واجب على المكلف وأخر واجب. وقد أفصح القرآن في هذا النوع كل الإفصاح وأبدى فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثل؛ بحيث أن كل سورة من

(١) انظر التفسير القيم، ص: ٣٢، ٣١، ومدارج السالكين ١ / ٣٢.

(٢) صحيح مسلم ١ / ٤١ (كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على الناس).

سور القرآن اشتملت على هذا النوع من التوحيد الذي هو توحيد الألوهية «وليس التعليق بهذا الاسم إلا لأنه مبني على إخلاص التاله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وتوحيد القصد؛ لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده»<sup>(١)</sup>، ومن هنا تقرر أن رأس العبادات وأساس الطاعات توحيد الله - سبحانه وتعالى -، التي أفادته كلمته التي إليها كانت دعوة رسلاه الكرام وهي قول: «لا إله إلا الله».

\* \* \*

(١) تيسير العزيز الحميد، ص: ٣٨ وانظر الدين الحالص / ٥٦



## المبحث السابع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

قوله - تعالى - : **«هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ»**<sup>(١)</sup> [الحديد، الآية: ٣].

#### فقه القاعدة :

لقد اشتملت هذه الجملة من القرآن على أربعة أخبار هي صفات لله - تعالى -<sup>(٢)</sup>، وأولها صفة الأولية، ويرادف هذا الوصف في اصطلاح المتكلمين صفة القدم<sup>(٣)</sup>. وهو يستلزم صفة الغنى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصوص الذي يخصصه بالوجود

(١) قال البيهقي - رحمه الله - : «الأول: هو الذي لا ابتداء لوجوده والآخر: هو الذي لا انتهاء لوجوده، وهو صفتان يستحقهما بذاته، والظاهر هو الظاهر بحججه الباهرة وبراهينه البيرة وشاهده أعلامه الدال على ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة، وقد يكون بمعنى الغبة، والباطن: هو الذي لا يستطيع عليه توهם الكيفية ...» الاعتقاد، ص: ١٨، ١٩.

وأولى من هذا ما جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه كان يقول إذا آوى إلى فراشه: «اللهم رب السماوات والأرض، ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن العظيم؛ أعود بك ن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعده شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دون شيء، اقض عني الدين وأعني من الفقر» سنن ابن ماجه / ٢ ١٢٧٥ (كتاب الدعاء، باب ما يدعوه به إذا آوى إلى فراشه) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، انظر سنن الترمذى ٥ / ١٣٨ أبواب الدعوات باب ١٩.

(٢) لقد كان الحادى لاختيار هذه الجملة القرآنية باعتبارها قاعدة تتفرع عنها سبق هو ما لاحظته في هذه الصفات من خصيصة الموسوعية لمعانى باقى الصفات الأخرى، فهي كالوعاء لها بالزروم والقضاء، كما سترأه حين الحديث عن فقهها.

(٣) انظر التحرير والتفسير / ٢٧ . ٣٦٠

بدلاً عن العدم؛ إذ الأول يعني الموجود لذاته دون سبق عدم، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العرض بالجوهر.

كما أنه يستلزم انفراده - تعالى - بصفة الوجود؛ لأنه لو كان غير الله واجباً وجوده لما كان الله موصوفاً بالأولية، فالموجودات غير الله ممكنة، والممكן لا يتصف بالأولية المطلقة؛ فلذلك تثبت له الوحدانية.

ثم إن هذه الأولية في الوجود تقتضي أن تثبت لله جميع صفات الكمال.

وأما الصفة الثانية، فهي صفة الآخرية التي اقتضتها الأولية؛ إذ حين تقرر كونه الأول - وهو متعلق بوجود الموجودات - اقتضى أن يكون وصفه «الآخر» متعلقاً بانتقاض ذلك الوجود، أي هو الآخر بعد جميع الموجودات في السماوات والأرض وهذا هو معنى قوله - تعالى - : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ﴾ [القصص، الآية: ٨٨]، فكل موجود هالك إلا إيه<sup>(١)</sup>، فدللت الآخرية على استمرار وجوده - تعالى - ، وليس فيها إشعار بأنه زائل ينتابه العدم؛ إذ لا يُسْبِّحُ وصف الآخر بالزوال لا مطابقة ولا التزاماً<sup>(٢)</sup>، وهذه هي صفة البقاء في اصطلاح المتكلمين فكل معنى للآخر إلا وفيه معنى الباقي<sup>(٣)</sup> ولا يحسن المطلع على هذا المبحث أن مصطلح البقاء لم يستعمل في القرآن الكريم؛ إذ إن الحق - سبحانه - قد تكلم عن نفسه، فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِي وَيَقِنَّ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْأَكْرَامِ﴾ [الرحمن، الآيات: ٢٦، ٢٧]، فذكر في الآية الأولى بالفناء، ثم عقب عليه بما ينبي عن صفة البقاء لذاته - تعالى - ، وكذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه، الآية: ٧٣]، فمحكم مقوله السحرة التائبين الذين آثروا الباقي؛ الذي هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الفاني؛ الذي هو فرعون.

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٧.

(٢) نفسه ٢٧ / ٣٦١.

(٣) نفسه.

وأما الظاهر فإنماعني به - والله أعلم - ظهور أدلة صفاته الذاتية لأهل النظر والاستدلال والتدبر في آيات الكون، فيكون هذا الوصف جامعاً لصفاته النفسية وهي الوجود؛ إذ إن أدلة وجوده بينة واضحة، وصفاته الأخرى مما دل عليها فعله من قدرة، وعلم وحياة، وإرادة، وصفات الأفعال من الخلق والرزق والإحياء والإماتة، كما علم في قوله: **«هُوَ الْأَوَّلُ»** - أو ما دل عليها - تنزيهه عن النقص كصفة الوحدانية والغنى المطلق، وهذا المعنى هو الذي يناسبه المقابلة بالباطن الذي يعني أنه محجوب عن إدراك الحواس الظاهرة قال - تعالى - : **«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ»** [الأعراف، الآية: ١٠٣].

وفائدة إجراء الوصفين المتصادين على اسم الله - تعالى - في هذه الآية القاعدة؛ للتتبّع على عظم شأنه - سبحانه - ليتدارك العالموں مواقعها، ونظير ذلك من دلالة الآثار على المؤثر، فإن دلائل تصرفه - سبحانه - بينة للمتبصر، وإن كانت كيفيات تصرفه محجوبة عن الحس<sup>(١)</sup>.

\* قوله - تعالى - : **«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ الْأَطِيفُ الْفَيْرُ** [الأعراف، الآية: ١٠٣].

### فقه القاعدة :

الإدراك معناه اللحاق والوصول إلى الشيء، والتدارك التلاصق، وفي التنزيل: **«حَقٌّ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا»** <sup>(٢)</sup> [الأعراف، ٣٨]، ويقال تبعه وأتبعه حتى أدركه، قال - تعالى - : **«فَلَمَّا تَرَكَ الْجَمِيعَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** <sup>(٦١)</sup> [الشعراء، الآية: ٦١]

ويقال: أدركه الطرف والموت، ومنه قوله - تعالى - : **«حَقٌّ إِذَا أَدَرَكَهُ الْفَرْقُ** [يونس، الآية: ٩٠]

في كل ذلك معنى اللحاق بعد اتباع حسي أو معنوي.

(١) التحرير والتنوير بتصرف يسرى ٢٧ / ٣٥٩ وما بعدها.

(٢) وانظر لسان العرب، ٤١٩ / ١٠، مادة "درك".

كما يقال فيما بعد أو دق وخفى، لا يدركه الطرف، فإن اجتهد النظر لإدراك ما لطف ودق إعمال له، كإعماله في محاولة إبصار بعيد.

ومن هنا فسر الجمهور الإدراك في الآية برأوية الإحاطة التي يعرف بها كنهه - عَزَّ وَجَلَ - فتكون الآية بمعنى: **﴿فَيَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَفَّهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾** [طه، الآية: ١١٠] ففي إحاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم، وكذلك نفي إدراك البصر للشيء لا يستلزم نفي رؤيته إياه مطلقاً، وهذا أقوى ما جمع به أهل السنة بين الآية والأحاديث الصحيحة الناطقة برأوية البشر لربهم في الآخرة من جهة اللغة<sup>(١)</sup>.

فالإدراك المعتبر به في الآية غير الرؤوية؛ لأن الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، وقد يدركه ولا يراه، فيبين اللفظين عموماً وخصوصاً أو اشتراكاً لفظ<sup>(٢)</sup>، «فإن كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه؛ فكان معلوماً بذلك أن قوله - تعالى - **﴿فَلَا تُذَرِّكُهُ أَبْصَرُهُ﴾** من معنى لا تراه الأ بصار بمعزل؛ وأن معنى ذلك: لا تحيط به الأ بصار، لأن الإحاطة به غير جائزة»<sup>(٣)</sup>، فليس - إذا - كل من رأى شيئاً يقال: إنه أدركه، كما لا يقال: أحاط به، وقد سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن ذلك، فقال: ألسنت ترى السماء؟ قال السائل: بل! فقال: أكلها ترى؟ قال: لا. ومن ثم علم أن الرؤوية قد تقع ولكن بلا إدراك، والإدراك هناك إدراك البصر، فيكون معنى الآية: لا تحيط به الأ بصار - لأنه أعظم من أن تقع الإحاطة به فلا تطيقه الأ بصار، فعموم النكرة في سياق النفي يدل على انتفاء أن يدركه شيء من أ بصار المبصرين<sup>(٤)</sup>، ثم عطف - تعالى - ذلك قوله: **﴿وَهُوَ اللطِيفُ الْخَيْرُ﴾**، وهي صفة أخرى، أو هو تنزيل

(١) انظر تفسير النار ٧/٦٥١.

(٢) انظر دقائق التفسير ٣/١٨٦.

(٣) جامع البيان ٨/٣٠٠.

(٤) انظر جامع البيان ٨/٣٠٠ وانظر التحرير والتنوير ٧/٤١٥.

للاحتراض؛ دفعاً لتوهم: أنَّ من لا تدركه الأَبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه<sup>(١)</sup>، واللطيف من اللطف وهو الرفق في المعاملة والعمل<sup>(٢)</sup>، قال ابن الأثير في تفسير اللطيف: «هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه»<sup>(٣)</sup> فأما العلم فمن قوله - تعالى - : ﴿أَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى، الآية: ١٩]، فهو العليم بالغواصين والدقائق من المعاني والحقائق، وقد يقال - أيضًا - رفيق بهم يصل إليهم أرزاقهم بمنتهى العناية<sup>(٤)</sup>، وأما اللطيف في الفعل فمن مثله قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ رَّبِّ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف، الآية: ١٠٠]، فسر بلطيف التدبير والعناية<sup>(٥)</sup>، وقد أفادت هذه القاعدة القرآنية العقدية عظمته - عَزُّ وَجَلُّ - التي تعلت أن يحيط بها شيء من أَبصار المخلوقين، قال صاحب التحرير والتنوير «وفيها تعريض بانتفاء الإلهية عن الأصنام التي هي أجسام محدودة محصورة متميزة، فكونها مدركة بالأَبصار من سمات المحدثات لا يليق بالإلهية، ولو كانت آلة - كما يزعمون - وكانت متحجبة عن الأَبصار»<sup>(٦)</sup>، فبذكر هذه الآية يكون المولى - عَزُّ وَجَلُّ - قد امتدح نفسه، ومعلوم أن كون شيء لا يرى ليس صفة مدح؛ لأن النفي المغض لا يكون مدحًا إن لم يتضمن أمراً ثبوتاً، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه، وإذا كان النفي هو الإدراك، فهو - سبحانه - لا يحاط بما رؤية كما لا يحاط به علماً، ونحن في هذا المقام يكفينا أن نقول: إن الآية أصل في تزييه الله - عَزُّ وَجَلُّ - عن الرؤية البصرية.

(١) التحرير والتنوير / ٧ / ٤١٦.

(٢) انظر تفسير المنار / ٧ / ٦٥٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث / ٤ / ٢٥١.

(٤) تفسير المنار / ٧ / ٦٥٤.

(٥) تفسير المنار / ٧ / ٦٥٥.

(٦) التحرير والتنوير / ٧ / ٤١٤.

ولا تحسين أن في الآية دلالة على انتفاء أن يكون الله يرى في الآخرة - كما تمسك به نفاة الرؤية -؛ لأن للأمور الآخرة أصولاً لا تجري على ما تعارفناه في الدنيا، والأدلة على إثبات الرؤية في الآخرة كثيرة من الكتاب والسنة، وجمهور أهل السنة مثبت لها، على أنه تخالف الرؤية المتعارفة.

عن مالك- رحمة الله-: «لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيمة لم يعير الكفار بالحجاب في قوله- تعالى-: ﴿وَلَا إِيمَانَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ يَحْجُوْنَ﴾ [المطففين، الآية: ١٥]، ففهم منه أن المؤمنين ليسوا محظوظين عنه، وهو كذلك، قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَ وَزِيَادَةً﴾ [يونس، الآية: ٢٦] والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله الكريم<sup>(١)</sup>؛ ولأن أبصار المؤمنين في الآخرة باقية، فلا استحالة أن يرى الباقى بالباقي، بخلاف حالة الدنيا فإن أبصارهم فيها فانية، فلا يرى الباقى بالفاني<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر التحرير والتنوير ٧ / ٤١٥، وأصوات البيان ٢ / ٢٠٦.

(٢) فتح الباري ٨ / ١٣٠٣.

## المبحث الثامن :

### تطبيقات على بعض الأسماء والصفات

#### أ - تطبيقات على بعض الأسماء :

ويحسن قبل الشروع في التطبيق الإشارة إلى أصلين متعلقين بأسماء الله - عَزَّ وَجَلَّ - من حيث الاستعمال القرآني.

- فتارة ترد الأسماء الحسنى تابعة لغيرها، وفي هذا الحال، تستعمل استعمال الصفات كمجيئها بعد لفظ الجلالة: «الله»، واسم: «الرحمن»، وهذا هو الغالب، مما يدل دلالة بينة على أن جانب الوصفية متصل فيها. ولذا لم يختلف عن هذا إلا اسم: «الله»، ولعل ذلك «لغلبة جانب العلمية عليه حيث استعمل استعمال الأعلام، فكان علماً على الذات»<sup>(١)</sup>.
- وتارة تستعمل متبوعة فيكون غيرها وصفاً لها وتابعاً، وهذا النوع ينحصر في اسم: «الله»، واسم: «الرحمن».

وعلى ضوء ذلك فاسم الله: «الحكيم» - مثلاً - لم يستعمل إلا استعمال الأوصاف، فلم يرد قط إلا وهو تابع لغيره مما يدل على أن معنى الوصفية فيه متمكن. فدلل بوضعه العربي على ذات الله المقدسة وعلى صفتة الحكمة، وهذه الدلالة عليهما معاً تسمى دلالة مطابقة، لدلالة الحكيم على معناه وهو الذات والصفة ودلاته على الصفة التي اشتقت منها وهي الحكمة وحدها أو الذات وحدها.

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ٢٦ / ٢ وما بعدها.

وهي واضحة في استعماله تابعاً لغيره، كما في قوله - تعالى - : «وَمَا أَنْصَرْتُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» [آل عمران، الآية: ١٢٦]، وكما دل على الذات والصفة التي اشتقت منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخرىين، بالتضمن واللزموم، فidel على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزموم، وبذلك دل : «الحكيم» على الله وصفاته بالمطابقة والتضمن واللزموم، وهكذا الأمر في جميع أسمائه - تعالى - ، فهي مشتملة بذلك على أنواع الكلمات تابعة لأنواع الدلالة اللغوية<sup>(١)</sup>. فهي أسماء ونوع، ولا تنافي فيها بين الغلمية والوصفية.

وبتطبيق هذا الأصل على أجزائه وأفراده يتبيّن المراد ويتبّع المعنى المطلوب:

\* اسم : «القدوس»، ومعنى القدس الظاهر من العيوب، المنزه عن الأولاد والأنداد<sup>(٢)</sup>، فهذا المعنى يدل بلفظه ومعناه على مجرد التنزه، غير أن المتبصر في مقاصد التعبير بهذا الاسم، يمكن أن يستنبط بطريق اللزوم أن القدس المنزه عن العيوب والنقائص، لابد له من الاتصال بضدّها، فالضم عيب، فلا بد أن يكون سميعاً، والجهل نقص، فيلزم أن يكون عالماً، والخس عيب، فلا بد من وصفه بالكلام، وهكذا يظهر بهذا الموجز أن اسم الله «القدس» قد استعمل على طريقتين :

١- التنزه الخالص من العيوب والنقائص .

٢- الاتصال بالأوصاف الكمالية .

قال ابن القيم - رحمه الله - : «وأما صفات السلب الحمض، فلا تدخل في أوصافه - تعالى - إلا أن تكون متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والألوهية،

(١) انظر مدارج السالكين ١ / ٣٠، وانظر بداع الفوائد ١ / ١٣٤.

(٢) الاعتقاد، ص: ١٥.

والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب كقوله - تعالى - : ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٥]، فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله - تعالى - : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق، الآية: ٣٨]، متضمن لكمال قدرته، قوله: ﴿وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ﴾<sup>(١)</sup> [يونس، الآية: ٦٦]، متضمن لإحاطة علمه.

وما قيل في العني الحميد، يقال في العفو القدير، فإن في العفو وفي صفتة ما يدل على رحمته بعباده، وإكرامه لهم، وإحسانه إليهم بالتجاوز عن السيئات، وفي القدير ما يدل على إحاطته وقهره لجميع الموجودات، لا يخرج شيء منها، ولا ينفذ عن قدرته.

ففي الجمع - إذا - بين الكمالين، ينتج كمال ثالث، ولا شك أنه أعظم دلالة من الكمال المفرد؛ لأنه يدل على كمال في تحصيله جزءاً كمال، ومن ثم قال ابن القيم - رحمة الله - : «فتأمله فإنه من أشرف المعارف»<sup>(٢)</sup>.

\* الأسماء المزدوجة : وتعني بها تلك الأسماء الحسنة التي تجيء مقترنة بعضها بعض اقتران لزوم بمحاثة حروف الكلمة، من ذلك أسماء: المعز، والمذل، والنافع، الضار؛ إذ لا يظهر معنى المعز في حق الله إلا باجتماعه مع المذل؛ لأن الإعزاز المطلق يدخل فيه - مثلاً - إعزاز الكافر، وهذا مما لا يحبه الله ويرضاه، وفي المذل إذلال المؤمن وهو مثل سابقه، فإن قيده معنى المعز بالمذل، صار المعنى: معز المؤمنين ومذل الكافرين. فإعزازه له محل وإذلاله له محل، فلا يعز في كل وقت ولا كل شخص، ولكن يعز من يشاء ومتى شاء، ويذل من يشاء ومتى شاء.

ولا يشك عاقل في دلالتهما على غير الكمال في انفرادهما ودون اجتماعهما، قال ابن القيم: «فلا يطلق عليه بمفرده بل مقروناً بمقابله؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم بما

(١) انظر بدائع الفوائد / ١، ١٣٣، ١٣٤.

(٢) بدائع الفوائد / ١، ١٣٣.

يقابله.. كما أنه لا يبني عليه بمفرده، كأن يبني عليه بالمنع وحده أو الإضرار وحده، فإنه لا يسوغ؛ لأجل ذلك كانت هذه الأسماء في مجرد الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض «<sup>(١)</sup>».

### ب تطبيقات على بعض الصفات :

ولا بأس من الإشارة في هذا المطلب - أيضاً - إلى أصلين هما:

\* اسم : «المجيد» ، والمجيد معناه: الجليل، الرفيع القدر المحسن الجليل البر<sup>(٢)</sup>، وهو من الأسماء الموسوعية المتضمنة سعة المعنى، حيث يدل على جملة أوصاف عديدة، فالمجيد اسم والصفة من المجد، والمجيد من اتصف بعده صفات كمالية، ولا يبين معناه إلا بذلك، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومن ذلك قول العرب: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»<sup>(٣)</sup>. فمن تدبر القرآن - وهو العربي المعجز - ألفاه يستعمل هذا المعنى لما دل عليه في اللغة من الكثرة والزيادة من ذلك قوله - تعالى - : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيد﴾ [البروج، الآية: ١٥]، فوصف ذاته بصفة المجد الدالة على عظمته وسعته وشرفه وعلوه وقوله ﷺ في آخر الصلاة على النبي ﷺ: «إنك حميد مجيد»<sup>(٤)</sup>؛ لأن المقام مقام الدعاء الذي تطلب فيه الزيادة وسعة العطاء وكثرته، ومن أجل ذلك ذيل هذا المطلوب باسم يناسب المطلوب منه استجداه لكترة العطاء وزيادته،

(١) انظر المصدر السابق ١ / ١٣٩ بتصرف يسير.

(٢) الاعتقاد، ص: ١٧.

(٣) أساس البلاغة، ص: ٥٨٢. وقال ابن الأثير - رحمه الله -: «وَفَعِيلٌ أَبْلَغَ مِنْ فَاعِلٍ، فَإِنَّهُ يَجْمَعُ مِنْ الْجَلِيلِ وَالْوَهَابِ وَالْكَرِيمِ» النهاية في غريب الحديث ٤ / ٢٩٨ «باب الميم والجيم».

(٤) انظر الحديث في صحيح البخاري بشرح فتح الباري عن أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - ٤٠٧/٦ (كتاب الأنبياء، باب ١٠).

فهو سؤال له وتوسل إليه - سبحانه، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعه عند المسئول.

• أسماء : الغني ، الحميد ، والعفو القدير ، ونحوها.

قد ترد بعض الأسماء مقتربة ، فيجتمع الأسمان ويدلان بذلك الاقتران على زيادة كمال<sup>(١)</sup> ، من ذلك الغني الحميد ، والعفو القدير ، والحمد الجيد ، وهكذا عامة الصفات المقتربة ، فإن الغنى صفة كمال ، والحمد كذلك ، واجتماعهما كمال آخر ، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما<sup>(٢)</sup>.

• إن مرجع معاني الصفات الذاتية والفعلية إلى اسمى الحي والقيوم ، فترجع للحي صفات الذات وللقيوم صفات الفعل ، وهذا الأسمان من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل: إنهمما الاسم الأعظم . فعن أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَلَا يَنْهَا إِلَّا هُوَ أَعْلَمُ بِالْأَعْلَمِ﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ﴾<sup>(٣)</sup> [آل عمران، الآية: ٢٠١]. فإنهمما يتضمنان صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه ، فدلل القيوم على معنى الأزلية والأبدية ، واقترانه بالحي يستلزمسائر صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودومتها وانتقاء النقص والعدم عنها أبداً وأبداً ، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ﴾ أعظم آية في القرآن؛ كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ<sup>(٤)</sup>.

(١) والتعبير «بزيادة كمال» لا يعني أن هذا الكمال بالمفهوم يحتاج إلى زيادة ، وإنما المراد منه: زيادة وضوح وتجلى لهذا الكمال بالنسبة للخلق.

(٢) وانظر بدائع الفوائد، لابن القيم - رحمه الله.

(٣) عن المعبود شرح سنن أبي داود ٤ / ٣٦٤ (باب الدعاء).

(٤) انظر صحيح مسلم ٢ / ١٩٩ (كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي).

فعلى هذين الأسمين مدار الأسماء الحسنة كلها، وإليهما يرجع معانيها فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يختلف عنها صفة منها، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته فانتظم هذان الأسمان صفات الكمال أتم انتظام<sup>(١)</sup>.

إن صفات الأفعال كلها متعلقة وصادرة عن صفات ثلات :

١- القدرة الكاملة .

٢- المشيئة النافذة .

٣- الحكمة البالغة .

وذلك بطريق النزوم، فمن لا قدرة له ليس بفاعل، ومن لا مشيئة له فليس بمحتر، ومن لا حكمة له من وراء فعله فغير منه عن العبث<sup>(٢)</sup>.

ولهذا فهو - سبحانه - يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمره ويحبه ويغضبه ويثيب عليه ويعاقب، ولا يصل إلى تصور هذا إلا من غاص في أعماق أفعاله للوقوف على كماله، واشتكته عظمته؛ لأن هذه الصفات مقتضية لآثارها.

فأوصاف العظمة والكبراء والمجد والجلال - مثلًا - تملأ قلوب العباد هيبة لله وتعظيمًا له وتقديستا.

وأوصاف العز والجبروت تملأها ذلاً وانكساراً وخضوعاً بين يدي رب - جل شأنه - .

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١/٩٠-٩٢.

(٢) انظر القواعد الكلية للأسماء والصفات ١/٩٢، ٩٣.

وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأها أملاً واستبشاراً وطمئناً في فضله وإحسانه وجوده وامتنانه.

وها هي ذي آثار الرحمة قد بدت في بعث رسالته، وإنزال كتبه إنقاذًا للعباد من الضلال.

وكونه - تعالى - ذا حياة وعلم وإرادة وقدرة وسمع يستلزم ظهور ما يدل على ذلك، وقل مثل هذا في باقي صفاته - عَزُّ وَجْلُ - .

\* \* \*



## الفصل الثاني :

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾

المبحث الأول : القرآن كتاب هدى وإعجاز

المبحث الثاني : القرآن أصل الأصول

المبحث الثالث : القرآن والكتب السماوية

المبحث الرابع : القرآن والسنة النبوية

المبحث الخامس : من مقاصد القرآن الكريم

المبحث السادس: خصائص القرآن الكريم



بين يدي الكلية :

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾: «أي اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي في القرآن، أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللتا عليه في القرآن؛ إما دلالة مُبَيَّنةً مشرورة وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب».

ثم قال: «فصرف خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً أو تأصيلاً»<sup>(١)</sup>.

وبهذا بان شمول القرآن لقضايا الناس واتساعه لكل ما ينفعهم إجمالاً وتفصيلاً، فلزم منه أنه هادر ومنع، وأن الهدایة والنجاة معقودة على اتباعه والتزامه تصديقاً وتحكيمتاً.

كما لزم من هذه الآية الكلية، إثبات كمال الشريعة وتمام نعمته، فلم يمت رسول الله ﷺ إلا ودين الله قد كمل وحجته قد قامت، كما قال عز من قائل -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَقْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية: ٣]

قال الشاطبي - رحمه الله -: «فكل من زعم أنه بقي في الدين شيء لم يكمل فقد كذب بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾»<sup>(٢)</sup>، فمن التمس الهدي في غير دين

(١) الجامع لأحكام القرآن / ٦ .٤٢٠

(٢) الاعتصام / ٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

الله، فقد رد على الله أمره وخبره، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٥].

وبناء عليه فسنشرف على الكلية المذكورة من خلال مجموعة من المباحث المتناولة لمضامين تبرز قيمتها ومحفوظاتها.

\* \* \*

## المبحث الأول :

### القرآن كتاب هدى وإعجاز

#### المطلب الأول :

#### حاجة الإنسان إلى الوحي

حين أراد الله - عَزَّ وَجَلَّ - بإرادته الكونية الأزلية فأوجد هذا المخلوق الذي هو الإنسان، قذف فيه قابلية التلقى مستعداً للعلم والانتفاع بما خلق الله، ﴿وَعَلَمَ إِدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٠] ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقُرْآنِ عَلَّمَ إِلَيْنَا مَا تَرَكَ يَعْلَمُ﴾ [العلق، الآيات: ٤، ٥]، وذلك ترشيحًا له للخلافة في الأرض لعمارتها، ولذلك يكون ذلك مظهراً من مظاهر الرحمة بالملكفين.

وليخلق الله فيه روح المكافحة خلقه مستعداً - أيضاً - للتأثر بداعية الخير وداعية الشر «فَأَوْدَعَ فِيهِ - بِحِكْمَتِهِ الْبَاهِرَةِ - قَوْتِينَ: قُوَّةً مُلْكِيَّةً تَتَشَعَّبُ مِنْ فِيْضِ الرُّوحِ الْمُخْصُوصَةِ بِالإِنْسَانِ.. وَقُوَّةً بَهِيمِيَّةً تَتَشَعَّبُ مِنْ النُّفُسِ الْحَيْوَانِيَّةِ الْمُشَرِّكَ فِيهَا كُلُّ حَيْوَانٍ.. ثُمَّ جَعَلَ بَيْنَ الْقَوْتِينِ تَرَاحِمًا وَتَجَاذِبًا، فَهَذِهِ تَجَذُّبٌ إِلَى عُلُوٍّ وَتَلْكُ إِلَى سُفُلٍ، فَإِذَا بَرَزَتِ الْبَهِيمِيَّةُ وَغَلَبَتِ آثَارُهَا كَمِنْتِ الْمُلْكِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْعَكْسُ، وَلِلْبَارِيَّةِ - جَلَّ شَانِهِ - عَنْيَا بِكُلِّ نَظَامٍ»<sup>(١)</sup>، حيث يَعْلَمُ - عَزَّ وَجَلَّ - عاقبةَ التأثر بِكُلِّ مِنْهُما، وبذلك كان الإنسان في حاجة إلى الوحي الإلهي يقيه من التبدد بين الجهتين ويحفظه من دواعي الشر والفساد.

(١) حجة الله البالغة ١ / ٧١.

وعلى هذا المبدأ أرسل - سبحانه - الرسل، وأنزل الكتب تذكيراً بما يسعد الإنسان وتنفيراً مما يشقيه، كل ذلك رحمة به فهو الرؤوف الرحيم.

ولذا اقتضت حكمته بعث الرسل إلى خلقه على سبيل تفهيم شريعته وتعريفهم إياها حتى تكون لهم سبباً لخروجهم من الظلمات إلى النور، فقد يبيّن أن من أسلم وجهه إليه وانقاد لشريعته وانضم في سلك متبعها، تأكّد في الملأ الأعلى أنه من المرضيin، كما تأكّد اللعن على المخالف للشريعة المناوئ لها قال تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَلَمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان، الآية: ٢٣]، وهذه البشارة والنذارة، إنما هي من طبيعة الرسالة التي نيطت بالمعوثرin من الأنبياء والمرسلين، « ومن ها هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال ليس إلا هديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم توزن الأقوال والأعمال والأخلاق، ويتبعهم يتميز أهل الهدي من الضلال »<sup>(١)</sup>.

فالوحى - إذا - ما جاء إلا لتسبيح السبيل فتبرز للأفق البشري دائرة الطيب متميزة عن دائرة الخبيث، وبذلك يمكن للنفس الإنسانية أن تصفو من كدر السوء وفاسد الأعمال، وتتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي الأمين.

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### بعض مظاهر الهدى في القرآن الكريم

يقول الله - تعالى - : **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** [الإسراء، الآية: ٩]

فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أسد وأعدل وأصوب، وهي آية أجمل الله فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها لشمولها الجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، كما أن فيها إيماء إلى ضمان سلامه أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم، ذي أفنان لا يحول دونه ودون الوصول إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبياع إلا سلكه إليها تحريراً أو تحذيراً بحيث لا يعد المتدير في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة، كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، فجاءت معاني الهدایة في هذه الآية - كما أسلفنا - ثم فصلت في الواقع كثيرة من كتاب الله؛ لأن الهدایة مطمح من مطامح هذا الكتاب، فلا غرو - إذا - أن يشيد به منزله - سبحانه - وذلك قصد بيان وزنه وقيمه حتى يعظم قدره عند عباده.

و قبل أن نورد بعض مظاهر الهدایة فيه - من خلاله - فإنه يجعل بنا أن نعرج على ذكر بعض فضائله؛ لتكون حادياً إلى الإنصات لفحواه والإطلاع على هداه.

لقد أخبر - سبحانه - أنه أنزل كتابه ليديروا آياته بعقولهم ويذكروا ما قال **﴿أَلَّا يَأْتِي بِهِمْ فَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مُبَرَّكٌ لَّيَدْبَرُوا إِيمَانَهُمْ وَلَيَسْتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** [ص، الآية: ٢٩]، فوسمه بالبركة ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة، وبينالون باتباعه الزلفى والكرامات، وفي قوله: **﴿لَيَدْبَرُوا إِيمَانَهُمْ﴾** إخبار بأنه أنزله

للذكر والتفكير فيه، وخاص بالتفكير والتذكرة أهل العقول أولي الألباب ثم أخبرهم أن اتباع ما فيه، سلوك للصراط المستقيم والنور المبين والعصمة لمن تمسك به من كل هلة وشفاء لما في الصدور، قال - تعالى - : **﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾** [١٥] يهدى به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم منظلمت إلَى النور ياذنهم ويهدى بهم إلى صرط مستقيم [١٦] [المائدة، الآيات: ١٥، ١٦]، فضمن الله - عز وجل - لمتابعة الهدى لطريق السلامة والسلوك للصراط المستقيم، ووصف المتبوعين له كيف قلوبهم وما ورثهم من خشيتهم، فقال - عز وجل - : **﴿أَلَّا هُنَّ زَلَّ أَحَسَنَ الْحَدِيثَ كَيْنَانَا مُتَشَبِّهًا تَشَافِي لَقَسَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الزمر، الآية: ٢٣]، فأخبرهم أنه لا حديث يشبهه في حسنها، وأخبر أنه متشابه غير مختلف فيها، ثم أخبر أن فيه التكرار عن معاني ما قال إن تحت قلوبهم عند تلاوة ما في سوره عن فهم معانيه تكرر في سورة أخرى ففهموه، فقال: **﴿مَتَانِي﴾**<sup>(١)</sup> [١]، وفي إجراته من الضلالة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، والنجاة من الشقاء، قال - عز وجل - : **﴿فَمَنْ أَتَيَّعَ هُدَىً فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَسْقُ﴾** [طه، الآية: ١٢٣]، وقد سماه الله - تعالى - برهاناً ونوراً، فقال: **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾** [النساء، الآية: ١٧٤]، وسماه بصائر وهدى ورحمة، فقال - تعالى - : **﴿هَذَا بَصَرٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾** [الجاثية، الآية: ٢٠]، وسماه موعدة وبياناً، فقال - تعالى - : **﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران، الآية: ١٢٨]، وسماه حقاً، فقال - تعالى - : **﴿وَالَّذِي أُوحِيَنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾** [فاطر، الآية: ٣١]، وقال - تعالى - : **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يَالْحَقِّ فَاعْبُدْهُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ﴾** [الزمر، الآية: ٢]، وسماه فرقاناً وشفاء لما في الصدور، وأخبر أنه أحسن القصص وأنه حكمة باللغة، وبين أنه: **﴿لَا يَأْلِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ**

خليفة، [فصلت، الآية: ٤٢]، وشهدت الجن أنه: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن، الآية: ٢٣]، فآمنت به واتبعه هداه، ونال شرف الحفظ من قبل الله، على خلاف الكتب السالفة التي تولى حفظها أهلها من الذين هادوا والربانين والأحبار، حيث قال - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْوَرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الْبَيِّنُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة، الآية: ٤٤]، وبين - تعالى - كيف ناط بهم كِتَبُ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شَهَادَةً [الحجر، الآية: ٩]، وقال نبيه: ﴿إِنَّا سَنُنَقِّي عَيْنَكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمر، الآية: ٥] قال الفراء - رحمة الله - : «ثقيلاً ليس بالخفيف ولا السفاسف؛ لأنَّه كلام ربنا - تبارك وتعالى - »<sup>(١)</sup>، وحسبنا أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصلت فيه أفهم العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغوين وحكماء، فشابه الشيء التحيل في أنه لا يقوى أحد على الاستقلال بمعانيه<sup>(٢)</sup>.

وفي الحض على تعظيم قدره وعقله وفهمه، يقول - تعالى - : ﴿هُنَّ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَائِسِهِ خَشِعاً مُصَدِّعَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلْكَ الْأَمْثَلُ نَصَرِّبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ [الحشر، الآية: ٢١] فأخبر - تعالى - عن عظيم قدر القرآن وضرب الجبل مثلاً لقلوب المستمعين له؛ ليعلموا فيتدبروا آياته ويتفكروا في عجائبه، وضرب هذا المثل دال على أن من لم يفهم عنه ما أنزل في كتابه، أن قلبه أقصى من الحجر الأصم، وأن ما فيه تتصدع الجبال لو فهمته خشية للمتكلم به<sup>(٣)</sup>، وأشار إليه - سبحانه - بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٣]، فجعله الأصل الكلي الجامع لجميع الهدى، وهو اتباع طريق الإسلام والتحرز

(١) معاني القرآن / ٣ / ١٩٧.

(٢) التحرير والتبيير / ٢٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) فهم القرآن ومعانيه، ص: ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

من الخروج عنه إلى سبيل الضلال<sup>(١)</sup>، وهو القائل - سبحانه - : «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ إِلَسْلَمَ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ» [آل عمران، الآية: ٨٥]، فكل من اتبع تشريعًا غير التشريع الذي جاء به محمد بن عبد الله، فاتياعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح مخرج عن الملة؛ لأن الدين إذا لم يكن هذا الإسلام فما هو إلا رسوم وتقاليد يتبعها القوم رابطة للجنسية والآلة للعصبية ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فسادا والأرواح إظلاماً، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدواً وفي الآخرة إلا خسراً<sup>(٢)</sup>.

- ومن الهدى الذي جاء به القرآن - وله حق السابقة في ذكره على غيره - توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - حيث بين القرآن فيه معالم السبيل إليه، فتجلى في تبيانه للعقيدة توحيده - جل وعلا - في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وعبادته.

ومن يطالع كتاب الله ويستقرئ مواطن التوحيد، يقف على هذا التقسيم: فمن توحيد الربوبية قوله - تعالى - : «وَلَئِن سَأَلْتُهُم مَنْ خَلَقُهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» [الزخرف، الآية: ٨٧]، قوله - تعالى - : «قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَن يَمْلِكُ الْأَسْمَاءَ وَالْأَبْصَرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونَ» [يونس، الآية: ٣١]، وهذا النوع من التوحيد جلت عليه فطر العلاء أما توحيده - سبحانه - في أسمائه وصفاته؛ فيبني على أصلين:

أ - تنزيهه عن مشابهة المخلوقين، قال - تعالى - : «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى، الآية: ١١].

ب - الإيمان بما وصف به نفسه أو وصف به رسوله ﷺ، كما قال بعد قوله -

(١) التحرير والتنوير / ٨ / ١٥٦.

(٢) تفسير النار / ٣ / ٣٥٨.

عَزَّ وَجْلَ - : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ، شَفٌِّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشوري، الآية: ١١] بصد قطع الطمع في إدراك كيفية الاتصال.

ومن توحيده في عباداته قوله - عَزَّ وَجْلَ - : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا لَآ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد، الآية: ١٩]، وضابط هذا النوع من التوحيد، هو تحقيق معنى لا إله إلا الله ، وهي مشتملة على نفي وإثبات، فمعنى النفي: خلع جميع أنواع العبودات غير الله كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات: إفراده - جلا وعلا - بجميع أنواع الطاعات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام -. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد ومن مثلها قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحَّى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ [الأنياء، الآية: ٢٥]، قوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَكَ أَنَّكَ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنياء، الآية: ١٠٨]، « وهي آية ورد فيها الوصف جامعاً لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متبوع لها وهو الإيمان بوحدانيته - تعالى - وإبطال إلهية ما سواه، وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها؛ لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عنها »<sup>(١)</sup>، فها أنت ترى أن الجمل التيتناولت التوحيد جاءت بهدى أعدل وأقوم في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وكذا في توحيد عبادته.

٢- ومن هذا الهدى الأقوم الذي أرشدنا إليه الكتاب، بيانه لآصرة العقيدة وأنها أوثق وأكذ وأجدى من سواها من الأوصاف والروابط الأخرى، قال الله - عَزَّ وَجْلَ - : ﴿وَنَادَى رُوحٌ رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَكِيمُينَ﴾ [٤٤] قال يَسُوُّحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَلِيبٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُلُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٤٥] [هود، الآيات: ٤٦-٤٥]، فكان

(١) التحرير والتنوير، ١٧٠، وانظر الفصل الأول من هذا البحث.

هذا النداء من النبي نوح - عليه السلام - نداء دعاء، وذلك حين تحركت بداخله غريزة الأبوة المستلزمة للشفقة والعطف على الابن فأجلجاته ليستنجز ربه وعده ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمَيْنَ﴾ (١) قَالَ يَسْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمِلَ عَيْرَ صَنْلِحٍ فَلَا شَفَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ أَعْظُمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلَيْنَ﴾ (٢) [هود، الآيات: ٤٥، ٤٦]، وهنا تنجلی قيمة العقيدة التي تعلو فوق كل القيم والعلائق، وبحضورها تنبت كل الوسائل. فهداه ربه - سبحانه - إلى التي هي أقوم، فكشف له عن حقيقة لم تكن له في الحساب، وهي أن المعاير آيلة إلى الدين والعقيدة تعرض عليهم دون سواهما، وأن العبرة بهما لا بغيرهما من الأنساب ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمِلَ عَيْرَ صَنْلِحٍ﴾ إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين، حقيقة العروة الوثقى التي ترجع إليها الخيوط جميعاً، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة<sup>(١)</sup>، وكان حال محمد ﷺ حين قال لعمه أبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» كان حاله كحال نوح - عليهمما الصلاة والسلام - فأنزل الله - عز وجل - ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِكُنَّ فَرِيقًا مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَبُ الْجَنَاحِيْمِ﴾ (٣) [التوبه، الآية: ١١٣] حيث أرشده ربه إلى إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه أحياهم وأمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب منه.

وبذلك يتمحض الولاء كله لله، وعلى أساس هذا الولاء تقوم كل رابطة وكل وشيعة فيكون الله - تعالى - قد هدى المؤمنين بحسب كل شبهة، وذلك بالاعتصام به من كل ضلاله، وحسبيهم بعد ذلك نصرة الله وولاؤه لهم.

(١) في ظلال القرآن / ٤ ١٨٨٠.

(٢) أسباب التزول للواحدي، ص: ١٧٧، وانظر التفسير الكبير / ٨ ٢١٤.

وقد يغتر من يسمع استغفار إبراهيم لأبيه الحكيم في القرآن الكريم، وذلك في نحو قوله - تعالى - : ﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِيْ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء، الآية: ٨٦]، وكذلك قوله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبه، الآية: ١١٤]؛ إذ إن استغفار إبراهيم لأبيه قد يثير تعارضًا بين السابق واللاحق؛ لذلك تصدى القرآن للجواب عنه ولتعليم من اغتر بهذه الحكاية، فعقبه بقوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا نَبَّئْنَ لَهُ أَنَّهُ عَذُولٌ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبه، الآية: ١١٤].

فهذا نموذجان في تبيان الطريق الأقوم الذي يستوجب السير عليه، وحسبنا مواقف الأنبياء إزاء أقاربهم، فهم الأسوة والمثل.

فالرابطة - إذا - التي يجب المناداة بها دون غيرها، إنما هي الرابطة الإسلامية حيث يصير المجتمع - المجتمع الإسلامي - كالجسد الواحد، إذا اشتكتى منه عضو تداعى لهسائر الجسد بالحمى والسهور، ومن هنا يكثر في القرآن إطلاق النفس وإرادة الآخرة تشبيها على أن رابطة الإسلام تجعل أخ المسلم كنفسه، قال - تعالى - : ﴿تَوَلَّ أَذْ سَعَمْتُمُهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُزَمِّنُونَ إِنَّفِسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور، الآية: ١٢]؛ لأنه - تعالى - جعل المؤمنين إخوة، فقاتل أخيه كقاتل نفسه، ولا مزه كلامز نفسه، وكذلك تفعل العرب فيكتني المتكلم عن نفسه بأخيه؛ لأن أخي الرجل عندها كنفسه [جامع البيان: ١٨٣ / ٢].

٣- وما هدى إليه القرآن - ويعتبر من مقاصده العالية - حفظ النفس من الفناء، قال الله - تعالى - : ناهيا قربان النفس بسوء إلا بحق - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِيقَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥١]، والحق: هو الأمر الذي حق؛ أي ثبت أنه غير باطل في حكم الشريعة، وعند أهل العقول السليمة البريئة من هو أوشهوة خاصة، فيكون الأمر الذي اتفقت العقول على قبوله هو ما اتفقت عليه الشرائع<sup>(١)</sup>.

(١) التحرير والتنوير: ٨ / ١٦١.

وقد فضل الله هذا في القرآن والسنّة، وهدى إلى كيفية إتيانه و مباشرته، ومن ذلك قتل المحارب والقصاص، وهمما ما نصّ عليه في القرآن، وقتل المرتد بعد استتابته، وقتل الزاني المحسن، وقتل الممتنع من أداء الصلاة بعد إنتظاره حتى يخرج وقتها، وهي مما نصّت عليها السنّة النبوية.

\* كما أن القرآن الكريم أبرز قيمة الأنفس من خلال كون قتلها يعتبر جرماً فظيعاً كفظاعة قتل الناس جميعهم، فقال - تعالى - : **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَآ مَا قَتَلَ أَنَّاسَ جَمِيعًا﴾** [المائدة، الآية: ٢٤]، وفي هذا التشبيه إيحاء إلى أن قاتل النفس بغير حق متتابع من قبل الأمة بأسرها، مأخذٌ أينما ثقفت، وكل فرد من الأفراد مخاطب على حسب قدرته من ولادة الأمور إلى عامة الناس، والمقصود تهويل القتل<sup>(١)</sup>. كل ذلك كالتوطئة لمشروعية القصاص المصرح به في قوله: **﴿وَكَيْنَـا عَيَّـهـمْ فـيـهـا أـنـَّ النـفـسـ بـإـلـيـنـفـسـ﴾** [المائدة، الآية: ٤٥]، وقوله: **﴿يَتَأْلِـمـ الـذـيـنـ ءـامـمـوا كـثـيـرـ عـيـنـكـمـ الـقـصـاصـ فـيـ الـقـتـلـ﴾** [البقرة، الآية: ١٧٨]، ثم عقبه سبحانه ببيان ثمرة هذا القصاص فقال: **﴿وَلَكُـمـ فـيـ الـقـصـاصـ حـيـةـ يـتـأـلـمـ الـأـلـبـيـ لـعـلـكـمـ تـتـقـونـ﴾** [١٧٩] [البقرة، الآية: ١٧٩] فأرشدنا إلى أن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلاً، لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس، لأن آذى ما تتوقعه الأنفس من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت، لأقدم على القتل استخفافاً بالعقوبة، ولو ترك الأمر للثأر، لأسرف الناس في القتل، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة للجانبين.

٤- ومن الهدى الذي دعا إليه القرآن، ما أولاه مؤسسة الأسرة باعتبارها اللبنة الأولى في البناء الإسلامي للمجتمع؛ حيث وجدها يصبح قواعد تشريعية

(١) التحرير والتورير، ٦ / ١٧٨.

جامعة تؤلف دستوراً كاملاً وشاملاً ودقيقاً لنظام هذه المؤسسة الإنسانية، مما يبرر الاهتمام البالغ الذي يعقده المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على هذه المؤسسة الخطيرة، وكيف نظر إلى وظائفها والغاية منها وإحاطتها بسياج من العناية بعيداً عن كل المدمرات التي تودي بها نحو المهالك، ومن ثم التبدد والزوال.

ومن هذه القواعد الكلية قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : **﴿أَلِيجَانْ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاء﴾** [النساء، الآية: ٣٤]، «وهو أصل تشريعي كليٌّ تنبع عنه الأحكام التي في الآيات بعده فهو كالنقدمة لها»<sup>(١)</sup>، هذه الكلية التشريعية التي قصدت «توضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتياك بين شقيها بردهما جميعاً إلى حكم الله لا حكم الهوى، والانفعالات الشخصية، فيحدد أن القوامة للرجل، ويدرك من أسباب هذه القوامة تفضيل الله للرجل بمقومات القوامة وما تتطلبه من خصائص ودربة، وتکليف الرجل الإنفاق على الأسرة، وبناء على إعطاء هذه القوامة للرجل يحدّد؛ كذلك اختصاصات القوامة في صيانة الأسرة من التفسخ وحمايتها من النزوات العارضة وطريقة علاج هذه النزوات حين تُعرض في حدود مرسومة، وأخيراً بين الإجرات الخارجية التي تُتحَذَّرُ عندما تفشل الإجراءات الداخلية ويلوح شبح الخطر على الأسرة»<sup>(٢)</sup>، ومقابل هذه القواعد المنوحة للرجل، جعل الله للمرأة وظائف لا تقل مسؤولية وعظم شأن عن وظيفة القوامة المخولة للرجل - بحيث تؤدي بدون إعداد عضوي ونفسي وعمقى - فقد زُوِّدت بخصائص ومؤهلات فطرية وكسبية لتولى هذا الدور الخطير المتمثل في الإشراف المباشر على ثمرة الأسرة وكسبها على مستوى التنشئة في ضوء المنهج الإسلامي السليم.

ولو رحنا نستكشف أسرار هذا التوزيع الرباني ومقاصده لوظيفتي الرجل والمرأة؛ لأشرفنا على أنه السبيل الأقوم والطريق الأعدل الذي هدى إليه الكتاب.

(١) التحرير والتنوير / ٤ . ٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦٤٩ / ٢ . ٦٥٠ .

٥- وما هدى إليه القرآن حفظ الأموال فقال - عَزْ وَجْلُ - : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَيْنِكُمْ يَا لَبْنِطِل﴾ [البقرة، الآية: ١٨٨]، وهو خطاب عام يشمل المكلفين جميعهم. وهذا الباطل المنهي عنه يدخل فيه «كل ما لم يكن في مقابلة شيء حقيقي يعتد به مع رضاء من يؤخذ منه، وكذا إنفاقه في وجه حقيقي نافع<sup>(١)</sup>»؛ إذ الشرع يتوجى المصالح والمنافع لعامة المكلفين، ويقصد إليها؛ لذلك أورد هذا الخطاب بما يشعر بوحدة المجتمع و حاجته الضرورية إلى التكافل، وذلك حين عبر بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾، والمراد: لا يأكل بعضكم مال بعض «حتى يتبه على أن احترام مال غيرك وحفظه، هو عين الاحترام والحفظ لمالك؛ لأن استحلال التعدي وأنخذ المال بغير حق، يعرض كل مال للضياع والذهب ففي هذه الإضافة البلية، تعليل للنهي»؛ كأنه قال: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل؛ لأن ذلك جنابة على نفس الأكل: قل ابن عاشور - رحمة الله - : وهذا الأكل مراتب:

**المربطة الأولى** : ما علمه جميع السامعين مما هو صريح في كونه باطلًا؛ كالغضب، والسرقة، والخيانة.

**المربطة الثانية** : ما ألحقه الشرع بالباطل في أنه من الباطل، وقد كان خفيًا، وهذا مثل الربا فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٧٥]، ومثل رشوة الحكام، ومثل بيع الشمرة قبل بدو صلاحها.

**المربطة الثالثة** : ما استتبطه العلماء من ذلك مما يتحقق فيه وصف الباطل بالنظر، وهذا مجال للاجتئاد في تحقيق معنى الباطل، والعلماء فيه بين موسع ومضيق<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير المنار ٢ / ١٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ٢ / ١٨٩، ١٩٠.

ولما كانت للأموال هذه الحرمة، وأن من سعى إليها بطريق الباطل عدًّا من الساعين إلى الإخلال بنظام المجتمع؛ إذ لا نظام بغير المال؛ لما كان الأمر كذلك - هدانا الحق - سبحانه - إلى وجوه كثيرة لصيانة المال، ومن بين هذه الأوجه: الوجه الضروري الردعى المتمثل في القطع؛ «وذلك لأن هذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه - سبحانه - من امثال أوصاره، واجتناب نواهيه، والمشاركة في البناء للمجتمع الإنساني، فمدت أصابعها إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والعدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، عاقبها خالقها بالقطع والإزالة؛ كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن، فإنه يزال بالكلية إبقاء على البدن وتطهيرًا له من المرض»<sup>(١)</sup>؛ لذلك اعتبر حد القطع فاصلًا بين الحلال والحرام وما سمي حدًا إلا لأجل ذلك<sup>(٢)</sup>.

٦- وما هدى إليه القرآن حفظه للأنساب فقد دعا - سبحانه تعالى - إلى النكاح الحلال فاثلاً: ﴿وَمِنْ أَيْمَنِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَشْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ يَتَّكِمُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم، الآية: ٢١]، مما خلقت هذه الأزواج إلا لتلبية الحاجة الفطرية النفسية والجسدية الم عبر عنها بالسكن، ل تستقر الحياة فتشمر التاليف والتمازج؛ وذلك قصد إنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد.

ولما كان في غير هذه السبيل إضاعة للأنساب بحيث لا يعرف للنسب مرجع يأوي إليه كالسُّفاح، وجدنا القرآن يقطع دابر هذا الأخير بقوله: ﴿وَلَا نَقْرِبُوا الْزِنَةَ إِنَّمَا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَيِّلًا﴾ [الإسراء، الآية: ٣٢]؛ لأن في إتيانه إضاعة للأنساب وتعريض النسل للإهمال، وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأن فيه إنساد النساء على أزواجهن، والأبكار على أوليائهن؛ ولأن فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن

(١) أضواء البيان / ٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩.

(٢) انظر فتح الباري / ١٢ ، ٥٨.

تزوجها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل، فكان جديراً بغلظ التحريم قصراً وتوسلاً<sup>(١)</sup>، وتوعد المترفين لهذه الفاحشة بالجزاء الدنيوي، فقال: ﴿الْزَّانِيَةُ وَالْزَّانِي فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهَا مِائَةَ جَلْدٍ﴾ [النور، الآية: ٢٢]، ومن قبل هذا، جعل معالم وقائية تحرير النظر إلى المرأة الأجنبية وغض البصر - كل واحد منها عن الآخر - ، قال - تعالى - : ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَخْفَطُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَنَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾٢٠﴿ وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَخْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: الآية ٣١، ٣٠]، وتحريم الخلوة، ووجوب الحجاب على المرأة، وتحريم التبرج، وهي كلها معالم في طريق المكلف تبيهه بمعنة التلبس بضدها؛ إذ هي وسائل للفاحشة الكبرى، التي هي: الزنا.

و عند فساد العلاق الزوجية و لحوتها إلى المفارقة، أوجب على الزوجة العدة - وكذا المفارقة بالموت - لولا تختلط المياه في الرحم حفاظاً على سلامه الأنساب، قال - تعالى - : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبَضْنَ بِإِنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُونٍ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٨]، وقال - عز وجل - : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَقَّنُ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْبَضُنَ بِإِنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٣٤]، كل ذلك لأجل سلامه النسب و درء الاختلاط الذي هو من طبائع البهيمية والإنسانية منه براء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) التحرير والتنوير / ١٥ / ٩٠، ٩١.

(٢) وقد أتينا على ذكر هذه التماذج لهدى القرآن قاصدين بذلك أن نعرض بعض ما يتعلق بالكليات الخمس التي توخاها القرآن وحفظها من جهة الوجود والعدم.

### المطلب الثالث :

#### بعض مظاهر الإعجاز في القرآن

لا ريب أن الإعجاز يعتبر من الأوصاف الذاتية للقرآن، والآية الكبرى على صدق النبي ﷺ والشاهد على أنه كلام الله - تعالى - .

ومنصرف القول في هذا البحث هو الإعجاز التشريعي، باعتبار أن القرآن هو المصدر الأول والأخير المنشيء للأحكام والتصور والاعتقاد، إلى جانبها السنة النبوية الصحيحة المبينة لحكم آياته بياناً ملزماً.

ولئن كان القرآن معجزاً في مبناه ومعناه على حد سواء، فإن العناية قصرت عن مجال المعنى وأخص بالذكر الجانب التشريعي، وغدا الحديث عن الإعجاز البصري سائداً حتى طفت به كتب القدامي والمحدثين، وهذه حقيقة أفصحت عنها ألسن العلماء.

قال أبو زهرة - رحمة الله - بعد أن عدد أوجهها من أوجه الإعجاز: «هذه بعض وجوه الإعجاز، ولكن هناك وجه له يذكره العلماء إلا بالإشارة، وهو شريعة القرآن التي اشتمل عليها»<sup>(١)</sup>، وبمثل ما نطق به أبو زهرة قاله ابن عاشور - رحمة الله - ضمن معاقد الإعجاز التي اعتبرها ملاكه - ، حيث قال: «ما أودع من المعاني الحكيمية والإرشادات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وفي عصور بعده متفاوتة.. ثم قال: وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا»<sup>(٢)</sup>، وأضاف - رحمة الله - مبرزاً محط الأنظار في سبب ذكر

(١) أصول الفقه، ص: ٨٥.

(٢) التحرير والتبيير ١٠٤/١.

هذا الوجه وال الحاجة إلى الاهتمام به، فقال: «والقرآن معجز من هذه المجهة للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على تعاقب السنين؛ لأنَّه قد يدرك إعجازه العقلاً من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعانٰي، وإجمالٍ لمن تبلغه شهادتهم<sup>(١)</sup>.»

ولله دره حين تنبه إلى تلك النكتة الفاصلة بين كون القرآن معجزاً على مستوى البيان وكونه معجزاً على مستوى التشريع؛ ذلك لأنَّ الأول يتضمن بانتفاء أهله الراسخين في اللغة، حيث تفتر همة من بعدهم وتقصر إدراكاتهم؛ من جراء ما يصاب به اللسان من سقم في الذوق، فتخبو جذوة هذا الوجه من الإعجاز، في حين نرى أنَّ الإعجاز التشريعي باقي ما بقيت السماء والأرض، يشمل كل المجالات التشريعية والتكنولوجية لكل البشر في كل عصر وكل مصر، فهو إعجاز كلي شامل دائم، على خلاف الإعجاز البياني الذي تكتنفه البعضية على مستوى الزمان والمكان والأشخاص.

لذلك فشرعية القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز، وهي دالة على إعجازه إلى يوم القيمة وهي قائمة إلى اليوم حجة على العربي والعجمي، لا يفترق في قبولها من يعرف لسان القرآن ومن يجهله.

ومن تنبه إلى هذا الوجه من العلماء القدامى، الإمام القرطبي - رحمة الله - حيث أشار ضمن كلامه عن أوجه الإعجاز، قائلاً: «ومنها - أي من أوجه الإعجاز - ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام<sup>(٢)</sup>. وهو بهذا يشير إلى الشريعة وما اشتملت عليه من أحكام منظمة للأسرة، بل لكل التعامل الإنساني على الإطلاق.

(١) التحرير والتبوير: ١/١٠٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/٥٤.

ومن أشادوا بهذا الوجه من الإعجاز من القدامي - أيضاً -، أبو سليمان الخطابي، حيث يقول - رحمة الله -: « وإنما صار معجزاً؛ لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصحَّ المعاني: من توحيد الله وتزويجه في صفاتِه، ودعائه إلى طاعته وبيان لنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر معروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، وأوضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهם في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما أنزل من مثلات الله بن عصى وعائد منهم، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه.. ومعلوم أن الإيتان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها في تنظيم وتنسيق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم<sup>(١)</sup>، فانظر، وتأمل كيف انتظم كلامه من طرفين وواسطة، حيث أشار في الطرفين إلى الإعجاز البياني، أما الواسطة فقد أتى فيها على تبيان مكونات القرآن الثلاثة - بل مقاصده العالية - التي تمثلت في: العقيدة، والشريعة، والأخلاق.

ويقى كلام هؤلاء العلماء الأفذاذ مجرد إشارات؛ إلا أنها في الواقع مؤشرات داعية إلى الوقوف عن كثب من هذا الوجه من الإعجاز موقف الباحث المنقب المفصل للأمور؛ حتى ينال الإعجاز التشريعي بهذه الجهود منزلة لدى العلماء ويغدو محظوظاً لهم، وحتى يتبيَّن لكل ذي لب أن هذا الكتاب يُفضِّلُ سابقيه من الكتب السماوية، بِلْهُ القوانين الوضعية، والعاقل الذي ينطلق من منطلق التحاكم إلى العقل الذي لا تستند به الأهواء، والباحث المتجرد عن الأحكاد، والطالب الناشد للحقيقة - إذا لم تكن أعمته العصبية - يظهر له بكل وضوح أن التشريع الرباني في الحياة الإنسانية مهمٌّ وخطير وضروري، كما تظهر له بواعته الفطرية في النفس الإنسانية

(١) بيان إعجاز القرآن نقاً عن الإنقاذ: ٤ / ١٣.

وأثره البارز في حياة الفرد والمجتمع، وأن الإنسان لا يقدر على تأدية مهمته في الحياة واستكمال إنسانيته وتلبية دوافعه وغراائزه وتحقيق السعادة والتنعم بالتوازن والاستقرار، إلا بهذا التشريع الإلهي.

ومن الأدلة على ثبوت هذا الوجه من الإعجاز ما ورد في القرآن نفسه حيث يقول الله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحُقُوقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِكُ مِثْلَ مَا أُوتِكَ مُوسَىٰ أَوْ أَنْ يَكُونُوا بِمَا أُوتِكَ مُؤْسَىٰ مِنْ قَبْلِهِ قَالُوا سَاحِرٌ تَظَاهِرُهُ وَقَالُوا إِنَّا يُكْلِلُ كُفَّارُونَ ﴾٤٩﴿ [القصص، الآيات: ٤٨، ٤٩] ، فالآية تتحدث عن انبهار المشركين أمام الآيات القرآنية التي جاءهم بها الرسول ﷺ فلم يجدوا بين أيديهم سوى المعاذير التي لقنوها من قبل أحجار يهود، فقالوا: ﴿لَوْلَا أُوتِكَ مِثْلَ مَا أُوتِكَ مُوسَىٰ﴾؛ لذلك أجابهم القرآن بما لا قبل لهم به، وهو التحدى المشتمل على نوع من الإعجاز التشريعي، «والآية فيها دليل على أن ما اشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه»<sup>(١)</sup>، فيكون - بهذه الآية - قد قصد إلى الإعجاز التشريعي الذي أومأ إليه في قوله: ﴿هُوَ أَهْدَى﴾؛ لأن الهدایة تشمل كل ما تضمنه القرآن من أحكام وتشريعات وحكم علمية وعملية)، وبذلك يتبيّن أن التحدى القرآني للمشركين لم يكن قاصراً على الجانب البلاغي فحسب، وإنما تعدّه إلى التحدى بالإيتان بمثله على مستوى مضامينه كذلك.

وب قبل أن نستعرض نماذج من هذا الإعجاز التشريعي، لا بأس أن نقدم بين يديها الموصفات التي تطبع هذا التشريع ليصيّر منهاج حياة صالحة للإنسانية قاطبة.

والتفكير المنطقي هو السبيل الذي يوقفنا على وصف جامع عام لهذا التشريع، هذا الوصف هو موافقة هذا التشريع للفطرة الإنسانية قال - تعالى - : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَيْكَأْ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي  
قَدِيمٌ وَلَنِكَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم، الآية: ٣٠] ، فما لم يكن تلاؤم وتناسق بين هذا التشريع وبين الفطرة الإنسانية، عادت هذه الأخيرة إلى الإغراء في ضنك العيش وعدم الاستقرار.

ومهما أوتي العلماء من ملكات فكرية وقدرات علمية، فإنهم عاجزون عن سبر أغوار هذه الفطرة، ومن ثم كشف النقاب عن حقيقتها حتى يصلوا إلى تفصيل خصائصها - ودون ذلك خرط القتاد - لما يطبع هذه الدراسات الإنسانية من قصور وعجز.

غير أنه بإمكاننا أن نجلي بعض الملامح العامة التي لا تنفصل عن هذه الفطرة، والتي منها ذلك الترابط الإنساني والتمازج بين الروح والجسد إلى التأثير والتأثير بين هذين العنصرين.

من هنا كانت صفة الشمولية بارزة في التشريع الحاكم للحياة الإنسانية بحيث يتناول جميع عناصر الحياة الإنسانية روحًا وجسدًا وعقلاً في كل العلاقات مع نفس الفرد ومع غيره.

ومن ملامحها - أيضًا - ما أودع في ذات الإنسان من قابلية السمو تارة والانحطاط أخرى. وحتى لا تعصف الجهتان بكيان الإنسان، كان في حاجة إلى تشريع ينشيء التوازن والوسطية وهو من مواصفات هذا التشريع<sup>(١)</sup>.

(١) انظر حاجة الإنسان إلى الوحي في مقدمة هذه الكلية.

ومن ملامحها - أيضاً - أن الإنسان وجد بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، قال - تعالى - : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » [الإنسان، الآية: ١]، وقال - تعالى - : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴾ [مرim، الآية: ٦٧]، ثم بعد أن أوجد هذا الإنسان اقتضت حكمته - تعالى - ﴿ وَإِرَادَتِهِ أَنْ يَلْقَيَ فِي رُوعِهِ الْحَاجَةَ إِلَى عِنَادِهِ وَرِعَايَةِ تَصْحِبَهُ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ إِلَى حِينِ رَحِيلِهِ عَنِ الدُّنْيَا ، قَالَ - تَعَالَى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْسَنَ مِنْ سُلَالَةِ مِنْ طَيْبِنَ ﴾ [١٢] ثم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْفَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْفَكَةَ عِظَلَكَ فَكَسَوْنَا الْعَظَلَمَ لَهُمَا ثُمَّ أَشَانَاهُ خَلْقَاهُ مَا خَرَقُوا فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [١٣] ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَعْثُرُونَ ﴾ [١٤] [المؤمنون، الآيات: ١٢-١٦]، مما سطر في هذه الآيات من حقائق لو تأملها الإنسان - ثُمَّ فَكَرْ وَقَدَرْ - لأنثرت لديه الصلة القوية بربه، هذه الصلة التي ينبغي أن تتسم بالأبدية لتستمر الحياة الإنسانية بالمفهوم الصحيح، وهو المشار إليه في قوله - عزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشَهَدَهُمْ عَلَى أَفْسِحِهِمْ أَلَّا سُتُّ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف، الآية: ١٧٢]، فإذا تجلّت حقيقة العبودية في الإنسان وقبالتها ربوبيته سبحانه، دلف الإنسان إلى الطمأنينة واليقين، وذلك هو الإيمان بالواحد الأحد الذي يصدر أحكامه فيوجه بها عباده، وذلك هو التشريع الرباني، وتلك هي الخصيصة الثالثة لهذا التشريع، وهي كونه ربانياً في أوامره، وأحكامه الاعتقادية والعملية التي يوجب الإسلام تطبيقها لتحقيق الفهد الإصلاحي في المجتمع.

فالتشريع في جوهره - إذا - عملية ضبط وتنظيم لنشاط الإنسان بجميع أشكاله وعلاقاته مع الخالق والمخلوق، وهذه العملية لا يقدر على القيام بها إلا من تحصل له أمران: العلم المطلق، والعدل المطلق.

والأمر الأول يقتضي المعرفة الشاملة بسبب الوجود وأحوال الإنسان، وما يضره وما ينفعه وما يؤثر فيه، وأبعاد النفس الإنسانية وحدود طاقة الإنسان.

والأمر الثاني يقتضي الارتفاع على الميل والهوى ودواجهما، وهذا يقتضي الاستغناء الكامل عن جميع المخلوقات وعدم الحاجة إليها على أي شكل من الأشكال .

ولا شك أن الذي يتحقق فيه الأمران هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - رب العالمين قال - تعالى :- **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوسِّعُ بِهِ، فَقُسْطُرْ وَعَنْ أَقْرَبِ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق، الآية: ١٦] ، وقال - تعالى :- **﴿أَلمَ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيهِمْ وَلَا حَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَنَّمَا كَانُوا﴾** [المجادلة، الآية: ٧] ، وقال - تعالى :- **﴿وَلَوْ أَتَيْعَ الْحَقَّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾** [المؤمنون، الآية: ٧١] ، وقال - تعالى :- **﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَّرَ أَلَا تَقْبِدُوا إِلَّا إِلَيْهِ﴾** [يوسف، الآية: ٤٠] ، وقال : **﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُرُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَانِيْلِينَ﴾** [الأعراف، الآية: ٥٨] ، فهو حقيق أن يشرع للإنسان وينظم له حياته؛ فكما صلحت المخلوقات كلها بأمره فلا سبيل لصلاح الحياة الإنسانية إلا بتشريعه وتنظيمه ومنها جيئته<sup>(١)</sup>.

وبهذا البيان يفهم جيدا قوله - عَزَّ وَجَلَّ :- **﴿فَلَنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِنَّمَا يَأْتِيُنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ يَتَّبِعُ هُدَىيَ فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرَرُونَ﴾** [آل عمران، الآية: ٢٨] ، وقال - تعالى :- **﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِيَعْصِيَ عَدُوًّا فَإِنَّمَا يَأْتِيُنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ يَتَّبِعُ هُدَىيَ فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى﴾** وَمَنْ أَغْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فَإِنَّ

(١) القرآن شريعة المجتمع مقال للدكتور / عارف خليل أبو عيد بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة الأولى نوفمبر ١٩٨٤ ، الصفحة ٢٥.

لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَخَشْرُوكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٣﴾ [طه، الآيات: ١٢٣، ١٢٤]، «فالأمان من الضلال والشقاء لا يشرهما إلا السير على الهدى، ولو كان صاحب الضلال غارقاً في المتباع، فهو في شقاء، ما لم يتبرأ من الضلال، ولا يضل الإنسان عن هدى الله إلا وتخبط في القلق والحقيقة والاندفاع من طرف إلى طرف لا يتوازن في خطاه، والشقاء قرین التخبط، والحياة المقطوعة الصلة بالله ضنك مهما يكن فيها من سعة، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بمنهج الله والاطمئنان إلى شريعته»<sup>(١)</sup>.

بعد هذه الإطلالة السريعة على بعض مواصفات التشريع وهي الشمولية والوسطية والربانية؛ أعود لبسط بعض التماذج للإعجاز التشريعي في القرآن.

\* \* \*

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٥٥.

## المطلب الرابع :

### نماذج من الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

إن مما يطأطع الدارس لكتاب الله، ذلك الخطاب الموجه للناس كافة على سبيل المساواة، ومن هذه الخطابات التي تمثل فيها هذه المساواة قوله - عَزُّ وَجْلُ - : **﴿يَتَاهُ أَنَاسٌ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَأَنَّا جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَفَيَابَلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقْتُكُمْ﴾** [الحجرات، الآية: ١٣]، وبعد أن كشف عن حكمة هذا الجعل وهي أن يتعارف الناس فيما بينهم، أتبعه بقوله - عَزُّ وَجْلُ - : **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾**<sup>(١)</sup> حتى يتوصل بهذا الحكم إلى إرادة اكتساب الفضائل، والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض؛ «فليس للون والجنس، وللغة والوطن، وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله».

ومن معنى هذه الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجة الوداع؛ إذ قال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتفوى»، ومن نمط نظم الآية - أيضاً - ما رواه الترمذى عند تفسيرها وهو قول النبي ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عيّنة الجاهلية وفخرها لا بالأباء، الناس: مؤمن تقى، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب»<sup>(٢)</sup>، «وهكذا تسقط جميع الفوارق وتتسقط جميع القيم ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذا الميزان يرجع اختلاف البشر... وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع

(١) في ظلال القرآن / ٦ .٣٣٤٨

(٢) سنن الترمذى ٥ / ٦٤ ، ٦٥ ( أبواب التفسير، سورة الحجرات).

الإنساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المخلق أن تتحقق لونا من ألوانه فتحفق؛ لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواثل المستقيم<sup>(١)</sup>.

ومن مظاهر هذه المساواة التي أخفقت القوانين البشرية أن تتحققها، تلك التسوية بين الناس في الأحكام على مستوى التطبيق، فلا يعفى شريف من عقاب، كما لا يعفي الحاكم مما يطالب به المحكوم فهو كسائر الناس في الواجبات والحقوق، ليس له حق فوق حقوقهم، وليس ذاته مقدسة.

لقد جاء هذا الرسول الأمي بشرعية إلى قوم لم يكن فيهم قانون منظم، فلا نظام للأسرة ولا نظام للتعامل، وإنما السائد هو نظام العشائر المبني على الموروث الجاهلي من تقاليد وعادات، فجاءت الشريعة بما لم يعهد لهؤلاء، جاءت بقوانين منتظمة للفرد، وللمجتمع وللدولة.

ويُعَزِّ علينا كثيراً أن نمضي في ركاب أولئك الذين قاربوا بين الشريعة الربانية والنظم الإنسانية؛ إذ لا مجال للمقارنة بين ما هو رباني، وما هو إنساني، فهو على حد قول القائل:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقصَ قدرهِ      إذا قيلَ: هذَا السيفُ أمضى مِنَ العصا  
ألا إنْ بضدهَا تتميَّزُ الأشياءُ، حَيْثُ تتجَلِّيَ - بِتَلْكَ المِوازِنَةَ - مَا لِلشَّرِيعَةِ مِنْ قِيمَةٍ  
تَشْرِيعَةٌ خَالِدَةٌ تَسْنَاغُمُ وَنَفْسِيَّةِ الإِنْسَانِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، تَضَعُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَا حَقَائِقُ فِي  
الْتَقْنِينِ لَمْ يَعْهُدْهَا نَظَامٌ لَا مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ.

«وإذا كان النظام الروماني قد ساد فترة من الزمان ليست باليسيرة - وذلك نتيجة نحو ثلاثة عشر قرناً من التجارب - متنفعاً ببعض النظم التي سبقته كنظم أثينا، ونظم

(١) في ظلال القرآن / ٦ - ٣٣٤٨ .

جمهوريّة أفلاطون، وكتاب السياسة لأرسطو وغيره<sup>(١)</sup>، فإنه مع عرض الصور التشريعية في هذا النّظام ومقارنتها بما سُطّر في شرع الله، يتبيّن ما لهذا الأخير من رسوخ قدم في الإعجاز التشريعي، ولذلك صوراً من التشريع الإسلامي وما يقابلها من النّظام الروماني.

١- من ذلك ما أعطته الشريعة الإسلامية من حرية كاملة لكل من بلغ سن الرشد ذكرًا أو أنثى، وفي القانون الروماني وجدنا ولادة الأب تستمر على ولده ولو كان ذكرًا ما دام الأب حيًا، والولد كالرقيق في يد أبيه إلا أن يمنحه الأب الحرية أو الولاية، فهي منحة من الأب وليس حقًا للأبين<sup>(٢)</sup>.

٢- ومنها أن المرأة أعطيت حقوقها كاملة من قبل الشريعة الإسلامية حتى غدت شقيقة الرجل في الأخذ والعطاء، قال الله - تعالى - : «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّدِيقِينَ وَالصَّدِيقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِعِينَ وَالْخَشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّدَّامِينَ وَالصَّدَّامِاتِ وَالْمُخْفِظِينَ فَرُوجُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ وَالذَّكِيرَاتِ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِيرَاتِ أَعْدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (٣٥) [الأحزاب، الآية: ٣٥]، فبالإشارة إلى الصنفين في هذه الشريعة سواء لعلم أن الشريعة لا تختص بالرجل، إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين - ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية<sup>(٣)</sup>؛ حيث تُذَكَّر المرأة بجانب الرجل، وتعطى مكانها إلى جانبه فيما هما فيه سواء من العلاقة بالله ومن تكاليف هذا الدين في التطهير والعبادة والسلوك في الحياة. ومن مخايل هذه التصرفات أن ملكيتها في المال مفصولة عن ملكية الزوج، لها مطلق التصرف، وفي القانون الروماني كانت المرأة تحت

(١) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٨.

(٢) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٦ الهماش.

(٣) التحرير والتبيير / ٢٢ . ٢٠

الوصاية الدائمة لا يمكنها أن تتصرف في مالها إلا بإجازة الوصي<sup>(١)</sup>.

٣ - ومنها أن الشريعة الإسلامية كرمتها بالصدق، حيث يأمر القرآن بإتيان النساء صدقتهن، قال - تعالى - : ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدْقَتِهِنَّ بِخَلْهَ﴾ [النساء، الآية: ٤] فتقرر المهر وصار شرعاً. أما في النظام الروماني فإن الزوجة هي الكفيلة بدفعه للزوج.

٤ - ومنها أن الشريعة الإسلامية حرم التبني، قال - تعالى - : ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّمَا تَعْلَمُوا مَابَاءَهُمْ فَلَا يُخُونُوكُمْ فِي الْدِينِ﴾ [الأحزاب، الآية: ٥]، في حين أن القانون الروماني أقره بلا ريب.

٥ - ومنها أن الشريعة الإسلامية عاملت المدين بأرفع معاملة إذا عجز عن سداد دينه - إن كان دينه في غير سرف - فإن بيت المال يتولى السداد عنه، قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا الْصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ لَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنِيرِمَنَ﴾ [التوبه، الآية: ٦٠]، كما ندب الدائن إلى إمهال المدين بقدر ما أيسر إلى حين اليسر، قال - تعالى - : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرٍ وَأَنْ تَصَدِّقُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٠]، فالمسر لا يطارد من صاحب الدين أو من المحاكم، إنما ينظر حتى يسر، ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المser وعليه دين، فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه إن طوع بهذا الخير.

\* أما مصير الدائن في نظام الرومان فهو الاسترقاء، حيث يسترقه الدائن عند عجزه عن السداد.

(١) تاريخ الفقه الإسلامي ونظريه ملكية العقود، ص: ٢٦٦

٦ - وعاملت الشريعة الإسلامية الرقيق بأحسن معاملة، فضيقت روافده كما وسعت نطاق القضاء عليه بالمرة، وحسبنا أن تحدث الإسلام عن هذا النظام بصفته نظاماً استثنائياً، فلم ينص عليه القرآن إلا في مقام الحث على قطع دابرها، وتصفيته بالتعق في شتى ألوانه وصوره، وبحسب هذه الشريعة الغراء تكريماً للإنسان: أن القرآن والحديث النبوى لم يصرحاً قط بإباحة الرق<sup>(١)</sup>.

٧ - وفي نظام الميراث، نجد الشريعة الغربية قد أعطت لكل ذي حق حقه، قال - تعالى - : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء، الآية: ١١]، وقال - تعالى - : ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً يَجَا لَا وَنِسَاءً فَلِلَّذِكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء، الآية: ١٧٦]، وبذلك تكون قد تولت نظام الميراث حيث جعلته يعم الأسرة كلها مع التشديد في تنفيذه، ولو قورن هذا النظام بالنظام الروماني بالتفصيل لرأيت فرقاً شاسعاً كما بين العدل والظلم.

\* أما النظم الغربية المعاصرة فلا تزال في كل تشريعاتها تبرهن على الفشل الذريع الذي تمنى به في جميع مرافقها الحياتية، وما قانون الربا عنا بعيد، بل أمّة مثل أمريكا التي تعتبر «الأسوة» لأمم الغرب، قد حاولت يوماً ما أن تحرم الخمر إلا أنها أخفقت في مسيرتها الإصلاحية، وعادت لتغرق أهلها في براميل أم الخبائث، كان ذلك في سنة ١٩٢٠م، حين أدخلت الدولة تعديلاً على الدستور ينص على تحريم معاقرة الخمر، وبيعها، وشرائها، وصنعها، وتصديرها، أو استيرادها!

لقد كانت هذه التجربة من أكبر التجارب لإصلاحخلق بقوة القانون وسلطة الحكم، فقبيل دخول هذا التعديل على الدستور، سبقته دعاية عريضة كانت بمثابة إرهادات لهذا التحريم؛ هدفها توعية الأمة الأمريكية وترغيبها عن أم الخبائث،

(١) أصول الفقه لأبي زهرة، ص: ٨٧.

فأنفقت الدولة الشيء الكثير زمنياً وفكرياً واقتصادياً، كل ذلك من أجل تلقين الأمة «المتحضرة» مفاسد الخمر واستمرت المعركة إلى سنة ١٩٣٣م، حين قدم روزفلت إلى دفة الحكم، حيث انتصر الخمر على الأمر، وألغى التعديل الثامن عشر من مسودة الدستور الأمريكي الذي ينص على التحرير. لم يكن هذا الإخفاق راجعاً إلى أن مضار الخمر قد أصبحت منافع، أو أن اكتشافاً علمياً باركها وزكاها - بل الحق أن العلم واكتشافاته - لا يزالان يرهنان بشواهد قوية على أنها بحق أم الخبائث، تمت إليها بلحمة النسب القريب جميع الكبائر من: الزنا، والبغاء، واللواثة، والسرقة، والقمار، والقتل، وتشويه الأخلاق كلها.

لكن الذي دفع الحكومة الأمريكية إلى العودة لعقر الخمر من جديد، هو مجرد كون السواد الأعظم من الأمريكيين لم يرضوا مفارقتها، وأن المحرّمين لها بالأمس، هم الذين حثّوا إليها اليوم، فنادوا بتحليلها، فتبّلت الأمة غير الأمة، وعادت وهي - بزعمها - أرقى الأمم مدنية وأقواها سياسة، وأغزرها علمًا وأرجحها عقلاً، وأميلها إلى الحقيقة والواقع، عادت لا تطبق الصبر عن الخمر.

هذه تجربة القانون الوضعي الأرضي لمحاولة الإصلاح، ولترجع إلى قانون السماء لنرى كيف حرمَ الخمر على أمية؛ العلم والحكمة فيها شيء شبه معدهوم، والتمدن والحضارة أمر لا يعرفه فيها أحد، ونظام الحكم فيها في حالة بدائية لم يمض على قيامه إلا بضع سنين عدداً، أما أهاليها فعشاق للخمر، متلهكون عليها متفانون فيها، فيلغتهم ما نيف على المائتين من اسمائها.

وإن استزدت من الأدلة على شغفهم بها، فسائل شعرهم، يبنّئك أن الخمر لحمته وسدها، مما يخيل للقارئ أنهم وضعوها مع لبان أمهاطهم.

هذه هي حالة المجتمع العربي مع الخمر، ف يأتي الإسلام فيخطر ببال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - أن يسألوا رسول الله ﷺ عن الخمر مقرونة بالميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾<sup>(١)</sup> [البقرة، الآية: ٢١٩]، فينزل الحواب من السماء: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة، الآية: ٢١٩]، هذا بعد أن أفر إباحة شربها حقبة من الزمان، وحسبك في هذا الامتثال بذلك في قوله - عز وجل - : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَحْدِثُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحل، الآية: ٦٧]، «على تفسير من فسر السكر بالخمر، وهو الأظاهر»<sup>(٣)</sup>. أقول: فلما أنزل الله قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ سمعها الناس فلم يجدوا فيها لا أمراً ولا نهياً، وإنما هو خبر بين الله - تعالى - به حقيقة الخمر والميسر: فيهما منافع كما أن فيهما مضار، إلا أن الضرر أعظم. على أن يكون من تأثير هذا الإعلام أن يتركها قوم للإثم الكبير، ويقولون: لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثم كبير، ثم أعيد السؤال عن الخمر؛ إذ كان بعض الناس يصلون وهم سكارى فيهدون، فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَأْمُنُوا لَا تَقْرَبُوا الْفَسْكَلَةَ وَأَشْمُرْ سَكَرَى﴾ [النساء، الآية: ٤٣]، فحرم السكر في أوقات الصلاة، فتركها قوم بالمرة قائين: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وقال آخرون: نشربها ونبجلس في بيوتنا، فكانوا يشربونها في غير وقت الصلاة، ويتركونها في أوقات الصلاة!

وظلت مقدرة الخمر باقية؛ لذلك تطلعت النفوس إلى حكم حاسم، فأنزل الله - عز وجل - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَأْمُنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ يَجْسِدُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٤)</sup> إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بِيَنْكُمُ الْعَدَوَةَ

(١) والآية نزلت في عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهما - ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! أفتا في الخمر، فإنها مذمة للعقل متلفة للمال فنزلت. انظر أسباب النزول للنيسابوري.

(٢) التحرير والتبيير / ٢، ٣٢٩، وانظر تفسير سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

وَالْبَغْضَاءُ فِي الْفَحْرَى وَالْيَسِيرِ وَيَصِدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ [المائدة، الآيات: ٩١، ٩٠]، قال عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حين سمع هذه الآيات - انتهينا يا ربنا، قال أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : حرمت ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر، قال: فأخرجنا الحُبَابَ إلى الطريق فصيّبنا ما فيها، فمنا من كسر حُبَّةً، ومنا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أرقة المدينة بعد ذلك حيناً، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر، وفاحت ريحها.

فكان كل من شربها منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال وبالجريدة والعصي، ثم جلدوه أربعين، ثم جعلوا حد الشرب بعد ذلك ثمانين، فكان من نتيجة ذلك أن هجرت العرب شرب الخمر هجراً، ثم حينما بلغ الإسلام أقطار الأرض، زهدت الأمم فيها ونفر عنها خلق كثير، حتى صرنا اليوم نرى ملايين من الأفراد يجتنبون الخمر بدون زاجر من قانون التحرير أو مانع من شرع التعزير، ومن يخصي الشاربين في هذه الأمة الإسلامية سيجدها أزهد أمّة في الخمر.

فماذا بعد الحق إلا الضلال!

إن العقل والمنطق يقوم حكمهما الفيصل النهائي على التجارب والشواهد وحدتها، وشهادة التجربة عندهما ما لا شك فيه ولا ريب، فدونك والتجربتين؛ لترى الفرق والبُون الشاسعين، ثم تستخلص من ذلك ما قدر الله لك من العبرة.

وإذا تدبرنا أسباب الفرق بين التجربتين، عنت لنا أمور هي كالأصول الكلية الثابتة ليس في الخمر وتحريها فحسب، بل في جميع مسائل القانون والأخلاق.

أولها: هو ذلك البُون القائم بين القوانين الإلهية والقوانين الإنسانية، فالقوانين الإنسانية - وهي تتعقد وتؤصل - يطغى عليها الاجتهاد المجرد بعيد كل البعد عن معين الوحي، فهي محض آراء، وشأن الآراء أن تكون دائئراً قابلة للتتطور، أضعف إليها ما يعتور الإنسان من تغيرات تجده نفسها مضطرة للتغيير، ومن ثم لا يتحقق للأخلاق مقياس ثابت.

بخلاف الأصول الكلية للقانون الإلهي الذي خلق الإنسان وعلم ما توسوس به نفسه، فهي أصول ربانية وكليات إلهية لا دخل لرأي الإنسان فيها إلا الاستنباط؛ مراعاة لأحوال وظروف حياته المتغيرة، هذا التشريع الرباني الذي يضع بين أيدينا قوانين حلقية ثابتة لا تتزعزع ولا تتبدل، ولا يمكن أن يصبح حرام الأمس حلالاً اليوم، ثم يعود حراماً غداً، وإنما الحرام في الإسلام حرام إلى الأبد.

ثانيها: أن القوانين الوضعية مهما أوتي أصحابها من رجاحة عقل، ووفرة علم وغزاره فهم، لا يمكنها أن تخلص من براثن الهوى والتشهي، ما لم تكن مطيعة للقانون الرباني ومتمنعة بقوة الإيمان، فلابد أن يكون عليها إذا من سلطان الأصول النفسية ما لا تطيق معه الصبر عما تألفه وتميل إليه، وإن تبينت لها مضار الشيء أجلى من شمس النهار.

أما القانون الإلهي فإنه قبل أن يطالب الإنسان بإطاعة قوانين الشرع، فإنه يدعو إلى الإيمان برب هذه القوانين، ومتى آمن أصبح كل ما يأمر أمراً واجباً لازماً، بل برهاناً ساطعاً على مدى انتقاده واستسلامه لأوامر هذا الإله الآخر، من هنا يتضح ويثبت أن بعث الحسنة الخلقية في الإنسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه، ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة، كل ذلك ليس في طوق العقل، ولا المنطق بل هو مما لا يتحقق إلا بالإيمان وحده<sup>(١)</sup>.

هذه بعض مخايل الإعجاز التشريعي في القرآن شاهدة على تميز كتاب الله عن سواه من النظم والقوانين التي سادت الكون قديماً وحديثاً، ولو علم الإنسان مدى السعادة المختفاة من هذه الشريعة لما ضل في عماها!

\* \* \*

(١) يتصرف عن كتاب: نحن والحضارة الغربية؛ الفصل الرابع؛ ص ٧٤، ٧٥.



## المبحث الثاني :

### القرآن أصل الأصول

إن المنطلق السليم لأي تصور فكري أو اعتقادي لابد وأن يكون منشأه كتاب الله؛ إذ هو الهدى والبيان، قال - تعالى - : **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾** [النحل، الآية: ٨٩]، قال - تعالى - : **﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾** [الأنعام، الآية: ٣٨]، وهو تعبير جامع؛ كما أثبته المفسرون، ومن بينهم الإمام الرazi - رحمه الله - الذي استظهر أن المراد بالكتاب في الآية، هو القرآن الكريم متحججاً بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد، انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في الآية: القرآن الكريم<sup>(١)</sup>.

ومعنى الآية: «أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - مَا فَرَطَ فِي الْكِتَابِ بَعْضَ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ الْمَكْفُولُ»<sup>(٢)</sup>.

«فَإِنَّهُ قَدْ دَوَّنَ فِيهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ مَفْصِلًا وَمَجْمِلًا»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو السعود - رحمه الله - : «أَيُّ مَا ترکنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه - تعالى - مراع لصالح جميع مخلوقاته»<sup>(٤)</sup>.

وقال صاحب النار - رحمه الله تعالى - : «أَيُّ مَا ترکنا في الكتاب من ضروب الهدایة التي نرسل الرسل لأجلها، إلا وقد بیناه فيه وهي أصول الدين وقواعده

(١) التفسير الكبير / ١٢ / ٢٢٦.

(٢) نفسه / ١٢ / ٢٢٨.

(٣) محسن التأویل / ٦ / ٥١٥.

(٤) نقلًا عن محسن التأویل / ٦ / ٥١٥، ٥١٦.

وأحكامها وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من تسخير الله كل شيء للإنسان ومراعاة سنته - تعالى - في خلقه التي يتم بها الكمال المدنى والعقلى، فالقرآن قد بين ذلك كله بالنص والفحوى<sup>(١)</sup>.

وهذا التعبير الشمولي المستفاد من كلام صاحب النار هو المقصود من العنوان (القرآن أصل الأصول)؛ إذ إن هذا الكتاب هو منهج الحياة لا مجيد عنه، وكل فكر يشاؤه فهو فكر باطل زائل سرعان ما يقول إلى فناء. وحينما نقول: إن القرآن منهج حياة، فإنما نرمي بذلك إلى الحياة العلمية والعملية على حد سواء؛ إذ هو الذي أرشدنا إلى أصول كل منها (إما بالنص أو الفحوى) علماً بأنه هيأ لنا المنهج والوسائل للوصول إلى هذه الفحوى، فقد يسره الله للذكر، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرَنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ﴾ [القمر، الآية: ١٧]، فعلى أي وجه فرض إعجازه، فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرْكٌ لِيَدْبُرُوا بِإِيمَانِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَيْ﴾ [ص، الآية: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم. وحينما قال - تعالى - : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أفاد العموم من خلال قوله: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على «أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تحيى الأديان والشائع من إصلاح النفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع المدنى وتبيان الحقوق»<sup>(٢)</sup>.

لذلك فلا نعدم شرعاً من خلاله متى رغبنا فيه؛ لأن أصول التشريع مثبتة فيه، وفي هذا الشأن يقول الشاطبي - رحمه الله - : «القرآن فيه بيان كل شيء»، فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعزوه منه شيء...، ومضى يدل على كلامه من

(١) تفسير النار ٧ / ٣٩٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٥٣.

الكتاب والسنّة إلى أن قال: ومن الأدلة عليه، التجربة، وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد فيه أصلًا، قال ابن حزم الظاهري: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنّة نعلمه والحمد لله، حاشا القراض، فما وجدنا له أصلًا فيهما البة... ويستدرك عليه الشاطبي؛ فيقول: وأنت تعلم أن القراض نوع من أنواع الإجارة في القرآن ثابت<sup>(١)</sup>، وقال الإمام علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وهو يتحدث عن القرآن: «ذلك القرآن فاستطقوه؛ ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي، ودواء دائركم ونظم ما بينكم»<sup>(٢)</sup> وقال - أيضًا -: «واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، ونقصان في عمى»<sup>(٣)</sup>، وقد ورد عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أنه كان يقول: «لو ضاع لي عقال بغير لوجنته في كتاب الله». «ولهذا قال أبو عبد الله الرازى في آخر عمره في كتابه: «أقسام الذات»: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، مما رأيتها تشفي علياً، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [٥] [طه، الآية: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْمُ الْطَّيِّبُ﴾ [فاطر، الآية: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى، الآية: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه، الآية: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي»<sup>(٤)</sup>.

(١) المواقفات ٣ / ٣٣٥-٣٣٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة الثامنة والخمسون بعد المائة ٢ / ٥٥.

(٣) نفسه ٢ / ٩١.

(٤) الفتاوى ٩ / ٢٢٥.

قال الشاطبي: «وعلى هذا لابد في كل مسألة يراد تحصيلها على أكمل وجه أن يلتفت إلى أصلها في القرآن»<sup>(١)</sup>.

أفلا يكون القرآن - بعد هذا - أصلاً للأصول، ويقرر أنه كلية الشريعة وعمدة الملة، ويكون من الضروري لمن رام الإطلاع على كليات الشريعة، وطبع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، و يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظراً و عملاً لا اقتصاراً على أحدهما؛ حتى ينال بغيته ويدرك طلبه؟!

وفي ضوء ما تقرر نعلم أن القرآن هو أصل الشريعة، وإليه ترجع دلالة الأدلة، وهو منبع الأصول، منه تستمد حجيتها، بل القرآن نفسه له أصول كلية منه تخرج وإليه تعود، هذه الأصول التي تمثلت في مجال المعاش والمغاد تحكم السير فيهما، وهي مبثوثة في تلك الآيات الأمهات، ومن ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِلَخْسِنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَاتِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْكَ﴾ [النحل، الآية: ٩٠]، فعن قادة - رضي الله عنهم - قال: «ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية، وما من خلق كانوا يتعاررون بهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه في هذه الآية»<sup>(٢)</sup>. فتأمل هذه المأمورات وهذه المنهيات «فالعدل: شهادة ألا إله إلا الله، والإحسان: القيام بالفرائض، وإيتاء ذي القرى: صلة ذي القرابة، والفحشاء: الزنا، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، والبغى: الاستطالة». إنها فعلاً مجتمع الفضائل، ومجامع الرذائل دعت إليها الآية في أخص عباره؛ لذلك نعتها عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بأنها أجمع آية في القرآن جمعت بين الخير والشر»<sup>(٣)</sup>،

(١) المواقف ٣ / ٢٢١.

(٢) التحرير والتنوير، ١٤ / ٢٦٠.

(٣) التفسير الكبير ١٠٢ / ١٠٣.

روى ابن الأثير في كتابه: «أسد الغابة»: أن أبا ثعلب نقل عن عكرمة عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَاوَلُوا أَتَلُّ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية علىبني شيبان وفيهم المشن بن حارثة، ومفروق بن عمرو، وهانئ ابن قبيصة، والنعمان بن شريك، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، فقال: بأبي أنت ما وراء هؤلاء عون من قومهم، هؤلاء غرر الناس، فقال مفروق بن عمرو - وقد غلبهم لساناً وجمالاً - : والله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، وقال المشن نحو معناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَاتِ...﴾ الآية، فقال مفروق: دعوت والله يا فرشي إلى مكارم الأخلاق وإلى محسن الأفعال، وقد أفكَّ قوم كذبوك وظاهروا عليك»<sup>(١)</sup>.

ومن هذه الأصول - أيضاً - قوله - تعالى - : ﴿خُذُ الْعُفْوَ وَأَمْرُ بِالْمَعْرِفَةِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجِنَاحِ﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٩]، « فهي بيان لأصول الفضائل الأدية وأساس التشريع حيث يأمر الله - تعالى - فيها بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية، والأداب النفسية، والأحكام العملية، وهي: العفو، وهو: الشيء السهل الذي لا كلفة فيه، والأمر بالمعروف، وهو: اسم جامع لكل ما عرف بطاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، والأمر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع، ثبتت لنا أن العرف والمعروف أحد هذه الأركان للأداب الدينية والتشريع الإسلامي، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة، وما تتوافق عليه من الأمور النافعة في مصالحها، حتى إن كتاب الله - عز وجل - قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبaitته ﷺ للنساء... ومن المعلوم أن عقد المبaitة أعظم العقود في الأمم والدول، فتقيد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على أن الالتزام

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤ / ٤٧٤، ٤٧٥.

المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه<sup>(١)</sup>، والإعراض عن الجاهلين - وهو الأصل الثالث - وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أقوى من الإعراض عنهم<sup>(٢)</sup>، فما أخل أكثر المفسرين بالنسبة لهذه الآية، هو كونهم لم يوفوها حقها على المستوى التشريعي، وإن كانوا قد أكثروا الحديث في ما دلت عليه من الآدابوها هو القاضي ابن العربي - رحمة الله - في كتابه: «الأحكام» يشير إلى أن الآية، «وإن كانت من ثلاث كلمات قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيّات حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوّعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاثة أقسام الإسلام الثلاثة، قوله: ﴿خُذِ الْعُطْوَ﴾ تتولى بالبيان جانب الدين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتکلیف، قوله: ﴿وَأَمْرُهُ بِالْمَرْفُوِّ﴾ تتناول جميع المأمورات والمنهيّات، وأنها ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضوعه، وافتقت القلوب على علمه، قوله: ﴿وَأَغْرِضُ عَنِ الْجَنَاحِيْنَ﴾ تتناول جانب الصفح بالصبر الذي يتّأّتى للعبد كلّ مراد في نفسه وغيره»<sup>(٣)</sup>.

فدلّ بهذا التحليل أن الآية مهمة وذات بال في مجال التشريع إلى جانب ما أوّعته في مجال الآداب، وهو كثير في القرآن، حيث نجد العديد من الآيات من هذا النوع لا تتضمّن أحكاماً تفصيلية مباشرة، ولكنها تتضمّن قواعد للسلوك وقواعد للحياة

(١) لقد دعا القرآن الكريم إلى المعروف عند إرادة التلبّس بشأن من شؤون الحياة العامة بين الأفراد، حيث أفيناه يندب إلى الوصية بالمعروف ويستحضره في شؤون الأسرة خصوصاً بين الزوج والزوجة، فالصدق، والعشرة، والطلاق، والتراضي بينهما، والصالح، والنفقة، والملائكة كل ذلك بالمعروف. وفي الولاية على الأيتام نجده يخطاب القيمين على شؤونهم فيحل لهم أخذ الأجرة، وبقيده بالمعروف، وبين أن من وظيفة النبي كونه يأمر بالمعروف، وحرّر الأمة إليه باعتباره أحد دعائم السياسة الشرعية. كل ذلك لتبيّان خطورة المعروف وحاجة الأمة إليه. انظر - على سبيل المثال -

. سورة القراء، الآيات: ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٤-٢٢٩، ٢٣٨.

(٢) تفسير المنار ٩ / ٥٣٢.

(٣) أحكام القرآن ٢ / ٨٢٦.

وقواعد للتعامل تعتبر أصولاً، وعلى المكلف أن يعود إليها؛ باعتبارها الضوابط التي ينبغي أن يخضع إليها سلوكه ويزنه بها، أقرأ إن شئت قوله - تعالى - في الجزاء:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة، الآيات: ٧، ٨]، وفي العهود والمواثيق قوله - تعالى -:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء، الآية: ٣٤]، وفي الشورى قوله - تعالى -:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ يَنْهِمُ﴾ [الشورى، الآية: ٣٨]، وفي المقصود الأسمى من إيجاد الثقلين قوله - تعالى -:

﴿وَمَا حَلَقْتُ لِجَنَّ وَأَلْأَنَّ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ⑯﴾ [الذاريات، الآية: ٥٦]، وفي التنظيم الاقتصادي قوله - تعالى -:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر، الآية: ٧]، وفي مجال العلم والتعلم قوله - تعالى -:

﴿فَشَلَوْا أَهْلَ الدِّيْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأبياء، الآية: ٧]، وفي مجال توثيق عرى الوحدة قوله - تعالى -:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُونَ﴾ [المجرات، الآية: ١٠]، وفي احترام الإرادة الإنسانية ومشاعرها:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٦]، وغيرها من الكليات الجامدة التي تعتبر أصولاً في المعاش والمعاد.



## المطلب الأول :

### السُّنَّةُ مُؤَصَّلٌ مِّنْ قِبَلِ الْقُرْآنِ

وحيث أورد القرآن الانصياع التام والتسليم المطلق لأوامر الرسول ﷺ ، والوقوف عند النهيّات - وذلك في مواطن كثيرة وبصيغ متباينة وتعبيرات يطبعها العموم - فإنما أراد بذلك - والله أعلم - أن يوصل للسنة النبوية بقاعدة جامعة تعتبر الأم لشيلاتها من الآيات التي ت Howell إلية؛ لتبيان قيمة هذه السنة إزاء هذا التشريع.

ومن هذه الآيات قوله - عز وجل - : **﴿وَمَا ءَانَّكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا تَهْنَكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾** [الحشر، الآية: ٧] ، وإليك بعض ما قيل في شأنها من قبل المفسرين، ومنهم صاحب الظلال - رحمه الله - ، حيث يقول: «لو أنها جاءت بمناسبة الفيء وتوزيعه، إلا أنها تتجاوز هذا الحادث إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعي»<sup>(١)</sup> ، وقال ابن عاشور - رحمه الله - : « هي آية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيدرج فيها جميع أدلة السنة»<sup>(٢)</sup> ، وقال الصاوي - رحمه الله - : « والآية محمولة على العموم في جميع أوامره ونواهيه؛ لأنه لا يأمر إلا بالإصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد فتخرج من هذه الآية: أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله، وأن كل ما نهى عنه النبي ﷺ نهي من الله، فقد جمعت أمور الدين كما هو معلوم»<sup>(٣)</sup> ، وهو العموم المحكي عند كثير من المفسرين<sup>(٤)</sup> ، فالقرآن دال - من هذا الوجه - على

(١) في ظلال القرآن / ٦ / ٣٥٢٤.

(٢) التحرير والتبيير / ٢٨ / ٨٧.

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين / ٤ / ٣٩٢.

(٤) انظر التفسير الكبير / ٢٩ / ٢٨٧، ومحasan التامwil / ١٦ / ٩٩.

وجوب العمل بالسنة، وهي مُؤَصَّلةٌ من قبله، وكل عمل بما جاءت به، عمل بالقرآن، وهو فقه كبار الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كعبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، الذي قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمفات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، قال: بلغ ذلك امرأة منبني أسد، يقال لها أم يعقوب، فقالت: يا أبا عبد الرحمن! بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله؟ قالت: إني لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده! قال: إن كنت قارئة لقد وجدتيه، أما قرأت: **﴿وَمَا ءانَتُكُمُ الرَّسُولُ فَخَذُوهُ وَمَا نَهَنَّكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾** [الحشر، الآية: ٧] قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ.

- وعن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى مُحرِّماً عليه ثياب، فنهى المحرم، فقال: أئنتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي، فقرأ عليه: **﴿وَمَا ءانَتُكُمُ الرَّسُولُ فَخَذُوهُ وَمَا نَهَنَّكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾**<sup>(١)</sup> ورأى عبد الله بن عباس طاؤساً يصلّي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: اتركهما فقال: إنما نهى عنهما أن يتخذنا سنة، فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر، فلا أدرى أتعذر عليهما أم تؤجر؛ لأن الله - تعالى - قال: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾**<sup>(٢)</sup> [الأحزاب، الآية: ٣٦]، وقال الشافعي - رحمه الله -: «سلوني ما شتم أخبركم عنه من كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزبورو؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿وَمَا ءانَتُكُمُ الرَّسُولُ فَخَذُوهُ وَمَا نَهَنَّكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾**<sup>(٣)</sup>، ولذلك فيما قال به النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهم، أو عمه من عمه. وكذا كل ما حكم أو قضى به»<sup>(٤)</sup> «وعن عبد الله بن

(١) جامع بيان العلم وفضله / ١، ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: ٢٨٦/٢٨٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن / ١٧-١٨.

(٤) أضواء البيان / ٣-٣٣٨.

مسعود، قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن»، وتنويره: قراءته ومناقشة العلماء في تفسيره ومعانيه<sup>(١)</sup>.

فهذه نوازل تعتبر من صميم التطبيقات لهذه الكلية الجامعة المتمثلة في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا ءاَنَّكُمُ الرَّسُولُ فَحْذِرُوهُ وَمَا تَهْكُمُ عَنْهُ فَانْهُوَا﴾، وقد بزرت - كما لاحظنا - خصيصة من خصائصها وهي الشمولية؛ إذ لا يعسر أن تغدو حاضرة في نوازل شتى غير هذه التي مرت معنا . فتبين من هذا أن القرآن يؤصل للسنة النبوية .

\* \* \*

---

(١) كنز العمال ١ / ٥٤٨، وانظر اللسان ٤ / ١١٠، مادة «ثور».

## المطلب الثاني :

### الإجماع مؤصلٌ من قِبَلِ القرآن

لقد انتزع أصل الإجماع من القرآن، وذلك من مثل قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمَنْ يُشَافِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُؤْلِمُهُ مَا تَوَلََّ وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [ النساء ، الآية: ١١٥ ]، وهي مما شاع الاستدلال به عند كثير من علماء أصول الفقه، ومنهم الإمام الشافعي - رحمه الله -، قال ابن كثير «والذي عوّل عليه الشافعي في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحريم مخالفته، هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكير الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها»<sup>(١)</sup>، وتقرير الاستدلال أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً؛ لأنه توعد على مخالفته، وقد ناقش الإمام الغزالى - رحمه الله - الاستدلال بهذه الآية، واعتبر كل الأدلة التي سيقت لإثبات الإجماع ظواهر نصوص، فقال: هذه كلها ظواهر نصوص لا تنص على الفرض بل لا تدل - أيضاً - دلالة الظواهر.. ثم قال: وأقواها قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يُشَافِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُؤْلِمُهُ مَا تَوَلََّ وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، فإن هذا يوجب اتباع سبيل المؤمنين<sup>(٢)</sup>.

وما توسل به العلماء - أيضاً - لإثبات الإجماع، قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُفْلِي الْأُمُرُ مِنْكُمْ﴾ [ النساء ، الآية: ٥٩ ]، وأولو الأمر يعني ذويه، وهم أصحاب الأمر والمتولون له، أهل الشأن وما يهتم به من أحوال وشئون الناس، إليهم يرجع تدبيرهم، فهم المعتمد في ذلك، فيصير الأمر من خصائصهم، ولما

(١) تفسير القرآن العظيم / ١ / ٥٥٥

(٢) المستصفى / ١ / ١٧٥

أمر الله بطاعة أولي الأمر، علمنا أن أولي الأمر في نظر الشريعة طائفة معينة، وهم قدوة الأمة وأمناؤها، وأن تلك الصفة تثبت لهم بطرق شرعية - إذ أمور الإسلام لا تخرج عن الدائرة الشرعية -، وطريق ثبوت هذه الصفة: إما الولاية المستندة إليهم من الخليفة ونحوه، وإما صفات الكمال التي يجعلهم محل اقتداء الأمة وهي الإسلام والعلم والعدالة فأهل العلم والعدل من أولي الأمر بذاته قال الإمام مالك - رحمه الله -: «أولو الأمر أهل القرآن والعلم»<sup>(١)</sup>، ولئن كان بعض المفسرين قد ذهبوا إلى أن أولي الأمر هم: النساء - كما ستراء -<sup>(٢)</sup> فإن هذا الأمر بالطاعة لأولي الأمر، وإن سلمنا أنهم النساء، فإن طاعتهم لا تتم إلا إذا أمرتا بمقتضى الشرع، فتكون طاعتهم تبعاً لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف، وفيه ما يشعر بأن الأمير لا يكون أميراً إلا إذا كان عارفاً بفقه الدين وشرعه؛ حتى يتسرى له قيادة الناس في ضوء الشرع، وحتى ترجع الطاعة في النهاية من حيث بدأت وهي طاعة الله ورسوله، قال ابن القيم - رحمه الله - في معنى الآية: «أمر - سبحانه - في هذه الآية بطاعته وطاعة الرسول بِعَبْدِهِ وَأَعْدَادِ الْفَعْلِ: **﴿وَأَطِيعُواهُ﴾** إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً؛ بل حذف الفعل وجعل طاعتهم ضمن طاعة الرسول فإذاً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بخلاف ما جاء به الرسول بِعَبْدِهِ فلا سمع له ولا طاعة»<sup>(٣)</sup>، فدل قوله: «**وَأُولَئِنَّ الْأَمْرَ مِنْكُمْ**» أن إجماع الأمة حجة، والدليل هو الأمر بطاعته على سبيل الجزم<sup>(٤)</sup>، وقد اعتبرت من قبل بعض المفسرين أنها جامعة لأكثر علم أصول الفقه، وهم يعنون بذلك اشتتمالها على تقرير الأصول الأربع، وهي: الكتاب، والسنّة، والإجماع، والقياس<sup>(٥)</sup>، وقد جعلها الظاهرية أمّا للأصول الثلاثة عندهم، وهي:

(١) التحرير والتبيير / ٥ . ٩٨-٩٧.

(٢) وذلك عند الحديث عن كلمة الطاعة.

(٣) إعلام الموقعين / ١ ، ٤٨ ، ٤٩.

(٤) التفسير الكبير / ١٠ . ١٤٨.

(٥) نفسه / ٥ . ١٤٨.

القرآن، والسنّة، والإجماع، قال ابن حزم - رحمة الله - : « وهي آية جامعه لجميع الشرائع وقد حوت الأصول الثلاثة التي أزِمنَا بطاعتھا، وهي قوله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَاءَمْتُمَا أَطْبَعُوا اللَّهَ﴾ فهذا أصل، وهو: القرآن، ثم قال - تعالى - : ﴿وَأَطْبَعُوا الرَّسُولَ﴾ فهذا ثان، وهو: الخبر عن رسول الله ﷺ ، ﴿وَأَوْلَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فهذا ثالث، وهو: الإجماع المنقول إلى رسول الله ﷺ .<sup>(١)</sup>

ومن الآيات الدالة على أن للإجماع أصلًا في القرآن، قوله - عز وجل - : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِنَكُوْنُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة، الآية: ١٤٣]، فأخبر - تعالى - عن عدالة الأمة وخيريتها، فلو أقدموا على محظور لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت ذلك، وجب كون قولهم حجة<sup>(٢)</sup>، ولو كان فيما اتفقا عليه باطل، لانتلمنت عدالتهم<sup>(٣)</sup>، وهو ما يعني أن الآية اقتضت العدالة الكاملة لاجتماع الأمة، فلو كان إجماعهم على أمر باطل لجاءت عدالتهم ناقصة، وذلك لا يناسب الشاء عليهم بما في هذه الآية.

\* \* \*

(١) الأحكام في أصول الأحكام ١ / ٩٧.

(٢) التفسير الكبير ٤ / ١٠٩.

(٣) تفسير البيضاوي: ١ / ١٩٥.

## المطلب الثالث :

## القياس مؤصلٌ مِنْ قِبَلِ القرآن

لقد ساق القرآن أمثلة عديدة للقياس يتبناها المكلفين على أن حكم الشيء حكم نظيره، وحسبنا أنه حوى بضعة وأربعين مثلاً تناول فيها تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم.

ومدار الاستدلال هو الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وكل هذا الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، وجعله قرينه وزیره، فقال - تعالى - : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشوري، الآية: ١٧] ، وقال : ﴿لَقَدْ أَرَزَسْلَنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَرَزَلَنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد، الآية: ٢٥] ، والقياس الصحيح هو الميزان، وال fasid ما يصاده؛ كقياس الذين قاسوا البيع على الربا، وقياس الذين قاسوا البيع على الربا، وقياس الذين قاسوا الميزة على المذكي؛ وللهذا تجد في كلام السلف ذم القياس، وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به وهذا حق<sup>(١)</sup>، وما هو داخل في التفريق بين المختلفات. قوله - تعالى - : ﴿أَفَنَجِعُلُّ الْمُتَّبِعِينَ كَالْمُتَّبِعِينَ﴾ [٣٥] ما لئنْ كَيْفَ تَخْكُمُونَ﴾ [القلم الآيات: ٣٥، ٣٦] فأنخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول، لا يليق نسبته إليه - سبحانه - ، والاستفهام أفاد إنكار جعل الفريقيين متشابهين متماثلين في الجزاء، ونفي التساوي وارد في معنى التضاد، ومن هذا قوله - عز وجل - : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوْنَ﴾ [١٦] [السجدة، الآية، ١٨] ، قوله - تعالى - : ﴿أَفَمَنْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَرَأَتْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ﴾ [ص، الآية: ٢٨] ، وقال : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٣٢، ١٣٣.

أَجْرَحُوا السَّيِّعَاتِ أَنْ يَجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ إَمْتَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحِيلُهُمْ وَمَا يَهْمِهُ  
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ [الحاية، الآية: ٢١]، ويضي القرآن في هذا السياق؛ يذكر العقل  
وينبه الفطرة بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء  
ومخالفه في الحكم.

ومن هنا قال العلماء: «العمل بالقياس فطر الله عليها الناس؛ ولهذا فهمت  
الأمة من قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ جميع وجوه  
الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها. وفهمت من قوله - تعالى - : ﴿فَلَا  
يَنْهَا أُنْهِيَ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل وإن لم ترد نصوص  
أخرى بالنهي عن عموم الأذى»<sup>(١)</sup> في القرآن، والكتب السماوية.

\* \* \*



### المبحث الثالث :

## القرآن والكتب السماوية

### المطلب الأول :

## مهيمن عليها ومصدق لها

إن كتابا مثل القرآن الكريم الذي وصف بالهدى والبيان والحق والتبيان، الذي استوعب كل حاجات المكلف من أمر الدين على أكمل الوجوه وأتمها؛ لجدير أن يعلو على سائر الكتب السالفة، وأن يتشرف بالرقابة عليها، وحسم مادة التصديق بما جاء فيها، وتلك هي الهيمنة المعبر بها في قوله - تعالى - : **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمِنًا عَلَيْهِ﴾** [المائدة، الآية: ٤٨] ، قال الرازى - رحمه الله - : **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمِنًا عَلَيْهِ﴾** [المائدة، الآية: ٤٨] ، قال الرازى - رحمه الله - : «إِنَّمَا كَانَ الْقُرْآنُ مَهِيمِنًا عَلَى الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي لَا يَصِيرُ مَسْوِخًا لِبَتَةٍ؛ وَلَا يَتَطْرُقُ إِلَيْهِ التَّبْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ؛ عَلَى مَا قَالَ - تَعَالَى - : **﴿إِنَّا نَخْفِي نَزْلَنَا الْيَكْرَ وَإِنَّا لَمُّحَمَّدٌ لَنَنْظُونَ﴾** [الحجر، الآية: ٩] ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، كَانَ شَهادَةُ الْقُرْآنِ عَلَى التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ حَقًّا وَصَدِيقًا<sup>(١)</sup>، فَهُوَ الصُّورَةُ الْأَخِيرَةُ لِلْكِتَابِ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ النَّهَائِيُّ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ النَّاسِ، فَكُلُّ اخْتِلَافٍ يَجِبُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ؛ لِيَفْصِلَ فِيهِ سَوَاءً كَانَ هَذَا الْاخْتِلَافُ فِي التَّصُورِ الْاعْتِقَادِيِّ بَيْنَ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، أَوْ فِي الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ هَذَا الْكِتَابُ بِصُورَتِهِ الْأَخِيرَةِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) التفسير الكبير / ١٢ .

(٢) في ظلال القرآن / ٢ / ٩٠٢ .

وفي القرآن شواهد كثيرة لعرض الكتب الكبرى الماضية؛ كالتوراة والإنجيل مقرونة به لإبراز حقيقة الهيمنة التي تعني - كما أسلفنا - الرقابة والشهادة والحفظ والأمانة<sup>(١)</sup>، ولذكر ما لها - أيضاً - من مزية على لسانه.

ومن هذه الشواهد قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْتَّوْرَةَ فِيهَا هُدَىٰ وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا الْبَيْبُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة، الآية: ٤٤]، فأخبر القرآن عن التوراة - كما أنزله الله - أنها من كتب الله التي جاءت لهداية البشر، حيث وصفها بالهدي والنور، بما حوتة من عقيدة وعبادات وشعائر.

ومضى في نفس السياق يتحدث عن الإنجيل، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَمَا تَبَيَّنَ لِإِنْجِيلِ فِيهِ هُدَىٰ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٦]، فأخبر عن حال من أحوال عيسى - عليه السلام - وهو كونه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والذي بين يديه هي التوراة، حيث أمره باعثه - سبحانه - بإحياء أحكامها والسير في هديها، وكأنما هذه الكتب حلقات يشد بعضها ببعض لتألف سلسلة متكاملة مشتملة على مناهج للحياة الإنسانية على صعيد واحد وإن تخللتها - من فترة إلى أخرى - بعض التعديلات التي تملتها الظروف والأحوال والملابسات، قال الله - تعالى - في حق عيسى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَمَا تَبَيَّنَ لِإِنْجِيلِ فِيهِ هُدَىٰ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٦]، ثم قال - تعالى - بعدها: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِيقَةِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة، الآية: ٤٨]، أي من الكتب السالفة.

على أن الأصول الثوابت لا يعتورها تغيير ولا تبدل، إقرأ إن شئت قوله - تعالى - : ﴿فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ وَذَكَرَ أَسْمَهُ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ﴾ [١١]

خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ هَذَا لِفِي الصُّحْفِ الْأُولَىٰ ﴿٨﴾ صُحْفٌ لِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٩﴾ [الأعلى، الآيات: ١٤-١٩]، إنه تقرير لقواسم مشتركة، تقرير يرد في كل حكم كانت مصلحته كلية بحيث لا تختلف ولا تختلف باختلاف الأمم والأزمان، فتمثلت العقيدة في قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ ﴿١٠﴾ قَالَ: مَنْ شَهَدَ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ وَشَهَدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَيَكُونُ أَصْلُ التَّرْكِيَّةِ التَّوْحِيدِ<sup>(١)</sup>، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بِالْحَثْ عَلَى عِبَادَتِهِ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «فَصَلِّ»، فَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى تَكْمِيلِ الْجَوَارِحِ وَتَرْبِينَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، ثُمَّ يَكْشِفُ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - عَنْ حَالِهِ مِنْ أَحْوَالِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهِيَ حُبُّ الدِّينِ وَحُظُوظُهَا وَمَنَافِعُهَا، وَهِيَ مَدْرَكَاتُ الْقُرْآنِ لَا يَحِيطُ أَحَدٌ بِهَا عِلْمًا: «بَلْ تُؤْتَيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧﴾»، وَهَذِهِ أَمْوَارٌ لَا يَجُوزُ أَنْ تَخْتَلِفَ باختلافِ الشَّرَائِعِ؛ لِذَلِكَ خَتَمَهَا بِالإِشَارَةِ إِلَى قَدْمِ هَذِهِ الدِّعَوَةِ، وَعِرَاقَةِ مَنْبِتها، وَامْتِدَادِ جُذُورِهَا فِي شَعَابِ الزَّمْنِ، وَتَوْحِيدِ أَصْوَلِهَا مِنْ وَرَاءِ الْمَكَانِ وَالْزَّمَانِ، «إِنَّ هَذَا لِفِي الصُّحْفِ الْأُولَىٰ ﴿٨﴾ صُحْفٌ لِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٩﴾» [سبح (الأعلى)، الآيات: ١٨، ١٩]. عَنْ أَبِي ذِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «قَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ شَيْءًا مَا كَانَ فِي صُحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ؟ قَالَ: نَعَمْ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ ﴿١٠﴾ وَذَكَرَ أَسْمَاءَ رَبِّيهِ، فَصَلِّ<sup>(٢)</sup> بَلْ تُؤْتَيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧﴾»<sup>(٣)</sup>، وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: «وَإِنَّمَا لِفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾» [الشعراء، الآية: ١٩٦]، وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَصَّنَ يَهُ، نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّنَنَا يَهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِمُوا الْدِينَ وَلَا تَنْفِرُوا فِيهِ» [الشورى، الآية: ١٣].

وَمِنْ ثُمَّ لَبِثَ الْقُرْآنِ يَقْرِرُ تَصْدِيقَهُ لِهَذِهِ الْكِتَبِ وَمَا حَوْتَهُ مِنْ شَرَائِعٍ وَشَعَائِرٍ وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - حِينَ تَعْرُضُ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ -: «مَا كَانَ

(١) التحرير والتنوير / ٣٠ / ٢٨٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن / ٦ / ٣٨٩٤.

(٣) التحرير والتنوير / ٣٠ / ٢٩١.

حدِيشاً يُفْرَنَ ولَا كِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ» [يوسف، الآية: ١١١]، وما الذي بين يديه سوى تلك الكتب السالفة حيث بينها وفصلها وقال - تعالى - : «وَنَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَبَ إِلَيْهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» [آل عمران، الآية: ٣]، وقال - تعالى - : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَبَ إِذَا مَأْتُمُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ» [السباء، الآية: ٤٧]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - : «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» [فاطر، الآية: ٣١]، فالقرآن مصدق لأنبياء هذه الكتب ومصدق للكتب، ذاكر لنورها، عارض لهداها، شاهد على ما حوتة من أصول الدين، وما جاءت به من شرائع، ثم إن ما جاء به القرآن من الأحكام المخالفة للأحكام المذكورة فيها من فروع الشريعة، فذلك من أجل اختلاف المصالح، أو من أجل التيسير على هذه الأمة»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### كاشف للتحريفات التي لحقتها

إذا تبين ما سبق أن القرآن الكريم، نزل مصدقاً لما بين يديه من الكتب والأبياء، شاهداً على أن موسى - عليه السلام - ومن اتبعه على حق، وأن أهل الكتاب مدوا أيديهم إلى معاني وألفاظ الكتابين بالتحريف، قال - تعالى - : ﴿أَفَنَظَرْمُونَ أَنْ يَوْمَنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقْلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٩]، وقال - تعالى - : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرُكُوا بِهِ ثُمَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبُوا أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٧٩]، وقال - تعالى - : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَيْنِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْيْنِ فَمَا جَرَأَهُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَزِيٌّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرُدُّونَ إِلَيْهِ أَشْدَرَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٥]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بَسْتَغْتُوْنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٩]، وقال - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِيمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُمْ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَئِيمَنَةَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٩١]، وأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَقَّ تَقْيِيمُوا الْقَوْنَةَ وَالْأَنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة، الآية: ٦٨]، وإن من أهل الكتاب الذين أسلموا من يشهد بذلك، قال - تعالى - : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَنَ لِلَّهِ لَا يَشْرُكُونَ بِعِيَادَتِ اللَّهِ ثُمَّا قَلِيلًا﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٩]، ولا يقولنَّ قائل: إن القرآن يمدح أهل

هذه الكتب أحياناً ويندمونهم أخرى؛ لأن هذا قد بدا بطلانه واضحاً، حيث إن المدح لا يتناول سوى الطائفة المتبعة لموسى وعيسى - عليهما السلام - على الدين القويم الذي لم تطله يد التحرير<sup>(١)</sup>.

وهذه صور من التحريرات يحكيها القرآن وهي تشمل تحريرات قوله وعملية مرفقة بالردود الإلهية تكشف منكرها وزورها وتلخص باطل قائلها ومعتنقيها.

### ١- من تحريرات يهود القولية:

أ- قولهم: إن الله فقير . قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَاتَلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِعَيْرٍ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨١]. وفي الآية تهديد بما يؤذن بأن هذا القول جراءة على الله؛ لذلك أتبعه بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ وتسجيل هذه الفريدة، كناية عن وعيده منه - تعالى - وقد قرنه بقوله: ﴿وَقَاتَلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِعَيْرٍ حَقٍّ﴾، «فهذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء؛ لذلك قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، حيث يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتحقيقاً وتصغيراً<sup>(٢)</sup>.

ب- وأما مقالتهم الحكمة في قوله - تعالى - : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ فقد أجاب عنها الرب - سبحانه - بقوله: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ يُغْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة، الآية: ٦٤]، حيث ذموا بها ذمّاً تناول السب والدعاء عليهم، ثم أعقبه بنقض لهذه المقالة اشتتملت على إثبات سعة فضله - عَزَّ وَجَلَّ - وإنعامه.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ١٣٥٠. بتصريف.

(٢) تفسير القرآن العظيم / ٤٣٤.

ح - قولهم: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع، قال الله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سَتَةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [الفرقان، الآية: ٣٨]، وهو جواب أكذب الله به اليهود أهل الفري على الله؛ وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه: يوم الراحة<sup>(١)</sup>.

د - ادعاؤهم بنوته غزير الله: وذلك عند حكاية هذه المقالة الشنيعة في قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ أَبْنِ اللَّهِ﴾ [التوبه، الآية: ٣٠]، وبهذه المقالة يكونون قد أعظموا على الله الفريه؛ وبلغوا في الكفر غايتها؛ لذلك شنع عليهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فهو قول لا يعدو الوجود اللسانى، وليس له ما يتحققه في الواقع، ﴿كَبَرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف، الآية: ٥]، وتلك سبيل السابقين من أهل الشرك يضاهئونهم في أقوالهم، قاتلهم الله<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - من تحريفات اليهود العملية :

أ - تبديل شريعة الرجم: قال - تعالى - : ﴿وَمَنِ اتَّبَعَ الدِّينَ هَادِيًّا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ أَخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكُمْ بِمَحْرُوفَنَ الْكَلَمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيشَرَ هَذَا فَخَذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُثْوِهُ فَاحْذَرُوهُ﴾ [المائدah، الآية: ٤١]، والآية أشارت إلى ما ساقه الوحدى في أسباب النزول، والطبرى في تفسيره ما محصله: أن اليهود اختلفوا في حد الزانى - حين زنى فيهم رجل بأمرأة من أهل خير أو أهل فدك - بين

(١) محسن التأويل ١٥ / ٥٠، وأسباب النزول للوحدة، ص: ٢٦٦، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٤ / ٢٥٠.

(٢) التحرير والتنوير ١ / ١٦٧، ١٦٨.

أن يرجم وبين أن يجلد ويحتمم<sup>(١)</sup>، اختلافاً الجائم إلى أن أرسلوا إلى يهود المدينة أن يحكموا رسول الله في شأن ذلك، وقالوا: إن حكم بالتحميم قبلنا الحكم، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوه، وأن رسول الله ﷺ ، قال لأهابهم بالمدينة: ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحتمم ويجلد ويطاف به، وأن النبي ﷺ علم كذبهم وأعلمهم بأن حكم التوراة هو الرجم على من أحصن، فأنكروا، فأمر بالتوراة أن تنشر - وكانوا يلفونها على عود على شكل اسطواني - وجعل بعضهم يقرأها ويضع يده على آية الرجم، فقال له رسول الله ﷺ : ارفع يدك فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فقال رسول الله ﷺ : لا تكونت أول من أحسي حكم التوراة، فأنزل الله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفَرِ﴾ - إلى قوله - : ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: ائتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا<sup>(٢)</sup>.

ب - اعتداءهم على ما حرم الله عليهم: وذلك في مثل ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿وَسَلَّمُوا عَلَى الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَخْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبَّتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبَّتِهِمْ شَرِعاً وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوُهُمْ بِمَا كَانُوا يَقْسِمُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٦٣]. إنه الوحي الإلهي الناطق بالكشف عن حقائق لا يدركها إلا علماء أهل الكتاب، ولئن كان هذا الصنيع المروي في هذا السياق صنيع الأسلاف، إلا أن السؤال ملتفت به إلى أخلاقفهم، إلى من بحضوره الرسول ﷺ إعلاماً لهم - أولاً - بقدم كفرهم، وبيان أن هذا الكفر أمر موروث متاعب فيهم يفرز تلك التجاوزات المحكمة عنهم - والتي من جملتها هذا - بأساليب ملتوية وحيل خسيسة وتحذيرًا لهم - ثانياً - لئلا يتمادوا في تكذيبهم فيحل

(١) أي يلطخ وجهه بالسواد تمثيلاً به.

(٢) أسباب النزول للواحدي، ص: ١٣٠، جامع البيان / ٤، ٢٣٢، تفسير البيضاوي ٢ / ١٥٠.

عليهم ما حل على أسلافهم، وسياق هذه الآية هو بسط قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَغْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبَّتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَسِيعَنَ﴾ [البقرة، الآية: ٦٥].

وفي مثل قوله - تعالى - : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَسِ حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ [الأنعم، الآية: ١٤٦]، يروي البخاري - رحمه الله - في صحيحه عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ دعا على اليهود في هذا الشأن وذلك بقوله - عليه الصلاة والسلام - : «قاتل الله اليهود، لما حرم الله عليهم شحومها جملوها ثم باعواها فأكلوها»، وفي رواية: « فأكلوا ثمنها <sup>(١)</sup> ، فتساءل عن هذا - كما ذكر - دعاء رسول الله ﷺ بالقتل وذلك، بما اخترعوا من الحيلة حتى غدوا منتصبين لمحاربة الله، ومن حارب الله محورب، ومن قاتله قيل».

ت - تعطيلهم لضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قال - تعالى - مخبراً عنهم: ﴿أَعْنَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَيْنِ إِنْسَانٍ دَاؤِدَ وَعِيسَى أَبْنَيْ مَرِيمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوَهُ لِئَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٧٩] [المائدة، الآيات: ٧٩، ٧٨] ، بحيث كان يفعل بعضهم المنكر، ويُسكت عليه البعض، وهي من المصالح التي استمرت فيهم، وأخرت بدعوات الأنبياء فيهم؛ لذلك اعتبروا عاصين لله فاستحقوا اللعن، وكيف لا وقد بقي فيهم ذلك حتى جاء محمد ﷺ فاعتذروا عليه بالتكذيب، والمناقفة، ومحاولة الفتک، والكيد، وكل وسائلهم، وأعمالهم الدنيئة قصد كسر دعوته، إلا أن ذلك انقلب عليهم حسرة وغليظاً، ثم أجلوا خارج الجزيرة كما هو معلوم.

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب التفسير باب، وعلى الذين هادوا حرمتا.. الآية / ٨) وكتاب البيوع، باب لا يذاب شحم الميّة / ٤ (٤١٤).

### ٣- من تحريفات النصارى القولية:

ما عرف لدى النصارى في معتقدهم غلوهم في عيسى - عليه السلام -؛ لذلك وجدنا من الآيات القرآنية الكثيرة في هذا المجال، يقول الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَبِ لَا تَقْنُلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّوْا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلَّوْا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة، الآية: ٧٧].

وقال - تعالى -: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَبِ لَا تَقْنُلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقْنُلُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَقْدَهَا إِلَى سَرِيمٍ وَرُوْحٍ مِنْهُ فَعَامَلُوهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقْنُلُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء، الآية: ١٧١]، «فخاطب الله النصارى بهذا؛ لأنهم اعتمدوا على ما ي قوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم التواميس والقوانين، ويستغون لأكابرهم الذين صاروا عندهم كبراء في الدين أن يضعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك، لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله - بحيث لا يمكنون أحداً من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل، وعن اتباع ما جاء به المسيح ومن قبله الأنبياء - عليهم السلام -»<sup>(١)</sup>، وكان من إفرازات هذا الغلو:

أ- القول بالتشليث : وهو ما حكاه القرآن عنهم في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا ... هُوَ أَلَّا سَمِيعُ الْعَالَمِ﴾ [المائدة، الآيات: ٧٦-٧٣]، حيث وبخ أهل التشليث على أنهم يبعدون ما لا يليك لهم ضرراً ولا نفعاً، وذلك بعد أن شهد عليهم بالكفر وهددتهم بالمقاتلة. على أنه حين توعدهم بالوعيد، أعقبه بالترغيب في الهدایة وذلك

(١) الجواب الصحيح لمبدل دين المسيح / ٢٨٦

بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَسْتَغْفِرُنَّهُ﴾، وحينما قص الله قصة المسيح، قال - تعالى - : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَتَرَوْنَ ﴾ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ أَنْ يَنْهَاذَ مِنْ وَلَيْلٍ سُبْحَانَهُ﴾ [مرى، الآية: ٣٤-٣٥].

ب - زعمهم قتل المسيح : قال - تعالى - : ﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، ثم عقب - سبحانه - بقوله: ﴿وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُيَّهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَبْيَاعُ الظَّلَّمِ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِيْنًا﴾ [السباء، الآية: ١٥٧]، وهذا هو الذي يجب اعتقاده وهو أن المسيح لم يقتل ولم يصلب؛ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾: ونجاه من طالبيه فأعقب كل ما ذكروه بالإبطال.

#### ٤- من تحريرات النصارى العملية:

أ - ابتداعهم الراهبانية : قال - تعالى - : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد، الآية: ٢٦]، فهذه الراهبانية التي التزموها وألزموا بها أنفسهم، لم تكن من شرع الله؛ لذلك عبر بقوله: ﴿أَبْدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها، فإن الابتداع الإتيان بالبدعة، والبدع: هو ما لم يكن معروفاً؛ أي أحدثوها بعد رسولهم، فتكون البدعة من قبيل ما أحدث بعد صاحب الشريعة<sup>(١)</sup>؛ ولذلك أتبعه بقوله: ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] فلم تكن من قبيل شرع الله وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، والمكتوب عليهم إنما هو رضوان الله عليهم ورغم هذا الالتزام فإنهم لم يوفوا به وهو ذم لهم من جهتين، من جهة الابتداع في دين الله، ما لم يأمر به، ومن جهة التفريط فيما التزموا به مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله<sup>(٢)</sup>.

(١) التحرير والتنوير / ٢٧ / ٤٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم / ٤ / ٣١٥.

ب - تعظيمهم للصلب، واستحلالهم لحم الخنزير، وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحديث والختب فلا يوجبون غسل جنابة، ولا يوجبون اجتناب شيء من الخبائث في صلاتهم، كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح - عليه السلام -، ودان بها أئمتهن وجمهورهم ولعنوا من خالفهم فيها حتى صار المتمسك بدین المسيح الحض مغلوبًا مقموًعا قبل أن يبعث الله محمداً عليه السلام وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصاً عن المسيح - عليه السلام <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### المطلب الثالث :

#### من تحريفاتهم المشتركة

وما أحبط القرآن من عقائد أهل الكتاب التي تعتبر قواسم مشتركة:

أ - ادعاؤهم أنهم أبناء الله: فأخبر القرآن بقوله - تعالى - : **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَبُوهُمْ﴾** [المائدة، الآية: ١٨] ، فهذا مقال مشترك بينهم يكشف عن غباوتهم في الكفر؛ لأنهم يقولون ما لا يليق بعظمة الله - تعالى - ، ثم هو مناقض لمقالاتهم الأخرى، وقد علّم الحق - سبحانه - رسوله أن يبطل قولهم بنقيضين: أولهما من الشريعة وهو قوله: **﴿فُلْفِلَمْ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾** ، فلو كانوا أبناء الله لما عذبهم بذنبهم، وكتب اليهود تطفح بهذا فهم القائلون: **﴿لَنْ تَمَسَّنَا أَلْتَكَارُ إِلَّا أَتَيْنَا مَعْذُودَةً﴾** [البقرة، الآية: ٨٠] ، أما النصارى - وإن لم يوجد في إنجيلهم ما ذكر للعذاب - ، إلا أن عقيدتهم تشير إليه، حيث قالوا: إن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الآخروي بخطيئة أبيهم آدم فجاء عيسى ابن مريم مخلصاً وشافعاً وعرض نفسه للصلب؛ ليكفر عن البشر خططيتهم الموروثة، ثم أخذت النتيجة من البرهان، **﴿بَلْ أَنْ شَرُّ بَشَرٍ يَمْنَنُ خَلْقَهُ﴾** ينالكم ما ينال سائر البشر.

ب - اعتقادهم أن الجنة حكر عليهم: وهو ما أخبر به قوله - تعالى - : **﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾** [البقرة، الآية: ١١١] ، وهي عقيدتهم إلى اليوم، فبيّن - تعالى - أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة، فقال: **﴿إِنَّكَ أَمَانِيَّهُمْ﴾** ، وهذا القول - وإن كان ينطق بأمنية واحدة - إلا أنه يتضمن أمانية متعددة هي لوازم لها؛ كنجاتهم من العذاب، ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ثم أعقبه بطلابتهم بأن يأتوا ببرهان على هذا الادعاء - وهي قاعدة عظيمة

انفرد بها القرآن الكريم، وتمثل في أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغیر برهان يؤتیدها - فعلم القرآن أهله أن يطالبو الناس بالحجۃ؛ لأنه أقامهم على سواء الحجۃ، قال - تَعَالَى - : ﴿وَقُلْ هَذِهِ رَسِيْلَةٌ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف، الآية: ١٠٨]، أي على الحجۃ الواضحة، وبذلك تصير مقالتهم محض ادعاء وأمانی، قال - تَعَالَى - : ﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِيمَانٌ كُلُّهُ لَوْلَا أَمَانَةٌ أَهْلُ الْكِتَابُ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١٢٣]، فنفي أمانی المسلمين كما نفي أمانی أهل الكتاب؛ لذلك بين - سبحانه - طريق نيل السعادة وذلك في قوله: ﴿بَلَّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَمَّا أَجْرَمُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُنُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١١٢].

بهذا النهج وجدنا القرآن العظيم يمضي في تتبع آثار الكتب السالفة فيصدق منها ما هو أهل للتصديق ويأركه ويدعو إليه. كما أنه يدحض ما هو من قبيل المزاعم - التي حشيت بها من قبل اليهود والنصارى - دحضاً مشفوعاً بالحجۃ مطبوعاً بالجدال الحسن.

ولست هنا بحاصر ما قام به اليهود ولا النصارى من تحریف وإنما كان ما مَرَّ على سبيل المثال.

## المطلب الرابع :

### ناصح لأحكامها

لو رجعنا إلى أعظم سورة في القرآن على مستوى الشمول - حيث سميت بسورة الفسطاط لاحاطتها بأحكام كثيرة - نستعرض أطراها المترامية، للاح للمتأمل - من خلال لائحة موضوعاتها - أنها مقسمة إلى قسمين: قسم أثبت سمو هذا الدين على سابقيه من الأديان في هديه وفي أصول تطهيره النفوس، وقسم جلى شرائعه لأنباعه قصد الإصلاح، فبعد أن قضى حق الحديث على القسم الأول، انتقل إلى قسم التشريعات إجمالاً وتفصيلاً، فتحدث عن القصاص والوصية والصيام والاعتكاف والحج والصلة والجهاد ونظام الأسرة والمعاملات المالية والإإنفاق في سبيل الله، واليتامى والمواريث، والبيوع والمسكرات، والقمار والديون، والربا، والإشهاد، والرهن، والنكاح، وأحكام النساء، والأيمان، مع تخلله من حين آخر من القضايا التابعة ساقها في معرض الاستطراد في مناسبات متفرقة القصد منها تجديد نشاط السامع، من تمجيد الله وحديث عن سماحة الإسلام وضرب للأمثال وعلم وحكمة ومعاني الإيمان والإسلام.

ثم ذيل ذلك كله بما أشعر بحب الله - عَزَّ وَجَلَّ - لعباده ورحمته بهم، حيث بدت خصيصة من خصائص هذا التشريع واضحة متميزة عن تشريعات الكتب السالفة، وذلك عند قوله - تعالى - : ﴿وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup> [البقرة، الآية: ٢٨٦]، قال ابن العربي - رحمه الله - : « هذا أصل عظيم في الدين وركن من

(١) ولنا عودة إلى كليلة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَيْنَكُنْ في الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ باعتبارها إحدى الكليات المؤسسة لهذا البحث.

أركان شريعة المسلمين شرفنا الله - سبحانه - على الأمم بها فلم يحملنا إصرًا ولا كلفنا في مشقةً أمراً، وقد كان من سلف من بنى إسرائيل إذا أصاب البول ثوب أحدهم قرضاه بالقراض فخفف الله - تعالى - ذلك إلى وظائف على الأمم حملوها ورفعها الله - تعالى - عن هذه الأمة، وقد قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأنتم منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوا»<sup>(١)</sup>، وفي الدعاء الذي لقنا إياه سبحانه - عند قوله - تعالى - : **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾**، ما ينبغي عن رفع شريعة كانت متسمة بالشدة في تكاليفها؛ إذ الإصر: الثقل والشدة، قال المفسرون: إن الله - تعالى - فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم باداء ربع أموالهم في الزكاة، و كانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة في الدنيا، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم بعض ما كان حلالاً لهم، قال الله - تعالى - : **﴿فَإِظْلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طِبَّتِ أَجْهَنَّمُ لَهُمْ﴾** [النساء، الآية: ١٦٠]، وقال - تعالى - : **﴿وَلَوْ أَنَا كَنَّبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَفْتَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرُجُوا مِنْ دِيَرَكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾** [النساء، الآية: ٦٦]، وقد حرم على المسافرين من قوم طالوت الشرب من النهر، وكان عذابهم معجلًا في الدنيا كما قال - تعالى - : **﴿فَنَنْهَا أَنْ تَطْمِسَ وُجُوهَهَا﴾** [النساء، الآية: ٤٧]، وكانوا يمسخون قردة وخنازير، قال القفال: ومن نظر في السفر الخامس من التوراة التي تدعىها هؤلاء اليهود، وقف على ما أخذه عليهم من غلط العهود والمواثيق ورأى الأعاجيب الكثيرة، فالمؤمنون سألوا ربهم أن يصونهم عن أمثال التغليظات، وهو بفضله ورحمته قد أزال ذلك عنهم<sup>(٢)</sup>، قال - تعالى - في صفة الرسول ﷺ: **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَأَلْعَلُّهُمْ أَلَّى عَلَيْهِمْ﴾** [الأعراف، الآية: ١٥٧]، إشارة إلى أنه جاء للتيسير والسامحة كما ورد في الحديث عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت

(١) أحكام القرآن / ١٢٦.

(٢) انظر التفسير الكبير / ٧١٥٨.

بالحنينية السمححة<sup>(١)</sup>، قال القاسمي - رحمه الله - : « والإصر والأغلال استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، منها عيد كل سبت لا يعمل فيه أدنى عمل، وكذلك سبت المزارع؛ ففي كل سنة سابعة سبت للأرض لا يزرع فيها ولا يقطف الكرم بل ترك الأرض عطلاً وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحش البرية، ومنها أن من ضرب أمه أو أباه أو شتمهما أو تمرد عليهما يقتل حداً، ومن تزوج فتاة ثم ادعى أنه لم يجد لها عذرة ثم تبين كذبه جمیعاً يقتلان، ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم، ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر وطلقها أو مات عنها، فلا يجوز لزوجها الأول أن يراجعها وغير ذلك من الآصار»<sup>(٢)</sup>، ومنها: «أن الله - تعالى - لم يأذن لهم بالجهاد، وحتى ما أذن لهم فيه كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه، فتجيء النار فتحرقه، فدل هذا على أن من مضى لم تحل لهم الغائمة أصلًا»<sup>(٣)</sup>.

هذه نبذة يسيرة من الأحكام التي كانت على بني إسرائيل لم يشرعها لنا - سبحانه - بفضله وكرمه وجوده، فدل بذلك على أن هذه الشريعة سيدة الشرائع بلا منازع، فهي نعمة كبيرة على الأمة توجب تعظيم مشرعها وتعزيز وتوقير المبعوث بها - صلوات الله وسلامه عليه - !



(١) مستند أحمد ٥ / ٢٦٦.

(٢) محسن التأويل ٧ / ٢٧٨.

(٣) فتح الباري ١ / ٤٣٨.

## المبحث الرابع :

### القرآن والسنّة النبوية

#### المطلب الأول

##### محفوظة بحفظه

إذا كان هذا الكتاب قد تكفل الله - عَزَّ وَجَلَّ - بحفظه بنص منه - تعالى - حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَمْ نُحْفِظُوهُ﴾ [الحجر، الآية:٩]، فإن هذا الحفظ فيه من التنويه بشأن الكتاب ما فيه إغاثة للمشركين بأن أمر هذا الدين سيم بلا ريب، وهو من التحدي بكون القرآن منزلًا من عند الله؛ إذ لو كان من البشر لحصل فيه اختلاف كثير، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْلِقَاتٍ كَثِيرَةً﴾ [النساء، الآية:٨٢]، وأية الحفظ هذه - أيضًا - دالة على حفظ السنّة المبينة للقرآن بدلاً من التضمن، فإن حفظ المبین يستلزم حفظ المبين، بل إن البيان النبوى من تمام حفظ الكتاب تصديقًا لوعده - سبحانه -، القائل: ﴿إِنَّمَا يَسَّأَنُّهُ﴾ [القيمة، الآية:١٩]؛ وذلك لأن الحفظ يشمل المباني والمعانى على حد سواء، أما المباني فقد سیجت بسياج الحفظ لولا يعتورها التبدل، وأما المعانى حيث خفت بالرعاية الربانية لئلا تشوّه بتأويل أو غيره؛ لذلك أمكن القول؛ بأن السنّة اعتبرت من الوسائل التي حفظت لنا كتاب الله في مبناه ومعناه، فجدير أن تحفظ بدورها من عبث العابثين.

وهذه المسيرة العلمية الإسلامية شاهدة عبر التاريخ على ما بذله رجال صدقوا الله ففيضهم لها من أجل الذب عن حياضها جيلًا بعد جيل، لم تخر قواهم ولم تفتر عزائمهم إلى عصرنا هذا، وهو ما أخبر به الصادق الأمين حين قال - عليه الصلاة

والسلام - : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوه، ينفون عنه تحريف الغالين،  
وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) الحديث ذكره ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، وقواه لتعدد طرقه ١ / ١٦٢-١٦٤.

## المطلب الثاني :

### مبينة له

وهو ما صرخ به كتاب الله، قال - تعالى - : **﴿وَأَنْزَلَنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾** [النحل، الآية: ٤٤]، حيث أنسد البيان إلى النبي ﷺ باعتباره أنه المبلغ للناس ما يحويه هذا الكتاب من شرائع يبلغ نظمها ووفرة معانيه، وما هذه «اللام» في قوله - تعالى - : **﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾** إلا لتعليق بعض الحكم الحافحة لا يزال الكتاب، فهي كثيرة منها هذا البيان الذي نيط به ﷺ<sup>(١)</sup>، قال الإمام الأوزاعي - رحمه الله - : إن الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب، قال ابن عبد البر - رحمه الله - : يزيد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه. وقال أحمد بن حنبل - رحمه الله - : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه<sup>(٢)</sup>، وتبذر هذه الحاجة حين نعلم أن القرآن حوى الأصول العامة للتشريع دون تفصيل ولا تفريع، فالتعريف بالصالح والمحاسد وما يؤدي إليهما، وبيان أن الصالح لا تعدو الضروريات ومكمليها، وال حاجيات وتوابعها والتحسينيات وما يكملها؛ كل ذلك أتى به الكتاب أصولاً ثم أتى بها السنة تفريعاً وبياناً، فكما تأصلت الضروريات في الكتاب - مثلاً - تفصلت في السنة، فإن حفظ الدين حاصله في ثلاثة أشياء وهي: الدعاء إليه بالترغيب والترهيب، وجهاد من عانده أو رام إفساده، وتلافي النقصان الطاريء في أصله، وأصل هذه في الكتاب، وبيانها في السنة على الكمال<sup>(٣)</sup>، وهكذا في باقي الضروريات أصولها في القرآن، والسنة بيتها، وما يقال في الضروريات يقال في الحاجيات والتحسينيات، وبذلك تبدو وظيفة السنة وهي

(١) التحرير والتبيير ١٤/١٦٤.

(٢) المواقفات، ٣/٢٠٨.

(٣) المواقفات ٤/٤٠٩.

البيان. وفي الجملة فقد جاءت السنة موافقة لما في الكتاب؛ تفسر مهمته وتفصل مجمله، وتقييد مطلقه وتخصص عامله، وترسخ أحکامه وأهدافه، فكانت في الواقع تطبيقاً عملياً لما جاء به القرآن، تطبيقاً يتخذ مظاهر مختلفة؛ فحيثما يكون عملاً صادراً عن الرسول ﷺ، وحيثما آخر يكون قوله في مناسبة، وحيثما يكون تصرفًا أو قوله من أصحابه فيرى العمل أو يسمع القول، ثم يقرّ هذا وذاك فلا يقابله باعتراض ولا نكراً، فيكون منه تقريراً. ومن أوجه هذا البيان ما أجملَ من عبادات وأحكام، فقد فرضَ الصلاة على المؤمنين من غير أن تبيّنْ أوقاتها، وأركانها وعدد ركعاتها، فبَيَّنَ الرسول الكريم هذا بصلاته وتعليمه كيفية الصلاة، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «صلوا كما رأيتونني أصلى»<sup>(١)</sup>، وفرضَ الحج من غير تبيان لمناسبته فَبَيَّنَها ﷺ، وقال: «خذلوا عني مناسككم»<sup>(٢)</sup>، وفرضَ الزكاة دون بيان ما تجب فيه من أموال وعرض وزروع على التفصيل كما لم يبيّن النصاب، فَبَيَّنتَ السنة ذلك كله.

فكل أصل تقرر في الكتاب إلا وقد فسرته السنة، وفرعت عنه، في قوله - تعالى - : «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» [النساء، الآية: ٢٩]، فقد تفرع عن هذا الأصل منع بيع الشمار قبل بدء صلاحها حيث حرم رسول الله ﷺ هذا النوع من البيوع ما لم يد صلاح الشمر ويتمكن المشتري من التشتت من تمام تكونها، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «أرأيت إذا منع الله الشمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٢ / ١١١ (كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة..).

(٢) مستند أحمد ٣ / ٣٦٦، ٣١٨.

(٣) فتح الباري ٥ / ٣٠٢-٢٩٨ (كتاب البيوع، باب بيع الشمار قبل بدء صلاحها).

### المطلب الثالث :

#### لا استنباط منه إلا بإشراك السنة

فمحاولة الاستغناء عن السنة - إذا - مخالفة لتصريح القرآن؛ إذ هو الأمر بالرجوع إلى السنة والبحث على طاعة الرسول ﷺ فيما أمر ونهى؛ بل إن الله - عَزَّ وَجَلَّ - اعتبر طاعة الرسول من طاعته - سبحانه -، فقال - تعالى -: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» [ النساء، الآية: ٧٩]، وقال - سبحانه -: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» [الفتح، الآية: ١٠]، قال الشافعي - رحمه الله -: «فأعلمهم أن يعتهم رسوله بيته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم رسوله طاعته»<sup>(١)</sup>، وحذر من التولي عن هذه الطاعة، فقال: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا أَبْلَغُ الْمُؤْمِنُونَ» [المائدة، الآية: ٩٢].

إذا كانت السنة - على كثرتها وكثرة مسائلها - إنما هي بيان للكتاب -؛ كما مر - فإنه لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصر عليه دون اللجوء إلى بيانه المتمثل فيها، قال الشاطبي - رحمه الله -: «لأنه إذا كان القرآن كلّياً وفيه أمور كليلة، فلا محيص عن النظر في بيانه»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الرسالة، ص: ٨٢.

(٢) المواقفات ٣٠٣ / ٣.

## المبحث الخامس :

### من مقاصد القرآن الكريم

#### المطلب الأول :

##### إقامة الدين وحفظه

إن كتاب الله - تعالى - هو الخطاب التكليفي للإنسان، وهو آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين: ﴿كَتَبْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم، الآية: ١]، و﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَا مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَأَنْقُوا لَعْلَكُمْ تُرْجَمُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥٥]، ونص الحق على أنه منهج حياة، فقال - تعالى - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰٓئِي هٰٓيْ أَقْوَمُ وَبِشَّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَيْرًا﴾ [الإسراء، الآية: ٩].

وإن نظرة فاحصة في القرآن الكريم لترى أن مقاصده تدور حول نواحٍ ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية التشريع، وناحية السلوك.

قال الغزالى - رحمه الله - في حصر مقاصد القرآن ونفائسه - «انحصرت سور القرآن وأياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي الرواďف والتوابع المغنية المتيمة.. ثم قال: أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي يجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه»<sup>(١)</sup> وكأنى به يريده بهذه الناحية الأخيرة: الإشارة إلى الجزء<sup>(٢)</sup>.

(١) جواهر القرآن، ص: ٢٣.

(٢) وهي قاعدة جليلة سنفرد لها فصلاً خاصاً - إن شاء الله - .

ويقول البقاعي - رحمه الله - : «المقصود من إرسال وإنزال الكتب نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق، والمقصود من جمعهم على الحق، تعريفهم بالملك وبما يرضيه وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول»<sup>(١)</sup>.

١- فالقصد الأعظم لإنزال الكتاب: معرفة الله، حق المعرفة؛ لأن المعرفة الحقة تورث الطاعة الحقة، والطاعة الحقة تحيل المكلف إلى عبد خالص لله، والعبودية الخالصة هي التي تقيم منهج الله وتحقق الخلافة المراده لله، وبدون معرفة الله حق معرفة وتقديره حق قدره، يقع الخلل في إقامة شرعه فيتولد عن هذا الخلل ظلم في حق الذات الإلهية فتصرف العبودية لسواء، وهو الظلم العظيم: ﴿إِنَّكُمْ أَشْرَكُوكُمْ ظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان، الآية: ١٣] كما ينجم عن هذا الخلل ظلم الناس بحيث يغيب شرع الله المطلوب إقامته بين الناس، فتحل محله الأهواء فيقع التهارج والتمارج نتيجة غياب الحاكمة الربانية، ولا يزال القرآن يمدنا بنماذج صارخة تستشف منها قيمة العقيدة، فها هو يخاطب المشركين بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَعِنُوا لَهُمْ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُمْ وَلَنْ يَسْلِمُوهُمُ الْذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الْأَطَالِبِ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [٧٣] [الحج، الآية: ٧٢]، ثم أعقب هذا النداء بحكاية مأتمي الخلل الذي نجم عنه هذا الخطاب الجسيم في حق الذات الإلهية، فقال - تعالى - : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٧٤] [الحج، الآية: ٧٤]، «فما عظموه حق تعظيمه؛ إذ لو فعلوا ما أشركوا معه الضعفاء العجز، وهو الغالب القوي العزيز، فكيف يشاركه الضعيف الذليل؟»<sup>(٢)</sup>، فلو اعتقدوا تنزيه الحق عن مشاكلة المحدثين

(١) نظم الدرر ١، ٢٠، ٢١.

(٢) التحرير والتفسير ١٧/٣٤٢.

حتى يصير ذلك كالعيان لاطمأنت قلوبهم بأن ليس كمثله شيء.

فإصلاح الاعتقاد إذا هو أعظم سبب لإصلاحخلق؛ يزيل عن النفس الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويظهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله - تعالى - : **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ مَا لَهُمْ أُتْقَى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرٌ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَنْتِيبٍ﴾** [هود، الآية: ١٠١]، وهذا التنبيب ليس من فعل الآلهة؛ ولكنه من آثار الاعتقاد بهذه الآلهة<sup>(١)</sup>.

٢- ثم يليه القصد الثاني وهو التعريف بالصراط المستقيم؛ لأن المكلف خُلق لعبادة الله، **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات، الآية: ٥٦]

«وعمدة هذا الصراط المستقيم أمران: الملازمة والمخالفة»<sup>(٢)</sup>، وهذا هو التكليف الذي كلف الله به العباد على ألسنة الرسل، وهو لا يريد منهم إلا صلاحهم العاجل والأجل، وحصول الكمال النفسي بذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمالهم الإنساني وضبط نظامهم الاجتماعي في مختلف الأعصار والأمصار، وتلك حكمة إنشائهم بحيث يتنظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي، ولقد جمع القرآن هذه الأحكام التشريعية جمعاً كلئاً في الغالب<sup>(٣)</sup>، فقوله: **﴿تَبَيَّنَتْ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾** [النحل، الآية: ٨٩]، وقوله: **﴿أُتَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيَنَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَعْمَلْتُ وَرَضِيَتْ لَكُمْ إِلَاسْلَمَ دِيَنَّا﴾**، المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستباط والقياس، قال الشاطبي - رحمه الله - : «لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جاماً ل تمام الدين إلا والمجموع فيه

(١) التحرير والتنوير ٤٠/١ والتبسيب: النقص والخسارة: لسان العرب، مادة «تبب».

(٢) جواهر القرآن، ص: ٢٨.

\* قوله في الغالب: يريد أن القرآن قد حوى من الأحكام ما هو جزئي إلا أن الغالب عليه أن يشتمل على الكليات.

أمور كلية<sup>(١)</sup>.

-٣- أما المقصود الثالث، والذي يتمثل في تهذيب الأخلاق، وتشذيب السلوك، وكل ما هو داع إلى الأخذ بمحاسن العادات، وتجنب الأحوال المدناسات التي تأنفها العقول الراجحات، فهو مجموع كله في قسم مكارم الأخلاق، حيث وجدنا القرآن يحضر على مكارم الأخلاق ومحاسنها في العادات والمعاملات، كل ذلك موجود في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لذلك حين سُئلَت عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ وأن الله - تعالى - قال لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَنِ الْخُلُقِ عَظِيمٌ﴾ [١]، فدل مجموع الآية وحديث عائشة هذا أن المتصرف بما في القرآن على خلق عظيم، ومن هذه المكارم الأخلاقية، والسبايا القرآنية قوله - تعالى -: ﴿وَأَنْ تَقْرُبُ إِلَيْنَا وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٧]، فانظر ما في هذه الآية من الحضُّ على مكارم الأخلاق من الأمر بالمعروف والنهي عن نسيان الفضل، وقال - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا هُنَّ أَغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا﴾ [المائدة، الآية: ٣٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة، الآية: ٨]، فانظر ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق والأمر، بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيعه فيه، وقال - تعالى -: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ لَمْ حَسَنُوا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنَبِ وَابْنِ السَّيِّلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء، الآية: ٣٦]، وقال - تعالى -: ﴿يَبْنِي أَدَمَ حُذُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف، الآية: ٣١]، وقال:

﴿وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥١]،  
وقال - تعالى - : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا الْلَّغُورَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ  
أَعْمَلُنَا سَلَّمُ عَلَيْكُمْ لَا يَنْهَاجُ الْجَهَنَّمُ﴾ [القصص، الآية: ٥٥]، إلى غير  
ذلك من الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن  
العادات.



## المطلب الثاني :

### جلب المصالح ودرء المفاسد

هذه هي الأصول الثلاثة العامة المؤسسة لدعوة القرآن وأمره الخلق بالسير على وفقها؛ جلباً للمصالح ودرءاً للمفاسد في المعاش والمعاد؛ لذلك ألفيناها تتمثل الإطار العام لكل الشرائع والملل، موسومة بالاطراد والثبات، مقصودة للشارع، قال الشاطبي - رحمه الله - عن مكوناتها المتجلية في الضروريات وال حاجيات والتحسينيات: « ولما كان الشارع قاصداً بها أن تكون مصالح على الإطلاق، كان لابد أن يكون وضعها أبدئاً وكلئاً وعاماً في جميع أنواع التكليف والمكلفين، وجميع الأحوال »<sup>(١)</sup>.

وقد نظر القرآن الكريم إلى مكونات هذه الأصول فأتى بها على حسب حاجة الخلق؛ بحيث روّعي فيها ما هو ضروري مما هو دون ذلك، وما تقسيم المقاصدين لها إلى: ضروريات، و حاجيات، وتحسينيات؛ إلا نتيجة لاستقراء مواردها في القرآن الكريم، فعن الضروريات يقول الغزالى - رحمه الله -: « وقد علم بالضرورة كونها مقصودة للشرع لا بدليل واحد وأصل معين، بل بأدلة خارجة عن الحصر »<sup>(٢)</sup>، وقال عنها الشاطبي: « وعلم هذه الضروريات صار مقطوعاً به، ولم يثبت ذلك بدليل معين بل علِمَتْ ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد... ثم مضى يمثل لضرورة حفظ النفس، فقال: فنحن إذا نظرنا في حفظ النفس - مثلاً - نجد النهي عن قتلها قال - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَاتِ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِيقَ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥١]، وجعل قتلها سبباً في القصاص، قال - تعالى - : ﴿وَكَبَّنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ

(١) المواقفات ١/٣٥٠.

(٢) المستصفى ١/٣١١.

النَّفْسَ بِالنَّفْسِ》 [المائدة، الآية: ٤٥]، ومتواعداً قاتلها عمداً، قال - تعالى - : «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَبَحْرَأْوُهُ جَهَنَّمُ خَلِدًا فِيهَا وَغَضِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ①» [النساء، الآية: ٩٣]، ومقرورنا بالشرك، قال - تعالى - : «فَلْ تَكُونُوا أَنْدُلْ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكُمْ مِنْ إِمْلَانِي ②» [الأنعام، الآية: ١٥١]، ووجوب سد الرمق على الخائف على نفسه ولو بأكل الميتة، قال - تعالى - : «فَمَنْ أَضْطُرَ فِي مَخْصَصَةٍ عَيْرَ مُتَجَاهِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [المائدة، الآية: ٣]، فعلمنا تحريم القتل علم اليقين، وإذا انتظم الأصل الكلي، صار جارياً مجرى دليل عام، فاندرجت تحته جميع الجزئيات التي يتحقق فيها ذلك العموم ③.

هكذا يتبيّن كيف أن العلماء استقرروا مواطن هذه الأصول في القرآن فألفوها مثبتة بأدلة تفوق الحصر.

والمصالح الضرورية هي التي لابد منها لقيام الحياة الدينية والدنيوية، بحيث إذا فُقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامتها؛ بل على فساد وتهاجر وخلل نظام وفوت حياة، فنجد أحوال الأمة شبيهة بأحوال الأنعام، بحيث لا تكون على الحالة المرضية للشارع ④.

وتنحصر هذه الضروريات في: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. ومن علماء الأصول مَنْ تنبه إلى أن هذه الضروريات هي المشار إليها بقوله - تعالى - : «يَتَآتِيهَا النَّيْشُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُ يُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَرْزِقَنَ وَلَا يَقْتُلُنَ أُولَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِنَ بِمُهَمَّتِنَ يَقْتَرِبُنَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَ وَأَرْجُلِهِنَ» [المتحنة، الآية: ١٢]؛ إذ لا خصوصية للنساء المؤمنات، فقد كان بِعِلْيَّةٍ يأخذ البيعة على الرجال

(١) المواقفات.

(٢) المواقفات ١/٣٢٤، ومقاصد الشريعة لابن عاشور، ص: ٧٤.

بمثل ما نزل في المؤمنات<sup>(١)</sup>، والذي يتملى مواطن حفظ هذه الضروريات برى أن القرآن قد عمل على حفظها من جهتين:

أ- من جهة الوجود وذلك لما يقيم أركانها ويثبت قواعدها.

ب- من جهة العدم وذلك بما يدرأ عنها الاحتلال الواقع فيها<sup>(٢)</sup>.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود، كالإيمان والنطق بالشهادتين، والصلة، والزكاة، والصيام، والحج، وما أشبه ذلك.

والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود- أيضاً- كتناول المأكولات والمشروبات، والملابسات والمسكونات، وما أشبه ذلك.

والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود وإلى حفظ النفس والعقل- أيضاً- لكن بواسطة العادات.

والجنایات- ويعجمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم<sup>(٣)</sup>.

كل ذلك قامت عليه الأدلة الصريحة من الكتاب ومن السنة الشريفة، أما الإيمان- الذي هو أصل الدين- ففي مثل قول الله- تعالى-: ﴿الَّمَّا ذَلِكَ الْكِتَبُ لَا رَبِّ فِيهِ هُدَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة، الآية: ٢١]، قوله- تعالى-: ﴿فَإِيمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورُ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن، الآية: ٨]، قوله- تعالى-: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ فَلَمْ﴾ [التغابن، الآية: ١١]، قوله- تعالى-: ﴿فَلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدَهُ﴾ [الأنعام، الآية: ١٩]، قوله- تعالى-: ﴿فَلْ هُوَ رَبِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ [الرعد، الآية: ٣٠].

(١) مقاصد الشريعة لابن عاشور، ص: ٨٠.

(٢) المواقفات ٣٢٥/١.

(٣) المواقفات ٣٢٤/١.

وأما الصلاة والزكوة فأدلتها القرآنية فوق أن تحصى، ومنها قوله - عَزَّ وَجْلُ -:

**﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يُنفِعُونَ﴾** [البقرة، الآية: ٢٣]، قوله - تعالى -:

**﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَلَوَّنُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجْزِيَةً لَنْ تَبُورَ﴾** [فاطر، الآية: ٢٩].

وأما الصيام ففي مثل قوله - تعالى -:

**﴿كُتبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾** [القرآن، الآية: ١٨٤، ١٨٣].

وأما الحج ففي مثل قوله - عَزَّ وَجْلُ -:

**﴿وَأَذْنَنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ لِتَشَهَّدُوا مَنْفَعًا لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ﴾** [الحج، الآية: ٢٨، ٢٧].

هذا على الجملة، أما التفصيل والبيان، فتلك وظيفة السنة النبوية حيث عمدت إلى الأركان الخمسة ففصلتها وبينتها.

وأما حفظ النفس فهي من دعوات القرآن الضرورية؛ إذ بدون هذه الأنفس تتنتهي عبادة الله، وهي من المقصود العظمى - كما أسلفنا - فلو عدم المكلف لعدم من يتدين؛ لذلك فالقرآن الكريم لا يزال يرزق المقومات الحافظة عليها، كما أنه بين الإجراءات التي تقيها من الزوال، وتعصمتها من الفناء، ويُمهُدُ ذلك كله بالدعوة إلى أسباب إيجادها، ومنها التراوح والتناكح، قال - تعالى -:

**﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَيَأْتِي مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾** [النساء، الآية: ١]، وقال - تعالى -:

**﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَهُ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾** [الأعراف، الآية: ١٨٩]، وفي الامتنان بالمطاعم والمشارب والملابس والمأكولات المعبر عنها في القرآن: بالطيبات والزينة؛ ما يدل على حفظ النفس، قال - تعالى -:

**﴿كُلُوا وَأَشْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [البقرة في الآية: ٦٠]، وقال - تعالى -:

**﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيْبًا﴾** [البقرة، الآية: ١٦٨]، وقال - تعالى -:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَيْلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَيْلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل، الآية: ٨١]، وقال - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُوتِكُمْ سَكَّاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْفَيْدِ بَوْتَا﴾ [النحل، الآية: ٨٠].

وأما حفظ العقل؛ ففي مثل قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بِنَّتَكُمُ الْعَدَوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَن الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة، الآية: ٩١].

وأما حفظ النسل؛ ففي مثل قوله - تعالى -: ﴿الْزَّانِيَةُ وَالْزَّانِي فَاجْعِلُوهُمْ كُلَّهُمْ وَجِيلٌ مِّنْهُمَا مَانِةً جَلَدَةً وَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِهَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ تُقْنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور، الآية: ٤٢].

وأما المال؛ ففي مثل قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَئِنُّكُمْ بِالْبَطْلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٨].

وحفظ هذه الكليات أمر وارد بالسنة لآحاد الأمة، ولعمومها بالأولى فحفظ الدين - مثلاً - معناه حفظ دين كل أحد من المسلمين؛ لغلا يدخل عليه ما يفسد اعتقاده أو عمله، وبالنسبة لعموم الأمة دفع كل ما من شأنه أن ينقض عرى الدين وأصوله القطعية، ويدخل في هذا حماية حوزة الإسلام بإبقاء الإسلام، قال - تعالى -: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالنَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعَدْوَى﴾ [المائدة، الآية: ٢٤]، والآية تعتبر من الكليات القرآنية العظمى، القصد منها حفظ المصالح على مستوى الجماعة؛ إذ التعاون «من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ لأنّه يوجب على الناس إيجاباً دينياً أن يعين بعضهم بعضاً على كل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم»<sup>(١)</sup>.

ومن مثمرات هذا التعاون - الذي هو من الفرائض - الاعتصام بحبل الله الذي أرشد إليه القرآن الكريم بقوله - تعالى -: ﴿وَاعْصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران، الآية: ١٠٣]، وهي أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية، ترشد إلى تكوين الجماعة لصلاح الأمة وحفظ نظامها<sup>(١)</sup>؛ ولتحقيق التعاون لابد من التسامح جميع أعضاء المجتمع بحيث لا يختلف عن هذا التعاون أحد البتة، ولا يشد صوت مهما يكن وذلك ما صرّحت الآية بيانه، حيث يقول الحق - تعالى -: ﴿وَاعْصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، فلفظة: ﴿جَمِيعًا﴾ تؤكد شمولية الاعتصام بحبل الله، وفي: «حبل الله» ما ينبيء بأن دعوة القرآن إلى الاعتصام لا تتم إلا إذا كان المعتصم، به هو الحق المبين، الذي تنساب قدامه كل الأهواء والضلالات والأباطيل، فيأتي الاعتصام متماسكاً ملائحاً لا يكون عرضة للفشل والهزال الذي لا يشره إلا التفرق والتنازع، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفَشَّلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُونُ﴾ [الأنفال، الآية: ٤٦]. فالتنازع أمر مرتكز في الفطرة، كما أن شأنه أن ينشأ عن اختلاف في الرأي؛ لذلك بسط القرآن فيه بيان سوء آثاره، وحذر من معنته التي هي انحطاط القوة ونفاد الأمر وذهاب السلطان.

والنهي عن الشيء يقتضي الأمر بتحصيل ضده، ويحصل هذا الضد بتحصيل أسبابه، ومن الأسباب، التفاهم والتشاور ومراجعة الأفراد بعضهم البعض حتى يصدروا عن رأي واحد.

لذلك اعتُبر مبدأ الشورى من الدعامات الأساسية لشبيت نظام الأمة، فهو «من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام»<sup>(٢)</sup>، قال الله - تعالى - آمراً نبيه لإنشاء هذا البدأ في أمته: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٥٩]، والمراد

(١) التحرير والتنوير: ٤/٣٠، وانظر: ١/٤٠.

(٢) المحرر الوجيز: ٣/٢٨٠.

بالأمر هنا، أمر الأمة الدنوي الذي يقوم به الحكام عادة، لا أمر الدين المحس الذي مداره على الوحي دون الرأي؛ إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر، وإنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي ﷺ ولا بعده<sup>(١)</sup>.

بهذا النص الجازم يؤسس الإسلام هذا المبدأ الضخم، وهو نص قاطع لا يدع للأمة شك في أن الشورى مبدأ أساس، أما الشكل والوسائل المختصة له فهي أمور قابلة للتحوير والتطویر وفق أوضاع الأمة وملابساتها التي تم بها حقيقة الشورى<sup>(٢)</sup>، وتلك من سمات الكلية الشرعية.

والشورى من دلائل الاستجابة لله، قال الله - تعالى - مادحًا المؤمنين - : ﴿وَالَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَفَاقُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ يَنْهَمُ﴾ [الشورى، الآية: ٣٨]، والرسول ﷺ هو الأسوة والقدوة، فبمجرد ما تلقى الأمر عن ربه - عَزَّ وَجَلَّ -، سارع لتنفيذها، فقد وجدناه - صلوات الله وسلامه عليه - يستشير صحابته يوم أُحُيد، فيقول: «أشيروا عليًّا أيها الناس»<sup>(٣)</sup>، وقال في قصة الإفك: «أشيروا عليًّا معشر المسلمين في قوم أنبوا أهلي ورمومهم... فاستشار عليًّا وأسامة في فراق عائشة»<sup>(٤)</sup>. ولعن كان أهل التأويل قد اختلفوا في مقصد أمر الله لنبيه ﷺ بالمشاورة مع ما أ美的ه به من التوفيق وأعانه به من التأييد، فمن قائل: إنه أمره بالمشاورة في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيه فيعمل به، ومن قائل: إن ذلك كان تأليفاً لهم وتطبيقاً لنفسهم، ومنهم من رأى أن ذلك كان من أجل أن يستثنى به المسلمون فيسيروا على منهاجه»<sup>(٥)</sup>، لعن كان هذا الاختلاف،

(١) انظر تفسير المبارك: ١٩٩/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٥٠١/١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٣/٢.

(٤) محسن التأويل: ٢٧٩/٤.

(٥) محسن التأويل: ٢٧٦/٤.

فإنه لا يضر في شيء إذا قلنا: إن الله - تعالى - وهو أعلم - أوجب الشورى توضيحاً لهذه المقاصد النبيلة كلها، حتى إن بعض المفسرين يرون أن ثمرة الآية وجوب التمسك بمحكم الأخلاق، خصوصاً لمن يدعوا إلى الله ويأمر بالمعروف<sup>(١)</sup>.

وقد أثمرت التربية النبوية فأوجدت رجالاً لا يستأثرون برأي ولا يجدون عن قاعدة الشورى بديلاً، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يجعل الخلافة، وهي - أعظم النوازل - شورى بين المسلمين، ولقد كان القراء أصحاب مشورته كهولاً أو شباباً، وكان وقاها عند كتاب الله<sup>(٢)</sup>.

وعلى كل حال فالشورى واجبة بنصوص القرآن، والمقصود من وجوبها أن تستعمل الأمة حقها في التعاون على تدبير شئونها، ومراقبة سير سياستها. وبذلك يتم تحقيق الأمر الوارد في قوله - تعالى -: ﴿وَنَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْقَوَافِلِ﴾ وهو مما يشرّع الوحدة والاتفاق والبعد عن الاختلاف والشقاق، وهي من أعظم المصالح التي يجب احتلابها شرعاً ودرء ما من شأنه أن يشوش عليها، ويحول دون البلوغ إليها.

\* \* \*

(١) محسن التأويل: ٤/٢٧٩.

(٢) انظر الطبقات الكبرى: ٣/٦٦، وانظر سير أعلام النبلاء: ١/١١٨.

### المطلب الثالث :

## رفع الحرج

إذا كان القصد من التكليف أن يثمر البعد عن الهوى والتشهي، ويدخل المكلف في دائرة العبدية الاختيارية بعد العبدية الاضطرارية، - ومن المعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالطاعة المتجلية في إتيان الأمورات والوقوف عند المنهيات؛ إذ إن هذه الشريعة تمتاز بكونها شريعة عملية تسعى إلى تحصيل مقاصدتها، بالقول والعمل على مستوى الفرد والجماعة إذا كان القصد من التكليف كذلك، فقد وجدنا من التكاليف ما فيه مشقة، على أن من هذه المشاق ما هو مختص بذات الفعل، فبمجرد ما يمارس الفعل من قبل المكلف، تحصل المشقة ولو بالمرة الواحدة فتكون المشقة حينئذ ناشئة من أمر جزئي. ومنها ما ليس مختصاً بذات الفعل، وإنما تبرز المشقة بعد المداومة على الفعل، ف تكون المشقة ناشئة من أمر كلي.

أما النوع الأول، فموضعه الشخص المشهورة في اصطلاح الفقهاء، كالصوم في المرض والسفر، وما أشبه ذلك.

والثاني: يوجد في النوافل إذا تحمل المكلف منها فوق ما يطيق<sup>(١)</sup>.

والله - سبحانه - لا يخفى عليه ما في هذه التكاليف من المشاق - سواء ما كان منها مختصاً لذاته أو ما كان كلياً - فهو عالم بلزوم المشقة لهذه الأفعال من غير انفكاك، كما أنه - تعالى - محيط بضعف الإنسان المكلف وقلة حيلته، قال - تعالى -: **«وَخُلِقَ الْأَنْسَنُ ضَعِيفًا»** [النساء، الآية: ٢٨]، فإذا علم هذا، تعين أن تكون هذه

(١) المواقفات: ٤٢٦/٢

المشاق المكلف بها من قبيل المشاق المعتادة المقدور عليها، وأن المقصود من إحداها بالأفعال تربية النفس، وقهرها، وكبح جماحها؛ لئلا تتجنح إلى ما لا يحل، وإرسالها بقدر الاعتدال إلى ما يحل؛ «إذ مخالفه الهوى والشهوة هي من المقاصد المعتبرة شرعاً»<sup>(١)</sup>. ورغم أن هذه المشاق مقدورة للمكلف، من قبيل المعتاد، فإن الشارع الحكيم زين تكاليف الشرع بزينة رفع الحرج والمشقة، وحسبك بهذا مظهراً من مظاهر رفع الحرج ابتداء، فالمكلف قادر على إitan الفعل المكلف به - وإن كان محفوفاً بالمشقة - إلا أن رحمة الله تداركه وترفع عنه ذلك الحرج رغم كونه مقدوراً له، تريينا لهذه الشريعة وتحبيها لها في النفوس؛ حتى يُفْلِي المكلف على العمل دون كلل أو ملل، ومن ثم الانقطاع.

رفع الحرج من سنة الأنبياء جميعهم، قال ابن كثير - رحمة الله -: (عند تفسير قوله - تعالى -: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَقَ مِنْ قَبْلٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٣٨])، أي حكم الله في الأنبياء من قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج<sup>(٢)</sup>، ومن أهل التأويل من اعتبر قوله - تعالى -: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، دليلاً على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في شرائع الله جميعها لعموم لفظ: **«نَفْسًا»**، التي وردت في سياق النفي؛ لأن الله - تعالى - ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله<sup>(٣)</sup> ، فالسماحة واليسر - إذا - من أوصاف هذه الشريعة وهي محمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضر أو فساد، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفة

(١) المواقف: ٤٥٥/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤٩٢/٣.

(٣) التحرير والتبيير: ١٣٥/٣.

السمحة»<sup>(١)</sup>، فقد أثبت الحديث أن السماحة هي وصف الإسلام وهو ثابت في القرآن، فقد قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ إِيمَانَكُمْ وَلَا يُرِيدُ إِيمَانَ الْمُسْرِرِ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٥]، وقال - تعالى - : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة، الآية: ١٨٦]، وقال - تعالى - : ﴿وَرَبَّنَا وَلَا تَعْمَلْ عَلَيْنَا إِنْصَارًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَعْكِمْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، والأدلة فوق أن تختصى فقد بلغت مبلغ القطع.

والحكمة من جعل هذه الشريعة سمححة هي: «أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة؛ فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال - تعالى - : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، الآية: ٢٨]، وقد أراد الله - تعالى - أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامة ودائمة فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، فكانت سماحتها أشد ملائمة للنفوس؛ لأن فيها إراحة النفوس في حال خويصتها ومجتمعها، وقد ظهر للسامحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، فعلم أن اليسر من الفطرة؛ لأن في فطرة الناس حب الرفق»<sup>(٢)</sup>.

ومحل رفع الحرج كائن في الحاجيات، قال الشاطبي - رحمه الله - : ودوران الحاجيات على التوسيعة والتيسير ورفع الحرج والرفق.

فبالنسبة إلى الدين يظهر في مواضع شرعية الشخص في الطهارة، كالتي تم، ورفع حكم النجاسة فيما إذا عسر إزالتها، وفي الصلاة بالقصر، ورفع القضاء في الإعماء

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ : «أحب الدين إلى الله الخفيفة السمححة» ٩٣/١).

(٢) مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور، ص: ٦١، ٦٢.

والجمع، والصلوة قاعدةً وعلى جنب، وفي الصوم بالفطر في السفر والمرض، وكذلك سائر العبادات.

وبالنسبة إلى النفس - أيضاً - يظهر في مواضع منها مواضع الشخص كالميّة للمضطرب، وشرعية المواساة بالزكاة وغيرها، وإباحة الصيد وإن لم يتأت فيه من إراقة الدم ما يتأتى بالذكاة الأصلية.

وفي التنازل، من العقد على البعض من غير تسمية الصداق، وإجازة بعض الحالات فيه بناء على ترك المشاحة كما في البيوع، وإباحة الطلاق وجعله ثلاثة، والخلع وأشباه ذلك.

وبالنسبة إلى المال - أيضاً - في الترخيص في الغرر اليسير، والجهالة التي لا انفكاك عنها في الغالب، ورخصة السلم والعرايا، والقرض والشفعة والقراض والمساقة وغيرها.

وبالنسبة إلى العقل في رفع الحرج عن المكره وعن المضطرب - على قول من قال به في الخوف - على النفس عند الجوع والعطش والمرض وما أشبه ذلك .. ثم قال: كل ذلك داخل تحت قاعدة رفع الحرج<sup>(١)</sup>، ومن يطالع آيات رفع الحرج يلحظ كيف أن القرآن سلك في رفعه مسلكين:

الأول: ورود آيات على هيئة بشارات تنبئ بمقدم شريعة من سماتها التخفيف والتيسير، من ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿وَيُنَزِّلُكَ لِبِرْكَةٍ﴾ [الأعلى، الآية: ٨]، فتكون هذه الآية قد بشرت رسول الله ﷺ وأمته بشرع سهل مستقيم عدل، لا عوجاج فيه ولا حرج ولا عسر<sup>(٢)</sup>.

(١) المواقف ٤١٣-٤١١/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٥٠٠.

الثاني: ورود آيات فيها التنصيص على رفع الحرج، إما بالكلية، وإما بالتحفيف منه، فمن الأول قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُورُنَّ مَا يُنِفِّقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِهِ وَرَسُولُهُمْ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه، الآية: ٩١]، فالآية بيان للأعذار التي لا حرج على من قعد معها على القتال بشرط النصح لله ولرسوله، ومن الثاني قوله - تعالى - : ﴿وَلَاذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الْأَصْلَوَةِ إِنْ خَفِيْتُمْ أَنْ يَقْنِنُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء، الآية: ١٠١]، قال الصحابي الجليل يعلى بن أمية - رضي الله عنه - حين سمع هذه الآية: قلت لعمري - رضي الله عنه - : إنما قال - تعالى - : ﴿إِنْ خَفِيْتُمْ﴾، وقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله - ﷺ - ، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». ولا شك أن محمل هذا الخبر أن النبي ﷺ أقر عمر فهمه تخصيص هذه الآية بالقصر لأجل الخوف، فكان القصر لأجل الخوف رخصة لدفع المشقة<sup>(١)</sup>، وقد عبر بالصدقة وهو لا يريد إلا دفع المشقة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) التحرير التوير ١٨٤/٥.

(٢) هذه مجرد إطالة سريعة على هذا المقصود القرآني الذي هو رفع الحرج، ولنا عودة إلى هذه الكلية باعتبارها من الكليات المؤسسة لهذا البحث.

## المطلب الرابع :

### إسعاد المكلف في الدارين

أية سعادة يتغىها المكلف من هذه الحياة، إذا هو تشتت فكره، وضل ولئن ظهره  
لنهج الله فلم يدر أي الطريق يسلك.

وفي القرآن الداعي إلى الصراط، والهادي إلى المنهج القوم الذي يورث السعادة في  
الدنيا والآخرة.

إن القرآن من أول وهلة يقول للإنسان: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ مُوَسَّ أَهْدَىٰكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ١٢٠]، لذلك علمه كيف يسأل ربه أن يأخذ بيده نحو هذا الهدى، وذلك بقوله - تعالى -: ﴿أَهَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة، الآية: ٦]، «فسؤال الهدایة متضمن الحصول كل خير والسلامة من كل شر، ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين، وتعيينه طريقة للمقصود، ولا يخفى ضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة، فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما أوج طال وبعده، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من ير عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم يستلزم تعينه صراطاً»<sup>(١)</sup>.

لذلك قال الله - عز وجل - مخاطبنا آدم وحواء -: ﴿أَهِبْطَا مِنْهَا جَيْعاً بَعْضُكُمْ لِيَعْصِي عَذَّقَ﴾ [طه، في الآية: ١٢٣]، ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِنَّكُمْ مِنْ هُدَىٰ فَمَنْ أَتَبَعَ هُدَىٰ فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه، الآية: ١٢٣]، إنه إنباء من الله - تعالى - بأنهم سيستقبلون في هذه الدنيا سيرة غير التي كانوا عليها في الجنة؛ لأنهم أودعوا في عالم خليط خيره

(١) التفسير القيمي، ص: ١٠.

بشره، وحقائقه بأوهامه، بعد أن كانوا في علم الحقائق المختصة والخير الخالص، وفي هذا إنباء بطور طرأ على أصل الإنسان في جبلته كان معداً له من أصل تركيبه، لذلك أوصاه باتباع الهدى المتمثل في الوحي الإلهي النشيء للمنهج الصواب، المنهج الحق الذي متى اتبعه المكلف وتمسك به، لا يعتريه ضلال في هذه الدنيا كما يتمنى عنه الشقاء الذي هو ضد السعادة.

ومن ثم علم أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ففي الدنيا أمر يشهد به الحسن والوجود، وفي الآخرة غيب لا يعلم إلا بالإيمان، ولقد جمعهما الله - تعالى - في كثير من الآيات ومن مثل ذلك قوله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَخْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل، الآية: ٩٧]، فقد نصت الآية على السعادة الدنيوية نصاً أفاده قوله - تعالى -: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، كما نصت على السعادة الأخروية المستفادة من قوله - تعالى -: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَخْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فما هذه الحياة الطيبة التي ينادي بها القرآن؟

لقد غلط السواد الأعظم من البشر في مسمى الحياة الطيبة، فرأوا منها التعم في أنواع المأكل والمشارب والملابس والمناكح، ولذلة المال والتفنن في أنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذلة ومتعة؛ لكنها لذلة وجدنا فيها البهيمة شريكًا؛ بل قد نجد حظ البهيمة أوفر من حظ هؤلاء، فمن لم تكن لديه إلا هاته التي تشاركه فيها البهائم، فذلك من ينادي عليه من مكان بعيد؛ إذ لا يزال سقيماً لم يُشفَّ بهدى الله الذي أرسل به نبيه ﷺ.

إن هذه الألوان من المتع والصنوف من الشهوات قد جربت من ذي قبل فلم تتحقق السعادة المنشودة، وليس عنا ببعيد تلك المجتمعات التي ارتفع فيها مستوى المعيشة، وتيسرت لأفرادها مطالب الحياة المادية وكمالياتها، ومع ذلك ظلت في تعasse ونكد تشكو وتحس بالضيق والانقباض، وتبحث عن طريق تلتمس في نهايته السعادة!

فعنصر المادة مهما تلون واختلفت مظاهره لن يحقق السعادة المنشودة، ﴿فَلَا تُعِجِّبَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبُهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التجويف، الآية: ٥٥]، إنها آية تحكي تعاشرة هؤلاء رغم مظاهر الحياة المادية فقد سبق القول أنهم في شقوة لا يهنا لهم بال ولا تطمئن لهم نفوس.

ويوم أن خرج قارون على قومه في زينته، قال ضعفاء اليقين الذين ألهتهم زخارف الحياة الدنيا عما يكون في مطاويها من سوء العواقب: ﴿يَنْبَتَ لَنَا مِثْلًا أُوْفَكَ قَنْدُونُ إِنَّمَا لِلَّهِ حَظٌ عَظِيمٌ﴾ [القصص، الآية: ٧٩]، حيث رأوا زينة الدنيا وتلهوا عليها، فعظم في عيونهم ما عليه قارون، وما دروا أن هذا الذي حسبوه بخناً وسعادة سيقلب يوماً نقمة ووبالاً، وأنى لهم ذلك وهم لم يؤتوا سعة من العلم؛ لأن مثل هذه الفطنة ليست إلا عند ذوي العقول المستقيمة: العلماء؛ لذلك توعد الذين لا يعلمون بقوله - تعالى -: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلَهُمُ الْأَمْلَفُ سَوْقٌ يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣].

ومن قصور النظر والإجحاف أن تستبعد بالكلية الجانب المادي من مكان تحقيق السعادة، كيف وقد قال ﷺ: «من سعادة بن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»<sup>(١)</sup> «بيد أنه ليس المكان الأفسح، والمدار فيه على الكيف لا على الكم، فبحسب الإنسان أن يشتمل من المنففات المادية التي يضيق بها الصدر من مثل أضداد المذكورات في الحديث معززة بالأمن والعافية وتسير القوت في غير حرج ولا مشقة، وما أصدق الحديث النبوى: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسله، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاiferها»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه أحمد في مسنده ٦٨/١.

(٢) سنن الترمذى (أبواب الزهد، باب ما جاء في زهادة الدنيا) ٤/٥.

إن الحياة الطيبة في منظور القرآن تكمن في سكينة القلب واطمئنانه، قال - تعالى -: «**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**» [الفتح، الآية: ٤٤]، ولا سكينة إلا بإجراءات ربانية تمثل في عبادته سبحانه بإصلاح النفس، وإذهاب خواطر الوسنان، وإلهامها الحق المبين، ورسوخها في اليقين، وذلك هو الاطمئنان الذي قصده بقوله - تعالى -: «**أَلَا يَذِكَّرِ اللَّهُ نَطَّمِينُ الْقُلُوبَ**» [الرعد، الآية: ٢٨]، وصيغة المضارع في قوله: «**وَنَطَّمِينَ**» توحى بتجدد هذا الاطمئنان وديومته<sup>(١)</sup>. مما يدل على أن الأمر في حاجة إلى اجتهاد وأخذ بالأسباب التي لا تنفك عن السعادة الحقيقية واشتراكها بها، قال الذهلي - رحمه الله -: «والسعادة الحقيقة لا تقتصر إلا بالعبادة، ولذلك كانت المصلحة الكلية تنادي أفراد الإنسان من كوة الصورة النوعية، وتأمرها أمراً مؤكداً أن يجعل إصلاح الصفات بقدر الضرورة، وأن يجعل غاية همتها ومطعم بصرها تهذيب النفس وتحليتها بهيئات تجعلها شبيهة بما فوقها من الملا الأعلى، جاعلة البهيمية مذعنة للملكية مطيعة لها»<sup>(٢)</sup>. وقال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: «ومن السعادة أن يختار المرء لنفسه المواجهة على أفضل الأعمال فأفضلها، بحيث لا يضيع بذلك ما هو أولى بالتقديم منه، والسعادة كلها في اتباع الشريعة في كل ما ورد وصدر، ونبذ الهوى فيما يخالفها»<sup>(٣)</sup>، فعلم أن هذا الاطمئنان في حاجة إلى من يرعاه ويحضنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعبادات، فإذا اطمأن القلب صار مشهوداً له؛ لأنه متى اطمأن القلب صار حبه في أطيب حال في الدنيا بهذا الاطمئنان، وفي الآخرة بالنعم الدائم وهو حسن المآل<sup>(٤)</sup>.

(١) التحرير والتنوير ١٣٨/١٣.

(٢) حجة الله البالغة ١٥٥/١-١٥٦.

(٣) قواعد الأحكام ١٧/١.

(٤) التحرير والتنوير ١٣٨/١٣.

هذه هي السعادة الحقيقية كما يصورها القرآن، وما أنتها إلا الإيمان، وما فجرها إلا هو، فهو اليقين الأول لها؛ لأن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، ووحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وحزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله وصدق معاملته، وقلقاً لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفارار إليه، وتلك هي بحق الفطرة البشرية التي لا تجد ترياقها إلا في الاهتداء إلى الله، والركون إلى جواره، والالتجاء إلى كفه.

وليس الأمر عفوًّا حين نجد القرآن قد أولى اهتماماً بالغاً بالتوحيد، فتحدث عنـه في آيات عديدة فدعا إلى إفراد الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالعبادة ودعا إلى الاستعانة به، والتوكـل عليه، والإـنابة إليه، كل ذلك حتى يعلم علم اليقين أن له ربّاً هو الذي خلقـه فسواه وكرمه، وفضله على كثير من خلقـه، وجعلـه في الأرض خليفة، وكفلـه رزقه وسخرـه له ما في السماوات وما في الأرض جميعـاً منه، وأسبـغ عليه نعمـه ظاهرة وباطنة، فاطـمأنـ إلى ربه، ولاذ بـجواره، واعتـصـم بـحبـله، فـأوى بهذا الإيمـانـ إلى رـكـنـ شـدـيدـ، ولاذ بـقرارـ مـكـيـنـ، واستـمـسـكـ بالـعـروـةـ الـوـثـقـيـ لـاـ انـفـصـامـ لـهـ، وـذـلـكـ هوـ الإـيمـانـ الجـالـبـ للـسعـادـةـ، وـالـتـعـيمـ الـقيـمـ الـنبـعـتـ منـ كـوـةـ رـحـمـةـ الرـحـيمـ، فـتـبـعـتـ عـلـىـ أـهـلـهـاـ فـعـاشـواـ سـعـادـ هـنـاكـ، قـالـ - تـقـالـيـ - ﴿ وَآتـاـ الـذـيـنـ سـعـدـواـ فـيـ الـجـنـةـ خـلـدـيـنـ فـيـهـاـ مـاـ دـامـتـ الـسـمـوـتـ وـالـأـرـضـ إـلـاـ مـاـ شـاءـ رـبـكـ عـطـاءـ غـيرـ مـجـذـوبـ ﴾ [مود، الآية: ١٠٨].

\* \* \*



## المبحث السادس :

### خصائص القرآن الكريم

ما من كتاب من الكتب السماوية السالفة إلا وفي جوهره الإسلام، فهو لاء الأنبياء والمرسلون والسابقون مطالبون بالاستسلام بما أوحاه الله إليهم جميعا، **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَصَّنَّى لِيَهُ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّنَنَا لِيَهُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾** [الشورى، الآية: ١٣]، وذلك هو الإسلام، وهو إشارة تبرز صفة الشمولية، فمنذ اللحظة الأولى والقرآن يوجه خطابه إلى الناس كافة، وأداة الخطاب المثبتة في مواضع مختلفة: **﴿يَتَآتِيهَا النَّاسُ﴾** تملأ رحاب القرآن الكريم، وكان - عَزَّ وَجَلَّ - منذ اللحظة الأولى للدعوة إليه هو: «رب العالمين»، وهو: «رب الناس»، و«ملك الناس»، و«إله الناس»، و«رب المشرق والمغارب»، و«رب السماوات والأرض وما بينهما»، وكان الناس كلهم خلقه وعيده: **﴿يَتَآتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَابِلَ لِتَعَارُفِهِ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾** [الحجرات، الآية: ١٣]، والناظر في التشريعات السماوية البائدة - كشريعة موسى عليه السلام - يجدها قومية فهي لبني إسرائيل خاصة لم يفكروا يوما في أن ينشروها في العالمين، ولنقرأ هذا في توراتهم وذلك حين تحدث الرب لموسى قائلا له: «إِنَّا سَمِعْنَا لِقُولَكَ تَدْخُلَ أَنْتَ وَشَيْخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَلْكِ مَصْرَ، وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعَبْرَانِيْنَ التَّقَانَا»<sup>(١)</sup>، وكذلك قوله: «وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالَا لِفَرْعَوْنَ: هَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَطْلَقْ شَعْبِيْ لِيَعْدِلُوا لِيْ فِي الْبَرِّيَّةِ»<sup>(٢)</sup>، فهذه نصوص وردت في التوراة تدل على أن هذه الديانة ليست مطبوعة بطبع الشمولية، وإنما هي

(١) كتب العهد القديم والجديد، الإصلاح الثالث، ص: ٧٦.

(٢) نفسه، ص: ٧٨.

خاصة لبني إسرائيل، وما يقال في ألواح موسى - عليه السلام - يقال في إنجيل عيسى؛  
إذ لم يجيء إلا مكملاً للتوراة.

فإذا كانت الكتب السماوية خاصة بأقوامها - أضف إلى هذا أنها لم تعد محل ثقة لما لحقها من التحريف - فإن الناس في حاجة إلى مصدر موثوق؛ ليكون بياناً للعالمين، فيه استرجاع وتركيبة وتوكيد على طبيعة العلاقة بين الله والإنسان، ليس ديانة قومية خاصة بقوم معينين ينسبون أنفسهم إلى الله - تعالى - على أنهم أبناء الله وأحباؤه - بل الخلق كلهم عباد الله وعباده، في حاجة إلى مصدر يختلف تمام الاختلاف عن تعبيرات الكتب السابقة الضيقة، في حاجة إلى مصدر يكون من مقدور كل منتم إليه أن ينضم إلى الإسلام، ذي خصيصة العالمية، فهو الذي أعاد صياغة الأديان كلها تصديقاً وهيمنة، وقد كان ذلك هو القرآن الذي ثبت بنصه هذه القرون الطويلة، لم يطرأ عليه أدنى تغيير - وإن حاولت الأيدي الكارهة مسنه - ولم يحذف منه ولم يضاف إليه، هذا الكتاب هو الذي تمثل فيه الدين الإسلامي الحنيف، وصفاته وخصائصه ومزاياه فوق أن تختص، لا يحاط بها ولكن على كل أهل جيل وعصر أن يحاولوا، فلكل عصر من القرآن نصيب، وقد سئل أحد العلماء: آية آية تصلاح أن تكون عنواناً على القرآن كله - بحيث إن كتبت على ظهر المصحف كانت تعريفاً كاملاً به شاملًا لجميع المعاني الكلية التي يجدها المتصلح فيه كما تفرق الكتب الكثيرة بحمل قصيرة؟ فكان جوابه الآية هي قوله - تعالى -: «هَذَا بَلَغُ لِلنَّاسِ وَلَيُشَدِّرُوا بِهِ وَلَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدَهُ وَلَيَذَكُّرُ أُولُوا الْأَلْبَابُ» <sup>(١)</sup> [ابراهيم، الآية: ٥٢].

فلنحاول عرض بعض خصائص القرآن، كما عنت لنا طبقاً للزاوية المنظور منها، حيث نحاول مقاربة القرآن من زاوية معرفية تتعلق بشمولية أحكامه ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يأتي.

(١) ولعله ابن باديس - رحمه الله - في أحد مجالسه العلمية.

## المطلب الأول :

### ديمومة أحكامه وخلود تشريعيه

فبعد أن جعله الله ناسخاً لكل ما سواه من الكتب وأصبح بذلك الصيغة النهائية للتوكيل، بين الحق - سبحانه - أن أي تشريع سواه مردود غير مقبول، قال الله تعالى - : **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَكْلَمُونَ﴾** [آل عمران، الآية: ١٩]، وقال - سبحانه - : **﴿وَمَنْ يَتَبَعَ غَيْرَ إِلَسْلَمَ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴾** [آل عمران، الآية: ٨٥]، فانتفى القبول عن كل دين سواه. كما نص على أن الدين قد طبع بطابع الكمال والتمام، فقال - تعالى - : **﴿أَلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيَنَكُمْ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ إِلَسْلَمَ دِيَنًا﴾** [المائدة، الآية: ٣]، وكان بذلك الدين المرشح للخلود والدوام، هذا الخلود الذي يرجع إلى أمور عده؛ أذكر منها:

أ - عدله المطلق، والخلق يعلم ما يتحققه العدل المطلق وليس في مقدور أي كان؛ لأن الله - تعالى - هو المالك؛ لأن يعدل بين الجميع، **﴿وَقُلْ إِنَّمَا تُنَزَّلَ إِلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرُتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾** [الشورى، الآية: ١٥]، ومن الشواهد التطبيقية لهذا العدالة أن رسول الله ﷺ قال لأُسَامَةَ بْنَ زِيدَ عندما استشفع لديه في المرأة المخزومية - وكانت من بيت جاه وشرف - : «أتشفع في حد من حدود الله؟ إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»<sup>(١)</sup>، وهو تطبيق صادق لقوله - عز وجل - : **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا فَوَمِينَ إِلَقْسِطْ شَهَدَاهُ لَهُ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَلَدَيْنِ﴾**

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (كتاب الديات، باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان) .٨٧/١٢

**وَالْأَقْرَبِينَ** [النساء، الآية: ١٣٥]، وما يتميز به عدل الله كونه مبراً من قانون عشاق الهوى والتشهي، ومحترفي الظلم ومحبي الغلو والإفراط، سواء كان واضع هذا القانون فرداً أو أقواماً!

ب - قانونه المتناسق؛ إذ إن صانع الكون وصانع الإنسان محال أن يجعل بينهما نشاجزا فقد نسق بين الإنسان وما حوله من عناصر الكون المسخر له، فوسمت الشريعة التي تنظم حياته باسمة الكونية، وجعل الله له من تشريعاتها وسائل يتعامل بها ليس مع نفسه فحسب، ولا مع بني جنسه فحسب، ولكن مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض.

ت - منهجه المحرر من سلطان الاستعباد، ففي كل منهاج غير المنهج الإلهي الرباني، نجد الناس يتخد بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وهذا المنهج وحده هو القادر على إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ث - منهجه القائم على العلم المطلق، قال الله - تعالى - : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَّا إِنَّمَا**  
**وَنَعْلَمُ مَا تُوسِّعُ بِهِ قَسْمًا وَمَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴿١٦﴾ [آل عمران، الآية: ١٦]  
 وقال - تعالى - : **إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴿١٢٠﴾ [آل عمران، الآية: ١٢٠]  
 فالله - عز وجل - عالم بالإنسان، عالم بمحیطه، مدرك لطبيعة التواميس التي تحكمه، ومن ثم فمحال أن يقع صدام بين الأحكام التشريعية المنصوص عليها وبين حاجة الإنسان، مما يشرم التوازن والاعتدال، وهو أمر هيئات هيئات أن يتم للمقتنين من بني البشر.

ج - منهجه الداعي إلى المؤاخاة بين الناس إلى الحد الذي تتلاشى فيه الفوارق العنصرية والطبقية فيغدو المجتمع كالفرد الواحد مدفوعاً بهدف واحد، هو السعادة الكلية يحظى بها الجميع تحت شعار: **إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ لِخَوَّهُ**

## المطلب الثاني :

### شمولية أحكامه وواقعيتها

كيف لا يمكن أن يكون هذا الكتاب - الذي يحمل هذه السمات - كتاباً شاملًا لحاجات الإنسان، مجردًا عن حدود الزمان والمكان، نزل ليرسم الطريق الصحيح للبشرية ويعالج مشكلاتها وقضاياها الموسومة هي الأخرى بالخلود والبقاء، «فالقرآن إذا خالد والقضايا الإنسانية خالدة» - وإن تغيرت في بعض فروعها - من الولاء والبراء والسقوط والنهوض والهزيمة.. ولنقرأ في مطلع سورة البقرة لنرى كيف تحدث القرآن عن الإيمان والكفر والنفاق فجعل من الناس طوائف ثلاثة إزاء القرآن، إنه واقع لا يرتفع ولن يرتفع في حياة البشرية كلها؛ لأن هذا الكتاب سيقى عارضًا لعقidته، فمن الناس المؤمن، ومنهم الكافر الحاقد، ومنهم المنافق. وليس القضية مرتبطة بجييل معين، ولا حقبة معينة، ولكن القضية حقيقة واقعية حاضرة عبر الأعصار والأمصار<sup>(١)</sup>، وإذا كان هذا الكتاب خالدًا، فيعني أنه قادر على أن يجib على كل حادثة؛ ومثل هذا يلاحظ في التشريع، لقد جاءت الشريعة مقررة لمبدأ الشورى وذلك في قوله - تعالى -: **﴿وَسَاوِرُّهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾** [آل عمران: الآية: ١٥٩]، وفي قوله - تعالى -: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾** [الشورى، الآية: ٣٨]، وما يظهر من النصين هو أنهما عاماً من شأنه إلى أبعد حدود المرونة بحيث لا يمكن أن يحتاج الأمر إلى تبديلهما في المستقبل والله - عز وجل - حين قال - أيضًا - في مجال احترام العهود والمواثيق: **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدَ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾** [الإسراء، الآية: ٣٤]، وقال - تعالى -: **﴿وَأَوْفُوا بِعِهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** [النحل، الآية: ٩١]. أوجب سبحانه - في هاتين

(١) كيف تعامل مع القرآن، ص: ٧٨.

الآيتين احترام العهود وعدم نكثها مع أهلها الذين استقاموا عليها ولم يغدروا بذمتها، وهناك نماذج كثيرة لذلك، منها ما رواه ابن إسحاق فيما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد صلح الحديبية، حيث قدم منهم على رسول الله ﷺ أبو بصير: عتبة بن أبي سيد - وكان من حبس مكة - فطلبته قريش، فقال - ﷺ : يا أبا بصير! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجحاً ومحرجاً، فانطلق إلى قومك<sup>(١)</sup>، ومن هذه الصور - أيضاً - ما كان بين معاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنهما - وبين الروم من عهد إلى مدة معينة، وعندما قرب انقضاؤه رغب معاوية في الدنو منهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فأرشده عمرو بن عنبسة - رضي الله عنه - بقوله: الله أكبر يا معاوية! وفاء لا غدر، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقدة ولا يشدّها حتى ينقضي أمدها، أو ينذر إليهم عهدهم على سواء»<sup>(٢)</sup>.

ومن المبادئ العظيمة التي جاء من أجلها الإسلام ودعا إليها القرآن قوله - تعالى -: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ» [البقرة، الآية: ٢٥٥]، فهو مبدأ تجلّى فيه تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكرة ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهوى والضلالة في الاعتقاد، وتحميمه تبعه عمله وحساب نفسه، وهي من خصائص التحرر الإنساني، فالإسلام لم يواجه الإنسان بالقمع والتعدّيب والإكراه حتى يعتقه، بل سمح لهذا المخلوق المكرم - من قبل الله - بأن يكون له الأمر بمحض اختيار، ومن الشواهد لهذا، العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على نفسه مع أهل إيلاء، وفيه: «هذا ما أعطي عبد الله عمر - أمير المؤمنين - أهل إيلاء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمهها وبرئها وسائر ملتها أنه

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٣/٢.

(٢) نيل الأوطار ٥٤/٨.

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من صلبانهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم<sup>(١)</sup>، بمثل هذا كانت تبدو مباديء الإسلام واضحة في حياة المسلمين، فلم تكن شعارات جوفاء لا روح لها، كما أنها لم تكن في عداد المثاليات بعيدة عن حيز التطبيق.

وبمثيل هذا قامت الدولة الإسلامية، ووجد المجتمع الإسلامي في العهد الأول عهد النبوة، واستمر زمناً ليس بالقصير، مما يدل على قابلية قوانين وقواعد الإسلام للتطبيق مجردًا عن الزمان والمكان والأشخاص، ولقد صدق قول: «توماس كارليل» في وصفه للمجتمع الذي حمل مشعل الهدایة للبشرية قروناً طويلاً، حيث يقول: «ما كاد الإسلام يظهر حتى احترق فيه وثنات العرب وجدليات النصرانية، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيى به فيها أمّة خاملة لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة منذ بدء العالم، فأرسل الله لهم نبياً يكلمه من لدنـه ورسالة من قبلـه، فإذا أخـمولـ شهرـةـ، والضعفـ قـوـةـ، وعقدـ شـعـاعـ الإـسـلـامـ الشـمـالـ بالـجـنـوبـ والمـشـرقـ بـالـمـغـربـ، وما هو إـلاـ وقتـ قـصـيرـ فيـ الـأـنـدـلـسـ بعدـ هـذـاـ الحـادـثـ حتـىـ صـارـ لـدـوـلـةـ الـعـرـبـ رـجـلـ فـيـ الـهـنـدـ وـرـجـلـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ، وأـشـرـقـتـ دـوـلـةـ الـإـسـلـامـ حـقـبـاـ عـدـيدـةـ، وـدـهـوـرـاـ مـدـيـدـةـ، بـنـورـ الـفـضـلـ، وـالـنـبـلـ، وـالـمـروـءـةـ وـالـبـأـسـ، وـرـوـنـقـ الـحـقـ، وـالـهـدـىـ، عـلـىـ نـصـفـ الـمـعـمـورـةـ»<sup>(٢)</sup>.

فهذه الشريعة التي هي محتوى القرآن الكريم، إنما جيء بها لتكون الشريعة والمنهج الخاتم للبشرية جميـعاً، وأن تقيـم منهج الحياة في سائر شعـبـها وهي قضـيـةـ لا يختلفـ فيها اثنانـ منـ الـمـسـلـمـينـ.

(١) تاريخ الأمم والملوك ٣٧/٥ وما بعدها.

(٢) الإسلام، ص: ٢٢

إن في هذا القرآن آيات عديدة تأمر جميع الأنبياء - بلا استثناء - أن يحكموا بما أنزل الله وإن لا فسيكون الانتساب إلى الدين مجرد دعوى عريبة عن أدلة الشاهدة على ذلك، قال - تعالى : « وَمَنْ لَئِنْ يَخْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرُونَ » [المائدة، الآية: ٤٤] ، وقال - تعالى : « وَمَنْ لَئِنْ يَخْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » [المائدة، الآية: ٤٥] ، وقال - تعالى : « وَمَنْ لَئِنْ يَخْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيْقُونَ » [المائدة، الآية: ٤٧] ، ووجه الخطاب لنبيه ﷺ قائلاً له : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَبِ وَمَهِيمِنَا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بِيَنْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ فَمَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » [المائدة، الآية: ٤٨] ، وقال في موضع آخر : « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بِيَنْهُمْ بِالْقُسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » [المائدة، الآية: ٤٢] ، فلا بد من تحكيم هذا الكتاب ووجود القيمين على تحكمه، فتقام الحدود، والعقوبات، والمعاملات، والدعوة إلى الجهاد وكل ما يتعلق بتنظيمات الحياة الفردية والجماعية، ولا يتصور تطبيق ذلك بدون سلطة تنفيذية تسهر على تنفيذ هذه الأحكام، ويتم هذا بتنصيب إمام وإلى هذا يشير ابن خلدون - رحمة الله - حيث يقول : « ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وأخترتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ومن قام في مقامهم وهم الخلفاء .. ثم يقول : فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة ، وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنوية الراجعة إليها ؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها - عند الشارع - إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا »<sup>(١)</sup> ؛ لذلك وجدنا أهل السنة وجميع الشيعة وجميع المرجحة وجميع الخوارج متفقين على وجوب الإمامة ، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله - تعالى - ويسوسهم بأحكام الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ ، وفي

(١) مقدمة ابن خلدون، ص: ١٦٥، ١٦٦.

هذا يقول ابن حزم الظاهري - رحمه الله -: « وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجب الله عليهم من الأحكام في الأموال والجنيات، والدماء، والنكاح، والطلاق وسائر الأحكام كلها، ومنع الظالم وإنصاف المظلوم لا يمكن أن يكون إلا بإسناد الأمر إلى إمام فاضل عالم، حسن السياسة، قوي على التنفيذ »<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل . ١٤٩/٤ ، ١٥٠.

### المطلب الثالث :

## كليات أحكامه وتجريدها

فأحكام القرآن تجري على الكلية، فهي ليست موقوفة على أفراد بأعيانهم أو على حال أو على زمان بعينه؛ إذ إن المجتمع الذي نزل فيه القرآن ما هو إلا مجتمع بشري أحواله صورة مما يعتري البشرية على امتداد الزمن إلى غاية الفناء، فهي كالنموذج لأطوار البشرية كلها فالحكم في أي صورة من هذه الصور، هو حكم بطبيعته ممتد؛ لأنه ليس خاصاً بهذه الصورة وحدها، وإنما هو متجدد مع كل صورة مشابهة إلى أن تقوم الساعة.

كما أن هذه الأحكام ليست مفصلة تفصيلاً يستوعب الشروط والأركان والموانع لأوامر القرآن ونواهيه، وبناء على هذا، فإن هذه الأحكام القرآنية وردت كلية، قال الشاطي - رحمه الله -: «تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي وحيث جاء جزئياً فمأخذته على الكلية، إما بالاعتبار أو بالمعنى الأصل إلا ما خصه الدليل مثل خصائص النبي ﷺ»<sup>(١)</sup>.

من أجل هذا كان القرآن في حاجة إلى السنة فإنها - على كثرتها وكثرة مسائلها - إنما هي من أجل تبيانه؛ حتى تعلم التفاصيل والشروط والموانع وأركان الماهيات الشرعية وهذه الحاجة هي - في الحقيقة - من ملامح الكلية القرآنية<sup>(٢)</sup>.

ولقد أبرز القرآن نفسه هذا الملمح، حيث أوكل البيان إلى السنة قال - تعالى -:

**﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾** [النحل، الآية: ٤٤]، واللام - على

(١) المواقفات ٣٣٠ / ٣٣١.

(٢) هامش ٣ من المواقفات ٣٣١ / ٣٣١. للشيخ عبدالله دراز - رحمه الله .

هذا الوجه - في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لذكر علة من العلل الكثيرة الحافة بالقرآن، منها أن يبينه النبي ﷺ فتحصل فوائد العلم والبيان<sup>(١)</sup>. فهذا الذكر - إذًا - مفتقر إلى بيان، والمفتقر إلى بيان، مجمل، فأولى بالمبين أن يتولى وظيفة التفصيل والتجزيء.

وحسينا في هذا المقام نموذج واحد شاهد على كلية القرآن هو قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَةِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل، الآية: ٩٠]، وهي جمل سبقت بعد قوله - تعالى -: ﴿وَرَزَّانَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَتِ الْكِتبُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، الآية: ٨٩]، فسررت هذا التبيان لكل شيء تفسيرًا إجماليًا اشتمل على بيان أصول الهدى في التشريع الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي؛ لذلك اعتبرها العلماء جامعة لأصول التشريع<sup>(٢)</sup>، وهي مقالة الصحابة كعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وبعض التابعين كفتادة - رحمة الله تعالى .

على أن هذه الأصول الواردة في بعض هذه الآية من القرآن لم تكن مفصولة؛ إذ العدل كلمة جامعة للحقوق العائدة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية والغيرية، حيث إن المسلم مأمور بالعدل مع ذاته قال - تعالى -: ﴿وَلَا تُلْقُوا يَأْيُدِيكُمْ إِلَيْهِ الْتَّهْكُم﴾ [النحل، الآية: ١٩٥]، وأمر بالعدل في المعاملة التي تشمل المعاملة مع خالقه - وذلك بالاعتراف له بذاته وصفاته وأداء حقوقه -، والمعاملة مع المخلوق من أصول العاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية في الأقوال والأفعال، ومنها هنا تتفرع شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب وحقوق وشهادات ومعاملة مع الأمم... ومرجع تفاصيل العدل الأدلة الشرعية.

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٢٥٤.

أما الإحسان الذي هو المعاملة بالحسنى إلى من هو أهلها، وأعلاه هو ما كان في جنب الله، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>، وهو مطلوب في جميع الأقوال والأفعال وإليه أشار الحديث: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قاتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»<sup>(٢)</sup>، وإليه ترجع فروع آداب المعاشرة كلها في العائلة والصحبة والعفو عن الحقوق الواجبة وما ذُكر: «وليتأتِي ذي القرف» إلا مظهراً من مظاهر الإحسان.

وأما الفحشاء، الذي هو: اسم جامع لكل قول أو عمل تستفظه النفوس ذات الطبع السليم والفطرة الندية، سواء كان ذلك اعتقاداً باطلأ أو عملاً مفسداً للنفس أو المال، أو العرض.

وأما المنكر، « فهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه»<sup>(٣)</sup>، «ويشمل جميع ما يفضي إلى الإخلال بالحاجي وما يعطى التحسيني»<sup>(٤)</sup>، وأما البغي فهو: اسم جامع- أيضاً - «للتعدي والاستطالة على الناس، وقيل: الظلم والفساد»<sup>(٥)</sup>، ويكون في المعاملة، إما بدون مقابلة فيكون محضًا، وإما بمجاوزة الحد، فيكون له نظير وذلك كالإفراط في المؤاخذة<sup>(٦)</sup>.

والقصد من عرض هذا النموذج إنما هو للنظر في هذه الألفاظ التي هي العدل والإحسان والفحشاء والمنكر والبغي، حيث أجريت على العموم، أما ماهيتها ومحالها

(١) صحيح مسلم ٣٠/١ (كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصائصه).

(٢) نفسه ٧٢/٦ (كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشرف).

(٣) لسان العرب، مادة: «بغاء» ١٤/٧٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/٥٧.

(٥) لسان العرب، مادة: «بغاء» ١٤/٧٨.

(٦) التحرير والتنوير ١٤/٥٧.

ولمن تكون، وكيف تكون؟ إنما مرد هذا كله إلى السنة، ألم تر كيف بين رسول الله ﷺ الإحسان ما هو؟ وكيف جعل المقام الأول منه لله؟ ثم كيف بين أن محالة الأقوال، والأفعال ياطلاق؟

وعليه فإن وصف الكلية، لازم للقرآن، لازم لأحكامه، وأن مرد التفصيل والبيان إلى

السنة المشرفة.



## المطلب الرابع :

### أنه المصدر للعلم والمعرفة على الدوام

والعلم المراد إنما هو المعتبر شرعاً، ولئن كانت الآية التي نصت على أن القرآن أنزل تبياناً لكل شيء، «وَزَرَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ بَيْنَنَا لِكُلِّ شَيْءٍ» [الحل، الآية: ٨٩]، فإن هذا العموم إنما هو من قبيل العموم العرفي «في دائرة ما لملأه تجيء الأديان والشائع من إصلاح النفوس وإكمال الأخلاق وتقدير المجتمع وتبيان الحقوق وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول ﷺ وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم وأسباب فلاحها وخسارتها والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضارتهم وصناعتهم»<sup>(١)</sup>.

فالقرآن رسم المسارات العامة للحياة، وبين السنن التي تحكمها، وجاء بقيم ضابطة للمسيرة البشرية، وكشف عن دور الإنسان في التعامل معه، هذا الدور هو إدراك مقاصده ولا مجال إلى هذا إلا بالعلم والمعرفة، علمًا بأن القرآن لم يحجر على العقل، بل دعا إلى إعماله، وذلك في دعواته إلى قراءة كتاب الكون المرئي وتأمل أسراره وسننه، قال - تعالى - : «أَفَلَمْ يُنْظِرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنَا وَرَبَّنَا وَمَا هُمْ مِنْ فُرُوجٍ ① وَالْأَرْضَ مَدَدَنَا وَالْقِنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيجٍ ②»، ثم قال: «بَيْصَرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنْبِتٍ ③ وَزَرَّنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرِّكًا ④ فَأَنْبَتَنَا بِهِ، جَثَّتِ وَحَبَّ الْمَصِيدِ ⑤ وَانْتَخَلَ بَاسِقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَفَيْدٌ ⑥ زَرَقَ لِلْعِيَادِ ⑦ وَأَحْيَنَا بِهِ، بَلَدَةً مَيْتَنَا كَذَلِكَ الْمَرْجُ ⑧» [ف، الآيات: ١١-٦]، وقال - تعالى -

(١) التحرير والتبيير ١٤/٢٥٣.

في موضع آخر: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٣﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٤﴾» [الغاشية، الآيات: ١٧-٢٠]، وحتى الفرد على التأمل داخل نفسه: «وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿٥﴾» [الذاريات، الآية: ٢١]، ثم خارج نفسه، «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٦﴾» [الذاريات، الآية: ٢٢]، كل ذلك للوصول إلى الفهم الدقيق والإدراك التام لهذا الكون.

ولذلك وجدنا من السلف من استوعب هذا النوع من الآيات فأوصى بالنظر في القرآن كل من كانت بغطيته إدراك العلم، فعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين»<sup>(١)</sup>، كما وجدنا القرآن يُرغّب بشتي ألوان الترغيب للإقبال على العلم الشرعي المستنبط من الكتاب، ومن مثل ذلك قوله- عز وجل-: «فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [النحل، الآية: ٤٣]، والأبياء، الآية: ٧٢]، حيث نوه بنخبة العلماء العارفين الذين اعتبرهم مرجع السائلين، بهم يهتدون إلى الصواب والحق المبين، وكذلك قوله- تعالى- عز وجل-: «أَمَنَ هُوَ قَنِيتُ عَائِدَةَ الْيَلِ سَلِيمًا وَقَائِمًا يَخْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هُنَّ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» [الزمر، الآية: ٩]، وهي مدح للعلم ورفعه قدره، وذم للجاهل ونقاشه، على أن المدح إنما هو العالم العامل وليس العالم الخامل، وفي قوله- تعالى-: «أَمَنَ هُوَ قَنِيتُ» ما يشعر بذلك<sup>(٢)</sup>، وكذلك قوله: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [المجادلة، الآية: ١١]، وخصوص بهذه الرفة المؤمن العالم، وهي رفة تدل على الفضل، وتشمل الرفة المعنوية في الحياة الدنيا بعلو المترفة وحسن الصيت، والحسيبة في الآخرة بعلو المترفة في الجنة<sup>(٣)</sup>. كما أنه جعل أهل العلم هم الشهداء لله- تعالى- بالتوحيد مع الملائكة، قال- تعالى-: «شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) المواقفات ٣٣٥/٣.

(٢) محسن التأويل ١٤٩٩/١٤.

(٣) فتح الباري ١٤١/١.

إِلَهٌ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَاتِلًا بِالْقِسْطِ» [آل عمران: ١٨]، وأهل العلم هم المؤهلون لخشية الله وتقواه: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ» [فاطر، الآية: ٢٨]، وقال الله - تعالى - لنبيه: «وَقُلْ رَبِّ رِزْقِنِي عِلْمًا» [طه، الآية: ١١٤]، حيث أمره - تعالى - باستفاضة العلم والاستزادة منه، قال بعض أهل التأویل: «ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»<sup>(١)</sup> وهذه النصوص كلها واضحة الدلالة في فضل العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملته ومدار ذلك على تفسير كتاب الله واستيعاب مضامينه وخبر مقاصده؛ لأنَّه هو منتهي العلوم ومحطر حال الفهوم، وما العلوم الأخرى سوى خادمة له ومطية إلى مراميه وأغراضه، فحقَّ بذلك أن يكون المصدر الأساس للعلم والعرفان، « فهو حاوٍ لكل شيء»، والعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعزوه منها شيء»<sup>(٢)</sup>. وهو أعظم كتاب ينشيء العقلية العلمية التي تنبذ الخرافات، وتتمرد على التقليد الأعمى للأجداد أو الآباء والكبار أو للعلوم، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق، وترد آية دعوى عارية عن البراهين القاطعة والحجج الدامغة من مشاهدات حسية، أو منطق عقلي رصين، أو نقل عن يقين، ومن المظاهر الشاهدة على هذه المرجعية المطلقة:

### ١- أنه موسوم بالكمال :

قال - تعالى -: «الْيَوْمَ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَفْعٌ وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامُ دِينًا» [المائدة، الآية: ٣٢]، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافياً في هدي الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها بحسب ما تدعوه إليه حاجتها... فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: لو أن المسلمين أضاعوا كل أثره من علم - والعياذ بالله - ولم يبق بينهم إلا القرآن لاستطاعوا الوصول به إلى

ما يحتاجونه في أمور دينهم وإنقاذه؛ لأن كلياته وأوامره المفصلة ظاهرة الدلالة ومجملاته تبعث المسلمين على تعرف بيانها من استقراء أعمال الرسول ﷺ وسلف الأمة المتلقين عنه؛ ولذلك لما اختلف الأصحاب في شأن كتابة النبي ﷺ كتاباً في مرضه، قال عمر - رضي الله عنه -: حسبنا كتاب الله، فلو أن أحداً قصر نفسه على علم القرآن فوجد ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة، الآية: ١١٠]، ﴿وَمَاتُوا حَقَّهُمْ يَوْمَ حَسَابًا﴾ [الأنعام، الآية: ١٤١]، و﴿كُتُبَ عَلَيْكُمُ الصَّيَامُ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٣]، ﴿وَأَتَيْتُمُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٦]؛ لتطلب بيان ذلك مما تقرر من عمل سلف الأمة، وأيضاً فإن في القرآن تعليم طرق الاستدلال الشرعية؛ كقوله - تعالى -: ﴿لَعِلَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَطِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> [النساء، الآية: ٨٣].

## ٢- أنه الهادي إلى السبيل الأقوم :

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا الْفُرْقَانَ يَهْدِي لِلّّٰهِ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، الآية: ٩]، فدللت الآية على أن القرآن هاد إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصح، ولازم هذا، أن يؤتي ثماره وهو النفع الكبير والربح العظيم متى رجع إليه ملتمس العلم الصحيح، كما أنه يوجب الضرر متى نكب عنه، واهتدى بغير هداه، والتمس العلم فيما سواه، فهو حاو لنظام كامل في معاملة الخلق والخالق، ولو لم يكن كذلك لما صح إطلاق هذا المعنى عليه.

## ٣- أنه المرجع عند الاختلاف :

قال - تعالى -: ﴿وَمَا أَنَّا نَنْهَا عَنِ الْكِتَبِ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْنَافُوا فِيهِ﴾ [التحل، الآية: ٦٤]، فالقرآن جاء مبيناً للمشركون ضلالاتهم بياناً، لا يترك للباطل مسلكاً إلى النفوس، مفصحاً عن الهدى إفصاحاً، لا يترك للحيرة مجالاً في العقول،

(١) وانظر التحرير والتبيير ١٠٣/١٠٤.

ولقد أفصحت الآية عن الأهم من غاية القرآن وفائدته التي من أجلها أنزلَ ما يجعل من المخاطب به أن يتلقاها بتدبر وتمعن وفهم حتى تنجلِ عنجهة الجهالة، وتكتشف له سبيل الهدى والمعارف الحقة<sup>(١)</sup>، وما يعزز هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿فَإِن تَرَعَّثُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء، الآية: ٥٩]، قال أهل التأویل: والرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول إذا كان حيًّا؛ فلما قبضه الله، فالرد إلى سنته - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وقد روي عن مجاهد وميمون بن مهران: أن التنازع مراد به تنازع أهل العلم<sup>(٢)</sup>، وما أحسن ما حدثنا به رسول الهدى - صلوات الله وسلامه عليه - في هذا المجال - مجال الاختلاف - واعتبار الكتاب المخرج والمنفذ لهذه الاختلافات التي ستعصف بالأمة، روى الترمذى والدارمى عن الحارث الأعور، قال: مررتُ في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فأخبرته، فقال: أو قد فعلوها؟ قلتُ نعم قال: أما إنني سمعت رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة» قلتُ: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فن غيره أضلله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تتفضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته؛ حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن، الآية: ١]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم<sup>(٣)</sup>، فقد جاء الحديث جامعاً لخصائص القرآن العامة كما رأينا بأخص عبارة، وأوفر معان.

(١) التحرير والتبيير ١٩٦/١٤.

(٢) جامع البيان ١٥١/٥.

(٣) سنن الترمذى (أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن) ٣٤٥/٤ وانظر سنن الدارمى (كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن) ٤٣٥/٢، ٤٣٦.

#### ٤- أن التجربة قضت بذلك :

إذ ما من مسألة إلا والقرآن يجيب عنها السائلين من العلماء! قال الشاطبي - رحمة الله - : « وأقرب الطوائف من أعواز المسائل النازلة أهل الظاهر الذين ينكرون القياس، لم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل في مسألة من المسائل، وقال ابن حزم الظاهري: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة نعلمه والحمد لله حاشا القراض، فما وجدنا له أصلاً فيها البينة إلى آخر ما قال... ثم قال الشاطبي: وأنت تعلم أن القراض نوع من أنواع الإجارة، وأصل الإجارة في القرآن ثابت وبين ذلك إقراره - عليه الصلاة والسلام - وعمل الصحابة - رضوان الله عليهم »<sup>(١)</sup>.

\* \* \*



## الباب الثاني :

# كليات في مقاصد الشرع

الفصل الأول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥١

الفصل الثاني : ﴿وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْتَعِ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

الفصل الثالث : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾



## بين يدي الباب :

بعد أن وقفتنا في الباب الأول على القسم النظري من قضايا الدين، والذي تمثل في العقيدة التي اعتبرت الخطوة الأساسية لبنيائه؛ نلاحظ في هذا الباب الدخول في مجال التطبيق والراس، وذلك بالدخول تحت أوامر الله ونواهيه؛ لتحقيق العبودية المقصودة للشارع، والمنصوص عليها في مثل قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّةِ وَإِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات:٥٦]، وتلك هي الكلية الأولى التي اعتبرت من المقاصد الأولى للقرآن الكريم، فهي المشمرة للنظام الكافل للسعادة في المعاش والمعاد، متى أتي بالأوامر الشرعية على وجهها.

ولما كانت وجهة القرآن الكريم الإرشاد نحو تزكية النفوس وإصلاحها وهدايتها ومدار هذا كله على قطبين اثنين هما التحلية بالصالحات والتخلية عن المفسدات - فإن الحق - سبحانه - نص في كتابه على هذا بوصية جامعة، وذلك في قوله: ﴿وَأَصلحْ وَلَا تَئِنَّ سَيِّلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، فكانت الآية ممثلة للكلية الثانية التي ستعرض إجراء الدخول في العبودية.

وحتى يقام الدين على الوجه الذي سينجم فيه والفطرة الإنسانية، فقد زينته مُنزله بزينة رفع الحرج في أثناء التلبس بتکاليفه رحمة بالمكلفين، وتحبيباً لهذا الدين في نفوسهم، وضماناً لديومومته وخلوده، وكان مما عبر به - سبحانه وتعالى - في هذا الشأن قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وهي أجمع آية في بابها، فنم بذلك ثلات كليات، كل مقاصد الشرع آيلة إليها، وداخلة في إطارها.

وسنحاول تناول كل واحدة منها في فصل مستقل، على أن نبقي الصياغة القرآنية التي رأينا فيها الموسوعية والشمولية.

وهكذا ستتناول هذا الباب في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ لِجِنَّةً وَلِإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الفصل الثاني : ﴿وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْجِعُ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

الفصل الثالث : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

\* \* \*

## الفصل الأول :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَا إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: ٥٦]

المبحث الأول : تحرير محال ورود الكلية في القرآن الكريم

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : مقوماتها

المبحث الخامس : بعض مظاهرها

المبحث السادس : المثل الأعلى في العبادة

المبحث السابع : من ثمراتها

المبحث الثامن : دواعي الاستكبار عن عبادة الله وعاقبة المستكبرين

المبحث التاسع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية القرآنية من القواعد



## المبحث الأول :

### تحرير محال ورودها

لقد أرشد القرآن الكريم إلى العبادة ودعا إليها بأساليب مختلفة، فمرة بالتنصيص عليها - وهو الغالب -، ومرة بالدلالة فقط.

كما أن العبادة ترد تارة مضافة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - على سبيل الحفز والتنويه والمفاسلة<sup>(١)</sup> ، وتارة تضاف إلى معبدات غير الله وذلك على سبيل التعبير والاستهزاء والتحذير. وإليك مظان النوعين معاً.

\* \* \*

(١) وتعني بالمفاسلة التاركة والبراء : من المشركين ومعبداتهم.

## المطلب الأول :

### بعض مظان ورودها نصاً

#### ١- مضافة إلى الله - عز وجل :

\* قوله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَغْبَدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمْلَكُمْ تَنَقُّوْنَ﴾ [آل عمران، الآية: ٢١].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا أَخَذَنَا مِيقَاتَنَا بَيْنَ إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٣].

\* قوله - تعالى - : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِيَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَابِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَهَا وَحْدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٣].

\* قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبُّ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران، الآية: ٥١].

\* قوله - تعالى - : ﴿فُلْ يَنَاهِلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْنَا إِلَى كَلِمَاتِ رَسُولِنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا شُرِكَ لِيَوْهُ شَكِيْنَا وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَنْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّنَا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِإِنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦٤].

\* قوله - تعالى - : ﴿مَا كَانَ لِشَرِّيْرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالثُّبُوتَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُوْنُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُوْنُوا رَبِّيْنِيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٧٩].

- \* قوله - تعالى :- **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** [النساء، الآية: ٣٦].
- \* قوله - تعالى :- **﴿لَن يَسْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلِئَكَةُ الْمُقْرَبُونَ وَمَن يَسْتَكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكِفُ فَسِيرَحُونُ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾** [١٧٢: النساء، الآية].
- \* قوله - تعالى :- **﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَأْتِيَ إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾** [الملائكة، الآية: ٧٢].
- \* قوله - تعالى :- **﴿قُلْ إِنِّي نُهِيَّ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [الأعراف، الآية: ٥٦].
- \* قوله - تعالى :- **﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَفِيلٌ﴾** [١٠٢: الأنعام، الآية].
- \* قوله - تعالى :- **﴿قَالُوا أَجْهَنَّمَ لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَخَدَوْهُ﴾** [الأعراف، الآية: ٧٠].
- \* قوله - تعالى :- **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾** [الأعراف، الآية: ٥٩].
- \* قوله - تعالى :- **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكُلَّ لَا يَسْتَكِفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحْوِنُهُ وَلَمْ يَسْجُدُونَ﴾** [٢٠٦: الأعراف، الآية].
- \* قوله - تعالى :- **﴿وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا يَعْبُدُوا إِنَّهَا وَاحِدَةٌ﴾** [التوبه، الآية: ٣١].
- \* قوله - تعالى :- **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُلَّمَا فِي شَاءَكُمْ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ﴾** [يونس، الآية: ٤٠].
- \* قوله - تعالى :- قوله - تعالى :- **﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** [يونس، الآية: ٣].

- قوله - تعالى :- **﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾** [هود، الآية: ٢].
- قوله - تعالى :- **﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ﴾** [يوسف، الآية: ٤٠].
- قوله - تعالى :- **﴿أَصْلَوْتُكُمْ تَأْمِنُوكُمْ أَنْ تَرْكُوكُمْ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ﴾** [هود، الآية: ٨٧].
- قوله - تعالى :- **﴿فَلَا تُكُنْ فِي مِرْيَقٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتَوْلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ﴾** [هود، الآية: ١٠٩].
- قوله - تعالى :- **﴿قَالُوا إِنَّ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصْدِّوْنَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأَنْتُنَا إِسْلَمَانِ مُؤْمِنِينَ﴾** [إبراهيم، الآية: ١٠].
- قوله - تعالى :- **﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** [النحل، الآية: ٣٥].
- قوله - تعالى :- **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾** [النحل، الآية: ٧٣].
- قوله - تعالى :- **﴿وَرِإِنْ أَغْنَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾** [الكهف، الآية: ١٦].
- قوله - تعالى :- **﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَلَالًا﴾** [مرد، الآية: ٨٢].
- قوله - تعالى :- **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾** [الحج، الآية: ٧١].
- قوله - تعالى :- **﴿وَوَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [الفرقان، الآية: ١٧].
- قوله - تعالى :- **﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنَا وَنَخْلُقُونَ إِنَّكُمْ إِنْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَتَلَكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾** [العنكبوت، الآية: ١٧].

\* قوله - تعالى :- ﴿ قَالَ أَنْقَبْدُونَ مَا تَنْجِحُونَ ۚ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ [٩٦]

[الصافات، الآية: ٩٥-٩٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿ اخْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴾ [١٣]

[الصافات، الآية: ٢٢].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ ۚ ﴾ [الزخرف، الآية: ٢٠].

\* قوله - تعالى :- ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ رُلْفَى ۚ ﴾ [الزمر، الآية: ٣٣].

\* قوله - تعالى :- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَذْعُوا وَإِلَيْهِ  
مَئَابٌ ۚ ﴾ [الرعد، الآية: ٣٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَأَعْبُدُ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ ۚ ﴾ [الحجر، الآية: ٩٩].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِّيْبَاعْدُوا اللَّهَ ۚ ﴾ [النحل،  
الآية: ٣٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَأَشْكُرُوا يَعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۚ ﴾ [النحل،

الآية: ١١٤].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ﴾ [الاسراء، الآية: ٢٣].

\* قوله - تعالى :- ﴿ فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلَ عَمَلاً صَنِيلَهَا وَلَا يُشْرِكَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ  
لَهُدًا ۚ ﴾ [الكهف، الآية: ١٠٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا مَا فَاعْبُدُهُ وَأَنْكَلِيْرَ لِيَعْلَمَنِي ۚ ﴾ [مريم،

الآية: ٦٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا أَنَاَ اللَّهُ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه، الآية: ١٤].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنباء، الآية: ٢٥].

\* قوله - تعالى - : ﴿يَتَأْبِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج، الآية: ٧٧].

## ٢- مضافة إلى سواه من العبادات :

\* قوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الظَّغُوفَ﴾ [المائدة، الآية: ٦٠].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَعَبَدُوكُمْ مِنْ دُورِنَ اللَّهُ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس، الآية: ١٨].

\* قوله - تعالى - : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُورِنَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ [يوسف، الآية: ٤٠].

\* قوله - تعالى - : ﴿أَنْهَنَّا أَنْ تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ إَبَائُكُمْ وَإِنَّا لَنِي شَكِّي مِمَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مُهِبِّي﴾ [هود، الآية: ٦٢].

\* قوله - تعالى - : ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصْدِكُمْ عَنَّا كَانَ يَعْبُدُ إَبَائُكُمْ﴾ [سبأ، الآية: ٤٣].

## المطلب الثاني :

### بعض مظان ورودها دلالة

- \* قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُنْ﴾<sup>(١)</sup> [غافر، الآية: ٦٠].
- \* قوله - تعالى - : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلَيْهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أَلَّا يَرَوَا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَنْخَذُوهُ وَكَانُوا ظَلَمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٤٨].
- \* قوله - تعالى - : ﴿أَرَيْتَ مِنْ أَنْخَذَ إِلَهُمْ هَوَنَهُ أَفَإِنَّ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان، الآية: ٤٣].
- \* قوله - تعالى - : ﴿أَفَرَيْتَ مِنْ أَنْخَذَ إِلَهُمْ هَوَنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِ﴾ [الجاثية، الآية: ٢٣].
- \* قوله - تعالى - : ﴿أَنْخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهَبُوكُنْهُمْ أَزْبَابًا مِنْ دُوبِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَّاهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَنِمْ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣١].
- \* قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْهُ مَارِرَ أَتَتَخِذُ أَصْنَامًا مَالَهُهُ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٤].
- \* قوله - تعالى - : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْجُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَثُرًا﴾ [آل عمران، الآية: ١٦٥].

(١) في الحديث: الدعاء من العبادة وانظر سنن الترمذى: ١٢٥/٥ (باب ما جاء في فضل الدعاء)، قال فيه الترمذى: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.



## المبحث الثاني :

### فقهها

## المطلب الثالث :

### مفهوم العبادة في اللغة والاصطلاح:

أ - في اللغة : الطاعة والخضوع، ومنه طريق معبّد: إذا كان مذللاً لكثره الوطء، قال - تعالى - : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** أي: نطيع الطاعة التي يخضع لها، وقال - تعالى - : **﴿قُلْ هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوَّبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبْدَ الظَّلْفُوتَ﴾** [المائدة، الآية: ٦٠].

وتأنيل عبد الطاغوت، أي أطاعه - يعني الشيطان - فيما سُؤل له<sup>(١)</sup>.

ويقال: فلان عبد بين العبودة والعبودية والعبدية أي خاضع متذلل<sup>(٢)</sup>. والعبادة أبلغ من العبودية؛ لأنها غاية في التذلل لا يستحقها إلا من له غاية الأفضال، وهو الله - تعالى - ولذلك قال: **﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾**<sup>(٣)</sup> [الإسراء، الآية: ١٧].

ب - في الاصطلاح: أما في الاصطلاح، فقد وجدنا العلماء يختلفون في مفهومها وتعريفها، اختلافاً لو تأملناه أفيناه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فتكون هذه التعريفات مكملة بعضها لبعض، وأحسب أن الإمام بعض منها يهدينا إلى التصور الصحيح لمفهوم العبادة، وإليك بعضًا من هذه الأقوال.

(١) انظر لسان العرب: ٢٧١/٣، مادة «عبد».

(٢) لسان العرب: ٢٧١/٣ مادة «عبد».

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٣٠.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة»<sup>(١)</sup> ، وقال ابن القيم - رحمه الله -: «أصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يُحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليس محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه»<sup>(٢)</sup> ، وقال في مقام آخر: «العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغایة الذل والخضوع»<sup>(٣)</sup> ، وعرفها الألوسي - رحمه الله - فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كالتوحيد فإنه عبادة في نفسه، والصلوة والزكاة والحج وصيام رمضان، والوضوء، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والدعا، والذكر، القراءة وإخلاص الدين، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضاءه، والتوكّل عليه والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه وغير ذلك مما رضيه وأحبه، فأمر به وتبعد الناس به»<sup>(٤)</sup> .

ويرى محمد صديق حسن خان أن للعبادة أربع قواعد وهي «التحقيق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح»<sup>(٥)</sup> .

وما سبق من النقول يتضح لنا جلياً معنى العبادة الحقة التي أمرنا بها تعبداً لله - عَزَّ وَجَلَّ -، ويمكن تلخيص هذا المعنى فيما يأتي:

(١) العبودية، ص: ٤.

(٢) مدارج السالكين: ٩٩/١.

(٣) مدارج السالكين: ٩٩/١.

(٤) غاية الأماني: ٢٥٦/١.

(٥) الدين الحالص: ٣٤١/١.

العبادة الحقة: تعني المحبة مع تمام الخضوع والتذلل لله، والانقياد لأوامره، ومحبة ما يحب، وبغض ما يكره، واتباع الرسول ﷺ فيما أمر ونهى وسن وشرع من غير زيادة أو نقصان.

ولَا فِي مَحْبَةِ مَحْبَّةٍ وَخَضُوعٍ لَا يَشْرَان طَاعَةً وَاتِّبَاعًا وَقَبْلًا وَالتَّزَانَمًا؛ إِذْ وظِيفَةُ الْعَبْدِ الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ طَاعَتُهُ لِسَيِّدِهِ وَأَمْثَالِ أَوْامِرِهِ، وَكَلَّمَا زَادَ «وَلَمْ يَقْفِ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى حَدِّ أَنْ يَسْلِمَ نَفْسَهُ لِسَيِّدِهِ طَاعَةً وَتَذَلُّلًا، بَلْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ بِعِلَائِهِ وَيَعْتَرِفُ بِعِلْوَ شَأنِهِ، وَكَانَ قَلْبَهُ مَفْعُومًا بِعَوَاطِفِ الشُّكْرِ وَالْإِمْتَانِ عَلَى نِعَمِهِ وَأَيْدِيهِ، مُبَالَغًا فِي تَمْجِيدِهِ وَتَعْظِيمِهِ، مُتَفَنِّنًا فِي إِبْدَاءِ الشُّكْرِ عَلَى آلَائِهِ وَأَدَاءِ شَعَائِرِهِ، ارْتَقَى بِهِ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَكُونَ خَاضِعًا لِيُسْ بِرَأْسِهِ فَحُسْبَ، وَإِنَّمَا بِقَلْبِهِ - أَيْضًا»<sup>(١)</sup>.

وَمِنْ هَنَا عَنِ ابنِ تِيمِيَّةَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - فِي بِيَانِ حَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ بِذِكْرِ الضَّوَابِطِ الَّتِي تَقْفِي بِالْعَبْدِ عِنْدِ حَدِّهِ وَلَا تَشَرِّدُ بَهُ عَنْ سَوَاءِ الصِّرَاطِ، حِيثُ يَقُولُ - تَحْتَ عَنْوَانَ - «مَحْبَةُ اللَّهِ»: «وَإِنَّمَا عَبْدُ اللَّهِ مِنْ يَرْضِيهِ مَا يَرْضِي اللَّهَ، وَيَسْخُطُهُ مَا يَسْخُطُ اللَّهَ، وَيَبْغُضُ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَوَالِي أُولَيَّاءِهِ، وَيَعَادِي أَعْدَاءِهِ، هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الإِيَّانُ»<sup>(٢)</sup>.

فَكَأَنَّهُ يَشْرِحُ مَضَامِينِ سُورَةِ «الْكَافِرُونَ»، الَّتِي تُسَمَّى - أَيْضًا - سُورَةُ الْعِبَادَةِ<sup>(٣)</sup>، وَالَّتِي مَفَادِهَا إِعْلَانُ الْمَفَاصِلِ التَّامَّةِ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ فِي الْعِبَادَةِ «وَتَئِيَسُهُمْ مِنْ أَنْ يَوْافِقُوهُمْ فِي شَيْءٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفُرِ بِالْقُولِ الْفَصْلُ الْمُؤْكَدُ فِي الْحَالِ وَالْاسْتِقْبَالِ»<sup>(٤)</sup>.

(١) الدين الخالص: ٣٤١/١.

(٢) العبادة في الإسلام، ص: ٢٩ بتصريف.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٥٧٩/٣٠.

(٤) انظر التحرير والتنوير: ٥٨٠/٣٠.

والحق أنه لا يرجى من المكلف البلوغ بالعبودية إلى هذا المقام السامي إلا بعد معرفته لربه وحالقه معرفة تليق بجلال الله وعظمته؛ «إذ العبادة موجب ألوهيته وأثرها ومقتضاها وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة والإحسان بالرحمة والعطاء بالجود، فمن قام بمعرفة الأسماء والصفات استقامت له العبادة وعلم أنها هي القصد الذي خلقت له العباد وأرسلت من أجله الرسل»<sup>(١)</sup>، ولما كان التعبد المقصود من بعثة الأنبياء - عليهم السلام -، أوتوا معه أدلة التوحيد ليقع التوجه إلى المعبد بحق؛ ولذلك قال - تعالى -: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ» [محمد، الآية: ١٩]، ومثل سائر الموضع التي نص فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده أو جعل مقدمة لها، وهو واضح أن التعبد لله هو المقصود من العلم<sup>(٢)</sup>.

وما الإجلال والتعظيم اللذان حلاً بقلوب أوليائه وأصفيائه من عباده المكرمين - إلى حد أن كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه - ما ذلك إلا ثمرة معرفته حق العرفان، والاطلاع على حقيقة معاني الألوهية والربوية والأسماء والصفات.

ومن هنا أمكن القول: إن هذه الكلية المقاصدية إنما هي امتداد للعقدية فيبيهما لحمة اتصال بل إن هذه من لوازم تلك السلوكية والأخلاقية التي من شأن العبد أن يفجرها من داخله متى فقه الكلية العقدية، وإلا فستتفصم هذه الأخيرة عن مجالها الواقعي مما يؤدي إلى عرضها بعيداً عن آثارها العملية ومقتضياتها السلوكية.

وما الممارسات السلبية المشاهدة من تهاون في فعل الواجبات والإقبال دون توقيف لجنب الله - على المحرمات، ما ذلك إلا نتيجة لما حدث من انفصام الظاهر عن الباطن؛ إذ لم تستول العقيدة على القلوب ولم يتربع الإيمان على عرش النفوس<sup>(٣)</sup>.

(١) الدين الخالص: ٣٣٨/١ بتصرف.

(٢) المواقف: ٣١/١ بتصرف.

(٣) الكثير من ينتمون للإسلام من يجاهرون بالمعاصي و المحرمات ويتفاخر بانتهاك حدود الله، كترك =

قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»<sup>(١)</sup>، فمتى صادف الخلل القلوب الحالية من معرفة الله وحبه وخشيته والإنابة إليه إلا تمكن واستفحلاً ونضحت القلوب بأضداد ما ذكر.

ج - المفهوم القرآني للعبودية : ويظهر من سياقات القرآن العديدة، أن العبودية تردد نسبة إلى الله - تعالى - نسبة عموم، وتارة منسبة إليه نسبة خصوص :

- فمن العموم، قوله - تعالى - : ﴿وَذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٢]، وقوله - تعالى - : ﴿إِنْ كُلُّ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَاتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مرim، الآية: ٩٣]، فشملت المؤمنين والكافر، وإدخال الكفار في العبدية؛ لكونهم اعترفوا بالصانع، وخضعوا له، قال - تعالى - : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف، الآية: ١٠٦]، وفي قوله - عز وجل - : ﴿إِلَّا مَاتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ما يدل على الذلة والخضوع، ومعلوم أن هؤلاء لا يأتون يوم القيمة إلا كذلك؛ لأن استكبارهم عن عبادة الله لم يكن إلا في الدنيا<sup>(٢)</sup>.

وأما الخصوص ففي مثل قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء، الآية: ٦٥]، وقوله - تعالى - : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هُنَّا﴾ [الفرقان، الآية: ٦٣]، وقوله - تعالى - : ﴿وَذَكْرُ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَئِمَّةِ﴾

= الصلاة، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، والإفطار في نهار رمضان، وفترة أخرى منهم من لا يعجبها ذكر ما حرم الله وأحل، وتغضب لذلك وتثير الأرض نفعاً وتماماً مع أعداء الله لاسكات الأصوات وتهدى بقطع الأقواف ومصادرة الحريات على كل من تجرأ على إغضابها ومخالفة أهوائها ثم تغدو آخر الأسبوع لتشهد صلاة الجمعة فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢٦/١. (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه) ومطلع الحديث قوله - عليه الصلاة و السلام - فيما رواه عنه التعمان بن بشير - رضي الله عنه - أنه قال: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ... الحديث».

(٢) وما يلاحظ على لفظ: «العبد» أنه لم يرد إلا في معرض الحديث عن العبودية التي أريد بها العموم.

(٣) انظر الفتاوى: ٤٤/١ بتصريف.

وَالْأَبْصَرُ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَقْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِيَّنَا لَيْسَ الْمُصْطَفَى فِي  
 الْأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ [ص، الآية: ٤٥-٤٧]، «فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته  
 هم عبيد إلهيه»<sup>(١)</sup>، فظاهر من العموم والخصوص أن العبادة إما قسرية اضطرارية  
 تكليفية وهي العامة التي يدخل فيها الخزيان معاً، وبرز هذا النوع في «افتقار  
 المخلوقات - ومنها الشقلان - إليه - تعالى - وحاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا  
 شيء من صفاتها وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار وهو افتقارها إلى ربوبيته  
 له، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة لها»<sup>(٢)</sup>. وإنما اختيارية تشريفية ولا تنال إلا أهل  
 مرضاته، وهو النوع الذي من أجله وضعت الشريعة؛ لأن القرآن يقصد إلى صياغة  
 الإنسان الرباني، ومن أرشق العبارات في هذا المقام ما تحدث به الشاطبي - رحمه  
 الله - حين قال: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه  
 حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً»<sup>(٣)</sup>، فمتى صار العبد خالصاً  
 لسيده، سلماً له وارتقي قمة العبدية، خضع لله خضوع طواعية و اختيار لا قسر  
 واضطرار، فتغدو العبدية حينئذ بعد أن كانت في نطاق التكليف، تغدو في مقام  
 التشريف ويحظى صاحبها بالزلفى عند سيده.

ولقد دلت الآية الكلية على أقصى غاية التذكير<sup>(٤)</sup>. هو أن القصد من خلق الجن  
 والإنس ليس إلا للعبادة فخلقهم مغناً بهذا حتى يكونوا عباداً له خلصاً متذليلين  
 خاضعين لأمره وسلطانه.

(١) مدارج السالكين: ١٠٥/١.

(٢) الفتاوى: ٤٥/١.

(٣) المواقفات: ٤٦٠/١.

(٤) والقصد من التعبير بلفظ التذكير، «هو أنه لما ذكر - تعالى - قوله: (وذكر فإن الذكرى تنفع  
 المؤمنين) الذاريات، الآية: ٥٥ أعقبه بقوله - عز وجل -: هُوَّا خَلَقْتَ لَيْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا  
 لِيَعْبُدُونَ» [الذاريات، الآية: ٥٦]، فناسب القول بأن أقصى غاية التذكير هي هذه الجملة التي  
 أثبتت عن القصد من إيجاد التقليدين».

ومن هنا لزم حمل الآية على الخصوص رغم ورود اللفظ عاملاً، وأن المراد بالفريقين بعضهما، وهم أهل السعادة، وذلك لأن اللام في قوله - تعالى - **﴿لِيَعْبُدُونَ﴾** ليست لام الصيرورة - كما يسمى بها النحاة - بحيث يلزم منها ألا يتخلل أحد من المخلوقين عن عبادته العبادة اختيارية - فكيف وقد حصل - فاللام - إذا - إنما هي لام علة، وهذه العلة هي المراد المطلوبة المقصودة من الفعل<sup>(١)</sup>، ومن ثم وجدنا من المفسرين من يتأول الآية بقدり كلام، حيث قال: «ما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليوحدوني»<sup>(٢)</sup>.

والمدار على ذلك هو التوفيق والخذلان، فمن وفق عمل لما خلق له، ومن خذل خالف وعصى، قال ابن تيمية - رحمه الله - في أثناء حديثه عن الآية - : «هذه الإرادة الشرعية، وهذه قد يقع مرادها، وقد لا يقع<sup>(٣)</sup> . فهو العمل الذي تحقق العباد له وهو الذي به يحصل كمالهم وصلاحهم، فمن لم تحصل منه هذه الغاية، كان عادماً لما يحب ويرضى وعادماً لكماله وصلاحه المستلزم فساده وعذابه»<sup>(٤)</sup> .

ومعنى الآية: أن الله - تعالى - أخبر أنه ما خلق الإنس والجنس إلا لعبادته، فهذه هي الحكمة من خلقهم، وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المหظور، وذلك هو حقيقة

(١) انظر دقائق التفسير: ٤/٥٢٧ بتصريف يسير.

(٢) معاني القرآن: ٣/٨٩.

(٣) لقد سبق هذا الكلام تفصيل في الإرادة حيث عمد إليها فجعلها نوعين:  
١- إرادة مستلزم لوقع المراد وهي التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشاً لم يكن، ومثل لها آيات منها قوله - عز وجل - : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً» الأنعام، الآية: ١٢٦ .

٢- إرادة دينية شرعية وهي لا تستلزم وقوع المراد إلا إذا تعلقت بها الأولى كما هو مشاهد في الأعمال الصالحة، فهي مراد الله شرعاً كما أنه مراد له كوناً، وقدراً، انظر دقائق التفسير ٤/٥٢٨ .

(٤) انظر دقائق التفسير: ٤/٥٢٩ .

الإسلام الذي يعني الاستسلام المتضمن غاية الانقياد في غاية الذل قال ابن عباس - رضي الله عنهمَا : « مَا خلقتُ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِعِبَادَتِنَا وَالتَّذَلُّلَ لِأَمْرِنَا »<sup>(١)</sup> ، وقال مجاهد : « إِلَّا لِأَمْرِهِمْ وَأَنْهَاهُمْ »<sup>(٢)</sup> ، وهو ما دل عليه قوله : ﴿ أَيَّتَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَرَكَ سُنُّتُنَا ﴾ [القيمة، الآية: ٣٦] ، والحصر الوارد في الآية أريد به قصر علة خلق الله الإنسان والجن على إرادته أن يعبدوه وحده، فإن فيه ردًا للإشراك<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) جامع البيان: ٢٦/١٢.

(٢) تفسير مجاهد: ٢/٦٢١.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢٧/٢٦.

### المبحث الثالث :

#### قيمتها

#### المطلب الأول :

أنها المقصد الأعظم من إيجاد الثقلين :

ودعوى أن هذه الكلية أعظم مقاصد القرآن الكريم من وضع الشريعة لا يتنافي وما سنقرره عند الحديث عن كلية جلب المصالح ودرء المفاسد؛ لأن هذه الأخيرة تعتبر النظام الكافل للسعادة في المعاش والمعاد متى أتي بأوامر الشريعة ونواهيهما على وجهها، وكأن الكلية المقاصدية إجراء ووسيلة نودي بها من قبل الشارع للدخول تحت هذا النظام والانقياد له بعيداً عن الهوى والتشهي.

\* ومن الأدلة على ذلك صريح القرآن، الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه؛ ك قوله - تعالى - : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (٥٦) [الذاريات، الآيات: ٥٦-٥٧]، قوله - تعالى - : «وَأَمْرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَوةِ وَأَصْطَرَ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا تَحْنَنُ تَرْزُقَكَ» [طه، الآية: ١٣٢]، قوله - تعالى - : «يَنَاهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (١١) [البقرة، الآية: ٢١]، ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة، ك قوله - تعالى - : «لَيْسَ الَّرَّبُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الَّرَّبُّ مَنْ ءَامَنَ» إلى قوله: «وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُنَّقُونَ» [البقرة، الآية: ١٧٧]، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة؛ من الأحكام، قوله: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» [النساء، الآية: ٣٦]، إلى غير

ذلك من الآيات الامرة بالعبادة على الإطلاق وتفاصيلها على العموم، فذلك كله راجع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحکامه على كل حال، وهو معنى التعبد لله.

\* ومن الأدلة- أيضاً- ذم مخالفة هذا القصد، من النهي أولًا عن مخالففة أمر الله، وذم من أعرض عن الله وإبعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات، والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة، فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق، وعده قسيماً له؛ كما في قوله: ﴿بَيْنَدَاوُدٌ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَنْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ يَلْتَهِي وَلَا تَتَبَعُ الْهَوَى فَيُفْسِلُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضْلُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ إِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص، الآية: ٢٦]، قوله- تعالى-: ﴿فَوَمَا مَنْ طَغَى ۝ وَمَا فَرَّ لَهُ حَيَاةُ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمُأْوَى ۝﴾ [٣٩]، وقال في قسيمه: ﴿وَمَا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىَ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمُأْوَى ۝﴾ [٤١] (النازعات، الآيات: ٤١-٣٧)، فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي، وهو الشريعة، والهوى، فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق، قال- تعالى-: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخْذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَلِيهِ﴾ [الجاثية، الآية: ٢٣]، فكل موضوع ذكر الله- تعالى- فيه الهوى فإنما جاء في معرض الذم له ولتبعيه، وهذا واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى.

\* ومن الأدلة كذلك، ما عُلِّمَ بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تُحصلُ مع الاسترسال في اتباع الهوى لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح؛ ولذلك اتفق الناس على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به؛ حتى إنَّ من تقدم من لا شريعة له أو كان له شريعة درست كانوا

يقتضون المصالح الدنيوية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي...، فهذا الأمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة.

فباتابع الهوى إذأ، ينخرم النظام، قال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ الْأَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [المؤمنون، الآية: ٧١]؛ ولذلك وضعت الشريعة، حيث تكفلت بحفظ مصالح المكلفين لا المصالح التي قد يقصد بها الحظوظ النفسية والأهواء وإنما المصالح التي تعود عليهم بحسب ما أمر به الشارع؛ ولذلك ألغينا هذه التكاليف الشرعية ثقيلة على النفوس؛ لأن القصد منها إخراج المكلف عن دواعي الهوى - كما تقدم - <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) المرافقات: ٤٦٧-٤٧٣ / ٢ .

## المطلب الثاني :

### العبادة حق الله

وهو الأصل المنتظم فيما ورد من نص شرعي؛ كما ورد على لسان الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين قال: بينما أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل... فقال: يا معاذ بن جبل، فقلت: ليك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً... الحديث<sup>(١)</sup> ، وهذا الحق المنصوص عليه في الحديث هو فعل الطاعات واجتناب المعاشي دون إشراك به سبحانه -؛ إذ هو تمام التوحيد وكماله - وليس بمستنكر أن يكون لله على عباده أن يعبدوه حق العبادة وحده، بل المستنكر أن يخلق هو فيعبد غيره ويرزق هو فيشكرون سواه، أو أن يزعم العباد لأنفسهم الاستقلال عن الله فيجحدوا عبوديتهم له بغير حق فإن «من أعظم أنواع البر أن يعتقد الإنسان بجماع قلبه - بحيث لا يتحمل نقيض هذا الاعتقاد عنده - أن العبادة حق الله - تعالى - على عباده، وأنهم مطالبون بالعبادة من الله - تعالى - بمنزلة سائر ما يطلبه ذوي الحقوق من حقوقهم... فمن لم يعتقد ذلك اعتقداً جازماً، واحتمل عنده أن يكون سدى مهملًا لا يطالب بالعبادة، ولا يؤخذ من جهة رب مرید مختار، كان دھرياً لا تقع عبادته وإن باشرها بجوارحه..<sup>(٢)</sup> .

فالله الذي شهدت بربوبيته الفطر السليمة وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة، جدير أن يكون له حق العبادة والاستعانة به والابتهاج إليه والوقوف بياباه

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٣٧/١١ (كتاب الرفاق، باب من جاهد نفسه في طاعة الله).

(٢) حجة الله البالغة: ٢٠٠/١

موقف الضراعة، والانقياد والتسليم وكل هذا حق لربوبيته وألوهيته، حق الخالق على الخلق، وحق الكريم على المكرم وإلا عُذِّ العباد ناكرين لجميله متى توانوا في طاعة سيدهم الذي غمرهم بنعمه وأسلب عليهم نعمه ظاهرة وباطنة من يوم أن كانوا كالنار إلى أن صاروا خلقاً سوية، واقرأ قوله - تعالى - : ﴿أَللّٰهُ الّٰذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاهِئَةً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ يَأْمُرُهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۚ ۲۱ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ ۚ ۲۲ وَإِنَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا يَعْمَلَ اللّٰهُ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۚ ۲۳﴾ [إبراهيم، الآيات: ٣٢-٣٤] ، وصيغة المبالغة في : ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ اقتضتها كثرة النعم المعتبر عنها بقوله : ﴿وَإِنْ تَعْدُوا يَعْمَلَ اللّٰهُ لَا تَحْصُوهَا﴾؛ إذ بمقدار كثرة النعم يزداد كفر الكافر بها إعراضًا عن عبادة المنعم، فمحقق بذلك أن ينعت بالصفتين المذكورتين، فهو - سبحانه - المستحق إذا للعبادة وحده دون سواه؛ لأن هذا الدون مربوب له؛ ولهذا قال الراغب - رحمة الله - فيما نقلناه في أول كلامنا عن الكلية : « العبادة غاية في التذلل لا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله - تعالى - »<sup>(١)</sup>؛ « لأن أقل القليل من العبادة يعظم عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة، وهو الله فلذلك لا يستحق العبادة إلا هو، ومن ثم علم أن العبادة مطلوبة في الدين طلب الغايات والمقاصد، لا طلب الأدوات والوسائل، فهي المقام الأول امثالاً لأمره ووفاء بحقه سبحانه، فهي مطلوبة لذاتها مقدمة على أي شأن من شئون هذه الحياة »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٣٠.

(٢) العبادة في الإسلام، ص: ١٠٩، بتصرف.

### المطلب الثالث :

## العبادة تشكل قطب رحى الدعوة

حيث إن دعوة الأنبياء جميعهم لم تخرج عن نطاق الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، فتلك كانت سنته في أقوامهم ودينه في مجتمعاتهم، قال - تعالى -: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الظَّاغُوتَ﴾** [النحل، الآية: ٢٣٦]، وقيل لرسول الله ﷺ من قبل ربه: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدُونِ﴾** [الأنياء، الآية: ٢٥] (١)، فمثل في الآيتين روح الوحي ووظيفة المرسلين ومهمتهم، وهي عبادة الله - تعالى - عبادة خالصة. كما أن فيها إظهاراً لعنابة الله - تعالى - بإزالة عقيدة الشرك من النفوس وقطع دابرها إصلاحاً للعقل بأن يزال منها أفطع خطل وأسفخ رأي<sup>(١)</sup> ، فانظر كيف نزلت الشرائع الإلهية كاشفة عن هذا القصد بعبارة يفهمها البشر بما أودع في فطرهم وجبلتهم من ميل إلى بارئهم - جل مجده وتعالى جده -، وهذه هي السبيل التي دعا إليها ﷺ حين أبلغه ربه أن يقول: **﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾** [يوسف، الآية: ١٠٨] (٢)، إنها سبيل الله الموصلة إلى المطلوب وهو الفوز الخالد، قال ابن جرير - رحمه الله -: «يقول الله - تعالى - لنبيه ﷺ قل يا محمد: هذه الدعوة التي أدعوك إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإننا نصل العبادة له سبيلي ..» (٢) وفي مقام آخر نجد القرآن ينعت عبادة الإله الواحد بالصراط المستقيم، قال الله - تعالى - على لسان عيسى - عليه السلام -: **﴿وَجَنَاحُكُمْ بِيَأْيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقْوَا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾** (٣) إِنَّ اللَّهَ رَبُّ وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ

(١) التحرير والتنوير: ٤٩/١٧.

(٢) انظر جامع البيان: ٨٠/١٣.

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ [آل عمران، الآيات: ٥٠-٥١]، وقال على لسان محمد ﷺ: «وَلَمَّا أَتَاهُ اللَّهُ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ [مرم، الآية: ٣٦]، وما ذكر الربوبية في الآيتين إلا لتفريع عليها العبودية المراده له - تعالى -، وذاك هو السبيل القوي والصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يتحير.

وحسبك سورة البقرة التي ما إن نوهت بالقرآن وبفائق صدقه وهديه، حتى خلصت إلى تصنيف الناس تجاه تلقיהם هذا الهدى وانتفاعهم به إلى أصناف ثلاثة، ثم لففهم تحت نداء جامع وهو قوله - تعالى -: «يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ [البقرة، الآية: ٢١]، وهي موعظة جامعة تمثلت في دعوته لعبادة ربهم وخالفتهم إرشاداً لهم ورحمة بهم؛ لأنـه - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، كما أنـ في ثانياً الأمر في العبادة تعليماً لهم بكيفية هذه العبادة فهم مطالبون بإتيان العبادة الموسومة بالخشوع والأخلاق الأدب والإحسان كأنـهم يرونـه في أثناء الممارسات العبادية، وهذه الأخيرة لا يستحضرـها إلا إشعار النفوس بمعنى الربوبية.

وهكذا يأمر الله - تعالى - عباده أجمعين بأنـ يعبدوه وحده مخلصين له الدين؛ لأنـ هذه العبادة ستؤهلـهم للسعادة الحقيقة والوسيلة هي «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»؛ إذ بها يصلـ العبد إلى البغية المتمثلة في مرضـة الله - عزـ وجلـ - والدخولـ في رحمـته، قالـ تعالى -: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [الحجـرات، الآية: ١٠]، وقالـ عزـ وجلـ -: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارِكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنـعام، الآية: ١٥٥]، وقالـ عزـ وجلـ -: «أَوْ عِجْمَسْمَ أَنْ جَاءَكُنْ ذَكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجْلِ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِنَنْقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ [الأعرـاف، الآية: ٦٣] فغاية الغـايـات هي الدخـولـ في رحمـته - تعالى -.

## المطلب الرابع :

### العبادة شاملة لكل مجالات الحياة

إذا كان السر في وجود الثقلين - كما أسلفنا - مُغنىً بالعبادة، فإنه من قصور النظر أن نعتقد أن العبادة مجموعة من الشعائر لا تتعادها.

والحق أن العبادة واسعة الأفق شاملة لمجالات شتى من الحياة، ولو راجعنا النظر في مفهوم العبادة عند ابن تيمية، والألوسي - رحمهما الله -، لتجلّت لنا رحابة هذا الأفق حيث وَسَعَتْ الأركان والفرائض والتواافق، كما وَسَعَتْ المعاملات والوفاء بحقوق العباد والفضائل الإنسانية جميعها، «كما شملت ما يسمى بـ« الأخلاق الربانية » من حب الله ورسوله وخشيته لله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكرا لنعمه والرضا لقضائه والتوكّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه»<sup>(١)</sup> وأخيراً شملت العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين...»<sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى العبادة كيف وسعت كل مجالات الحياة، لا كما يعتقد بعض قاصري النظر من كونها لا تخرج عن نطاق الشعائر، وهو المفهوم السائد لدى بعض المسلمين سواء أقالوه بلسان المقال أو بلسان الحال، ولا أدلّ على هذا من أننا نجد بعض الممارسين للشعائر العبادية لا يتورع أن يكذب أو يرائي أو يغش أو يظلم وذلك عقيب انتهاءه من أداء هذه الشعيرة أو تلك، وهكذا تنحرف الغايات وتتشاً اللوثات وتفسد النيات نتيجة غياب التصور السليم للعبادة مما يؤدي إلى قطيعة وانقسام في حياة العبد،

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٥١.

(٢) العبودية، ص: ٤٣ وما بعدها.

بين المسجد وخارجه ورمضان وما بعده، وموسم الحج وما يتلوه من شهور العام، وبعد أن كنا نأمل أن تكون هذه الأزمنة والأمكنة بمثابة محطات لشحن القلوب وتعبيتها بالإيمان والعقيدة الراسخة؛ إذ بالعبد يفصل بين عراها ويحيل العبادة إلى مجرد عبث وتسكع لا يرى عليه أثر العبدية لا في خلق ولا دين، وهو مما لا يرضاه الله - تعالى -؛ إذ إن أوقات هذه الشعائر إنما هي أزمنة معدودة ومحدودة فأين نذهب بما تبقى من أزمنة العام هل تنفق في غير عبادة الله؟

قال الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله -: «إن الإسلام ليس أفعالاً تُعدُّ على الأصابع دون زيادة أو نقص، كلا إنه صلاحية الإنسان للمسير في الحياة وهو يؤدي رسالة محدودة»<sup>(١)</sup>.

فالعبادة تسع الحياة كلها وتنتظم أمورها قاطبة من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات وأصول العلاقات الدولية في السلم وال الحرب»<sup>(٢)</sup>، وهذا هو الموفق لما تعطيه الآية الكلية من معنى واسع وعميق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات، الآية: ٥٦]، فالواجب على كل مسلم أن يعلم أنه ما خلق إلا لهذه العبادة على هذه الكيفية الشمولية: في الشعائر التعبدية وفي المعاملات أو المباحث، كل ذلك يجب أن يمارسه العبد وشعور العبادة لله - عَزَّ وَجَلَّ - يصاحبه والتقرب إليه - تعالى - يحذوه والاستعانة على ذلك مطلبه ورغبته.

\* \* \*

(١) هذا ديتنا، ص: ٨٤ (نقلًا عن كتاب العبادة في الإسلام، ص: ٦٤).

(٢) العبادة في الإسلام، ص: ٥١ بتصرف يسرى.



## المبحث الرابع :

### مقوماتها

#### المطلب الأول :

#### الاتباع

ونعني به التأسي برسول الله ﷺ في الاعتقاد والأقوال والأفعال والتروك باعتباره المبعوث من الله - عز وجل - بشرعية لا يمكن التبعد إلا عنها.

ولمنزلة الاتباع تجليات شتى تَبَرُّزُ في كونه أساس قبول العمل العبادي، وبذلك تنتفي العبادة بالأراء والأهواء، قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»<sup>(١)</sup>.

وقال الحسن البصري - رحمه الله -: «ولا يصلح القول إلا بعمل ولا يصلح قول عمل إلا بنية، ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بالسنة»<sup>(٢)</sup>.

ومن تجلياته كونه دليلاً ويرهاناً على صدق إيمان العبد، وشهادته أن محمداً رسول الله، فهو مظهر مهم لتحقيق أحد أصلي الإسلام، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني ألا نعبد إلا بما شرع، لا نعبد بعبادة مبتدعة، وهذا الأصلان هما تحقيق شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»<sup>(٣)</sup> ويقول تلميذه ابن القيم - رحمه الله تعالى - في شأن هذا

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤/٣٥٥ (كتاب البيوع، باب النجاش ومن قال لا يجوز ذلك البيع).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/٥٧.

(٣) الفتاوى: ١/٣٣٣.

المقام - أيضاً - : «فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِنَّكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص لله رب العالمين»<sup>(١)</sup>.

بل إن لباس محبة الله ورسوله هو الاتباع ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْهَنَّمَ أَلَّهَ فَاتَّبِعُونِي يَعِيشُكُمْ أَلَّهُ وَيَقْرَئُ لَكُمْ دُنْبُرَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣١] عمران، الآية: ٣١، قال ابن عاشور - رحمه الله - : «ومن آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب والاتصال به واجتناب فراقه، ومن آثارها محبة ما يسره ويرضيه واجتناب ما يغضبه، فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله - تعالى - ، لأن الرسول ﷺ دعا إلى ما يأمر الله به وإلى إفراد الوجهة إليه وذلك كمال المحبة»<sup>(٢)</sup>؛ ولذلك أوجب الله على عباده محبة رسوله ﷺ وتقديم ذلك على محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين كما جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى تكون أحب إليه من والده ووالده والناس أجمعين»<sup>(٣)</sup>؛ لأن العبد متى تأمل النقل الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بال مباشرة وإما بالسبب، علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدى في النعيم السرمدى، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره؛ لأن النفع الذي يشير المحبة حاصل منه أكثر من غيره...»<sup>(٤)</sup>.

ويتحصل مما سبق أن مبنى الدين على الوحي والنقل الصحيح لا العقل، فما جاءنا من أمر ونهي، في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وجب علينا قبوله والمبادرة إلى امثاله فعلًا أو تركًا.

(١) مدارج السالكين: ١٠٤/١.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢٨/٣.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٨/١ (كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان).

(٤) فتح الباري: ٦٠-٥٩/١.

كما أنه يتعين على المسلم الناشر للعبادة الحقة أن يبحث عن الحكم الشرعي والثبت فيه قبل إتيان العمل في جميع شئون حياته، فإن كل ما يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياه من العبادات والمعاملات في السلم والحرب في السياسة والاقتصاد جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه، قال - تعالى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَشَرِيْعَةً لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، الآية: ٨٩]، وقال - عز من قائل -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَعْمَلٌ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ [المائدة، الآية: ٣]. وتطبيق ذلك هو حقيقة الاتباع والتأسي برسول الله ﷺ، وما سواه فهو منافق للشرع وهو ما عبر عنه الشاطبي - رحمه الله - حين قال: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد نافق الشريعة، وكل من نافقها، فعمله في المناقضة باطل فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل»<sup>(١)</sup> ، قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا ثَبَّتَ لَهُ الْهُدَى وَيَسِّعُ عَبِيرًا سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ تُؤْلِمُهُ مَا تَوَلَّ﴾ [النساء، الآية: ١١٥]، قال عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنتا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاة الله ما تولى وأصلاحه جهنم وساعت مصيرها، والأخذ في خلاف ما أخذ الشارع من حيث القصد إلى تحصيل المصلحة أو درء المفسدة مشaque ظاهرة<sup>(٢)</sup>.

\* ومن مظاهر التأسي والاتباع أن نجد المكلف يعظم النصوص الشرعية ويقدرها جلياً ويقدمها على سواها اعتقاداً منه أن ذلك هو الهدى والحق، وتلك هي سبيل السلف الصالح من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم -، عن ابن عمر - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استأذنت أحدكم أمراته إلى المسجد فلا يمنعها»، فقال فلان بن عبد الله: إذن والله أمنعها فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم

(١) المواقفات: ٦١٥/٢.

(٢) المواقفات: ٦١٦/٢.

أره شتمها أحداً قبله، ثم قال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إذن والله أمنعها<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم، فقال فلان: ما أرى هذا بأساً يدًا ييد، فقال عبادة: أقول: قال النبي ﷺ وتقول: لا أرى به بأساً والله لا يظلني وإياك سقف واحد أبداً<sup>(٢)</sup>.

\* ومن مظاهره - أيضاً - الإشراق على نفسه من أن يزري عن الحق وهو من الجلبات في سيرة السلف فهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - كان يقول: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يفعل به إلا عملت به، وإنني لأنخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ».

\* ومن مظاهره - أيضاً - الرضا بحكم الشرع مهما كان، فعن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»، فرضاً العبد المكلف بالله ربّا وبمحمدنبياً ورسولاً يورث لديه ضرب الصفح عن غير الهدى الذي جاء عن الله والسلوك التي لم تثبت عن رسول الله ﷺ، وكل هذا يجعله خاضعاً لحكم الله ورسوله، راضياً بقضاءهما مطمئنة نفسه بذلك، قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾٥٧﴿ إِنَّ اللَّهَ وَرِحْمَتَهُ يُرْجِحُوا فِي ذَلِكَ فَلَيَقْرَبُوا هُوَ خَيْرٌ وَمَنَا يَجْمَعُونَ ﴾٥٨﴾ [يونس، الآيات: ٥٧-٥٨]، فإن الفضل هو الهدایة الإلهیة التي في القرآن، والرحمة هو التوفيق إلى اتباع الشريعة التي شملت الدنيا والآخرة<sup>(٣)</sup>.

(١) سنن الدارمي: ١١٧-١١٨ (باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه).

(٢) نفسه ١١٨/١ (باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يعظمه).

(٣) التحرير والتنوير: ١١/٢٠٥ بتصريف يسيراً.

## المطلب الثاني :

### الإخلاص

لا ريب أن من استحقاقاته - عَزُّ وَجْلُ - أن يُفرَدَ بالعبادة الخالصة فكل حظ يشوش على العبادة إلا وجوب طرده ونفيه، فالعبارة لا تكون إلا له فوجب الإتيان بها على وجه لا تشوبها شائبة، قال - تعالى - : ﴿أَلَا إِلَهَ أَكْلَمُ الْخَالِصُونَ﴾ [الزمر، الآية: ٣] قال ابن عاشور - رحمه الله - : «واللام في ﴿أَلَا إِلَهَ أَكْلَمُ الْخَالِصُونَ﴾ لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق أي لا يحق الدين الخالص أي الطاعة غير المشوبة إلا له، فأفادت الجملة أنه مستحقه وأنه مختص به، فلا يشوبه تشريك غيره في عبادته»<sup>(١)</sup>.

فالإخلاص - إذا - هو: «تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب»<sup>(٢)</sup> ، فلا تتحقق العبادة إلا إذا كان الداعي إليها هو إرضاء الله - عَزُّ وَجْلُ - ، ومن رام في العبادة مدح الناس بحيث يكون ذلك القصد قبلته، كان عمله رياء وهو ما يؤثر على الإخلاص ويذكر صفوه، قال الإمام الغزالى - رحمه الله - : «وهذه المحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ... ثم قال: وإنما الإخلاص تخلص العمل عن الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب الله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار...»<sup>(٣)</sup>.

(١) التحرير والتبيير: ٣١٧/٢٣ - ٣١٨.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/٣٧٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/٣٨٠.

ولا يزال القرآن يدعو الناس إلى العبادة المقرونة بالإخلاص وذلك في شخص النبي ﷺ قال - تعالى - ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر، الآية: ٢٠]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر، الآية: ١١]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر، الآية: ١٤]؛ لأنَّه إذا كان الدين مستحقاً لله، خاصاً به، كان الأمر بالإخلاص له مصيبة محزنة، لأجل ذلك أعيد التصریح في هذه الآيات بأن يعبد الله وحده تأكيداً وتقريراً وإبرازاً لقيمة الإخلاص.

ولم يكتف القرآن بتمجيد المخلصين وإنما أمر - وبقوه - أن تكون القلوب بمنأى عن التأثير الدنيوي وأهوائها حتى تغدو قلوباً هدفها هو الله، وفي الآية الكلية ما يومئ إلى هذا أي الخضوع الخالص، حيث يقول - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾.

ولما كان رسول الله ﷺ المربى الأول لهذه الأمة، كان من اهتماماته البالغة أن يبين معاني هذه النصوص؛ ليفرز البواعث النقية الطاهرة عن غيرها المشوهة المكدرة.

روى البخاري - رحمه الله - عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: « جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الرَّجُلُ يَقْاتِلُ لِلْمُغَنَّمِ، وَالرَّجُلُ يَقْاتِلُ لِلذَّكْرِ، وَالرَّجُلُ يَقْاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ » فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلْمَةُ اللَّهِ هِيَ عَلَيْهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(١)</sup> ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا صِرَاطُهُ ذَلِكُ الإِعْلَانُ الَّذِي نَقَرَؤُهُ فِي حَدِيثٍ قَدِيسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: أَنَا أَغْنَى الشَّرَكَاءِ عَنِ الشَّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلاً أَشَرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكَتْهُ وَشَرَكَهُ<sup>(٢)</sup> .

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٨/٦ (كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا).

(٢) صحيح مسلم: ٢٢٣/٨ (كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله).

وهكذا نرى - تبعاً لهذه النصوص - أن جميع البواعث التي تنضاف إلى إرادة الطاعة تعرض قيمة العمل للخطر.

ولعل هذا الصفاء المطلق للباعث بالنسبة لما فُطِّرَ عليه المكلف من الانجداب نحو الحظوظ الأخرى ضرب من المستحيل، ولذلك «ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد التقرب إلى الله لم يضره ما انضاف إليه»<sup>(١)</sup> وقالوا - أيضاً: «إن النية الصحيحة لا تبطلها الخطرة التي لا تملك، وقد سئل مالك - رحمه الله - عن الرجل يحب أن يلقى في طريق المسجد ويكره أن يلقى في طريق السوق، فقال: «إذا كان أول ذلك وأصله لله فلا بأس به إن شاء الله - تعالى - ... إنما هذا شيء يكون في القلب لا يملأ ذلك من وسوسه الشيطان ليمنعه من العمل فمن وجد ذلك فلا يكسله عن التمادي على فعل الخير ولا يؤيشه من الأجر وليدفع الشيطان عنه ما استطاع...»<sup>(٢)</sup> ، وهو من فضل الله - تعالى - وكرمه ويسر شريعته على خلقه. إلا ترى إلى قوله - تعالى - في شأن التجارة في الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٨]، إن ذلك ليس بمانع ولا قادح في صحة هذه العبادة إذا كان قصده بالعبادة وجه الله، ولا يُعدُّ هذا تشاريكة في العبادة لأن الله هو الذي أباح ذلك ورفع الحرج عن فاعله<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) فتح الباري: ٢٩/٦ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير: ٣١٩/٢٣.

(٣) نفسه، ولنا عودة إلى هذا الموضوع وذلك عند الحديث عن القاعدة المتفرعة عن هذه الكلية، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ رِزْقًا وَّمَا كَفَرَ بِهِ أَنَّفَاسٌ﴾ والآية في الأنعام: ١٦٢.

## المطلب الثالث :

### الاستمرارية

وتعني المداومة والمواظبة من غير انقطاع عن العمل حتى لتفدو العبادة ديدنا للعبد.

وال الحديث عن هذه الركيزة في القرآن الكريم يردد تارة بالتصريح ومنه قوله - تعالى -: **﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾** [المعارج، الآية: ٢٣] ، تنويهاً ومدحًا لهؤلاء بعدم تركهم لشعيرة الصلاة، وقوله - تعالى - على لسان عيسى - عليه السلام: **﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكُورَةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾** [مرم، الآية: ٣٢، ٣١] ، فإن في الآيتين ما يبرز استغراق عبادة الصلاة والزكوة وإيقاع هذه العبادات مدة حياته.

وأحياناً ترد استعمالات أخرى تشعر بالدعوة إلى الاستمرارية والتقويه بها، ومن مثل ذلك عبارة: «الإقامة»، التي تعني الإدامة<sup>(١)</sup> ؛ كقوله - تعالى -: **﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾** [البقرة، الآية: ٣] ، وكذا عبارة: «الحفظ» التي تعني المواظبة على الأمر<sup>(٢)</sup> ؛ كقوله - عز وجل -: **﴿خَنِفُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةُ أَوْسَطُنِي﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٨] ، قال الأزهرى: «أى واظبوا على إقامتها في مواقتها»<sup>(٣)</sup> فكلا الاستعمالين أفاد المداومة والثابرة والمحارضة.

كما أن القرآن حين يوثر الفعل المضارع فإن ذلك يفيد تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون فيه وهو ما تطالعنا به آيات كثيرة؛ كما هو مسطور في مطلع سورة البقرة عند حديثها عن المتقين، حيث أردفت هذه الصفة الإجمالية - صفة المتقين بصفات أخرى

(١) انظر لسان العرب: ٤٩٨/١٢ مادة «قوم».

(٢) انظر لسان العرب: ٤٤١/٧ مادة «حفظ».

(٣) لسان العرب: ٤٤١/٧ مادة «حفظ».

تفصيلية منها قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُفْعِلُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٣] ، كل ذلك مقترون بفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ إذ المضارع صالح للتعبير عن ممارسة الفعل في الآن والمستقبل<sup>(١)</sup>.

ولا يزال القرآن حريضاً على الدعوة إلى إتيان الأعمال العبادية قاصداً إليها على سبيل المداومة، قال الله - تعالى - لرسوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْنِيَكَ الْقِيَمُ﴾ [الحجر، الآية: ٩٩].

«فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملائكة «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟»، ويتمسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرى يوم القيمة، ويوم يدعوه الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ويقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود»<sup>(٢)</sup> ولقد نصت أحاديث كثيرة على الاستمرار في العبادات وذمت الانقطاع قال ﷺ فيما روت له الصديقة عائشة - رضي الله عنها - : «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يبل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»<sup>(٣)</sup> ، فمعيار الأعمال ليس الكم وإنما الكيف الذي أريد به المداومة، قال النووي - رحمه الله - : بدوام القليل تستمر الطاعة بالذكر، والمراقبة، والإخلاص، والإقبال على الله بخلاف الكثير الشاق<sup>(٤)</sup> فالمداومة على العبادة وإن قلت أولى من إجهاد النفس في كثرتها إذا انقطعت، فقليل دائم خير من كثير منقطع.

وما الإشراق الذي أشفقه ﷺ على أصحابه إلا مخافة السامة المورثة للانقطاع عن العمل، لأجل ذلك كان هذا الحديث بمثابة معلم من معالم المنهج الشمر لدوام الأعمال ووسمها بالاضطراد، وهو من مقاصد الشريعة كما قررناه آنفاً.

(١) انظر التحرير والتبيير: ١/٢٣٢-٢٣٠. (٢) مدارج السالكين: ١/٤٠.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري. ١٠/٣١٤. (كتاب اللباس باب الجلوس على الحصير ونحوه).

(٤) فتح الباري: ١/٣٠١.

وحسينا في ذلك رسول الله ﷺ، فإن لنا فيه الأسوة الحسنة، فعن عائشة - رضي الله عنها - حين سُئلت: «هل كان النبي ﷺ يختص من الأيام شيئاً؟» قالت: لا، كان عمله دية...»<sup>(١)</sup>.

ولعل السر في طلب إثبات الأفعال على سبيل الاستمرار ذلك الافتقار المتجسد في ضعف المخلوق و حاجته إلى خالقه، وهو أمر فطري، فُطر عليه؛ إذ الإنسان يذنب دائمًا، فهو فقير مذنب وربه - تعالى - غني غفار، ولو لا رحمته ومغفرته - سبحانه - لما وجد الإنسان خيراً أصلًا، ولو لا مغفرته، لما وقى العبد شر ذنبه، وهو يحتاج دائمًا إلى حصول النعمة ودفع النقم، ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمحشرته<sup>(٢)</sup>، كما أن من توابعه «توقيت الشرع وظائف العبادات من مفروضات ومسنونات ومستحبات في أوقات معلومة الأسباب ولغير أسباب»، فإن في ذلك ما يكفي في حصول القطع بقصد الشارع إلى إدامة الأفعال<sup>(٣)</sup>، ولقد قيل في قوله - تعالى - في الذين ترعبوا: «فَمَا رَعَوهَا حَقّ رِعَايَتِهَا» [الحديد، الآية: ٢٧]، إن عدم مراعاتهم لها هو تركها بعد الدخول فيها والاستمرار<sup>(٤)</sup>، فإذا كانت الشريعة قد عرضت بمثل هؤلاء، فإنها قد عيرت المتهاونين عن إثبات العبادات بالكسل، قال - تعالى -: «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يَرَأُمُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَيْلَابًا» [النساء، الآية: ١٤٢]، ولا شك أن الكسل وقلة الذكر مؤذنان بقلة الاكتثار والزهد فيها، وهو تعبير للمنافق كما دل عليه السياق، وكأن هذه الآية مؤشر للفصل بين عبادة المؤمنين وعبادة المنافقين.

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٣٢/٤ (كتاب الصوم، باب هل يخص شيئاً من الأيام).

(٢) الفتاوى: ٤٢/١.

(٣) المواقف: ٥٣٥/٢.

(٤) المواقف: ٥٣٥/٢.

## المبحث الخامس :

### بعض مظاهرها

إن رحابة المفهوم للعبادة - كما أرأينا سالفاً - يشمر لدينا حقيقة تتجلّى في كون العبادة تُهيمن على كل حركات وسكنان المكلف متى استحضرت النية، التي تُعتبر بوتقة تُفرج عبرها الأعمال ليتصل إلى القبول، فبصفتها تخلص العبادة للمعبد، وكم من العاديّات غدت - بفضل النية - عبادات، وأحييلت إلى قربات؛ «لأن الإسلام يريد من المكلف أن يستقيم في أحجزته النفسية أولاً، فإذا توفرت صلاحيتها المنشودة بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فكل عمل ت تعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة الله ... والمسلم يعالج ما يعالج من شؤون الدنيا، وكلما أضفى عليها قدرًا من طبيعة إيمانه وسناء وجهته، تحول ذلك العمل إلى عبادة»<sup>(١)</sup>.

وبناء على هذا أمكن القول: أنه لا طاقة لنا بإحصاء مظاهر العبادة متى علمنا أن العبادة هي تصرفات المكلف حتى يأتيه اليقين.

ويكفينا أن نُعرِّج على بعضها لندرك بعد ذلك أن للعبادة بعداً لا يتناهى عند الشعائر الإسلامية الكبرى من صلاة وحج وزكاة وصيام وغيرها، بل يخرج من هذا المحيط المعلوم ليشمل صغار الأعمال وأتفهها - في حسباننا -، وكم من الأعمال ما تجد فيه النفس حظها ولا تجد فيه أدنى عنت أو مشقة كالأكل والشرب والنكاح، ورغم ذلك يحسب في العبادات متى صحت النية.

«فالإسلام - إذا - قد فسّح مجال العبادة ووسع دائتها بحيث شملت أعمالاً كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها عبادة وقربة إلى الله، إن كل عمل

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٦٥ بتصريف يسير.

اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير لا تصيّد الشاء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون أو يخفف به كربة مكروب أو يُضمنَدَ به جراح منكوب أو يسْدُّ به رقم محروم أو يشدُّ به أزر مظلوم أو يقيل به عشرة مغلوب أو يقضى به دين غارم مثلث أو يأخذ بيد فقير متغلف ذي عيال أو يهدى حائرًا أو يعلم جاهلاً أو يؤوي غريباً أو يدفع شرًّا عن مخلوق أو أذى عن طريق أو يسوق نفعاً إلى ذي كبد رطب فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صَحَّتْ فيه النية، أعمال كثيرة من هذا القبيل جعلها الإسلام من عبادة الرحمن وشعب الإيمان ومبررات المثبتة عند الله، فللعبد أن يضيف إلى ميزان عبادته أشياء عديدة لها ثقلها وقيمتها في تقرير الحق - تبارك وتعالى -، وإن تقالها العبد<sup>(١)</sup>.

### ومن مثل هذه العبادات :

\* الدعاء: فهو عبادة كما رواه النعمان بن بشير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> [غافر، الآية: ٦٠].

ولو تدبّرنا حصيلة يوم العبد وليله، للاحظنا أن الدعاء قد هيمن على أزمنتهما، ولعل الشرع قصد بذلك إلى تحصين العبد تارة، وتذكيره بعبديته أخرى والإبقاء على الصلة بينه وبين خالقه ومن ثم وجدنا الدعاء مسنوناً عقب الصلوات وفي الصباح والمساء وعند النوم والاستيقاظ، وعند ابتغاء قضاء الحاجة، وبعده وعند الطعام والشراب، وبعدهما وعند الدخول إلى البيت والخروج منه. وبالجملة فقد سن الدعاء عند كل شأن من شئون الحياة عظيماً كان شأنه أو حقيراً.

(١) العبادة في الإسلام، ص: ٥٦ - ٥٧ بتصريف بسيير.

(٢) انظر الحديث في مستند أحمد: ٤/٢٦٧، ٢٧٦.

وما هذه الصلة التي يشمرها الدعاء بين العبد والرب إلا عين العبادة... وكل من أعرض عن الدعاء فلم يدع ربه في سراء أو في ضراء فهو من الذين استكروا عن عبادته - سبحانهه -، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ سَيِّدِهِنَّ جَهَنَّمَ دَاهِرِينَ﴾ [غافر، الآية: ٦٠] «فأفاد ذيل الآية التحذير من إبادة دعاء الله»<sup>(١)</sup>.

ولقد حضَّ - سبحانهه - عباده للإقبال على هذا السبب الذي يصلهم به، فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيَسْتَجِبُوا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٦]، ولما لهذه الجملة من شأن وردت في مقام التبليغ، كما أن في ثناياها من البشاره ما يغري العباد ويحفزهم إلى الضراعة إلى الله من أجل نيل مرضاته والفوز بمكرماته.

وتأمل قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَتٍ لِّأُولَئِنَّبِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٠]، فمن هؤلاء؟ إنهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيْمَأْ وَقُوْدَمَا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَنْقَكِرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩١]، فتكون بعد ذلك الشمرة والنتيجة أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء وهو من أعلى وأجل صور العبادة - كما أسلفنا - وليس الأمر على إطلاقه وإنما يتم ذلك متى كانت القلوب عامرة بذكر الله والخوف والخشية منه والرغبة إليه، وكل ذلك للشعور بحاجة العبد إلى المغفرة والعفو، ولذلك أخبر عنهم بقوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِنَطِيلٍ سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩١]، بعد أن تأملوا في خلق الله وأعملوا فكرهم فيه - «والتفكير عبادة عظيمة، فقد روى ابن القاسم عن مالك - رحيمهما الله تعالى - أنه قيل لأم الدرداء، ما كان شأن أبي الدرداء، قالت: كان أكثر شأنه التفكير، قيل له: أترى التفكير عملاً من الأعمال؟ قال: نعم؛ هو اليقين»<sup>(٢)</sup>.

(١) التحرير والتبيير: ١٨٣/٢٤.

(٢) التحرير والتبيير: ١٩٧-١٩٦/٤.

ومن ثم فلا دعاء بالمفهوم الشرعي المعتبر إلا إذا تواطأ اللسان والقلب والفكير للإنتاج الدعاء الجامع بين الظاهر والباطن، فيكون الدعاء حينئذ محسوباً في العبادات.

وكل من اتبع هواه وشهوته، وتولى في طاعته، ثم مضى يسأله - عَزَّ وَجَلَّ - فأدعنته جوفاء نصيبيها من العبد لسانه، وهو من قبيل من تحدث في شأنهم الحديث، فقد روى أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْمَنَ طَبِيْبَتْ وَأَعْمَلُوا صَبَلْحَانَ إِنِّي يَمْكُرُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيْمٌ﴾ [المؤمنون: الآية: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْمَنَ طَبِيْبَتْ مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يدبه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشريه حرام، وملبسه حرام، وغذيه بالحرام، فأنى يستجاب له<sup>(١)</sup>.

\* ومن المظاهر العامة - أيضاً: إصلاح ذات البين: من ذلك ما أخبر به الرسول ﷺ عن الإصلاح بين المتخاصمين فيما رواه أبو الدرداء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حيث يقول: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام؟ قالوا بل يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالة»<sup>(٢)</sup>، وقد فرِعَهُ القرآن عن التقوى التي هي جماع الطاعات، فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْمُنْعَذِرُونَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال، الآية: ١]، فكان أمراً موجباً لإصلاح ذات البين، وليس يسيرًا أن ينال الإصلاح أفضلية أسمى من الصيام والقيام إلا إذا كانت أبعاده خطيرة، وكيف لا وهو الجامع للشتم، اللام للشتات، المقوى للصف، العاصم من الفشل وذهب القوة، ومن ثم اعتبر المصلح وهو يمارس الإصلاح عابداً لله متربعاً إليه، «وجعل ذلك من مقومات

(١) صحيح مسلم: ٣/٨٥-٨٦ (كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها).

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧٥/٧ (كتاب الصلح، ذكر الأخبار عما يجب على المرء من

لزوم إصلاح ذات البين بين المسلمين).

الإيمان الكامل<sup>(١)</sup>

\* ومن مظاهرها إماتة الأذى عن الطريق، وهو ما تحدث به رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال: « بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخذه فشكراً لله له فغفر له »<sup>(٢)</sup> ، وعنده - أيضاً - عن النبي ﷺ: « يحيط الأذى عن الطريق صدقة »<sup>(٣)</sup> ، وتجلى العبادة في مثل هذا التصرف؛ لأن الفاعل « تسبب إلى سلامته من يمر به من الأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فحصل له أجر الصدقة »<sup>(٤)</sup> ، ولا يخفى ما فيه من تحقيق الإيمان وذلك بحب الخير للآخر، ومن هنا احثيست إماتة الأذى من شعب الإيمان كما نطق بذلك الأحاديث.

\* ومن مظاهرها - أيضاً - عيادة المريض وصلة الإخوان، ففي الترمذى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « من عاد مريضاً أو زار أخيلاً له في الله، ناداه مناد أن طبت وطاب مشاك، وتبوأ من الجنة منزلًا »<sup>(٥)</sup> ، فلم يبق نيل المنازل في الجنات والظفر بالمحكمات موقوفاً على إتيان الشعائر المشهورات، بل فاق ذلك ليشمل بذلك الصلات لتوثيق عرى الحبات وإدخال المسرة على من حلّت بهم النكبات.

\* ومن مظاهرها - أيضاً - هذا الاسترزاق الذي يمارسه العبد، فهو عمل معدود في العبادات، ولقد وجدنا القرآن يخلع عليه تسمية جميلة توحى برضاء الله على الساعي

(١) التحرير والتنوير: ٢٤٧/٩ بتصريف يسيراً.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١١٨/٥ (كتاب المظالم، باب ما أحذ الغصن وما يؤذى الناس في الطريق فرمى به).

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١١٤/٥ (كتاب المظالم، باب إماتة الأذى).

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١١٤/٥ (كتاب المظالم، باب إماتة الأذى).

(٥) سنن الترمذى: ٢٤٦/٣ (أبواب الصلة والبر، باب ما جاء في زيارة الإخوان)، وانظر سنن ابن ماجة ٤٦٤/١ (كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً).

فيسميه الحق الاتقاء من فضل الله، قال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَإِذَا فُحِشِيَتِ الْصَّلَاةُ فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة، الآية: ١١]، بل ونجد الضارب في الأرض لأجل الاكتساب قد رفعه الله مقاماً علياً حيث يجعله هو والمجاهد سواء، قال - تعالى - : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ﴾ [الزلزال، الآية: ٢٠]، وذلك - والله أعلم - لما للفريقين من الإسهام في الصالح العام، فذاك في مجال الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش من تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك، وهذا في حراسة الثغور والرباط بها وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام، وهما من شعون الأمة ولذلك سُئِلَ يسراً فنهما فنوه بالمكتسب، وقد روى عن عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: «أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مداين المسلمين محتسباً فباعه بسعر يومه، كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَيِّلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> [الزلزال، الآية: ٢٠]، على أن هذه المنقبة التي حيزت للمكتسب لا ينالها حتى يعصم عمله ذلك مما من شأنه أن يصيره دنيوياً صرفاً، ومن هذه الشروط العامة.

أن يكون العميل مشروعاً.

هـ أن يكون مقرتنا بنية صادقة تشر القصد إلى نفع المجتمع وعمارة الأرض.

\* أن يكون العمل متقناً - وهو المكتوب في كل شيء - فعن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال: ثنان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء. الحديث<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> انظر التحرير والتنوير: ٢٨٥-٢٨٦ بتصريف.

(٢) صحيح مسلم ٧٢/٦ (كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح).

\* ألا يزاحم ذلك العمل الواجبات الدينية الأخرى فيشغل صاحبها عنها أو يطئه عن القيام بها<sup>(١)</sup>.

فمتى تتحقق طلب العاش بهذه الشروط، تُعد عبادة واعتبر عامله من العابدين.  
وحسبي أن أكون قد أدرجت في هذه المظاهر العبادية أمثلة جمعت بين أعمال القلوب والجوارح كما أنها حوت من المظاهر ما يعود على العبد نفسه وما يعود على محطيه.

\* \* \*

(١) انظر العبادة في الإسلام، ص: ٦١ - ٦٢، بتصرف.



## المبحث السادس :

### المثل الأعلى في العبادة

لقد أتى علينا حين رأينا فيه كيف أن هذا الكتاب يروم في دعوته إلى إخراج الإنسان النموذج، الإنسان الفذ، الإنسان السوي.

ومتنى نبتت هذه العينة في أرضية المجتمعات، أثمرت التواصي بالحق المنطوق به في سورة العصر المحق لديمومة الدين.

والإخراج على هذا النمط يستلزم بناء الإنسان ببنيانا ربانيا يتجلى ذلك في خلقه وروحه وفكره، وكل هذه الأصول كائنة في تلك الزمرة المصطفاة من عباده المرسلين؛ إذ **إِذْ أَهْمُوا** كيف يسلكون السبيل الموصلة إلى الله؛ لذلك فهم أعلام وأئمة وهداة يقتدى بهم ويهدى بهداهم.

وبحسب الناظر في آيات الله المسطورة أن يستعرض منها ما يوقفه في مضامينها على مناقب هؤلاء وفضائلهم؛ وقتهم في دين الله، وعبادتهم التي لا تضاهى.

كل ذلك الحق - تعالى - يخلع عليهم ألقابا خصوا بها وبوأتهم مكانا علينا إعلاما لعباده أنهم الأسوة.

\* فینعتهم مرة بالمصطفين الأخيار فيقول - عز وجل - : **﴿وَذَكْرُ عِنْدَنَا إِنْزَهِيمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْآيَدِيِّ وَالْأَبْصَرِ ﴾** [٤٥] **﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالصَةِ ذَكْرَى الَّذَارِ** [٤٦] **وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَينَ الْأَخْيَارِ ﴾** [٤٧] **وَذَكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلُّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾** [٤٨] [ص، الآيات: ٤٤-٤٥]، فتمعن في قوله: **﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالصَةِ ذَكْرَى الَّذَارِ ﴾** [٤٩]؛ لتقف على أنه «عملة للأمر بذكرهم؛ لأن ذكرهم يكسب الذاكر

الاقداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير<sup>(١)</sup>، كما أن في «إسناد الإخلاص إلى الله - تعالى» - ما يدل على أن ذلك يجعل منه خاص به وعناية لذاته بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير الحض<sup>(٢)</sup>، ومرة ينعتهم بكونهم عابدين لربهم ومن ذلك ما ورد في سورة: «الأنبياء» بعد أن أتى على ذكر طائفة منهم، فقال - عَزَّ وَجَلَّ -:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِمَا مَرَأَوْنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَ الْخَيْرَاتِ وَلَقَامَ الْمَسْؤُلَةُ وَلِسَاءَ الْزَّكُورُ وَكَانُوا لَكَ عَنِيدِينَ﴾ [الأنبياء، الآيات: ٧٣]

وأي جعل أشرف من جعلهم أئمة يقتدي بهم في الدين، فهي المنزلة التي لا يرقى إليها إلا من كان حظه من صفا النفس عظيماً إلى درجة تصير الهدامة محتممة عليه كما قال في الكشاف - عند التععرض لتفسير هذه الآيات -: «فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهدامة محتممة عليه مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتناول عنها»<sup>(٣)</sup>؛ ولذلك فهم سباقون في فعل الخيرات التي خصّ منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تنويعها بشأن هاتين العابدين وتعظيمها لوظيفتها التي تتركى النفس ظاهراً وباطناً.

«وما وصّفوا به - أيضاً - صفة الإحسان التي تدل على ارتقاهم في العبودية، قال - تعالى - في حق نوح - عليه السلام -: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَلَيْنَ﴾ [٧٦] إِنَّا كَذَلِكَ نَعْزِي الْمُحْسِنِينَ [٨٠] [الصفات، الآيات: ٧٩-٨٠]، وفي حق إبراهيم: ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَعْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨١] [الصفات، الآيات: ١١٠-١١١]، وفي حق يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، الآية: ٢٢]، وفي حق موسى وهارون: ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى﴾ [٨٢] [الصفات، الآيات: ١٢١-١٢٢]، وهكذا يشي - سبحانه - على أنبيائه بهذا الوصف الذي «هو الإيمان الخالص المفسر في قوله ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/٢٧٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٣/٢٧٦.

(٣) الكشاف: ٥٧٩ - ٥٧٨/٢.

تراء فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(١)</sup>.

وعن رسول الله ﷺ الذي تحدث عن نفسه، فقال: «أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له»<sup>(٢)</sup> ، يتحدث القرآن - أيضاً - يقول - تعالى -: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾» [القلم، الآية: ٤] ، قال ابن عاشور - رحمه الله -: «واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن، هو التدين ومعرفة الحقائق وحلم النفس والعدل والصبر على المتابع والاعتراف للمحسن والتواضع والزهد والغفوة والجود والحياء والشجاعة وحسن الصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن المعاملة والمعاشة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله وفي سياساته وأمته وفيما خُصّ به من فصاحة كلامه وجوامع كلامه<sup>(٣)</sup> ، والأية تبين في رسول الله ﷺ تلك السجية المنعوتة بالعظمة التي أريده منها - والله أعلم - أن تسير أمته على منهاجه وأن تروم التشبه به في عبادته؛ لأنّه النموذج الأكمل.

وحسيناً أن نقف عنده لننظر عبديته على مستوى العقيدة والممارسة.

\* أما على مستوى العقيدة، فقد ترسم ﷺ خطى إخوته الأنبياء والرسل الذين أعلنوا عبديتهم وأنكروا ذواتهم فأفصحوا عن ذلك بلسان الحال والمقال، فهذا عيسى عليه السلام - يعلن كذب من كفر من النصارى، وذلك في قوله - تعالى -: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَنْخَذُونِي وَأَنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيَسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمُ الْغَيْوبِ ﴿١١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَقْتَ بِهِ

(١) انظر صحيح البخاري بشرح الباري: فتح الباري: ٨/١٣٥ (كتاب التفسير، باب إن الله عنده علم الساعة) وصحيف مسلم (كتاب الإيمان) وانظر التحرير والتنوير: ٢٢٧/٢٣.

(٢) انظر صحيح مسلم ٣/١٣٧ (كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته).

(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/٦٤ - ٦٥.

أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّ وَرَبِّكُمْ ﴿الْمَائِدَةُ، الآيَةُ ١١٦، ١١٧﴾ [الآية: ١١٦، ١١٧]، فتضمنت هذه الجملة تنزيه الله تعالى - عن مضمون تلك المقالة، وكانت المبادرة بتنزيه الله أعلم من تبرئته نفسه من أن يرقى إلى مقام الإلهية، وتم التنصيص على عبديته - عليه السلام - في قوله - عز وجل -: ﴿لَمْ يَسْتَكِفْ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونُ﴾ [النساء، الآية: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ فجعل غايتها العبدية لا الإلهية كما يدعوه النصارى. وعن داود يقول - تعالى -: ﴿وَادْكُنْ عَبْدَنَا دَاؤِدَ﴾ [ص، الآية: ١٧]، وعن أيوب قال: ﴿وَادْكُنْ عَبْدَنَا أَيُّوب﴾ [ص، الآية: ٤١]، وعن إبراهيم قال: ﴿وَادْكُنْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [ص، الآية: ٢٥]، وعن سليمان قال: ﴿فَقَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّلُ﴾ [ص، الآية: ٣٠].

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَحَدَّثُ الْكِتَابُ فِي صِفَةِ الْعَبْدِيَّةِ فِي مَقَامَاتِ شَتَّى، قَالَ تَعَالَى - ﴿لَهُمْ لَهُمْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَّا عَبْدُهُ الْكِتَابُ﴾ [الْكَهْفُ، الآية: ١]، فَذَكَرَهُ بِالْعَبْدِيَّةِ فِي مَقَامِ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَقَالَ - تَعَالَى - ﴿وَأَنَّمَا لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ [الْجِنُّ، الآية: ١٩]، فَذَكَرَهُ بِالْعَبْدِيَّةِ فِي مَقَامِ الدُّعَوَةِ، وَفِي مَقَامِ الْإِسْرَاءِ - الَّذِي أُرِيدَ بِهِ التَّشْرِيفُ وَالْمُوَاسَةُ - قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لِيَلْتَمِسَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَرَّكَنَا حَوْلَهُ لِتُرِيكُمُ مِنْ مَا يَنْهَا﴾ [الْإِسْرَاءُ، الآية: ١].

بل قد ألقينا من النصوص الحديثية، ما دلَّ على أنه عَزَّوَجَلَّ كان يجتهد في تحقيق عبديته معيًا عن ذلك بلسانه، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - سمع عمر - رضي الله عنه - يقول على المنبر: «سمعت رسول الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup>، وذلك حتى لا تقع أمتهم فيما وقع فيه النصارى من قبل.

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤٧٨/٦ (كتاب الأنبياء، باب قول الله: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها...).

\* وأما على مستوى العبادة والممارسة للشعائر الشاهدة على العبدية والطاعة والخصوص فإن أول ما يطالعنا - قبل الشروع فيها - ذلك النداء الذي ناداه الرسول ﷺ في قومه - ياذن من ربه - قائلا له: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ﴾ [الكافرون: ١]، إنها المفاصلة التامة والمثاركة المعلنة من قبله ﷺ الدالة على تبيين أولئك من أن «يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال»<sup>(١)</sup> ، وهذا الثبات على المبدأ إذان في السير على الهدى وطاعة لقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: الآية: ١١٢]، فكانت الشمرة أن رأينا النبي ﷺ نموذجاً في الاستقامة في المنشط والمكره وهي النصيحة التي أسدتها للسائل حين سأله قائلاً: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم<sup>(٢)</sup>.

لقد كان ﷺ الأول في كل أمر، في عبادته، في ذكره، في دعائه، ولم تكن هذه العبادة مجرد امثال لأمر، بل كانت تبعث من قلب محب لمعبوده، حتى إنه إذا اقترب وقت الصلاة تشوق إليها وحْنَ، وما أن يحين وقتها حتى يقول لمؤذنه: «يا بلال أرحنا بالصلاحة»<sup>(٣)</sup> ، إنها صلاة الحب لا مجرد صلاة الأمر؛ لذلك كان يجد فيها نفسه وقرة عينه، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: «محبب إليني من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة»<sup>(٤)</sup>.

(١) التحرير والتبيير: ٣٠/٥٨٠.

(٢) صحيح مسلم: ١/٤٧ (كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام).

(٣) مسنـدـ أـحمدـ ٥/ـ ٣٦٤ـ .

(٤) سنـنـ النـسـائـيـ بـشـرـحـ الـحـافظـ السـيـوطـيـ وـحـاشـيـةـ الـإـمـامـ السـنـدـيـ ٧/ـ ٦١ـ (كتـابـ عـشـرـةـ النـسـاءـ، بـابـ حـبـ النـسـاءـ)، وـانـظـرـ مـسـنـدـ أـحمدـ ٣ـ ١٢٨ـ وـ ١٩٩ـ .

كان يصلّي الصلوات الخمس في ميقاتها بخشوعها وركوعها وسجودها وإسباغ وضوئها، وما كان يكتفي بها، بل كانت له صلوات يصلّيها من الليل يقف ويطيل فيها الوقوف حتى تنور قدماه، فعن حذيفة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «صلّي مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلّي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتح النساء فقرأها ثم افتح آل عمران فقرأها، يقرأ مسترسلاماً، إذا من الآية فيها تسبيح، سبح، وإذا من بسؤال سأله، وإذا من بتعوذ تعوذ»، ثم رکع فجعل يقول سبحان رب العظيم فكان رکوعه نحوه من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريباً مما رکع، ثم سجد فقال: سبحان رب الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه<sup>(١)</sup>، ولقد كان من أصحابه من هو أصغر منه سناً ثم لا يطيقون مثل هذه الصلوات حتى إن عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حدث مرة، فقال: «صلّي مع النبي ﷺ ليلة، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء، قيل: ما هممت؟ قال: هممت أن أجلس وأدعيه<sup>(٢)</sup>»، وحين سأله عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مشفقة عليه من طول القيام - لم تصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلأكون عبداً شكوراً<sup>(٣)</sup>، هكذا كانت صلاته فرضاً ونفلاً أما صيامه، فكان إذا أقبل شهر الصيام، دارسه جبريل القرآن فكان أجود بالخير من الربيع المرسلة.

أما إذا دخلت العشر الأواخر شد مئزره وأحيى ليه وأيقظ أهله.

واعتكف في المسجد معتزاً - عزلة مؤقتة - شواغل الحياة تبعداً لله - تعالى -، وفي هذه العشر يحيى الليل كله ويوقظ أهله لأجل أن يشاركه هذا المعلم، روت أم سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنه استيقظ ليلة فقال: سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتنة، ماذا

(١) صحيح مسلم ١٨٦/٢ (كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل).

(٢) صحيح مسلم ١٨٦/٢ (كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل).

(٣) متفق عليه.

أنزل من الخرائن، من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة<sup>(١)</sup>.

وفي غير رمضان كان النبي ﷺ يصوم حتى يقال: لا يفتر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وأحياناً يواصل الصيام، وينهى أصحابه عن الوصال رفقاً بهم فيقولون: إنك تواصل يا رسول الله، فيقول: «وأيكم مثلِي؟ إني أبْيَتْ يطعمني ربي ويُسقيني»<sup>(٢)</sup>.

هذه لحمة عن الرسول ﷺ عابداً لربه، وإن في الحديث عن هذا الجانب الرباني من سيرته - جانب الذكر والشكراً وحسن العبادة - الشيء الكثير وصدق الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَشْوَأُ حَسَنَةً لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكْرُ اللَّهِ كَيْرًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٢١].

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٠/٣ (كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والتراويف من غير إيجاب).

(٢) متفق عليه.



## المبحث السابع :

### من ثمرات العبادة

#### المطلب الأول :

##### التقوى

لا ريب أن التقوى من أعظم مقاصد العبادة؛ إذ بها يقدر المكلف على حجب نفسه عن وقوعها في أتون المعاصي، كما أنها تعتبر الحافر للنفس على التحرر من الخلود إلى الأرض، والسمو في علية أفعال البر بشتى الصور والمظاهر.

فمدار الأعمال على زاد التقوى، فمتي كان مردود العبادة من التقوى هزلاً، كان القصد الذي من أجله شرعت هذه العبادة لم يتحقق، ومن ثم تكون العبادة وكأنها لم تمارس قط.

ولنتأمل قوله - عز وجل -: **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** [العنكبوت، الآية: ٤٥]؛ فتفعيل الأمر بإقامة الصلاة للإشارة إلى ما فيها من صلاح النفس، لأنها تيسر للمصلني ترك الفحشاء والمنكر لما فيها من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلني كالواعظ المذكور بالله - تعالى -: «ففيها من الأقوال تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهدایة منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر للتعرض إلى مرضاة الله

والإفلال عن عصيانه، وما يفضي إلى غضبه، وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر<sup>(١)</sup>، قال ابن عطية - رحمه الله - مبرزاً القيود التي تحيل الصلاة إلى تقوى -: «وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله، صلحت بذلك نفسه وخارمرها ارتقاب الله فاطرد ذلك في أقواله وأعماله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يكدر يفتر من ذلك حتى تظلله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، فهذا معنى هذا الإخبار، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون... ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاصي تبعده من الله، ترکه صلاته يتمادي على بعده»<sup>(٢)</sup>، فليسقصد - إذا - من العبادة أشباحها وإنما روحها المتجسد في الإخبات والتذلل والخضوع بين يدي الله - عز وجل -، وهي الحقيقة التي حدثنا بها رسول الهدى، حين قال - عليه الصلاة والسلام -: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»<sup>(٣)</sup>، «فالصوم وسيلة إلى الطاعات وزجر عن المعاصي»<sup>(٤)</sup>، فليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطهير النفس الأمارة بالسوء، وهو ما ينته الآية في قوله - عز وجل -: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ» [البقرة، الآية: ١٨٣]، و قريب من هذا قوله - عز وجل -: «لَمْ يَنَالَ اللَّهُ حُوْمَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَدَكُنْ يَنَالُهُ الْفَقْوَى مِنْكُمْ» [الحج، الآية: ٣٧]، «فإراقة الدماء وتنطيط اللحوم ليسا مقصودين بالبعد، ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا الذي هومن مقاصد

(١) التحرير والتنوير: ٢٥٩/٢٠.

(٢) المحرر الوجيز: ١٢/٢٢٥، ولعل تعيره بلفظ الإجزاء وعدم الاعتداد بالخشوع، إنما هو من قبيل التجوز إذ إن صحة الصلاة تقتضي إشراك الخشوع بلا ريب.

(٣) صحيح البخاري بشرح الباري: ٤/١١٦ (كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم).

(٤) أنوار التنزيل: ١/٢١٥.

الشرع<sup>(١)</sup> فمتهى لم تنتج العبادة التقوى، ظلت في عداد العادات وهو ما تفسره سلوك بعض الأفراد. وما قيل في هذه العبادات المذكورة يقال في جميعها؛ إذ الأمر عام لا يقتصر على صلاة ولا صوم ولا نسك.

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### الحصانة الربانية من الشيطان الرجيم

لا يزال هم الشيطان الإيقاع بالمكلف في الفحشاء والمنكر، قال - تعالى - ﴿إِنَّمَا يُأْمِنُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٦٩]، وقال - عز وجل - : ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور، الآية: ٢١]، فهو سoste بخواطر شريرة واتصاله بالنفس البشرية يقذف فيها السوء والفحشاء.

ومتي أرسل العبد المكلف نفسه في اتباع هذه الخواطر ولم يردعها فيتصدّها عما تريده أن تبعد من دون الله، انقادت هذه النفس وصارت مرکوب الشيطان ترى حسنا ما ليس بالحسن.

ورحمة بالعبد، أودع الله فيه العقل المميز، والقدرة والإرادة، وكمل ذلك كله بالهدي الديني قال - تعالى - : ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن، الآية: ١١]، يهد قلبه بالهدي الكامل؛ إذ هو هدى متلقى من الحق، فهو عصمة لمن اعتمد به، وهو عون على قهر النفس عن حضوظ الشيطان.

فلا وسيلة للحفظ إلا بالعبادة الخالصة، العبادة الخالية من كل حظ سوى حظه - تعالى - فهي الجنة والوقاية من مكائد اللعين.

وحيث أقسم على الإغواء والتزين كما حكاه القرآن في قوله - عز وجل - : ﴿فَيَعِرِّزُكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، الآية: ٨٢]، وقال - تعالى - : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزْتَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر، الآية: ٣٩]، أردف ذلك بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَاصِّينَ﴾ [ص، الآية: ٨٣]، وهم الذين شرّفوا بقوله - تعالى - :

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر، الآية: ٤٢]، الذين كبحوا أنفسهم عن الشر، وأيقنوا أن الهدى في مخالفة سبيل الشيطان، فحملوها على اختيار هذا الهدى، وصرفوا إليه عزمه القوي، ومن ثم لم يكن الشيطان ليسلط عليهم؛ لأنهم غدوا مخلصين، مطهرين، مهينين لفعل الخيرات، قال الإمام الغزالى - رحمه الله -: «ومهما غالب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً فوسوس، ومهما انصرف إلى ذكر الله - تعالى -، ارتحل الشيطان، وضاق مجاله، وأقبل الملك وألهم. ومبدأ استيلائها - أي الشياطين - اتباع الشهوات والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان، وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله - تعالى - الذي هو مطرح أثر الملائكة.. فكل من اتبع الهوى، فهو عبد الهوى لا عبد الله؛ ولذلك يسلط الله عليه الشيطان ولا يمحو وسوسته من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسم به»<sup>(١)</sup>.



### المطلب الثالث :

## الاستخلاف والتمكين والأمن

وهي من الوعود الذي وعد الله به عباده الصالحين.

والأساس في كفالة الله لهم ذلك، هو العبادة، ومن ثم تطالعنا كثير من الآيات التي تنطق بالموعد من رقي في هذه الحياة الدنيا وتمكين لهم فيها ما استقاموا على منهجه وتحمروا حول الإسلام وعقيدته.

قال الله - تعالى -: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُنْسَتَهُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمُكَثِّنَنَّهُمْ كَمَّ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْتَضَنَّ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِِي شَيْئًا﴾** [النور، الآية: ٥٥].

وأحسب أن هذه الآية العظيمة تشكل نقطة التقاء بين سياسة الدنيا وحراسة الدين - وهو المفهوم الجامع للعبادة - وإن فعجب لأولئك المفسرين الذين ضيقوا مسالك الآية فأوقفوها على زمان بعينه وأشخاص بأعينهم<sup>(١)</sup> ، والأمر أجل وأعظم، والله در ابن عطية الذي عمم الآية في محرره، حيث قال: «هذه الآية عامة لأمة محمد ﷺ»<sup>(٢)</sup> ؛ إذ إنها تحمل في ثناياها عناصر تشكيل أمة بارزة، أمة عليها لبوس الخيرية الموعودة مع بيان التربiac المؤثر من أجل هذا الإخراج؛ المتمثل في إخلاص العبادة لله وحده - إذ الوعود الذي وعد الله به، يجري في حال عبادتهم إياه - «العبادة

(١) انظر على سبيل المثال ما ذكره ابن العربي - رحمه الله - في كتابه: الأحكام ١٣٩٣/٣، وما نقل ابن عطية في المحرر الوجيز عن الضحاك ٣٢١/١١، وما نقله - أيضاً - صاحب التحرير والتنوير

.٢٨٥/١٨

(٢) المحرر الوجيز: ٣٢١/١١

التي تستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته وحركات جسمه، ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه، في أهله والناس أجمعين.

يتوجه بهذا كله إلى الله... وذلك هو المتمثل في قوله - تعالى - تعليلًا للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ إِنْ شَيْئًا﴾ [الغور، الآية ٥٥]، والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله<sup>(١)</sup>.

هذا الجزء الذي تجلّى في مجموعة من العناصر المكونة لإخراج الأمة المرتقبة ومنها:

**أ - الاستخلاف في الأرض :** وحقيقة الاستخلاف « لا تعني مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق النهج المرسوم للبشرية من قبل الله كي تسير عليه، وتصل عبره إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق ب الخليقة أكرمها الله ... فالاستخلاف - إذا - قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارك الحيوان »<sup>(٢)</sup>.

**ب - النصرة والتمكين :** لأن بانتشار الإسلام - وهو الذي يلزم من الاستخلاف - يترسخ ويثبت، ولا يخشى عليه بعد ذلك، فيصير المهيمن على الأرض بما أودع فيه من أمر بالإصلاح وأمر بالعدل وأمر بالاستعلاء عن كل الشهوات.

فيعظم سواد متبوعه لموائمه للفطر، وحينها لن يجد الخارجون عنه إلا الاستسلام طوعاً أو كرهاً، فتغدو كلمة الله هي العليا وكلمة من أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم السفلية.

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٥٢٩، ٢٥٣٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٥٣١ بتصرف بسيير.

ج- إحلال الأمان والطمأنينة في القلوب : وهذا العنصر ثالث الثلاثة المؤسسة لسعادة الأم بلا ريب، ومتى تغيب لم تظفر إلا بنكد حياة واضطراب أحوال وإنذار بالزوال، لذلك كان الأمان وكأنه التاج المزين لهذا الظهور، ولا يزال - سبحانه - يمتن على عباده بهذه النعمة مبرزاً أسباب منحها لعباده وأسباب إمساكها عنهم، فيقول - تعالى - ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَّةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل، الآية: ١١٢]، فكان صنيعهم ذلك التجسد في الكفر بالنعم الناجم عنه الإفساد، هو سبب انقلاب حالهم من الدعة وهدوء البال والأمن على الأبدان والأنفس إلى الخوف وزوال الطمانينة، ولو أنهم آمنوا واتقوا وعبدوا الله - كما أمر - حق العبادة، لما حل بهم ما ذكر، ولكنهم نسوا حظاً مما ذكروا به.

ونظير هذا، قوله - تعالى - ﴿فَلَيَبْعَدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ⑩ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش، الآيات: ٣، ٤، ٥]، حيث يوجه الحق - سبحانه - تعالى - تعليلاً للأمر بتوحيدهم له بخصوص نعمة الأمان: من الجوع ومن الخوف فهما أمان من الأهمية بمكان؛ إذ بهما قوام بقائهم واستقرارهم.

\* \* \*

## المبحث الثامن :

### دواعي الاستكبار عن عبادة الله وعاقبة ذلك:

#### المطلب الأول :

#### من دواعي الاستكبار

##### ١- الجهل :

وهو الذي حسر بصائرهم أن يدركونا دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم وسمع، فكان حظهم - لجهالتهم - أن تدلوا في حضيض عبادة الأصنام قال الله - عزّ وجلّ - حاكينا جهلاً القوم إلى درجة أن أطمعهم في صرف النبي ﷺ عن عبادة الله - قل لهم: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْمًا الْجَهَلُونَ﴾ [ الزمر، الآية: ٦٤ ]، فتعتمد بالجهل المطلق؛ لأنَّه صار لهم سجية وطبعاً، لا يفقهون شيئاً، فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا، ولما دعوا النبي إلى اتباع شركهم.

\* كما أن المقوله وردت على سبيل الإنكار؛ لذلك عرّض بهم لحسابهم أن عبادة الله وحده تحمل المساومة<sup>(١)</sup>.

ويكشف القرآن عن مأئتي هذا الخلل، فيقول - تعالى - : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [ الزمر، الآية: ٦٧ ]، فأني لهم أن يعبدوه حق عبادته وما يقدروه حق قدره؟ وأنني لهم أن يوحدوه ويعظموه ولما يستشعروا جلاله وقوته؟

(١) انظر التحرير والتنوير: ٥٦/٢٤

فمأtoi عماهم هو جهلهم بربهم إلى أن أشركوا به ذلك الإشراك المبتكر زيادة في التقرب إلى الله - على حد زعمهم - لأنهم هم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ مُلْفَخَ﴾ [الزمر، الآية: ٣٠].

## ٤- اتباع الهوى :

وما اتبع الهوى وما تسوله الأنفس دون طلب للحق وتفهم للدلائل ما ذلك إلا لون من ألوان الجهل إلى أن غدا الأمر من الموروثات، يوارثه القوم خلفاً عن سلف، قال - تعالى -: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوِي أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبِرُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٨٧]، فعجيبة من طغيان القوم وإباحتهم لدعوة الرسل، و مقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة يتساوي فيها الخلف والسلف، مما دلَّ على استحكام الهوى في الأنفس، ومن ثم انحدارهم في الخلاعة والتصميم على الضلاله<sup>(١)</sup> . وم رد ذلك كله، منهاهم عن العلم، قال - تعالى -: ﴿وَكُلُّ أَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم، الآية: ٢٩]، فغزا ذلك الاتباع إلى غياب المعرفة، فصار الأمر شناعة؛ إذ إنه شهوة مع جهالة<sup>(٢)</sup> .

ويلاحق القرآن المتبعين لأهوائهم وما تملئه إرادتهم من ميل إلى الفساد، فيخبر عنهم أنهم أضلُّ الخلق، قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ يُغَيِّرُ هُدًى مِنْ أَنْهَاكُهُ﴾ [القصص، الآية: ٥٠] وهو الحق، فلا أحد أشد عمامة وضلالاً من الذين ركبوا سبيل الهوى والشهوة ورغباً عن سمت الحق حتى إن حالهم تناهى لأن ينقلب هذا الهوى المتباع إليها. قال - تعالى -: ﴿أَنَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا هَوَاهُ﴾ [المائدة، الآية: ٢٣]، وهي حال تنبئ عن كونهم أُشْرِبُوا في قلوبهم الهوى بسبب جهلهم وكبرياتهم.

(١) التحرير والتنوير: ٥٩٥ / ١ بتصرف.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٨٨ / ٢١.

### ٣- التقليد الأعمى :

ويستخلص من خلال ذلك الرفض العنيف والإبادة القوية لقبول دعوات الرسل التي لم تجد سوى أجوة فيها ما يبيئ عن ضياع صوت الدعوة في جنب ضلالة عقول ومكابرة نفوس هؤلاء، فعن هود وقومه يقول - تعالى -: **﴿وَلَئِنْ عَادُ أَخَاهُمْ﴾** **﴿لِنَعْبُدُ اللَّهَ وَهُنَّمُ وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ مَابَاوْنَا﴾** [الأعراف، الآية: ٧٠]، وعن شعيب وجواب قومه له يقول: **﴿يَسْعَيْتُ أَصْلُونُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْبُدُ مَابَاوْنَا﴾** [هود، الآية: ٨٧]، كما يخبرنا عن صالح وقومه فيقول: **﴿وَلَئِنْ شَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾** إلى قوله: **﴿أَنْتَهَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ مَابَاوْنَا﴾** [هود، الآيات: ٦٢، ٦١]، ثم يحكي القرآن الكريم حال النبي ﷺ وقومه وذلك في مثل قوله - سبحانه -: **﴿وَلَدَا نُلَّى عَلَيْهِمْ أَيْنَا يَتَنَتَّ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُصْدِكُّ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ مَابَاوْكُمْ﴾** [سبأ، الآية: ٤٣].

فالردود كلها مبتدرة بالإإنكار، بل التوبيخ، وهي من الأغراض التي تتوخّوها في محارراتهم ومناوراتهم حتى يثبتوا للرسل إرادة صدهم عن دين الآباء والأجداد، وقصدهم من ذلك إثارة الحمية في بعضهم البعض؛ إذ جعلوا آباءهم أهل الرأي السديد فلا يرون إلا حقاً، ولا يفعلون إلا صواباً، فلا جرم أن يكون الصادون عن طريقهم يحاولون الباطل والكذب - في زعمهم - <sup>(١)</sup> ، قال ابن عاشور - رحمة الله - عند تفسير قوله - تعالى -: **﴿يُرِيدُ أَنْ يُصْدِكُّ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ مَابَاوْكُمْ﴾** أن فعل «كان» إشارة إلى أنهم عدواً أن تلك عبادة قديمة، وفي ذلك إلهاب لقلوب قومهم، وإيغار لصدرهم ليتألبوا على الرسول ﷺ ويزداد تمسكاً بدينهم <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٢.

## ٤- الطبع على القلوب :

وهو المعبر عنه في القرآن بقوله - عَزَّ وَجْلُ - : ﴿سَأَصِرُّ عَنْ مَا يَتَّقِيَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الأعراف، الآية: ١٤٦]؛ وذلك لأن الكبائر صار جبلة أرداهم في الإعراض عن الآيات البينات، وكان هذا الإعراض منهم كأنه صرف تكويني في نفوسهم فَرِينَ على قلوبهم بذلك، قال الحسن - رحمه الله - : «إن من الكفار من يبالغ في كفره وينتهي إلى حد إذا وصل إليه، مات قلبه»<sup>(١)</sup> ، وقال ابن جرير - رحمه الله - : وقد عمَ الخبر أنه سيصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حَقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار بها مصروفون؛ لأنهم لو وَفَّقُوا لفهم ذلك، فهدوا إلى الاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنـه - جل ثناـهـ - قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ مَا يَعْمَلُونَ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف، الآية: ١٤٦]، فلا تبديل لكلمات الله<sup>(٢)</sup> ، « فهو حتم منه - تعالى - على هذه الطائفة، وذلك بسبب كفرهم، وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج»<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٢.

(٢) جامع البيان: ٩/٦٠.

(٣) المحرر الوجيز: ٧/١٦٢.

## المطلب الثاني :

### عاقبة الذين استكروا

فعمتى جعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه غروراً وإعجاباً، وحملها بذلك على غمط حق الله وترفع من فعل هذا بنفسه، فالعقاب أحق به والنار أولى به؛ لأنه عدا قدره قال - تعالى -: **﴿وَمَن يَسْتَكْفِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَخْرُشُهُ إِنَّهُ جَمِيعًا﴾** [النساء، الآية: ١٧٢]، وقال - تعالى -: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَسْتَكَفُوا وَأَسْتَكَبُرُوا فَيَعْذَبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَحِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾** [النساء، الآية: ١٧٣]، وقال - تعالى -: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَيْنِنَا وَأَسْتَكَبُرُوا عَنْهَا لَا نُفَجِّعُ لَهُمْ أَبْوَابُ الْسَّلَامِ﴾** [الأعراف، الآية: ٤٠]، وقال - تعالى -: **﴿فَالْيَوْمَ نُحْزِنُهُمْ عَذَابَ الْهُنُونِ بِمَا كُثِرُ تَسْتَكِبِرُونَ فِي الْأَرْضِ إِغْرِيْقَ الْحَقَّ﴾** [الأحقاف، الآية: ٢٠].

والمتأمل لآيات الجزاء المعد لمن أعرض عن عبادته - تعالى -، سيلاحظ أن من مكوناته الحشر المنبع بالتخييف والبراءة منه وخذلانه والعذاب الأليم الدائم.

\* \* \*



## المبحث التاسع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

القاعدة الأولى :

﴿إِنَّ صَلَاقِي﴾ ﴿شَرِيكَ لِهِ﴾ [الأعراف: الآيات، ١٦٤، ١٦٥].

### المطلب الأول :

#### بعض مظان ورودها في القرآن

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴽ٥﴾ [الفاتحة، الآية: ٥].

◦ قوله - تعالى - : ﴿مِنْهُمْ أَنْفَقُوا مِنْ أَنْفَقَ اللَّهُ أَنْفَقَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا أَنْفَقُوا وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْدُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٨].

◦ قوله - تعالى - : ﴿وَقُلْ أَتَحَاجُجُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَغْمَلْكُمْ وَنَخْنُ لَهُ مُعْلَصُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٩].

◦ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الظَّفَارِيَنَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَحْدَدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴽ١٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴽ١٧﴾ [آل عمران، الآية: ١٤٦-١٤٧].

\* قوله- تعالى:- **﴿وَأَقِمُوا وُجُوهَكُمْ عَنَّدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾** [الأعراف، الآية: ٢٩].

\* قوله- تعالى:- **﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَقِ وَجَرَيْتُمْ بِهِمْ يُرِيجُ طَبَقَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنَوْا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْكُوْنَاتِ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾** [يونس، الآية: ٢٢].

\* قوله- تعالى:- **﴿قَالَ رَبِّنِي بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غَيْرَنِمْ أَجْعَمْنَ إِلَّا عَبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾** [الحجر، الآية: ٣٩-٤٠].

\* قوله- تعالى:- **﴿إِنَّمَا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّهُ كَذِهِ الْبَلْدَةَ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلُّ شَقِّ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾** [القصص، الآية: ٩١].

\* قوله- تعالى:- **﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾** [العنكبوت، الآية: ١٧].

\* قوله- تعالى:- **﴿يَعْبُدُهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضَنِ وَسِعَةً فَإِنَّمَا فَاعْبُدُونِي ﴾** [العنكبوت، الآية: ٥٦].

\* قوله- تعالى:- **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفُا فِطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْتَّبَرِ الْقِيمُ﴾** [الروم، الآية: ٣٠].

\* قوله- تعالى:- **﴿فَأَقِرْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ الْقَسِيرُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا مَرْدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾** [الروم، الآية: ٣٢].

\* قوله- تعالى:- **﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ تَحْسِنُ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُفْقَ﴾** [لقمان، الآية: ٢٢].

\* قوله - تعالى :- ﴿ أَلَرْ أَغْهَنْ إِلَيْكُمْ يَبْنِيَّ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا السَّيْطِنَ إِنَّهُ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ مُّئِنٌ ﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾١١﴿ [س، الآيات: ٦١، ٦٠].

\* قوله - تعالى :- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ أَلَا يَلِهُ الَّذِينَ الْخَالِصُ ﴾ [ الزمر، الآية: ٣٢، ٢].

\* قوله - تعالى :- ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ وَأُمِرْتُ لَا نَكُونَ أَوَّلَ الْسُّلَيْمَىنَ ﴾ [ الزمر، الآية: ١٢، ١١].

\* قوله - تعالى :- ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شَتَّمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ [ الزمر، الآيات: ١٥، ١٤].

\* قوله - تعالى :- ﴿ قُلْ اللَّهُ فَاعْبُدُ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِيَنَ ﴾ [ الزمر، الآية: ٦٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَفِرُوَنَ ﴾ [غافر، الآية: ١٤].

\* قوله - تعالى :- ﴿ وَمَا أُمِرْتُ إِلَّا يَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ حُنَّقَوْنَ ﴾ [آل عمران، الآية: ٥].

## المطلب الثاني :

### فِيهَا

والآية أمر من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يعلن ﷺ بأن مقصده في صلاته وطاعته من نسك وغيره، وتصرفة مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإرادة وجهه، وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة، ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يتزمموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله - عَزَّ وَجَلَّ -<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## المطلب الثالث :

### قيمتها

فالمتأمل للآلية القاعدة، يجدها مشتملة على عناصر مهمة، تبرز قيمتها التشريعية والعقدية على السواء.

ومن ذلك:

\* تأسيسها لعنصر الإخلاص المنشئ للعبادة المقبولة، ويتم ذلك بالتجدد الكامل للهـ - كما نصت عليهـ - بكل خوالج القلب، في كل حركات الحياة. صلاةً ونسكاً ومحياً وماتاً « عند الشعائر التعبدية، في الحياة الواقعية وعنده الممات .. »<sup>(١)</sup>.

وهذا هو الدين الخالص وإسلام الوجه لهـ - تَعَالَى - الذي « يعتبر معدوداً في ضروريات الدين »<sup>(٢)</sup> ، فلا يكون العابد عابداً حتى يحبس حياته طاعة للهـ وبذلا في سبيله « ويتحرى أن يموت ميتة راضية فلا يحرض على الحياة لذاتها، ولا يخاف الموت فيمنعه الخوف من الجهاد في سبيل اللهـ؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقامة ميزان العدل، والأخذ على أيدي أهل الجور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »<sup>(٣)</sup>.

ومتى أخلَّ بهذا التوجه الرباني، أصبحت أعماله في عداد التوافة بحسب ميزان اللهـ، والذي يستقرى نصوص القرآن والسنة النبوية، يعلم أن هذا هو القصد الوحيد الذي ارتضاه الإسلام لقبول الأعمال، من ذلك قولهـ - تَعَالَى -: **« وَمَا أُرْرِكُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُحْكَمِينَ لَهُ الَّذِينَ 》** [البيت، الآية: ٥].

(١) في ظلال القرآن: ١٢٤٠/٣.

(٢) انظر تفسير المنار: ٢٤٣/٨.

(٣) انظر تفسير المنار: ٢٤٤/٨.

قبولاً ورداً على الإخلاص فتحقيق هذه القاعدة وسرها وضابطها، أن يعمل المأمور به والمقرب به إلى الله - تعالى -، ويقصد به وجه الله - تعالى -، وإلا عد مرأئياً يروم بعمله تعظيم الناس له وجلب منافعهم ودرء مفاسدهم<sup>(١)</sup>؛ لذلك اعتبرت العلماء في تعريفاتهم للإخلاص بإبراز هذا القصد العبادي من خلالها.

ومن مثل ذلك ما قاله الراغب - رحمه الله - في الإخلاص، قال: الإخلاص: التبّري عن كل ما دون الله - تعالى -<sup>(٢)</sup>، وقال سهل بن عبد الله التستري: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله - تعالى - خاصة، وتعقبه الغرالي - رحمه الله - بقوله: «وَهَذِهِ كَلْمَةُ جَامِعَةٍ مُحِيطَةٍ بِالْغَرْبَضِ»<sup>(٣)</sup>، وقال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: «الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده لا يريدها تعظيماً من الناس ولا توقيراً ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي»<sup>(٤)</sup>.

وقال في موضع آخر: «الإخلاص أن يقصد بطاعته وجه الله، ولا يريده بها سواه فإن قصد بها سواه كان مرأئياً سواء قصد الناس على انفرادهم أو قصد الرب والناس جميكاً»<sup>(٥)</sup> وقيل - أيضاً: «الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين» وقيل: «الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن»<sup>(٦)</sup>، وفي ضوء ما ذكر من التعريفات تظهر ضرورة الإخلاص وتنجلي رفعة شأنه في تنقية ما قد يشوب الأعمال ويزاحمها؛ لئلا تغدو معدودة في المنهي عنه من الشرك، قال - تعالى -: «فَنَّ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَا يَعْمَلُ عَهْلًا صَلِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف، الآية: ١١٠]، وقال - تعالى -: «وَمَنْ أَحَسَنَ دِينًا مِمَّنْ آتَيْنَاهُمْ وَجْهَهُمْ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» [النساء، الآية: ١٢٥].

(١) انظر الفروق: ٣/٢٢.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٥٥-١٥٦.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/٣٨١.

(٤) قواعد الأحكام: ١/٦٠.

(٥) مدارج السالكين، ٢/٩١.

«فإسلام الوجه إخلاص القصد والعمل لله»<sup>(١)</sup> فلا عبادة - إذا - إلا بحضور الإخلاص. ولذلك عد عند كثير من العلماء شرطاً لصحة الأعمال وقبولها، ومن نقل عنه هذا العز بن عبد السلام - رحمه الله -، حيث يقول: «إخلاص العبادة شرط»<sup>(٢)</sup>، ويرى صديق حسن خان - رحمه الله -: ألا خلاف في ذلك<sup>(٣)</sup> وعدّ عند بعضهم - كابن تيمية رحمه الله - من قبيل الفرض<sup>(٤)</sup>. واعتبره القرطبي - رحمه الله - واجباً<sup>(٥)</sup>؛ ولذلك كان عجيباً أن نجد بعض الأحناف يذهبون إلى تصحيح عبادة من لا إخلاص لهم، يقول ابن عابدين - رحمه الله -: «الإخلاص شرط للثواب لا للصحة، فإنه لو قيل لشخص: صل الظهر ولك دينار، فصل بيده النية، ينبغي أن يجزيه وأنه لا رباء في الفرائض في حق سقوط الواجب، فهذا يقتضي صحة الشروع مع عدم الإخلاص»<sup>(٦)</sup>، فهذا يقتضي صحة الشروع لأن المكلف يُخلّي بينه وبين حالته في شأن الإخلاص وعدمه، فهو قول صحيح كما حرّره صاحب الذخيرة المرضية<sup>(٧)</sup>. وإن كان ينبغي بذلك - وهو الظاهر - تصحيح العبادة، جاعلاً النية شرطاً للثواب لا للصحة فلا<sup>(٨)</sup> ؛ لأن من العلماء من ذهب إلى بطلان العبادة المشوبة، وهذا السيوطي - رحمه الله - يرى بطلان عبادة من نوى بذبحه الأضحية أن تكون لله ولغيره<sup>(٩)</sup>.

وكذا ما رواه الخطاب - رحمه الله - الذي يقول: إن العبادة تكون مصيبة موبقة لصاحبتها متى لم يكن الباعث على العمل قصد التقرب إلى الله وابتغاء ما عنده<sup>(١٠)</sup>.

(١) مدارج السالكين: ٢/٩١.

(٢) الدين الخالص: ٢/٣٨٥.

(٣) الماجموع لأحكام القرآن: ٢٠/١٤٤.

(٤) حاشية ابن عابدين: ١/٣٠٤.

(٥) نقلًا عن كتاب الإخلاص، ص: ٣٦.

(٦) نقلًا عن كتاب الإخلاص، ص: ٣٦.

(٧) الأشباه والنظائر، ص: ٢٠.

(٨) الخطاب على الخليل: ٢/٥٣٢.

وفي هذا الصدد يتحدث ابن تيمية - رحمه الله - عن الذين يدفعون الزكاة إلى السلطان خشية أن تضرب أعناقهم أو تنقص حرماتهم، أو تؤخذ أموالهم، وعن الذين يقومون إلى الصلاة خوفاً على دمائهم وأعراضهم... إلى أن وصفهم بالتفاق والرياء، ثم قال: «ولهذا كان الصحيح عندنا وعند أكثر العلماء أن هذه العبادة فاسدة لا يسقط الغرض بهذه النية»<sup>(١)</sup>، وهذا هو الموقف لقول الرسول - ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرئ ما نوى»، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيدها أو إلى امرأة ينكحها، فهو هجرته إلى ما هاجر إليه<sup>(٢)</sup>، وهو من وحي الله إلى نبيه أن الأعمال بالنيات، وناهيك بهذا الحديث أن البخاري - رحمه الله - قال: «ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمله وأغنى وأكثرفائدة من هذا الحديث»<sup>(٣)</sup>، واتفق جمع من العلماء منهم الشافعي، وأحمد بن حنبل، والترمذى، والدارقطنی على أنه ثلث الإسلام...، ووجه البيهقي - رحمه الله - كونه ثلث العلم؛ بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها»<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن حجر - رحمه الله - في شرح: «إنما الأعمال بالنيات»، والحديث متروك الظاهر؛ لأن الذوات غير متنفية؛ إذ التقدير: لا عمل إلا بالنية، فليس المراد في ذات العمل؛ لأنه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحکامها كالصحة والكمال، لكن الحمل على نفي الصحة أولى؛ لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) الفتاوى: ٢٨/٢٦ - ٢٩/٣٠.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١/٩ (كتاب بدء الوعي كيف كان بدء الوعي إلى رسول الله ﷺ).

(٣) نفسه: ١/١١.

(٤) نفسه: ١/١٣.

القاعدة الثانية :

## المطلب الأول :

### بعض مظان ورودها في القرآن

◦ قوله - تعالى - : **﴿وَلَا يُطِلُّوا أَعْمَلَكُم﴾** [سورة الحج، الآية: ٣٣].

◦ قوله - تعالى - : **﴿وَمَن يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلَهُ﴾** [سورة المائد، الآية: ٥].

◦ قوله - تعالى - : **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِنَيَّابِنَا وَلَقَاءَ الْآخِرَةِ حَبَطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾** [سورة الأعراف، الآية: ١٤٧].

◦ قوله - تعالى - : **﴿أَزْلَّتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنَيَّابِنِ رَبِّيهِمْ وَلَقَاءِهِمْ فَقِيلَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾** [سورة الكهف، الآية: ١٠٥].

◦ قوله - تعالى - : **﴿أَوْلَئِكَ لَئِنْ يُؤْمِنُوا فَلَا يَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾** [سورة الأحزاب، الآية: ١٩].

◦ قوله - تعالى - : **﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَجْعَلَنَّ عَمَلَكَ﴾** [سورة الزمر، الآية: ٦٥].

◦ قوله - تعالى - : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَلَا يَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾** [سورة الحج، الآية: ٩].

◦ قوله - تعالى - : **﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجْهَرِ بَعْضِكُمْ لِيَعْصِيَ أَنْ يَحْبَطَ أَعْمَلَكُمْ وَأَسْتَرْ لَا شَعْرُونَ﴾** [سورة الحجرات، الآية: ٢].

## المطلب الثاني :

### فَقْهُهَا

الباطل في اللغة هو الشيء الذي يذهب ضياعاً وخرساً<sup>(١)</sup>. وهو الحبطة، قال الجوهرى - رحمه الله -: بطل ثوابه وأحبطه الله...، وفي الحديث: أحبط الله عمله أي أبطله<sup>(٢)</sup>، فالبطلان والإحباط كلامهما على معنى انعدام الفائدة.

ومعنى النهي عن إبطال الأعمال، النهي عن الإتيان بما يبطلها<sup>(٣)</sup>.

وقد عدّ المفسرون منها:

\* الإشراك بالله: وهو ما أورده الرازى - رحمه الله - عند تفسيره للآية، حيث قال قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يحتمل وجهاً، أحدهما: الدوام على ما هم عليه وألا يشركوا فبطل أعمالهم والله - تعالى - يقول: ﴿لَئِنْ آشَرْتُ لَيَحْبِطَ عَمَلُكَ﴾<sup>(٤)</sup> [الزمر، الآية: ٦٥]، وهو أحسن ما ذهب إليه السلف، فقد روى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: «كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾»، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى ثرل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْنِفُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْنِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء، الآية: ٤٨]، فكفينا عن القول في ذلك، وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لن لم يصبهها<sup>(٥)</sup>.

(١) لسان العرب: ٥٦/١١، مادة «بطل».

(٢) لسان العرب: ٢٧٢/٧، مادة «حبط».

(٣) التحرير والتنوير: ١٢٧/٢٦.

(٤) انظر التفسير الكبير: ٧٢/٢٨ بتصرف يسir.

(٥) التحرير والتنوير: ١٢٨/٢٦، وفتح القدير: ٤٢/٥ - ٤٣.

\* الكفر بالله ومعصية الرسول: أي لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول - ﷺ -  
كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول ﷺ وعصيانيه، و يؤيده قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْمِنُهَا الَّذِينَ إِمَانُهُمْ لَا تَرْفَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ إلى أن قال: أن تجحطَ أَعْمَلَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> [الحجرات، الآية: ٢٢] ، قال ابن جرير - رحمه الله -: «لا تبطلوا بمعصيتكم إياها وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحط السالف من العمل الصالح»<sup>(٢)</sup> ، وعن مقاتل: يقول الله - تعالى -: «إذا عصيتم الرسول، فقد أبطلتم أعمالكم»<sup>(٣)</sup> .

\* المرت: وهو المنسوق عن معظم المفسرين فقد روي عن مقاتل - رحمه الله - أنه قال: هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا، وقالوا لرسول الله - ﷺ : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلكنا، يتون عليه بذلك؛ فنزلت هذه الآية<sup>(٤)</sup> ، وقال الرازى - رحمه الله -: «وهو مناف للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص»<sup>(٥)</sup> .

والحق أن هذه المحامل كلها، ما هي إلا بعض مما تشمله الجملة وهو الذي قيده كثير من المفسرين متبعين بذلك الأقوال السابقة.

روى ابن جرير - رحمه الله - عن قادة - رحمه الله - أنه قال - عند هذه الآية -: من استطاع منكم ألا يطل عملاً صالحًا عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر التفسير الكبير: ٧٢/٢٨.

(٢) جامع البيان: ٣٦/٢٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٥/١٦.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٥٤؛ والمحرر الوجيز ١٥/٧٨-٧٩؛ فتح القدير: ٤١/٥؛ التحرير والتبيير: ١٢٨/٢٦.

(٥) التفسير الكبير: ٧٢/٢٨.

(٦) جامع البيان: ٦٣/٢٦.

وهو صنيع الحسن رحمه الله حين فسر الجملة بقوله: «لا تبطلوا حسنتكم بالمعاصي»<sup>(١)</sup>، وقال الشوكاني - رحمه الله - بعد عرضه للأقوال الواردة في الجملة -: الظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائناً ما كان من غير تخصيص بنوع معين<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: «وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بين الدين أنه مبطل للعمل كله أو بعضه مثل الردة، والرياء في العمل الصالح فإنه يبطل ثوابه... وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلاً لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - لما بلغها أن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - عقد عقداً تراه عائشة حراماً: «أخبروا زيداً أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا» ولعلها أرادت بذلك التحذير، وإنما وجه تخصيص الإحباط بجهاده، وإنما علمت أنه كان أنفس عمل عنده، ولا سيما إذا عُرفَ أن زيداً - رضي الله عنه - قد غزا مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٤/١٦.

(٢) فتح القدير: ٤١/٥.

(٣) التحرير والتبيير: ١٢٧/٢٦، وانظر الإصابة: ٢١/٣.

## المطلب الثالث :

### قيمتها

وتبرز قيمة هذه الآية القاعدة في شموليتها من حيث النهي عن إبطال أي عمل مهما كان كما رأيناه سالفاً.

كما أن قيمتها تتجلى أيضاً في كون بعض الفقهاء راموها فاستبطوا منها قاعدتهم الفقهية التي مفادها أن «الشروع في العبادة يوجب إتمامها»<sup>(١)</sup> فحملوا الآية على معنى النهي عن قطع العمل المتقرب به إلى الله، فكان المعنى: لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه<sup>(٢)</sup>.

فمن الفقهاء من أخذ الأعمال على عمومها ورأى أن الإتمام بعد الشروع لازم في الفرض والنفل، ومن قال به، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك وهو ما ذكره ابن العربي في أحکامه وخرجه بقوله: «قلنا إنما يكون ذلك - أي عدم الإلزام - قبل الشروع في الفعل، فإذا شرع، لزمه كالشروع في المعاملات، ثم قال: ولا تكون عبادة ببعض ركعة، ولا ببعض يوم في صوم، فإذا قطع في بعض الركعة أو في بعض اليوم، إن قال: إنه يعتمد به، فقد ناقض الإجماع وإن قال: إنه ليس بشيء، فقد ناقض الإلزام»<sup>(٣)</sup>، وفرق الإمام الشافعي بين الفرض والنفل، فقال بالإلزام في الفرض وبعدمه في النفل وحاجته في ذلك أن اللفظ وإن كان عاماً فإنه فيه تخصيصاً ووجه التخصيص أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي الاختيار<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر التحرير والتنوير: ٤٢٨/٢٦، وانظر المنشور في القواعد ٢٤٨/٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/٤٢٨.

(٣) أحکام القرآن: ٤/٤٧٠٤.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٥٥٢.



## الفصل الثاني :

### « أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »

المبحث الأول : بعض محال ورودها في القرآن الكريم

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : بعض مظاهر الصلاح والفساد

المبحث الخامس : مقومات الصلاح

المبحث السادس : من آثار الصلاح والفساد

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد



### بين يدي الكلية :

إن الحادي لانتقاء هذه الآية دون سواها من الآيات التي وردت في شأن الإصلاح والإفساد:

- \* هو جمعها بين الأمر والنهي: الأمر بالإصلاح والنهي عن قربان نهج المفسدين فجاءت حاوية لمعنى درء المفسدة وجلب المصلحة التي هي مقصود الشرع.
- \* وما أورده بعض المفسرين في شأن هذه الآية العظيمة الجامعة من أقوال يجعلها ترقى على نظيراتها في مجال الصلاح والفساد، وحسبي أن استعرض مقوله «صاحب التحرير والتنوير»، وذلك عند تعرضه لتفسيرها؛ حيث قال: «.. وقد جمع له في وصيته - يريد جمع موسى لهارون - ملاك السياسة بقوله: «وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين»؛ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الصلاح؛ وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائنة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره، لم تعتبر صلحاً، ولا تثبت أن تؤول فساداً على من لاحت عنده صلحاً، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة لأنها جامعة بين نهي - والنهي عن فعل تصرف صنيعه أول وهلة إلى فساد المنهي عنه - وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين... فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين كان تحذيراً من كل ما يستروح ما آلت إلى الفساد، لأن المفسدين قد يعملون عملاً لا فساد فيه، فنهى عن المشاركة في عمل من عرف بالفساد؛ لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف في

توقع إفضاه إلى فساد، ففي هذا سدّ ذريعة الفساد وسدّ ذرائع الفساد من أصول الإسلام<sup>(١)</sup>.



## المبحث الأول :

### من مجال ورود الكلية في القرآن الكريم

#### المطلب الأول :

##### ما تعلق بالصلاح والإصلاح

قول الله - تعالى -: **﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوْصِيْجَنْفَا أَوْ إِنْمَا فَأَنْصَلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٢].

قوله - تعالى -: **﴿وَسْتَأْلُونَكَ عَنِ الْيَتَمَّى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تَخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٠].

قوله - تعالى -: **﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عَرْضَةً لِأَنْتَمْ كُمْ أَنْ تَبْرُوْ وَتَسْقُوْ وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِمْ﴾** [البقرة، الآية: ٢٤].

قوله - تعالى -: **﴿وَيَعْوَلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِينَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٨].

قوله - تعالى -: **﴿فَنَادَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُكَلِّي فِي الْمِحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكُمْ بِيَعْيَيْ مُصَدِّقًا بِكَمَكَرٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمُصَلِّحِينَ﴾** [آل عمران، الآية: ٣٩].

قوله - تعالى -: **﴿لَيَسُوا سَوَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَلَوَّنَ إِذَا كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهَا أَلْيَلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾** [آل عمران، الآية: ٣٩].

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الْمُصَلِّحِينَ

[آل عمران، الآيات: ١١٤، ١١٣].

قوله - تعالى - : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَنَّهُلَا وَمِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٤٦].

قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّاهُ مِنْكُمْ فَنَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَغْرِضُوهُمَا﴾ [النساء، الآية: ١٦].

قوله - تعالى - : ﴿فَالصَّابِرُونَ قَدِيلُوكُتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء، الآية: ٣٤].

قوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ خَفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنَهُمَا فَابْعَثُوْا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِمْ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلَهُمَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَقِّنُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء، الآية: ٣٥].

قوله - تعالى - : ﴿وَلَا خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَتْهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء، الآية: ١١٤].

قوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ امْرَأٌ حَافَتْ مِنْ بَعْلَهَا نُشُورًا أَوْ إِغْرَاصًا فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصَّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء، الآية: ١٢٨].

قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا أَنْقَوْا وَمَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ أَنْقَوْا وَمَآمَنُوا ثُمَّ أَنْقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدah، الآية: ٩٣].

قوله - تعالى - : ﴿وَوَهَبَنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَتَقُوبَ كُلُّا هَدَيْنَا وَنُؤْحَا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ دُرِّيَتِهِ، دَاؤَدَ وَسَلِيمَنَ وَأَيُوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَدْرُونَ وَكَذَالِكَ بَخْزِيَ الْمُخْسِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٤].

قوله - تعالى :- ﴿أَذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرِّعًا وَخَفِيَّةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُغْنَتِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا  
نُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف، الآيات ٥٤، ٥٦].

قوله - تعالى :- ﴿وَأَعْذَنَا مُوسَى تَلَاثَيْنَ لَيْلَةً وَأَتَمَّنَهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَتُ  
رِبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُورَ أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلِحْنِي وَلَا تَنْهَيْ  
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾ [الأعراف، الآية ١٤٢].

قوله - تعالى :- ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً مِنْهُمُ الْأَصَابِلُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ  
ذَلِكَ ﴾ [الأعراف، الآية ١٦٨].

قوله - تعالى :- ﴿إِنَّ وَلِقَاءَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الْأَصَابِلِينَ ﴾ ﴿١٩٦﴾  
[الأعراف، الآية ١٩٦].

قوله - تعالى :- ﴿فَاقْتَلُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَتِيمَتْمِمُ وَأَطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال، الآية ١].

قوله - تعالى :- ﴿فَلَمَّا أَقْرَأْنَا الْقُرْآنَ قَالَ مُوسَى مَا جِئْنِي مِنْ  
إِلَهٍ إِلَّا إِنَّمَا سَمِيعُهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ الْمُسْأَلَةِ إِنَّ  
الَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ [يونس، الآية ٨١].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا أَلْضَلَّ  
مَا أَسْتَطَعُ ﴾ [هود، الآية ٨٨].

قوله - تعالى :- ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلُكَ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود،  
الآية ٤٦].

قوله - تعالى :- ﴿وَلُوطًا إِنِّي نَهَيْتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعَلْتُهُ مِنَ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَاتَ  
تَعْمَلُ الْجَبَثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوْءًا فَسَيِّدِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ  
الْأَصَابِلِيِّينَ ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنبياء، الآيات ٧٤، ٧٥].

قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْسَمْعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٨٦] وَأَذْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٨٧] [الأنباء، الآيات: ٨٥، ٨٦].

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِيَهَا عِبَادِيَ الْقَنْدِلُونَ ﴾ [١٠٥] [الأنباء، الآية: ٥].

قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْكَحُوا الْأَيْمَنَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلَمَّا يُكُونُوا فُقَرَاءً يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلَيْهِ ﴾ [٣٢] [البور، الآية: ٣٢].

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ السُّفِّينَ ﴾ [١٥١] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [١٥٢] [الشعراء، الآيات: ١٥١، ١٥٢].

قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ أَعْمَلْ صَابِلَحَا تَرْضَهُ وَأَذْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّابِرِينَ ﴾ [النمل، الآية: ٩].

قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [القصص، الآية: ١٩].

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَأْكُسُوا رُءُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبِّنَا أَبْصَرَنَا وَسَمِعَنَا فَأَرْجَعْنَا نَعَمَلْ صَابِلَحَا إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [١٢] [السجدة، الآية: ١٢].

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَئْتَنَا دَأْوَدَ مِنَا فَضْلًا يَجْبَلُ أَوْيَ مَعْمُ وَالْكَلْمُ وَالنَّالَهُ الْمَعْدِيدَ ﴾ [١١] أَنَّ أَعْمَلْ سَيْفَتِ وَقَدَرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَابِلَحَا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [١٢] [سبأ، الآيات: ١٠، ١١].

قوله - تعالى - : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَلَّهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْمُ الْطَّيْبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر، الآية: ١٠].

قوله - تعالى :- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَنْلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ﴾ [فاطر، الآية: ٣٧].

قوله - تعالى :- ﴿وَرَبُّ هَبَتْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات، الآية: ١٠٠].

قوله - تعالى :- ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ تَبَيَّنَاهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات، الآية: ١١٢].

قوله - تعالى :- ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَاطِلَاءِ لَيَغْيِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص، الآية: ٢٤].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَغْنَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر، الآية: ٥٨].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَنْ أَحْسَنْ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَنْلِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت، الآية: ٣٣].

قوله - تعالى :- ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر، الآيات: ١، ٢، ٣].

قوله - تعالى :- ﴿فَمَنْ عَفَكَ وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى، الآية: ٤٠].

قوله - تعالى :- ﴿وَسَتَّرْجِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى، الآية: ١٥].

قوله - تعالى :- ﴿فَالَّرَبِّ أَوْرِعَنِي أَنْ أَشْكُرَ نَعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالَّدَّيَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَنْلِحًا تَرْضِيَهُ وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرْيَتِي﴾ [الأحقاف، الآية: ١٥].

قوله - تعالى - : ﴿وَلِنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْبِلُهُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ يَقْنَعَهُ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْبِلُهُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَفَسِطْرَةً﴾ [الحجرات، الآية: ٩].

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْبِلُهُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَنْتُمُ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْجِعُونَ﴾ [الحجرات، الآية: ١٠].

قوله - تعالى - : ﴿كَانَتَا تَخْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَنَلِحَيْنِ فَخَانَاهُمَا﴾ [الحرث، الآية: ١٠].

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### ما تعلق بالفساد والإفساد

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَخْنُ مُفْسِدُونَ  
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة، الآيات: ١٢، ١١].

قوله - تعالى - : ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَخْنُ نُسَيْحُ  
بِحَمْدِكَ وَنُفَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٠].

قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ  
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٧].

قوله - تعالى - : ﴿كُلُوا وَافْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَمْنَعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾  
[البقرة، الآية: ٦٠].

قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيَهْلِكَ الْحَرَثَ  
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّنَادِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٠٥].

قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥١].

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَكَ اللَّهُ لَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢٢] فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ [٢٣] [آل عمران، الآيات: ٦٣، ٦٢].

قوله - تعالى - : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَاتَلَ نَفْسًا  
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَحَكَانَمَا قَاتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدah، الآية: ٣٢].

قوله - تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُفْتَلُوا أَوْ يُصْكَلُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة، الآية: ٣٣].

قوله - تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلْتَ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَاتَلُوا إِلَى قَوْلِهِ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة، الآية: ٦٤].

قوله - تعالى : ﴿ وَلَا نُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَآذَعُوهُ حَوْفًا وَطَمْعًا إِنْ رَحْمَتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُخْسِنِينَ ﴽ ٥١ ﴾ [الأعراف، الآية: ٥٦].

قوله - تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمُ الْخُفَاجَةَ مِنْ بَعْدِ عَكَدِ وَبَوَائِكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْعِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَئُونًا فَأَذْكُرُوا مَا لَمْ يَرَوْا وَلَا نَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴽ ٧٤ ﴾ [الأعراف، الآية: ٧٤].

قوله - تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ أَنَّدَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَدَرَكَ وَإِلَهَتَكَ ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٧].

قوله - تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِصْمِهِمْ أَوْ لِيَأْمَأْ بَعِضٌ إِلَّا تَفْعَلُهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَيْرٌ ﴽ ٧٣ ﴾ [الأنفال، الآية: ٧٣].

قوله - تعالى : ﴿ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَنَّكُمْ بِكِتَمَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَزْفَوْا الْكَيْنَلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا نُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥].

قوله - تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولَوْا بِقِيمَةٍ يَنْهَا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَبْيَحَنَا ﴾ [هود، الآية: ١١٦].

قوله - تعالى : ﴿ قَاتَلُوا تَالَّهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِيقِينَ ﴽ ٧٣ ﴾ [يوسف، الآية: ٧٣].

قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يُنْقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ أَنْ يُوَصِّلَ وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْغَنَمُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد، الآية: ٢٥].

قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَدْتُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ إِنَّمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٨].

قوله - تعالى - : ﴿فَالَّذِينَ يَنْهَا الْقَرْبَاتِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَنْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىَّ أَنْ يَنْعَلَ يَسْنًا وَيَنْتَهُمْ سَدًا﴾ [الكهف، الآية: ٩٤].

قوله - تعالى - : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَنَّهُمْ يَصِفُونَ﴾ [الأنباء، الآية: ٢٢].

قوله - تعالى - : ﴿فَأَنْقَلُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦٠] ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَنْزَلَ الْمُسَرِّفِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦١] **الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦٢]** [الشعراء، الآيات: ١٥١، ١٥٢].

قوله - تعالى - : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَقْنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٤].

قوله - تعالى - : ﴿وَقَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْبَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْزَةَ أَهْلَهَا أَذْلَةً وَكَذَّلَكَ يَفْعَلُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٤].

قوله - تعالى - : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٤٨].

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىَّ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخْرِجُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية: ٤].

قوله - تعالى : ﴿ وَلَا تَبْغِي الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص، الآية: ٧٧].

قوله - تعالى : ﴿ وَقَصَّيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ الْفَسِيلَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُمَ عِلْمًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء، الآية: ٤].

قوله - تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت، الآية: ٣٠].

قوله - تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم، الآية: ٤١].

قوله - تعالى : ﴿ أَنْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَنْ تَجْعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ ﴾ [ص، الآية: ٢٨].

قوله - تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرْنِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلَيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر، الآية: ٢٦].

قوله - تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد، الآية: ٢٢].

قوله - تعالى : ﴿ وَفَرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴾ [الفجر، الآيات، ١٢، ١١، ١٠].

- بعد تحرير الكلية القرآنية على مستوى الصلاح والفساد يتبعنا النظر في اللفظتين معاً من جهة اللغة والاصطلاح القرآني، مما معنى الصلاح والفساد في اللغة وما مفهومها في القرآن الكريم؟!

## المبحث الثاني :

### مفهوم الصلاح والفساد في اللغة

#### المطلب الأول :

### مفهوم الصلاح في اللغة

جاء في البصائر:

«الصلاح والصلوح بمعنى، وصلاح - كنصر - و - صلح - ككرم - فهو صالح وصلاح، ويختص الصلاح بالأفعال غالباً، وقويل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة، قال - تعالى -: ﴿خَطَّلُوا عَمَّا صَلِحُوا وَمَا حَرَّ سَيِّئًا﴾ [التوبه، الآية: ١٠٢]، وقال: ﴿وَلَا نُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾<sup>(١)</sup> [الأعراف، الآية: ٥٦].

وفي اللسان: «الصلاح ضد الفساد ... ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء، وبصلاح في أعماله وأموره... وأصلاح الشيء بعد فساده: أقامه، وأصلاح الدابة أحسن إليها فصلحت»<sup>(٢)</sup>.

وفي الأساس: «صلحت حال فلان وهو على حال صالحة، ولا تعد صلحاته وحسنته... وصلاح الأمر، وأصلاح الله - تعالى - الأمير، وأصلاح الله - تعالى - في ذريته وماليه، وسعى في إصلاح ذات البين، وأمر الله وهي لاستصلاح العباد، وصالح العدو

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ٤٣١/٣.

(٢) لسان العرب مادة - صلح - ٥١٦-٥١٧/٢.

ووقع بينهما الصلح، ورأى الإمام المصلحة في ذلك، ونظر في مصالح المسلمين، وهو من أهل المفاسد لا المصالح، وفلان من الصالحة ومن أهل الصلاح<sup>(١)</sup>.

وما تقدم يعلم أن الصلاح لا يخرج في عمومه عن معنى جامع وهو نقىض الفساد.

\* \* \*

(١) أساس البلاغة، ص: ٣٥٩.

## المطلب الثاني :

### مفهوم الفساد في اللغة

جاء في اللسان « الفساد: نقىض الصلاح... وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام... والمفسدة: خلاف المصلحة، والاستفساد: خلاف الاستصلاح، وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكتذا: أي فيه فساد... ويقال أفسد فلان المال يفسده إفساداً وفساداً، والله لا يحب الفساد، وفسد الشيء إذا أبأره، وفي الحديث: كره عشر حلال: منها إفساد الصبي غير محرمه، وهو أن يطأ المرأة المرضع فإذا حملت فسد لبنيها وكان من ذلك فساد الصبي، وتسمى الغيلة<sup>(١)</sup>.

وفي البصائر: « الفساد: ضد الصلاح، والمفسدة: خلاف المصلحة، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجية عن الاستقامة »<sup>(٢)</sup>.

والمتأمل لما ورَدَ من تفسير للفساد عند اللغويين يجد أن من معانيه: التدابر، وقطع الأرحام، والغيال الذي يلحق الصبي، والبوار، وعلى الجملة فكل شيء خرج عن الاستقامة إلا حق أن يسمى فاسداً وهو في الحسيات والمعنيات.

\* \* \*

(١) لسان العرب مادة -فسد- .٣٣٧/٢

(٢) بصائر ذوي التميز ١٩٢/٤

### المطلب الثالث :

## مفهوم الصلاح والفساد في القرآن الكريم

### ١- مفهوم الصلاح في القرآن:

تردد لفظة الصلاح في القرآن الكريم ويراد بها معانٍ شتى وذلك بحسب السياق والسباق ومن المعاني التي أُريدَ بها الصلاح:

#### أ - التوفيق والتأييد :

قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحُقْقُونَ رَبُّهُمْ كَثُرٌ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِالْفُطْنَمِ﴾ [محمد، الآية: ٢٠]. (أي أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً ولا يتذمرون إلا ناجحاً) <sup>(١)</sup> فالصلاح في الآية، (معناه صلاح شأنهم في الدنيا بالتأييد والتوفيق) <sup>(٢)</sup>. وقال الله - عز وجل - : ﴿وَبِتَائِيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَيْنَاهُمُ اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ <sup>(٣)</sup> يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم <sup>(٤)</sup> [الأحزاب، الآيات: ٧١، ٧٠]. وذلك (بامداد الصلاح والكلمات والفضائل علىكم) <sup>(٥)</sup>.

#### ب - الصلاح يعني إصلاح النية والدخيلة :

ويرد في مثل قوله - عز وجل - : ﴿فَنَّ كَانَ يَرْجُو اِلْقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَهَدَاهُ﴾ [الكهف، الآية: ١١٠] ومعناه: (فليعمل عملاً صالحاً، أي: في نفسه

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/٢٧.

(٢) محسن التأويل: ١٥/٤٧.

(٣) محسن التأويل: ١٣/٣٢٣.

لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ولا يُشرِك بعبادة ربه أحداً من خلقه إشراكاً كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكاً خفيّاً كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه<sup>(١)</sup> ، (وتدل الآية على أن للعمل المتقبل ركين: كونه موافقاً شرع الله المنزّل ومخلصاً أريد به وجه الله - تعالى - لا يخلط به غيره، وتسمية الرياء شرّاً كأصغر ثبت في السنة وصحّ فيها حبوط العمل بالرياء، ودخول الرياء في الآية باعتبار عموم معناها، وإن كان السياق في الشرك الجلي للخطاب مع الماجدین<sup>(٢)</sup> .

### ج - الإصلاح يعني إصلاح ذات البين :

قال الله - تعالى -: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ﴾** [الأفال، الآية: ١] ، وإصلاح ذات البين من الركائز المبقة على وحدة الأمة وللم الشمل وتنمية الصدف؛ لذلك نجد نداءات قرآنية تدعوا إلى الإصلاح فيما بين المسلمين سواء في الحرب أو السلم حتى يتجدد الشعور بالإخوة الصادقة » « فقد أمر في هذه الآية بالتنمية والإصلاح قائلاً كونوا على أمر الله في الدعاء: اللهم أصلح ذات البين أي الحال التي يقع بها المجتمع»<sup>(٣)</sup> .

«والنداء بالتنمية، وإصلاح ذات البين إنما هو دعوة إلى تقوى الله في الاختلاف والتخاصم وأن يكونوا متاحدين متآخين في الله، وإصلاح ذات البين يعني التأسي والمساعدة فيما رزقهم الله وتفضل به عليهم، وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض... وقد جعل التنمية وإصلاح ذات البين وطاعة الله رسوله من لوازمه الإيمان ومبراته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفّر عليها»<sup>(٤)</sup> .

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٠٨/٣.

(٢) محسن التأويل: ١١/١٠٧.

(٤) الكشاف: ١٤١/٢.

(٣) جامع لأحكام القرآن: ٣٦٤/٧.

وبهذا الزمام الذي هو التقوى يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها كي تصلح من علاقتها ومشاعرها وتصفو لبعضها البعض<sup>(١)</sup>. ومن نظائر هذه الآية، قوله - تعالى - : ﴿وَلَنْ طَأْفَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعْثَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلُوا الَّتِي تَبَغَّى حَتَّى تَقْنَعَ إِلَيْهِ اللَّهُ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ① إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا هُوَ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ لَعْنَكُمْ تَرْحُونَ ②﴾ [المجرات، الآية: ٩-١٠].

«ففي البخاري في الصلح، ومسلم في الجهاد، أن الأوس والخرج كان بينهما قتال بالسعف والتعال، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية فأمر بالصلح بينهما<sup>(٢)</sup> ، والآية تعتبر قاعدة شرعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك تحت النزوات والاندفاعات، وتأتي تعقيباً على تبيان خبر الفاسق وعدم العجلة قبل الشبه والاستيقان. وسواء كان نزول هذه الآية بسبب - كما أشرنا - أم كان تشرعياً لتلافي مثل هذه الحالة، فإنها تمثل القاعدة المذكورة لإقرار الحق والعدل والإصلاح»<sup>(٣)</sup>. ومثل هذا يقال في قوله - تعالى - : ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ تَجْوَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمْرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِيَّةً مَرَضَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ③﴾ [النساء، الآية: ٤١].

«فبعد أن تحدث الحق - سبحانه وتعالى - عن النجوى، ونفى عنه الخيرية، استثنى منه هذه الثلاثة التي تعتبر مجتمع الخيرات والتي يحتاج فيها إلى النجوى»<sup>(٤)</sup> ومن

(١) في ظلال القرآن: ٣/٤٧٤.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥/٢٩٧ (كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس...) وانظر صحيح مسلم: ٥/١٨٣ (كتاب الجهاد، باب في دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين).

(٣) في ظلال القرآن: ٦/٣٤٣.

(٤) تفسير المنار: ٥/٤٠٤.

ضمّن هذه الثلاثة، التناجي من أجل الإصلاح، والذي يشمل جميع أوجه الإصلاح كالتناجي في تشاور فيما يصلح لخالطة أو نكاح، أو رأب صدع بين متباهين ليتراجعوا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به<sup>(١)</sup>.

#### د - الإصلاح بمعنى دعوة الآخرين إلى إصلاح أنفسهم :

قال الله - عَزُّ وَجَلُّ - حكايةً عن شعيب: « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » [هود: ٨٨]؛ إذ أنّ دأب الأنبياء والمصلحين أبداً هو سعيهم إلى إزالة مظاهر الفساد فلا يدورون إلا على ما يوجب الصلح والصلاح، وذلك بقدر طاقتهم وهذا هو الإبلاغ والإذار، أما الإجبار على الطاعة فلا قدرة لهم عليه، قال - تعالى -: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية، الآية: ٢٢]، وفي ثانياً هذه الآية نجد نموذجاً للدعوة يتمثل في الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وإن خُيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت عليه بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص؛ فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القدرة، ويعرض عنها كسباً حلالاً طيباً ومجتمعاً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام »<sup>(٢)</sup>.

#### ه - الإصلاح بمعنى تدبير شؤون اليتيم الدينية والدنوية :

واليتيم عنصر في المجتمع ضعيف لا يعلم وجهة مصالحة؛ لذلك وجدنا القرآن ينص على النظر في شأنه من جهة صلاح حاله الدينية، ويتم ذلك بتوريته وتأدبيه، وهو صنع أعظم تأثيراً من الرعاية المالية. ومن جهة صلاح حاله الدنيوي المعيشي وذلك في النظر في أمواله ورعايتها والاتجار بها، « وقد ثبت أن النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة في حفظ النظام »<sup>(٣)</sup> قال - تعالى -: ﴿وَيَسْعَوْنَكَ عَنِ الْيَتَمَّ قُلْ إِصْلَاحْ لَهُمْ﴾

(١) جامع البيان: ٥/٢٧٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/١٩٢١.

(٣) التحرير والتنوير: ٢/٣٥٥.

**خَيْرٌ وَلَن تَخَالُطُوهُمْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴿البقرة، الآية: ٢٢٠﴾  
 فالآية جامعه للإصلاحين إصلاح تقويم وتأديب، وإصلاح الأموال بالشمير والتنمية،  
 وقال - تعالى - : **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴿تعقيب على تلك الدعوة  
 بإنشاء قاعدة جامعة للضمير والوجدان يرجع إليها في إصلاح هؤلاء، ولئلا يؤول الأمر  
 إلى فساد<sup>(١)</sup> ؛ لذا ورد الحث في كثير من الآثار لتنمية أموال اليتامي خاصة لأن  
 المظنون في الإنسان ألا يهمل مال نفسه فيدع تنميته وشميه بمقتضى الدافع الذاتي  
 والرغبة في المال، أما اليتامي فمالهم في أيدي أوصيائهم قد يهملون شميته عمداً  
 وكسلًا.

### و- إطلاقات أخرى :

قد يعبر القرآن بتعابير أخرى ولا يزيد منها إلا الصلاح والإصلاح، ومن ذلك التعبير  
 بلفظ الخيرات، قال - تعالى - في حق الأنبياء: **وَجَعَلْنَاهُمْ أُبِيَّةً يَهَدُونَ**  **يَأْمُرُنَا**  
**وَأَوحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِيْلَ الْحَمْرَىٰ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكُورَةِ وَكَانُوا لَنَا عَنِيدِينَ** ﴿الأنبياء، الآية: ٧٣﴾، وبعد أن جعلهم قدوة يقتدى بهم في أمور الدين وهي  
 استجابة دعوة إبراهيم - عليه السلام - حين قال: **وَمِنْ ذُرْيَّتِي** ﴿إبراهيم، الآية: ٤٠﴾  
 وكلفهم بالتبليغ بإذن منه - سبحانه وتعالى - يهدون الناس إلى الحق وصاروا صالحين  
 لجعلهم كذلك، «ومن صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتملة عليه بأمر  
 ليس له أن يخل بها ويتناقل عنها»<sup>(٢)</sup> بعد هذا كله أوحى الله إليهم فعل الخيرات مما  
 يختص بالقلوب والجوارح، كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتحصيص إقام الصلاة وإيتاء  
 الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما للتتويه بشأنهما لأن بالصلاحة صلاح النفس؛  
 إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين<sup>(٣)</sup>،

(٢) الكشاف: ٥٧٨/٢ - ٥٧٩.

(١) تفسير المنار: ٣٤٤/٢.

(٣) محسن التأويل: ١١/٢٧٠ - ٢٧١.

ثم ذكر مجموعة من الأنبياء عقيبة وقال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وهي جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدمة في الشاء على الأنبياء المذكورين وما أتواه من النصر واستجابة الدعوات والإيجاء من كيد الأعداء، وهذه الاستحقاقات كلها كانت لسلكهم مسالك الخيرات وجدهم في تحصيلها<sup>(١)</sup> ، وهي منافع الدنيا والآخرة، ونظير هذه الآية قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُّشَفِّقُونَ ﴾٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِثَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُرِبَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِيعُونَ ﴾٦٠﴾ أَفَلِئِكَ يُسَرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَيِّقُونَ ﴾٦١﴾ [المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١].

ومن التعبيرات - أيضاً - تعبير الإحسان قال - تعالى - : ﴿وَأَحَسِنْ كَمَا أَحَسَّ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَلَا تَنْعِذُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية: ٧٧] وفي قوله - تعالى - : ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْمَانِكُمْ إِلَى النَّهَاكِ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٥]، قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذليل للترغيب في الإحسان؛ لأن محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس؛ إذ محبة الله سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة<sup>(٢)</sup>.

ولا يقف بنا القرآن عند هذا الحد من الإطلاقات التي يراد بها الصلاح، وإنما يتعداها إلى صيغ أخرى كاستعماله عبارات: الاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و فعل الحسنات واجتناب السيئات، وهو لا يريد بذلك إلا الصلاح الذي هو أساس الأمر في القرآن، وهو منطلق التكليف.

\* \* \*

(١) التحرير والتنوير: ١٣٦/١٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١٦/٢.

## المطلب الرابع :

### مكملات الصلاح

إن الصلاح لا يقام له وزن في شرع الله إلا إذا كان مقوًنا بالإيمان، ومن استقرى القرآن، وقف على هذه الحقيقة حيث يطالعه الصلاح مقوًنا بالإيمان، مرة، وبالتفوى مرة، وبالتبوية أخرى، وذلك في عدد هائل من الآيات، قال - تعالى - : «مَنْ عَمِلَ صَنْلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْكِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً» [النحل، الآية: ٩٧]، وقال - تعالى - : «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْتُمُ الْآخِرَ وَعَمِلَ صَنْلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُقُونَ» [البقرة، الآية: ٦٢]، وقال - تعالى - : «وَمَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَنْلِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ لَّهُسْنَى» [الكهف، الآية: ٨٨]، وقال - تعالى - : «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» [المائدة، الآية: ٣٩]، وقال - تعالى - : «فَمَنِ اتَّقَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُقُونَ» [الأعراف، الآية: ٣٥].

وقد دلَّ القرآن على أن العمل الصالح هو ما استكمَل ثلاثة أمور:

الأول : أن يكون موافقاً لما ورد عن النبي ﷺ؛ لأن الله - تعالى - يقول: «وَمَا أَنْذَكْمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَنَّكُمْ عَنْهُ فَانْهُواهُ» [الحشر، الآية: ٧].

الثاني : أن يكون خالصاً لله - تعالى -؛ لأنه - جلَّ وعلا - يقول: «وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ تَحْلِيقِينَ لَهُ الْأَلْيَنَ» [البيت، الآية: ٥٢]، وقال: «فَلِلَّهِ أَعْبُدُ تَحْلِيقًا لَهُ دِينِي» ⑯ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» [الزمر، الآية: ١٤-١٥].

الثالث : أن يكون مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله - تعالى - يقول:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فقييد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن، لم يقبل منه ذلك العمل، وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات كثيرة؛ كقوله في غير المؤمن: ﴿وَقَدِيمَنَا إِلَى مَا عَمِلْنَا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَةً مَنْتَهِرًا﴾ [الفرقان، الآية: ٢٣]، وقوله: ﴿أُزْلِكَ الَّذِينَ لَيَسْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحْكِيَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود، الآية: ١٦]، قوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَاهُمْ كُرْبَلَيْقِيَعَ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَأْهَى حَقَّ إِذَا جَاءَهُ وَلَرْ بِحَمْدِهِ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ [النور، الآية: ٣٩]، وقال - تعالى -: ﴿مَثَلُ الظَّالِمِ كَفَرُوا بِرِبِّهِمْ أَغْنَاهُمْ كَرْمَادِ أَشْتَدَتْ يَهُ الرَّبِيعُ فِي يَوْمِ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ كَسَبِهِمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم، الآية: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا صلاح بدون إيمان، ويشهد لهذا أيضاً أحاديث رسول الله ﷺ فقد ثبت عنه - عليه الصلاة والسلام - فيما يرويه قتادة عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطي بحسنته في الدنيا، فإذا لقي الله - عزَّ وَجَلَّ - يوم القيمة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»<sup>(١)</sup>، وفي قوله - تعالى -: ﴿فَلَا أَفْنِحَمُ الْعَقْبَةَ﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْعَقْبَةُ فَذُرْبَقَةَ<sup>(٢)</sup> أو إطْعَنْتَهُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعِيَةٍ<sup>(٣)</sup> تَبِعْمَا ذَا مَقْرَبَةَ<sup>(٤)</sup> أو مِسْكِينَا ذَا مَتْرِيقَةَ<sup>(٥)</sup> ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ أَمْنَوْا﴾ [البلد، الآيات: ١١-١٧] دلالة على أنه لو فعل شيئاً من هذه الأعمال الحسنة، ولم يكن من الذين آمنوا، ما نفعه عمله شيئاً؛ لأنه قد انتفى عنه الحظر الأعظم من الصالحات كما دلت عليه، فهو مؤذن بأنه شرط في الاعتداد بالأعمال، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله! إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب ويحمل على إبله لله (أي

(١) أضواء البيان: ٤٩٣/٣ وانظر مسند أحمد ١٢٥/٣.

يريد بذلك التقرب) فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: لا، إنه لم يقل يوماً: «رب اغفر لي خططيتي يوم الدين»<sup>(١)</sup>، وفي كل ما ذكر إرشاد إلى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله إلا بمعان رفيعة فاضلة تملأ القلب، وتبصر آثارها في هذه الحياة.

## ٤- مفهوم الفساد في القرآن :

بعد أن استعرضنا ما يتعلّق بالصلاح في القرآن على مستوى الدلالة، ورأينا بعض المعاني التي أفادتها لفظة الصلاح، نحاول الكشف عن المراد من لفظة الفساد، وذلك حسب السياق فنقول - بعون الله -: إن لفظة الفساد ترد في القرآن تارة في سياقها العام، وتارة في سياقها الخاص وتارة يجمع فيها بين العموم والخصوص، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿فَهُمْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَقْطَعُونَ مَا حَمَلَكُمْ﴾ [محمد، الآية: ٢٢]، قال ابن كثير: «هذا نهي عن الفساد عموماً وعن قطع الأرحام خصوصاً»<sup>(٢)</sup>.

- أما السياق العام فعني به ورود الفساد وإطلاقه على عبادة الكفار غير الله - تعالى - والكفر به، وشق عصا الطاعة لأنبيائه، وتکذیبهم بما جاؤوا به، وإثبات الأفعال بحسب هو لهم وتشهیدهم، وهذا المعنى كائن في كثير من الآيات منها قوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَنْفَضِّلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ رُؤْسَيْدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البرة، الآية: ٢٧]، قال الطبرى - رحمة الله تعالى -: إن إفسادهم هذا هو ما تقدم من معصية ربهم، وكفرهم، وتکذیبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارهم ما آتاهم به من عند الله<sup>(٣)</sup> فالإفساد في الأرض - إذا - عبادتهم غير الله

(١) انظر التحرير والتنوير: ٣٦٠/٣٠، وانظره في مسند أحمد: ٩٣/٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٧٨/٤.

(٣) جامع البيان: ١٨٥/١.

وجورهم في الأفعال؛ إذ هي بحسب شهواتهم، وهذا غاية الفساد<sup>(١)</sup> ، ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتماً، فلا يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ومنهج الله بعيد عن تصريفها، وشريعة الله مقصاة عن حياتها، فإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو، فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال وللحياة والمعاش وللأرض كلها، وما عليها من الناس والأشياء<sup>(٢)</sup> ، ونظير هذا قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَخْنُ مُضَلُّونَ﴾ [١١] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكُنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٢] [١١] [١٢] ، وقال - تعالى - : ﴿تَنَاهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ بِمَجْعَلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص، الآية: ٨٣] ، فأزيد بالفساد « العمل بالمعاصي أو الدعاء إلى غير عبادة الله »، قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسَرِّفِينَ﴾ [١٣] ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [١٤] [١٣] [١٤] ، والتأمل لهذه الآيات، يجدها تعبر عن فساد العقيدة وفساد العمل، فمن فسدت عقيدته وخيست فطرته، كان سلوكه وأخلاقه على مثل ما في دخلته وطويته.

- ٢ - وأما السياق الخاص فحين ترد لفظة الفساد، ويراد بها إبراز مظاهره كقطع الأرحام المعب عنه في قوله - تعالى - : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد، الآية: ٢٥] ، وإهلاك الحرج والنسل المذكورين في قوله - عز وجل - : ﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَكَنَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْنِكَ الْحَرَثُ وَالنَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٠٥] [١٥] [١٥] ، والإسراف المنطوق به في قوله - عز وجل - : ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسَرِّفِينَ﴾ [١٦] ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

(١) جامع الأحكام: ٢٤٧/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٥١/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١٩٩/٥.

**يُصْلِحُونَ** ﴿١٥٢﴾ [الشعراء، الآية: ١٥٢، ١٥١]، والصد عن سبيل الله في مثل قوله - تعالى - : **هُوَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ إِنَّمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ** ﴿١٨٨﴾ [النحل، الآية: ١٨٨]، والقتل ظلماً والغلبة قهراً، قال - عز وجل - : **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴿٤﴾ [الإسراء، الآية: ٤]، قال الماوردي رحمه الله: الفساد الذي فعله بنو إسرائيل هو قتلهم للناس ظلماً وتغلبهم على أموالهم قهراً وإخراجهم من ديارهم بغياً<sup>(١)</sup> ، فهذه بعض موارد الفساد والإفساد على وجه الخصوص وهي التي تكر على الإخلال بالأعمال الصالحة؛ ولذلك نجد لها مقرونة بالوعيد غالباً.

### ٣- إطلاقات أخرى على الفساد :

كما أننا نقف على إطلاقات أخرى على الفساد كالشر والضر والسيئات والمفاسد، بأسرها شرور ومضرات وسيئات، وقد غالب هذا اللفظ الأخير استعماله في القرآن الكريم؛ كقوله - تعالى - : **وَمَا خَرَّوْنَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَلِحًا وَمَا خَرَّ سَيِّئًا** ﴿١٠٢﴾ [التوبة، الآية: ١٠٢]، وقوله - تعالى - : **إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَيْرًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّعَاتَكُمْ** ﴿٣١﴾ [النساء، الآية: ٣١]، وغيرهما من الآيات التي تذكر فيها السيئات ويراد بها الأعمال الفاسدة.

\* \* \*

### المبحث الثالث :

## قيمة الصلاح في القرآن الكريم

### المطلب الأول :

## مدار القرآن على درء المفاسد وجلب المصالح

إن وجهة القرآن هي العمل على إرشاد متديبه؛ نحو تزكية النفس وذلك بمراقبتها ومحاسبتها، ونجد هذه الهدایة مدارها على قطبين اثنين هما: التحلی بالصالحات، والتخلی عن المفسدات، قال - تعالى - : ﴿تَأْمِنُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقْوَى اللَّهُ وَقُولُوا فَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب، الآيات: ٧١، ٧٠]، وقال - تعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْنَذَ إِلَهَهُ هَوَّهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحَمَّ عَلَى سَعْيِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [الجاثية، الآية: ٢٣]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَتَبَعَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية: ٧٧]، وقال - تعالى - : ﴿وَمَرْجِعُ الظَّالِمِينَ إِلَيْنَا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ كَالْمُقْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَخْعَلُ الْمُتَقِينَ كَالْفُجَارِ ۝﴾ [ص، الآية: ٢٨]، فهذا هو الهدف الأسمى من الدعوة القرآنية وهذا هو الهدف الأسمى من التربية القرآنية، إنه العمل على درء المفسدة عن المكلف وجلب المصلحة له.

## المطلب الثاني :

### تجليات هذه الكلية القرآنية

لقد اعتبرت هي الأساس في رسالات الأنبياء والرسل جميعهم قال - تعالى :-

**﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّوا مِنَ الطَّيْبَاتِ وَاعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ عَلَيْمٌ ﴾** [المومنون، الآية: ٥١] ، وهي مقالة خطوب بها كلنبي، ونودي بها كل رسول ووصوا بها، حقيقة بأن يؤخذ بها ويعمل عليها، فهي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها<sup>(١)</sup> « وقد أمر - جلاً وعلا - في هذه الآية : رسلاه - عليه الصلاة والسلام - بالأكل من الطيبات وهي الحلال الذي لا شبهة فيه على التحقيق، وأن يعملا العمل الصالح، وذلك يدل على أن الأكل من الحلال له أثر في العمل الصالح<sup>(٢)</sup> والغرض من هذا الخطاب، بيان كرامة الرسل عند الله وزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمانية، والعمل الصالح نزاهة نفسانية، وعطاف العمل الصالح على الأمر بالأكل من الطيبات إيماء إلى أن همة الرسل إنما تصرف إلى الأعمال الصالحة؛ لأن ذلك يتضمن الوعيد بالجزاء عنها<sup>(٣)</sup> ، وقال - تعالى :-

**﴿وَإِنَّ مَذِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَقُولُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَدَّ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا أَثْنَاسَ أَشْيَاءِهِمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّتَّقِينَ ﴾** [آل عمران، الآية: ٨٥]

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صَرَاطٍ ثُوِيدُونَ وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ مَاءَنَ يُهُدِّي وَتَبْغُونَهَا عِوْجَانًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَيْلًا فَكُلُّكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

(١) التحرير والتنوير: ٣٦/١١، وانظر التفسير الكبير: ١٠٥/٢٣.

(٢) أضواء البيان: ٧٩٣/٥ - ٧٦٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٦٨/١٨ - ٦٩.

**عَنْقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٨١﴾ [هود، الآيات: ٨٥، ٨٦]، وفي آية أخرى: **﴿فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا أَنْتَاسَ أَشْيَاءِهِمْ وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** [الأعراف، الآية: ٨٥]، وقال - تعالى -: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا نُّمُوذَجَاهُمْ صَلِحًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** **﴿فَمَآ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا فَسَعَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ** ﴿٧﴾ [القصص، الآية: ٦٧]، وعن آل داود يقول: **«أَنْ أَعْمَلْ سَيِّفَتِي وَقَدَرْ** في السرور **وَأَعْمَلُوا صَلِحًا﴾** [سبأ، الآية: ١١]، وقال - تعالى -: **﴿وَمَنْ أَخْسَنَ فَوْلًا مِّنْ دَعَاءً إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا﴾** [فصلت، الآية: ٣٣]، وقال - تعالى - على لسان شعيب تنويها به **﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِلَّا إِصْلَاحَ مَا أَسْطَعْتُ﴾** [هود، الآية: ٨٨]، فعلمـنا أن الله أمر ذلك الرسول بإرادة الإصلاح بمنتهى الاستطاعة، وقد قيل لـذـي القرنيـن: **﴿إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا﴾** [الكهف، الآية: ٩٤]، فاستجابـ دون تردد؛ لأنـ ذلك من طبيـعة وظيفـته ومن صـمـيم رسـالتـه ثم قال: **﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَّبِّكُ﴾** [الـكهـفـ، الآـيةـ: ٩٨ـ]، شـعـورـا بـنـعـمة اللـهـ عـلـيـهـ، وـفـي الرـسـالـةـ الـخـاتـمـةـ خـاطـبـناـ الـحـقـ - سـبـحانـهـ - بـقولـهـ: **﴿وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** [الأـعرـافـ، الآـيةـ: ٨٥ـ].

هـذا هو مقاصـد الرـسـالـاتـ عـبـرـ العـصـورـ، وـمـنـ ثـمـ أـمـكـنـ القـولـ: إـنـ الـوـحـيـ كـلـهـ مـنـ آـدـمـ إـلـىـ النـبـيـ الـخـاتـمـ - عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ - يـدورـ عـلـىـ درـءـ المـفـسـدـةـ وـجـلـبـ الـمـصـلـحةـ فـيـ كـلـ عـصـرـ وـمـصـرـ؛ إـذـ إـنـ هـذـهـ الـأـدـلـةـ «ـأـدـلـةـ صـرـيـحةـ كـلـيـةـ دـلـلتـ عـلـىـ أـنـ مـقـاصـدـ الشـرـيـعـةـ إـلـاـصـلـاـحـ وـإـزـالـةـ الـفـسـادـ وـذـلـكـ فـيـ تـصـارـيـفـ أـعـمـالـ النـاسـ»<sup>(١)</sup>، «ـوـمـنـ عـمـومـ هـذـهـ الـأـدـلـةـ وـنـوـحـوـهاـ حـصـلـ لـنـاـ الـيـقـيـنـ بـهـذـاـ، وـاعـتـبـرـنـاـ ذـلـكـ قـاعـدـةـ كـلـيـةـ فـيـ الشـرـيـعـةـ»<sup>(٢)</sup> وـمـنـ هـنـاـ يـتـبـيـنـ أـنـ هـذـهـ الـكـلـيـةـ جـلـيـةـ الـقـدـرـ عـظـيـمـةـ الـأـثـرـ فـيـ مـجـالـيـ الـصـلـاـحـ وـدـرـءـ الـفـسـادـ.

(١) مقاصـدـ الشـرـيـعـةـ صـ: ٦٣ـ.

(٢) مقاصـدـ الشـرـيـعـةـ صـ: ٦٤ـ.

## المطلب الثاني :

### اعتبرت ثالث أصول دعوة الأنبياء والرسل

ما سبق يتبيّن خطورة هذه الكلية وأن لها قدرًا عظيماً متى أخذت بعين الاعتبار؛ لذلك وجدناها تشكل إحدى الركائز الأساسية في بناء الأديان، وهي ثلاثة أصول دعا إليها الرسل والأنبياء، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ مَأْمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالضَّرَّابُونَ مَنْ مَأْمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وهذه هي أصول الدين الأساسية الثلاثة، وهي: الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه وبديع إحكامه رئاً أبدعه وأتقنه بقدرته وحكمته، فيجب على الناس عبادته وحده لا شريك له لا في الدعاء ولا في غيره من معاني العبادة، وهذا الأصل هو منتهى ما يصل إليه ارتقاء العقل البشري في الاعتقاد وتطهير الأنفس من الخرافات والأوهام.

الأصل الثاني: الإيمان بعالم الغيب والحياة الآخرة، ذلك أن العوالم الحية التي في هذا الكون لا تنتهي من الوجود ولا تنفذ من أقطار ملك الله بما نراه من فساد تركيبها وذهب صورها، فإذا كان العدم المحسوس غير معقول والتتحول في الصور مألوف منظور، فلا غرو أن يكون للناس حياة أخرى في عالم آخر بعد خراب هذا العالم، وهذا ركن من أركان الارتقاء البشري؛ لأنه باعث لهم إلى الاستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل.

الأصل الثالث: العمل الصالح الذي ينفع صاحبه وينفع الناس.

فهذه الأصول الثلاثة التي جاء بها كل نبي مرسلاً لا يتركها إنسان بعد معرفتها والأخذ بها إلا ويكون منكوساً، لا حظ له من الكمال في دنياه ولا في آخرته؛ بل يكون من أصحاب النفوس الخبيثة والأرواح المظلمة التي لا مقر لها في الآخرة إلا دار الحزى والهوان، **﴿أُولَئِكَ أَمْحَقُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ﴾**<sup>(١)</sup> [يونس، الآية: ٢٧].

\* \* \*

## المطلب الرابع :

### وهي المقصود الأعظم من الرسالة

فلا غرو- إذا- أن تكون هي المقصود الأعظم من وضع الشرائع كلها، قال الشاطئي - رحمه الله -: «وذلك بالاستقراء حيث استقرينا من الشريعة أنها وضعت لصالح العباد استقراء لا ينazuغ فيه أحد فإن الله - تعالى - يقول في بعثة الرسل - وهو الأصل -: ﴿رُسَّلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَتَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ أَرْسَلْنَا﴾ [النساء، الآية: ١٦٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: ١٠٧]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود، الآية: ٧٢]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي يَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً﴾ [الذاريات، الآية: ٥٦]، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك، الآية: ٦١]، الآية: ٢].

وأما التعليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصر؛ كقوله- تعالى-: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلِكُنْ يُرِيدُ لِيُظْهِرَكُمْ وَلِيُتَمَّمَ يَعْمَلَتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة، الآية: ٦٦]، وقال في الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْقُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٣]، وعن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت، الآية: ٤٥]، وقال في القبلة: ﴿فَوْلُوا وُجُوهَكُمْ شَطَرَهُ لَتَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة، الآية: ١٥٠]، وفي الجهاد: ﴿أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ يَا أَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَنَّ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقِدِيرٌ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٩]، وفي القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِيَاةٌ يَتَأْوِلُ الْأَلَبِبُ﴾ [البقرة، الآية: ١٧٩]، وفي التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلْ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا عَنِيلِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٧٢]، والمقصود التنبية، وإذا دل

الاستقرار على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيداً للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة<sup>(١)</sup>. وبمثل هذا عبر ابن عاشور - رحمه الله -، حيث قال: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع، استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقرة أن المقصود العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم»، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَطِعُ طَائِقًا مِّنْهُمْ يُدْرِكُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِي، نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص، الآية: ٤]، فهذه الصفات التي أجريت على فرعون كلها من الفساد، وبعثة موسى جاءت لإنقاذبني إسرائيل من هذا الفساد»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) المواقفات: ٢-٣/٢.

(٢) مقاصد الشريعة، ص: ٦٣.

## المطلب الخامس :

### التنويه بالأعمال الصالحة والتنديد بالفاسدة

لقد نوه القرآن الكريم بعمل الصالحات وبين آثارها وثمراتها، والآيات في هذا أكثر من أن تختصى، وإليك شواهد عليه، قال - تعالى -: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي خُتْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر، الآيات: ٢٠، ١]، وقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس، الآية: ٩]، وقال - تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَيْدُرٌ﴾ [هود، الآية: ١١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّبَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ عَرَفًا﴾ [العنكبوت، الآية: ٥٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّةٌ عَرَفًا﴾ [الكهف، الآية: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِيْهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ⑩﴾ [الأنبياء، الآية: ١٠٥]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فَلَيَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الكهف، الآية: ١١٠]، وقال: ﴿جَنَّتُ عَلَيْنِ يَدْعُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أَبَابِيلِهِمْ﴾ [الرعد، الآية: ٢٣].

وفي معرض الحديث عن الفساد وأهله نجده يلوون الخطاب كاشفاً عن هذه السلوكيات، وما ينجم عنها من آثار في المعاش والمعاد، يقول الله - عز وجل - ناهيا عن التلبس بالفساد: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف، الآية: ٥٦]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥]، وقال: ﴿وَأَحِسْنُ كَمَا

**أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَلَا تَنْعِي أَفْسَادَ فِي الْأَرْضِ** [القصص، الآية: ٧٧]، ويقرر القرآن الكريم مأتم الفساد واستفحاله في هذا الكون؛ فيقول: **«ظَاهَرَ أَفْسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتِ أَيْدِي النَّاسِ»** [الروم، الآية: ٤١]، وبين عاقبة المفسدين، فيقول: **«إِنَّمَا جَرَّبُوا مَا لَدُنَّهُمْ يَحَارِبُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصْكَلُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ»** [المائدة، الآية: ٣٣]، ويحكى عاقبة المفسدين في الآخرة، فيقول: **«أُولَئِكَ هُمُ الْغَنَمُ وَلَهُمْ سُوءُ الْذَّارِ»** [الرعد، الآية: ٢٥]، ويقول - أيضاً - **«الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ**  [النحل، الآية: ٨٨].

\* \* \*



## المبحث الرابع :

### بعض مظاهر الصلاح والفساد

#### المطلب الأول :

### بعض مظاهر الصلاح

لقد حضَّ القرآن الكريم على الصلاح في مواضع شتى، فقال - عَزُّ وَجْلُ -: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا﴾ [المومنون، الآية: ٥١]، حيث أمر - سبحانه - أنبياءه بالأكل من الحلال الطيب والقيام بالصالح من الأعمال، فاذعنوا لذلك، فجمعوا بين كل خير؛ قولًا وعملًا، ودلالةً ونصحاً<sup>(١)</sup>، ويستعرض الحق - سبحانه - نماذج من أصنفاته لقصد تكميلهم لأجل أن يُعرِّفُوا بالصلاح، فيقول - تعالى -: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلَّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرْيَتِهِ دَاؤُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَرُونَ وَكَذَلِكَ بَنْزَرِي الْمُخْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] وَزَكَرَيَا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلَيَّاسَ كُلُّمِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٢)</sup> [آل عمران، الآيات: ٨٤، ٨٥]، ثم يشير إلى سمت هؤلاء، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِدَنَهُمْ أَفَتَدْرِي هُنَّ بِهِمْ وَاتَّبِعُهُمْ، وَهُوَ أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ وَلِأَمْتَهِ﴾ [آل عمران، الآية: ٩٠]، قال ابن كثير - رحمه الله -: «أَيُّ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى لَا غَيْرُهُمْ، فاقتَدُ

ومظاهر الصلاح كثيرة ستفنف عندهما، وذلك لأن مقاصد القرآن الكبرى تتمثل في أسس كبيرة يمكن إجمالها فيما يأتي:

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٤٦/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٥٦/٢.

## ١- إصلاح الاعتقاد :

وهذا هو أعظم سبب لإصلاحخلق لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويظهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك.

## ٢- إصلاح التشريع :

ويتمثل في الأحكام الخاصة وال العامة، وقال - تعالى - : «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ إِمَّا أَرْسَلَكَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكَ [النساء، الآية: ١٠٥] ، وقال - تعالى - : «وَأَنَّا أَنَّا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمِنَا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بِمِنْهُمْ إِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِكَ [المائدة، الآية: ٤٨] .

## ٣- تهذيب الأخلاق :

قال - عَزَّ وَجَلَّ - : «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾» [القلم، الآية: ٤] ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت لأتم حسن الأخلاق»<sup>(١)</sup> ، وهو المقصود الذي فهمه العرب عامة بلة الصحابة - رضوان الله عليهم - قال أبو خراش الهدلي - مشيرًا إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل<sup>(٢)</sup>

(١) انظر المسوى بشرح الموطأ: ٤٥٩/٢ (باب الترغيب فيخلق الحسن).

(٢) انظر التحرير والتورير: ١/٤٠.

قال الدهلوi - رحمه الله - : « كل مصلحة حثنا الشارع عليها وكل مفسدة ردعنا عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة: أحدها تهذيب النفس بالخصال النافعة في المعاد وسائر الخصال النافعة في الدنيا، ثانية: إعلاء كلمة الحق وتمكين الشرائع والسعى في إشاعتها، ثالثها: انتظام أمر الناس وإصلاح اتفاقاتهم وتهذيب رسومهم »<sup>(١)</sup> ، من أجل ذلك وجدنا في القرآن الكريم مظاهر تمثل فيها هذه الركائز الثلاث:

أولاها: الإيمان الصادق الكامل الذي يمثل جانب العقيدة وهو المقصد الأسنى كما رأينا آنفاً. قال - تعالى - : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ فَاضَّمْهُ يَتَّلُونَ مَا يَتَّبِعُ  
اللَّهُ أَفَأَنَّهُ أَتَىٰهُمْ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [آل عمران، الآية: ١١٤، ١١٣] ، وهو حق من حقوق الله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله وكتبه واليوم الآخر، وكل ذلك يستلزم الحذر من العاصي، فقوله - تعالى - : ﴿ يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إشارة إلى فضل المعرفة الحاصلة في قلوبهم، فكان هذا إشارة على كمال حالهم في القوة العملية والقوة النظرية، ومن أفضل المعرف بالنسبة للإنسان الصالح معرفة المبدأ والمفاد»<sup>(٢)</sup> .

ثانيها: النهوض بالتكاليف الشرعية: ولا يتأتى إلا بمعرفة الله - عز وجل - حق معرفته وتقديره حق قدره، فبقدر تعظيم الأمر يعظم الإيتان بالمؤمر قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْتُمُوا ﴾ [فصلت، الآية: ٣٠] ، فبعد إعلان التوحيد والتصریح به اعتقاداً - وهو أنه لا رب لهم إلا الله، وهو جامع لأصل الاعتقاد الحق - عبروا عن الوفاء بما كُلُّفُوا به.

(١) حجة الله البالغة: ٤٧٤/١

(٢) التفسير الكبير: ٢٠٧/٨

ومن معنى هذه الآية ما رواه مسلم عن سفيان الثقفي - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك قال: قل آمنت بالله ثم استقم<sup>(١)</sup> ، فالاستقامة هي أداء الفرائض بالإخلاص لله والطاعة له، فقد جمعت الآية أصلينِ الكمال الإسلامي، قوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، إشارة إلى الكمال النفسي وهو معرفة الحق للاهتداء به ومعرفة الخير لأجل العمل به، وقوله: ﴿أَسْتَقْمِمُوا﴾، إشارة إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة مع الحق الذي أذعن له القلب، هذه الاستقامة التي تعني التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، قال - تعالى -: ﴿أَهِدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ٧ وَلَا الضَّالِّينَ ٨﴾ [الفاتحة، الآيات: ٦، ٧، ٨].

ثالثها: حراسة الدين ويمكن التمثيل له بـ[جراءين]:

الإجراء الأول: القيام بالعدل قال - تعالى -: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ ۝ فَإِيمَانُهُمْ ۝﴾ [آل عمران، الآية: ١١٣]، فالقيام يعني العدل، وقيل القيام على كتاب الله والهدایة على حدوده وقيل الطاعة والقنوت، وكل هذا راجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله وإتيان أعمال الدين على الوجه الحق<sup>(٢)</sup> . وقيل - أيضًا: أريد بالقيام قيام المسلم بحق العبودية في مقابل قيام المولى بحق الربوبية في العدل والإحسان، فتتم المعاهدة بفضل الله - تعالى - كما قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> [البقرة، الآية: ٤٠].

الإجراء الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا الإجراء من سمات الأمة المسلمة الراغبة في الانضمام في سلك الحائزين على الخيرية المعتبر عنها في الكتاب

(١) صحيح مسلم: ٤٧/١، (باب جامع أوصاف الإسلام)، وانظر مستند أحمد ٤١٢/٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٢٠٠/٣.

(٣) التفسير الكبير: ٢٠٦/٨.

بقوله - تعالى - : **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرَجْتُ لِلنَّاسِ﴾** [آل عمران، الآية: ١١٠] ، قال الرازي - رحمة الله - : «واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون الإنسان تماماً وفوق التمام، وسر كونه فوق التمام، أن يسعى في تكميل الناقصين وذلك بطريقين: إما بإرشادهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، أو بمنعهم مما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر»<sup>(١)</sup> ، وقد حض القرآن على هذا الإجراء من أجل حفظ الدين من جهة العدم، فعد بذلك من مقاصد الشريعة المرغوبة، ومن الآيات الدالة على هذا قوله - تعالى - :

**﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولَئِنَّا بِقَيْمَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَيْبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَثُرُوا مُجْرِمِينَ﴾**

[هود، الآية: ١١٦] ، أي: «هلا بقي من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقد وجد من هذا الضرب لكنهم قلة، وهم الذين أنجاحهم الله عند حلول غضبه على المفسدين، ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى لا يعمهم الله بعذاب»<sup>(٢)</sup> .

رابعها: الرغبة في الخير جملة: ولذلك أشى الله على عباده الصالحين بجمل منها:

**﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيَّتَهُ يَهْدُونَ يَأْمُرُنَا وَأَوْحِيَنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَ الْخَيْرَاتِ﴾** [الأنبياء، الآية: ٧٣]

وقال:

**﴿يُوْمَئِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَسِرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** [آل عمران، الآية: ١١٤]

الجملة التي ذُيلت بها الآياتان، وهي: «فعل الخيرات والمسارعة إليها» دلالة إلى الرغبة في الأمر الصالح، «ومن رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وأثر الفور على

(١) التفسير الكبير: ٢٠٧/٨ - ٢٠٨/٨

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤٦٤/٢

التراخي<sup>(١)</sup> ، «فالصالحون يمدون إلى فعل العمل الصالح، غير متأقلين عن إتيانهم إياه لمعرفتهم بقدر ثوابه»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نلحظ أن من خصائص الإنسان الصالح أن يكون من دُعِيَ إلى خير؛ من نصرة مظلوم، وإغاثة مكروب، واجر مهيب (أي مكسور بعد الجبور) وعبادة الله، أجاب، ومنه فعل الإمام مالك - رضي الله عنه - في ركتي المسجد؛ حتى قال: «دعوتني إلى الخير فأجبت إليه»<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) الكشاف: ٤٥٦/١.

(٢) فتح القدير: ٣٧٤/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢٠٣/٣.

## المطلب الثاني :

### بعض مظاهر الفساد

كثيرة هي الآيات التي ورد فيها النهي عن الفساد، قال - تعالى - : ﴿وَلَا فُسِّدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف، الآية: ٥٦]، فهو سبحانه ينهى عن الفساد في الأرض ويقر على الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك، تجده - سبحانه - ينهى عن الإفساد والفساد، ويأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، وكل ذلك في قوله : ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾<sup>(١)</sup> [الأعراف، الآية: ٥٦]، قال - تعالى - : ﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيَهْلِكَ الْحَرَثَ وَالسَّنَلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾<sup>(٢)</sup> [البقرة، الآية: ٢٠٥]، وما الحرج والنسل إلا من أساسات ما تقوم به الحياة، وتقوم به أحوال الناس، وبضياعه يتعرض للضياع، وإنما كان الفساد غير محظوظ عند الله في عمومه؛ لأن تعطيل لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس، فإن الحكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة<sup>(٣)</sup> ، وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَغُنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وذلك عقیب قوله : ﴿كُلُوا وَأَشْرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة، الآية: ٦٠]، ووجه النهي عنه أن النعمة قد تنسى العبد حاجته إلى حالقه، فيهجر الشريعة فيقع في الفساد قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَىٰ \* أَنْ رَءَاهُ أَسْتَغْنَى﴾<sup>(٤)</sup> [العلق، الآيات: ٦، ٧]، وحينما قال : ﴿وَلَا تَغُنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ إنما أراد بالعنوان أشد الفساد فهو - إِذَا - نهي عن التمادي في الفساد والغلو فيه<sup>(٥)</sup> ، وكأن الآية خطاب لمن سُئُّ له الشيطان وزين له، فصار متلبساً بالفساد لا ييرحه، بل يتفنن فيه ويغالي في اقترافه.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: ٢٢٢/٢

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/٢

(٣) التحرير والتنوير: ٥٢٠/١

\* وفي مقابل الصالحين المذكورين في القرآن ترغيباً يورد الحق - سبحانه وتعالى - نماذج من المفسدين ترهيباً، فيحكي عن أم كانت قد ضربت بعطن في الفساد وعتت عتها كثيراً، فأخذتها الله نكال الآخرة والأولى. يقول الله - عز وجل - : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [إِرَمْ ذَاتِ الْعِمَادِ] ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [وَتَمَوَّدُ الَّذِينَ جَاءُوا أَصْحَارَ إِلَيْهِمْ] ﴿وَرَفِيعُونَ ذِي الْأَوْنَادِ﴾ [الَّذِينَ طَعَوا فِي الْأَرْضِ] ﴿فَأَكْثَرُهُمْ فِيهَا أَفْسَادٌ﴾ [الفجر، الآيات: ١٢-٦]، وقال - تعالى - : ﴿كَذَّبُتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ بُوْحٌ وَأَضَّبْتُ الْأَرْبَيْنَ وَتَمَوَّدُ ﴾ [وَعَادٌ وَفَرْعَوْنُ وَلَهُؤُنُ لُوطٌ] ﴿وَأَضَبْتُ الْأَيْكَةَ وَقَوْمٌ بَيْعٌ كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُولَ حَقَّ وَعَيْدٌ﴾ [ق، الآيات: ١٤-١٢]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ يَأْمُوجَ وَيَأْجُوجَ مُفْسِدُوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف، الآية: ٩٤]، وقال - تعالى - : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تَسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُوْنَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُوْنَ﴾ [النمل، الآية: ٤٨]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْبَةَ أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل، الآية: ٣٤]، وقال - تعالى - : ﴿إِنَّ فَرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَعْفِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَخِيْهُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ﴾ [القصص، الآية: ٤].

\* والمطالع للآيات القرآنية التي تناولت الحديث عن الفساد، يلحظ أن القرآن تحدث عن الفساد ومظاهره بدءاً بال المجال العقدي وبلغوا به إلى المجال الخلقي، كل ذلك بطريق الإجمال تارة والتفصيل أخرى، ومن صور الفساد التي يحكىها القرآن ما يأتي:

### ١- الصد عن سبيل الله :

قال - تعالى - : ﴿وَلَا نَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثُوْعِدُوْنَ وَتَصْدُدُوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ أَمْنَتْ بِهِ وَتَبَعُونَهَا عَوْجَأً وَأَذْكَرُوْنَا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَرْكُثُمْ وَأَنْظُرُوْنَا كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الْمُفْسِدِيْنَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٦]، إذ كل من قعد على طريق من طرق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنع الناس عن قوله أو إتيانه، عد من الصادين المفسدين، خصوصاً إذا كان ينزل المضار بالمنهج الرباني، كالقاء الشكوك والشبهات

ونحوها، ورأس الفساد: الحيدة عن المنهج، ومن أظلم من حاد عن منهج القرآن، وغدا يصد الناس عن طريق فإنه لاحد بلا ريب.

ومما يدخل في هذا الصد عكوف أناس على دين قد اضمحل وقت العمل به وأصبح غير صالح لما أراد الله من البشر، فإن الله ما جعل شريعة من الشرائع خاصة وقابلة للنسخ إلا وقد أراد منها إصلاح طائفه من البشر معينة في مدة معينة في علمه، وما نسخ دينا إلا لتمام وقت صلاحيته للعمل به، فالتصميم على عدم تلقي الناسخ ولازمة المنسوخ، هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر فيصير بذلك من الصد عن كتاب الله الخاتم، وهو فساد، وهو ما عبر عنه الحق، حين قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَأَسْيَقُوهُمْ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذِيقَةُ الْمُقْسِيدِينَ﴾ [النمل، الآية: ١٤].

## ٢ - بخس الناس أشياءهم :

قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥]، وهو تشريع اعتبر أصلاً من أصول رواج المعاملة بين أفراد الأمة؛ لأن المعاملة معتمدها الأساس هو الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع الواحد، ولا تحصل الثقة إلا بشروع الأمانة، وينجم عن هذا نشاط الناس في التعامل، فالمتاجع يزداد انتاجاً وعرضنا في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمناً لا يخشى غبناً ولا خلابة، فتتوفر السلع في أسواق الأمة وتستغني عن احتلال أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها، فيقوم نماء الأمة وحضارتها على أساس متين ويعيش الناس في رخاء وتحاب وتأخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك<sup>(١)</sup>؛ لذلك نهى الحق - سبحانه - عن بخس الناس أشيائهم، ثم ذيله بالنهي عن الفساد لما يجره هذا الجنس من عواقب كلها فساد ووبال على المجتمع، فتدليل الآية بقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

(١) التحرير والتنوير: ٢٤٤/٨.

**إصلحها**؛ لأن صلاح الأحوال المعيشية تعتبر من متممات الصلاح، وفسادها يعتبر من فساده، ومن ثم كانت الدعوة إلى نبذ الفساد أصلًا من الأصول الدعوية لدى الأنبياء وهذا المظاهر داخل فيها<sup>(١)</sup>.

### ٣- إلحاد الحرب والنسيل :

قال - تعالى - : **﴿وَإِذَا تَوَلَّ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهَلِكَ الْجَنَّاتَ وَالشَّجَنَّلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾** [البقرة، الآية: ٢٠٥] ، وهو مظهر آخر من مظاهر الفساد؛ لأن إتلاف خيرات الأرض رزء على الناس كلهم، وإنما كان غير محظوظ عند الله؛ لأن فيه تعطيلًا لنعم الله وقطع طريقها للبلوغ إلى عباده لصلاحهم، والله - عز وجل - حكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة، فقتال العدو - مثلاً - إنما هو تلاف للضر الراجح؛ ولذلك يقتصر في القتال على ما يحصل به تلافي الضر دون زيادة، ومن أجل ذلك نهى الشرع عن إحراق الديار في الحرب وعن قطع الأشجار، إلا إذا رجحت مصلحة قطعه، وذلك قاعدة: «الضرورة تقدر بقدرها».

ونظير هذه الآية قوله - عز وجل - إخبارا عن فرعون في بني إسرائيل **﴿يُذَيْحُ ابْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾** [القصص، الآية: ٤] ، وكذا قوله - تعالى - : **﴿أَبْجَحُوا فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَيْخُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾** [البقرة، الآية: ٣٠].

### ٤- قطع الأرحام :

إن للأرحام لشأنًا عند الله، ولذلك قال - تعالى - : **﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي شَاءَ لَوْنَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾** [النساء، الآية: ١] ، فتقوى الأرحام فيه دعوى إلى الإحساس بوسائلها والإحساس بحقها، وتوفي هضمها وظلمها، والتحرج من خدشها، كل ذلك يتطلب

(١) التفسير الكبير: ١٨١/٧

إرهاف الحساسية بها والتوقير لها؛ لذلك وجدنا القرآن ينعي على من سولت له نفسه أن يخرق حجبها بالخسران والبوار، فيعده مع القوم المفسدين، قال الله - تعالى -: **﴿وَيُقْطِعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ رَفِيقُوْنَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [البقرة، الآية: ٢٧]، وللن اختلف المفسرون في معنى هذا القطع حيث يرى البعض أنه قربة الأرحام، ويرى البعض الآخر أنه موالة المؤمنين، ويرى آخرون أنه الاقتران بالقول والعمل، وقيل - أيضاً: التفرقة بين الأنبياء في الإيمان بعض والكفر بعض.

أقول: إن اختلف المفسرون على هذه المستويات، فإن المعنى العام يشمل هذه الأحوال؛ «لأن مراد الله - تعالى - بما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل»<sup>(١)</sup> وما الأرحام إلا وشيبة من هذه الوسائل التي ينبغي أن تعم وتستمر في الخلق، ليستمر الرباط، وتقوى العلاقة المشرمة للاعتماد بحبل الله «فالله أمر بصلات كثيرة، أمر بصلة الرحم والقربي، وأمر بصلة الإنسانية الكبرى، وأمر قبل هذا كله بصلة العقيدة والأخوة الإيمانية التي لا تقوم صلة ولا وشيبة إلا معها، وإذا قطع ما أمر الله به أن يصل، فقد تفككت العرى، وانحلت الروابط، ووقع الفساد في الأرض بشتى ألوانه وصنوفه؛ حيث تتبع هذه الصنوف من الفسق عن كلمة الله، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يصل»<sup>(٢)</sup>.

٥- مظاهر أخرى يعرضها القرآن الكريم وذلك في مثل قوله - تعالى - حكاية عن أحوال فرعون الفسادية: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَّا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَعْفِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّغُ أَنْسَاءَهُمْ وَيَسْتَخْنِهِ نِسَاءَهُمْ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾** [القصص، الآية: ٤]، فالآلية اشتغلت على مفاسد خطيرة منها التكبر والتجبر فإنه مفسدة

(١) التحرير والتنوير: ٣٧١/١

(٢) في ظلال القرآن: ٥٢/١

تولد عنها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث العداوة فيهم وسوء الظن بهم والاجراء عليهم واحتقارهم، كل ذلك يحول دون جلب صالح لهم ودرء المفاسد عنهم، ومنها جعلهم شيئاً وطائف وأقساماً مما يفضي إلى فساد، فمنهم المقربون ومنهم المبعدون مما يفضي إلى التحاسد والتباغض ويجعل البعض يتربص الدوائر بالبعض الآخر، ومن شأن الراعي الصالح أن يجعل الرعية كلها على صعيد واحد لا ميزة ولا فرقة!

ومن هذه المفاسد التي اقترفها هذا الفرعون المذكور في القرآن: الفتوك بالذكور من المولودين وذلك لثلا يذهب ملكه، واستباقاؤه النساء حيوات فيصرن بغایا؛ إذ ليس لهن حظ من عليه القوم سوى قضاء الشهوة منهن من غير نكاح حلال، وباعتبار هذا المقصid ينقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذيع الذكور؛ إذ كل ذلك اعتداء على الحق<sup>(١)</sup>.

ومثل هؤلاء لا يعبئون في تصرفاتهم برعي صلاح ولا تجنب فساد وصدق الله حين قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، حيث أشعر في هذا التذليل بكون خصال الفساد قد استحكمت فيه وتمنت منه، وكأنها صارت خلقة لا خلقاً.

\* \* \*

انتهى المجلد الأول  
بحمد الله وتوفيقه، ويليه إن  
شاء الله المجلد الثاني وأوله  
المبحث الخامس  
مقومات الصلاح

رسائل جماعية

الكلمات الشرعية  
في القرآن الكريم

تأليف  
الدكتور الحسن حربيفي

المجلد الثاني

دار ابن عفان

دار ابن القبير

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ﴾

المبحث الخامس :

## مقومات الصلاح

### المطلب الأول :

#### التوحيد

وهو من الركائز التي يقوم عليها بناء الصلاح، ولسنا - هنا - بقصد الحديث أو البحث في التوحيد؛ لأنَّه سبق الكلام عنه استقلالاً، وإنما مُرَاذنا أن نكشف عن حاجة الصلاح والإصلاح لهذه الأرضية التي متى كانت صحيحة راسخة، كانت منطلقاً للأعمال الصالحة؛ إذ الميزان هو الميزان الشرعي؛ فهو الفاصل في القول، والمميز بين ما هو صالح وما هو فاسد، وبين ما هو غثٌ وما هو سمين.

ولذلك وجدنا منطلقات الدعوات السالفة للأنبياء السالفين هي قوله - تعالى -: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُرِجِّعَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ» [الأنبياء، الآية: ٢٥]، فالآية تقرير للأمر بالتوحيد الذي نطق به الكتب، كل الكتب الإلهية، وأجمعـت عليه دعوات الرسل، وقد صلح به دليل النقل، ودليل العقل، وقامت عليه حجة الله - تعالى <sup>(١)</sup>.

ويعرض القرآن دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون الواحد الدال على المدير الواحد؛ فيقول: «أَمْ أَنْخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرِكُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» [الأنبياء، الآيات: ٢١-٢٢].

(١) الدين الخالص: ٣٥/١

وهذا السؤال في الآية إنما هو سؤال تفريع وإنكار للواقع من المنكرين، ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم يُبَشِّرونَ من الأرض، فَيَقِيمُونَ الْأَمْوَاتَ، وَيَعْثُونَهُمْ أَحْيَاءً، فيه تهكم بتلك الآلهة التي اتخذوها، وهي من صفات الإله الحق... ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض، وهنالك الدليل المستمد من واقع الوجود: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهو قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَا أَنْجَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَيْلٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٌ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَيْهِ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون، الآية: ٩١]، والآياتان فيهما استدلال على استحاله وجود آلهة غير الله؛ «إذ لو تعددت الآلهة، للزم أن يكون كُلُّ مُتَصَفًا بصفات الألوهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة، والقدرة التامة على التصرف، ثم إن التعدد يقتضي اختلاف متعلقات الإرادة والقدرة؛ لأن الآلهة لو استوت في تعلقات إرادتها تلك، لكان تعدد الآلهة عبئاً للاستغناء بوحدة منهم، وأنه إذا حصل كائن فإن كان حدوثه بإرادة متعددين، لزم اجتماع مؤثرات على مؤثر واحد، وهو محال»<sup>(١)</sup>، فالكون - إذًا - قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعاً، وينسق بين أجزائه جميعاً، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد، فلو تعددت الذوات، لتعددت الإرادات، ولأنعدمت الوحيدة، ولو قع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق، هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين؛ لأنه واقع محسوس، والفطرة السليمة تشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الخالق المدير لهذا الكون المنظم، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) التحرير والتبيير: ٤٠-٣٩/١٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٧٣-٢٣٧٤.

## المطلب الثاني :

### نبذ الهوى

إذا علمنا أن أصل الحق وقوامه هو الخالق - عَزَّ وَجَلَّ -، ولو تعددت الآلهة، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أصل الحق، إذا علمنا هذا، ننتقل إلى حقيقة ما جاء به النبي ﷺ؛ إذ لو فُرِضَ أن يكون الثابت نقىض هذا الحق، لتسرب الفساد إلى السماوات والأرض، «فَلَوْ فُرِضَ عَدَمُ الْبَعْثَ لِلْجَزَاءِ لَكَانَ الْثَّابِتُ أَلَّا جَزَاءٌ عَلَى الْعَمَلِ»، فلم يعمل أحد خيراً إذ لا رجاء في ثواب، ولم يترك أحد شرّاً، إذ لا خوف من عقاب، فيغمر الشر الخير، والباطل الحق، وذلك فساد لمن في السماوات والأرض؛ ولذلك قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَتَيْتَ الْحَقَّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ الْأَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون، الآية: ٧١]، وكذا لو كان الحق حسّن الاعتداء، والباطل قبيح العدل، لارتدى الناس بعضهم على بعض بالإلحاد جهد المستطاع، فهلك الضرع والزرع، وهكذا في أهوائهم المختلفة، ويزيد أمرها فساداً بأن يتبع الحق كل ساعة هوى مخالفًا للهوى الذي اتبّعه قبل ذلك؛ إذ الأهواء لا تستقر على حال، فلا يستقر بذلك نظام ولا قانون، ويقول العالم إلى الفساد<sup>(١)</sup>. من خلال ذلك علم عظيم شأن الحق، وأن السماوات والأرض ومن فيهن ما قامت إلا به، وأن الهوى والتشهي يُفضّيان بالخلق إلى فساد عريض.



## المطلب الثالث :

### العدل والقسط

إلى جانب كون العدل من المقومات - كما سترى - فإنه يعتبر من المحسنات للبقاء على الصلاح - كما مرّ معنا - فهو سياج يحمي عناصر الصلاح والإصلاح من أن تنمو في خضم الفساد؛ لذلك وجدنا من الآيات العدد الهائل الذي يدعو إلى قيام الدنيا على العدل والقسطاس المستقيم، قال الله - تعالى -: **﴿قُلْ أَمْرَ رَبِّيْ يَا لِلْقَسْطَطُ﴾** [الأعراف، الآية: ٢٩]، وقال: **﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى﴾** [المائد، الآية: ٨]، وقال - تعالى -: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِنَّ الْخَيْرَ إِلَيْهِ يَنْتَهِ﴾** [النحل، الآية: ٩٠]، وقال - تعالى -: **﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُوا وَاسْتَقِمُ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَنْتَعِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِاْمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتْبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾** [الشورى، الآية: ١٥]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - : **﴿لَقَدْ أَرَسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْبِينَ شَيْتَ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقَسْطَطُ﴾** [الحديد، الآية: ٢٥]، والقسط: العدل في جميع الأمور؛ بحيث يتم به إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق فهو عدل عام<sup>(١)</sup>، وكذا الميزان؛ إذ هو مستعار للعدل بين الناس وإعطائهم حقوقهم؛ لأنّ ما يقتضيه الميزان وجود طرفين يُرادُ معرفة تكافئهما، وهذا الميزان تبيّنه كتب الرسل، «التي يتوسّلُ بها إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النّفسانية لأنّ يتميز الحق من الباطل والحجّة من الشّبهة»، فإنّ معظم التكاليف الشّاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق<sup>(٢)</sup>، وهو شأن كل الرّسالات حيث جاءت في الأرض، وفي حياة الناس، ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية؛ لتقويم الأعمال، والأحداث، والأشياء، والرجال، وتقييم عليها حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء، وتصادم المصالح

(١) التحرير والتبيير: ٤١٦/٢٧.

(٢) التفسير الكبير: ٢٤١/١٥، ٢٤٢.

والمنافع، هذا الميزان الذي لا يحابي أحداً؛ لأنه يزن بالحق الرباني، ولا يحيف على أحد؛ لأن الله رب الجميع؛ فبغير هذا الميزان لا يهتدي الناس إلى العدل!



## المطلب الرابع :

### مدافعة الناس بعضهم ببعض

وفي هذا الشأن يقول المولى - عَزَّ وَجَلَّ : «وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» [البقرة، الآية: ٢٥١]، وهي من الحكم الإلهية، أراد من خلالها - سبحانه - أن تتصارع قوى الخير مع قوى الشر، «ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لو لا دفع الله الناس بعضهم بعض، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنمو، ويقوم ذلك بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تَعْرِفُ الحُقْقُ الْحَقُّ الَّذِي يَبْيَّنُ اللَّهُ لَهَا، وَتَعْرِفُ طَرِيقَهَا إِلَيْهِ وَاضْحَى، وَتَعْرِفُ أَنَّهَا مَكْلَفَةٌ بِدَفْعِ الْبَاطِلِ وَإِقْرَارِ الْحَقِّ فِي الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup> ، وتعُرف أن الله يدافع عن الذين آمنوا، فما عليها إلا أن تمتّطِي أسباب الدفع، وأن تتحمل في سبيله ما تتحمل، وما لا تتحمل طاعة لله وابتغاء مرضاته، وإعلاة لكلمته؛ وذلك لأنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، والتمكن للصلاح في هذه الحياة، ومن ثم أمكن القول ألا صلاح إلا بامتناع الأسباب؛ لمدفعنة الظالمين، وإلا لغلبوا، وبعوا في الأرض، وأوقعوا الفتنة، فتكون الأرض مرتفعا لهم، وكوكباً لتفريح الفساد.

«لَذِكْ كَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا، أَنْ أَذْنَ لِأَهْلِ دِينِهِ الْحَقِّ الْمُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِقَتَالِ هُؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ، وَاللَّهُ نَاصِرُ أَهْلَ الْإِصْلَاحِ مَا نَصَرُوا الْحَقَّ وَأَرَادُوا بِهِ فِي الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>، «فَمَا مَرَّ بِالْأَرْضِ فَنَذَهَبَ جُفَانًا وَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ» [الرعد، الآية: ١٧].

(١) في ظلال القرآن: ١/٢٧٠.

(٢) تفسير المنار: ٢/٤٩١.

وهكذا يضرب الله هذا المثل للحق والباطل، وللدعوة الباقيه والدعوة الفانيه؛ حيث إن الباطل يطفو، ولكنه لا يثبت أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له، ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئا ساكنا باقيا في الأرض، وإن ظن البعض أنه قد انزوى وضاع، **﴿كَذَلِكَ يَصْرِيبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾** [الرعد، الآية: ١٧]، فيقرر مصائر الدعوات، ومصائر العتقدات، ومصائر الأعمال والأقوال؛ فمن استجاب لله فله الحسنى، ومن لم يرفع بذلك رأسا فإنما له الحساب الذي يسوء، ولو افتدى بمال الأرض ذهب ما تقبل منه، وخسر الدنيا والآخرة.

\* \* \*



## المبحث السادس :

### من آثار الصلاح والفساد

\* يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ أَحَسَنتُمْ أَخْسَنَتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأَتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء، الآية: ٧] ، وهي قاعدة لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجها وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنج، وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء إليها، لا يلوم من إلا نفسه، حين يتحقق عليه الجزاء، وقد خطب النبي ﷺ أول بعثته، فقال - عليه الصلة والسلام - : «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لموتمن كما تنامون، ولتبعشن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان، إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لnar أبداً»<sup>(١)</sup> .

فالملكلف لا بد أن يلقى جزاءه، وأن يواجه الجزاء من جنس عمله، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ [الزلزال، الآيات: ٨، ٧] ، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - قد جعل في الأوامر إذا أُمِّلَتْ، وفي النواهي إذا اجتنبت - أجوراً منتظرة، ولو شاء لم يفعل، وجعل في الأوامر إذا ارتكبَتْ، والنواهي إذا افترفت - جزاء على خلاف الأول؛ ليكون جميع ذلك منهضاً للعزائم في الامثال.

وها هنا شبهة لا بأس مِنْ إيرادها، وهي شبهة طائفية من يتعاملون مع التأويل عريئاً عن ضوابطه، فيتلاعبون بالنصوص ليصلوا بها إلى الفصل بين الجزاء وعلاقته بالعمل

(١) انظر الكامل في التاريخ ٦١/٢، وانظر خطب الرسول، ص: ٢٢، والرائد: الذي يتقدم لطلب الماء والكلأ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم وأفسد أمر نفسه معهم؛ لأنه واحد منهم، وهو من أمثال العرب يضرب للناصح الأمين، لسان العرب ٣/١٧٨، مادة «رود» .

الفاسد، والشبهة التي اتخذوها ذريعة هي: إيهام العامة أن الأمر مرتبط بالمشيئة العليا، لا بعمل الإنسان، وأن المفسدين في الأرض، المتهكين للحرمات، المستهزيئين بالقيم، قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا، وأنه يجوز أن يلحق العذاب بالصالحين؛ لأن الله لا يسأل عما يفعلُ، وهو كلام مخالف للحقائق المثبتة المقررة في الأصلين: الكتاب والسنة.

والقصد من الشبهة إسقاط قيم الأعمال، فلا يرهب أحد ذاتها، ولا يرجو مؤمن حسنة، وهي فلسفة حقيقة أذت مهمتها في إفساد الأمم، وتلويث المجتمعات، وتهميشه العقائد الدينية وإهانتها، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يكذب ذلك كله بأسلوب صريح، فيقول - تعالى -: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَمْغَلِّهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَّا كَيْنُوا وَمَا مَأْمُونُهُمْ سَاءٌ مَا يَمْكُمُونَ﴾** [المائة، الآية: ٢١]، فندوو النهي يعلمون علم اليقين، أن عموم المشيئة لا يعني التسوية بين خائن وأمين، وأن جواز العفو لا يعني إبطال الشرائع وتعطيل القوانين، والناظر في رحاب كلام الله يجد فصل المقال في هذا الشأن حيث يورد - إلى جوار الآية التي مرت معنا - صوراً عديدة في الوعد، وصوراً في الوعيد تنطق بعدل الله، وتقرّر قاعدة الجزاء من جنس العمل<sup>(١)</sup>.

وإليك بعض الواقع القرآنية التي تتجلى فيها هذه القاعدة الجامدة، وسأكتفي بسوق بعض الخصائص العامة للحياة الصالحة، ثم أثبّتها ببعض الخسائص للحياة الفاسدة.

\* \* \*

---

(١) وستعرض لهذه الكلية العظيمة بشيء من التفصيل حين الحديث عنها - إن شاء الله.

## المطلب الأول :

### من آثار الصلاح

١- الاصطفاء على العالمين : قال الله - تعالى - : **﴿أَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُنَّ خَيْرُ الْبَرِّيَةِ﴾** [البيت، الآية: ٧] ، وهي من خصائص الأبرار الصالحين ، وثمرة نضيجة أمرتها أعمالهم ، فأخبر عنهم - جل وعلا - أنهم خير البرية ، « وقد استدل أبو هريرة - رضي الله عنه - بهذه الآية على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة »<sup>(١)</sup> .

٢- الاستخلاف في الأرض ووراثتها : قال - تعالى - : **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْفَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** [النور، الآية: ٥٥] ، وقال - سبحانه - : **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾** [الأنياء، الآية: ١٠٥] ، ففي الآية الأولى وعد بالاستخلاف عن الله في تدبیر شئون عباده ، وهو ما أخبر به - سبحانه - في قوله : **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** [البقرة، الآية: ٢٠] ، وفي قوله : **﴿لِيَسْتَخْفَفُوهُمْ﴾** إيماء إلى أن الاستخلاف كائن لا محالة ، وأنه يحصل في معظم الأرض ، كما أن حرمة هذه الأمة تنشر في العمورة كلها ، بحيث يهابهم من عاداهم من الأمم التي لم تدخل تحت حكمهم<sup>(٢)</sup> .

وفي الآية الثانية نجد أن مصير الأرض آيل إلى أيدي عباد الله الصالحين ، وهو الوعد الذي تكرر في الكتب كلها ، وعلى ألسنة الرسل ، تبشر بها الطائفة الناجية .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٨٦/١٨.

٣- الولاية الربانية: قال - تعالى - : ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٦] ، وقال - سبحانه - : ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوْقِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف، الآية: ١٠١] ، وهذه الولاية هي ولاية الحفظ والنصرة والرعاية، وما أمرها إلا الصلاح، «وفي الآيتين تعريض لمن فقد هذا الصلاح بالخذلان والمحق»<sup>(١)</sup> .

٤- الحياة الطيبة الهنية : فإذا تمت للصالحين هذه الكرامات، من الاصطفاء على العالمين، والسيادة، والريادة، والتمكين، والولاية الربانية التي تفيد حب الله لعباده الصالحين، فتلك هي الحياة الهنية التي يُشَرِّوْبُ بها في قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِنَّ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل، الآية: ٩٧] ، هذه الحياة التي فيها برد الصدور بلذة اليقين والإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح من الاستبعاد لغير الله، والاستكانة إلى المعبد بسر الوجود<sup>(٢)</sup> .

أما ما يَتَنَظَّرُ الصالحين من مكافحة في المعاد، فقد تحدث عنه القرآن مبشرًا إياهم بجوائز لا يستأهلها إلا من عاش صالحًا متنورًا في حياته بنور الهدى والإيمان.

وما أخبر به - سبحانه - عن عباده الصالحين - قوله تعالى - : ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الصِّيفَ﴾ [سباء، الآية: ٣٧] ، فبشر الصالحين بمضاعفة الأجر والثواب، وقال - تعالى - : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُؤْفَى هُمْ أُجُورُهُمْ﴾ [آل عمران، الآية: ٥٧] .

كما بشَّرَهم بالفوز بالجنة؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخَلُهُ جَنَّتِهِ﴾ [الطلاق، الآية: ١١] .

(١) محسن التأويل: ١٩٦/٧.

(٢) محسن التأويل: ١٥٦/١٠.

ومن البشارات - أيضاً - الفوز بالرحمة؛ قال - تعالى - : ﴿فَمَا الَّذِي ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ [الجاثية، الآية: ٢٩] ، وقال: ﴿وَادْخُلْنَاهُ فِي  
رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾١٧٥﴾ [الأنياء، الآية: ٧٥] ، وقال: ﴿وَادْخُلْنَاهُمْ فِي  
رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾١٨٦﴾ [الأنياء، الآية: ٨٦] ، والدخول في الرحمة  
الربانية أنسى المطالب ومتنهى المقاصد؛ إذ الأعمال الصالحة لا يراد من ورائها إلا  
كسب التقوى؛ قال - تعالى - : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ مَا يَنْهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
يَتَّقُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٧] ، ثم يذكر - سبحانه وتعالى - التقوى في مواطن  
أخرى؛ حيث يجعلها مطية إلى رحمته، فيقول: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارِكٌ  
فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾١٥٥﴾ [الأنعام، الآية: ١٥٥] ، فدلل بذلك على أن الرحمة  
هي محطة الرحال، ومتنهى المال.



## المطلب الثاني :

### من آثار الفساد

إذا كان للصالحين خصائص امتازوا بها في الدارين، ونالوا بها العقبى، قال الله - تعالى - : ﴿هُنَّا لَكُمْ أَوْلَيَاءُ إِلَهُ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثُوَابًا وَخَيْرٌ عُقَبًا﴾ [الكهف، الآية: ٤٤] ، إذا كانت للصالحين هذه الخصائص؛ فللمسدسين خسائص دُلُوا بها، وأهينوا في الدنيا والآخرة، وهي خسائص أثمرت ثماراً بغيضة؛ ومنها:

١- بغض الله لهم : قال - تعالى - : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٦٤] ، فانتفت عنهم محبته، فحل محلها كرهه وغضبه.

٢- لعنته عليهم، وسوء منقلبهم: قال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْلَّغْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد، الآية: ٢٥] .

٣- خسرانهم المبين : قال - تعالى - : ﴿أَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيقَاتِهِ وَيَنْقُضُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَنَّاسُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٧] ، لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقاب هذه بثواب أضدادها.

٤- خذلانهم : فلا يأتون إلا عملاً باطلًا ولا يُستحبون إلا فساداً، قال الله - تعالى - : ﴿مَا جَنَحَتْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، الآية: ٨١] ، «إضافة عمل إلى ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾»، يؤذن بأن أعمالهم كلها فساد، والمراد بإصلاح عمل المسدسين الذي نفاه، أنه لا يؤيده؛

وليس المراد تصييره صالحاً؛ لأن ماهية الفساد لا تقبل أن تصير صالحاً»<sup>(١)</sup>.

٥- مضاعفة العذاب : قال - تعالى - : ﴿أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ إِنَّمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [الحل، الآية: ٨٨]،  
فيتضاعف لهم كما ضاعفوا كفرهم وإفسادهم بصددهم غيرهم عن الإيمان،  
وهي كقوله - تعالى - : ﴿لِكُلِّ ضُغْطٍ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٨].

\* \* \*



## المبحث السابع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

#### من القواعد الأصولية والفقهية

قال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: «الاعتماد في جلب مصالح الدارين ودرء مفاسدهما على ما يظهر على الظنون، وللدارين مصالح إذا فاتت، فسد أمرهما، ومفاسد إذا تحققت هلك أهلها، وتحصيل معظم هذه المصالح بتعاطي أسبابها مظنون غير مقطوع به، فإن عَمَالَ الآخِرَةِ لَا يَقْطُعُونَ لَهُ حَسَنَ الْخَاتَمَةِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِنَاءً عَلَى حَسَنِ الظَّنِّ، وَهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - يَخَافُونَ أَلَا يَقْبِلُ مِنْهُمْ مَا يَعْمَلُونَ، وَقَدْ جَاءَ التَّنْزِيلُ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ يَتُؤْمِنُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِيعُونَ﴾ [ المؤمنون، الآية: ٦٠]، فكذلك أهل الدنيا إنما يتصرفون بناء على حسن الظنون، وإنما اعتقد عليها؛ لأن الغالب صدقها عند قيام أسبابها؛ فإن التجار يسافرون على الظن أنهم يسلمون ويربحون، والأكارون يحرثون ويزرعون بناء على أنهم مستغلون... إلى أن قال: «الناظرون في الأدلة المجهدون في تعرف الأحكام يعتمدون في الأكثر على ظن أنهم يظفرون بما يطلبون...» ومعظم هذه الظنون صادق موافق غير مخالف ولا كاذب، فلا يجوز تعطيل هذه المصالح الغالبة الواقع خوفاً من ندور الكذب المظنون، ولا يفعل ذلك إلا الجاهلون<sup>(١)</sup>.

وبنظرة فاحصة، ووقفة تأمل يعُنّ لنا من خلال هذا النص أن الرجل قد جعل أساس المصالح الدنيوية والأخروية - على حد سواء - مبنها على الظن؛ وكان من أجل تحصيل هذه المصالح أن وجدنا الخلق يجتهدون، ومن ضمنهم أهل العلم، بما فيهم

(١) قواعد الأحكام : ٥/١ .٦

أصحاب القواعد، سواء الأصوليون أو الفقهاء؛ حيث نظر في صنيعهم واعتبر اجتهادهم، واستبطاطهم، وتعيدهم، وتفریعهم - إنما هو من قبيل جلب المصالح ودرء المفاسد، وهو منهج تجلّت فيه النظرة المقادسية؛ مما أثمر لديه أن هذه القواعد مآلها القاعدة العظمى الجامعة؛ وهي قاعدة درء المفسدة، وجلب المصلحة.

وإذا كان منهجه ينبع إلى النظر في نتائج أعمال الدنيا والدين؛ فإن الأصوليين والفقهاء عكروا على النظر في تطلب الوقوف على القواعد، باعتبارها وسائل موصلة إلى تلك الغاية، وبناءً على هذا، أمكن القول بأن القواعد ما هي إلا فروع للكلية العظمى التي تمثلت في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَاصْلِحْ وَلَا تَئِنْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وإليك بعض ما يتفرع عنها من القواعد الأصولية والفقهية.



## المطلب الأول :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

من بعض القواعد الأصولية

### ١- قاعدة : سد الذرائع :

قال الله - تعالى -: «وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُواً يَغْيِرُ عِلْمَكُمْ» [الأنعام، الآية: ١٠٨]، والمخاطب بهذا النهي، المسلمين لا الرسول ﷺ؛ لأن خلقه الكريم، وطبعه القرآني حال دون كونه فحاشاً أو مسبباً أو طعاناً، روى الإمام الطبرى - رحمه الله - عن قتادة قال: «كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يتسببوا لربهم»<sup>(١)</sup> ، والمراد ما يصدر من بعض المسلمين من كلمات الذم والتغيير لآلهة المشركين كما جاء ذلك في السيرة النبوية: أن عروة الثقفى جاء رسولًا من أهل مكة إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فكان من جملة ما قاله لرسول الله: «وأيم الله، لكأني بهؤلاء - يعني المسلمين - قد انكشفوا عنك - يريد بذلك رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر من خلف رسول الله ﷺ ، فقال لعروة: «امصص بظر اللات» ... إلى آخر الخبر<sup>(٢)</sup> .

أما ما يرد في القرآن الكريم من إثبات نعائص آلهتهم، مما يدل على انتفاء الوهيتها، فليس من السب ولا الشتم، قال القرطبي - رحمه الله -: «قال العلماء: وحكم هذه

(١) جامع البيان: ٣٠٩/٥

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٣/٢

الآية يأتي في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في مَنْعَةٍ وضيق، أنه إن سب المسلمين أصنامه، أو أُمورَ شريعته، أن يسب هو الإسلام أو النبي ﷺ أو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، لم يحل للMuslim أن يسبَّ صلبانهم ولا كنائسهم؛ لأنَّه بمنزلة البعث على المصعبة<sup>(١)</sup>.

ويتجلى التعبير عن قاعدة سد الذرائع عند قوله: «لأنَّه بمنزلة البعث على المقصبة»، وسد الذرائع هو السائد في التعبير لدى السادة المالكية، قال القرافي: «وهو اصطلاح أصحابنا، وهذا اللفظ في مذهبنا؛ ولذلك يقولون: إن معناه: حسم مادة الفساد دفعاً لها، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة إلى المفسدة، مَنْعَةٌ مالك من ذلك الفعل كثيراً من الصور»<sup>(٢)</sup>، وعبر ابن العربي - رحمه الله - عنها - أيضاً - بقوله: «منع الله في كتابه أحداً أن يفعل فعلاً جائزًا يؤدي إلى محظور، ولأجل هذا تعلق علماؤنا بالآية - يريد قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ... الآية - في سد الذرائع، وهو كل عقد جائز في الظاهر يقول، أو يمكن أن يتوصل به إلى محظور»<sup>(٣)</sup>، وعند تفسيره لقوله - تعالى -: **﴿وَسَلَّمُوا عَلَى الْقَرِيبَةِ إِذْ كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَخْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبَّتِ﴾** [الأعراف، الآية: ١٦٣]، قال - رحمه الله -: «هذه الآية من أمهات الشريعة»<sup>(٤)</sup>، ثم قال: «وهي أصل من أصول إثبات الذرائع التي تفرد بها مالك - وتابعه أحمد في بعض روایاته -، خفيت على الشافعي، وأبي حنيفة، مع تبحرهما في الشريعة، وهو كل عمل ظاهر الجواز يتوصل به إلى محظور، كما فعل اليهود؛ حيث حرم عليهم صيد السبت، فسُكّروا الأنهر، وربطوا الحيتان فيه إلى يوم الأحد»<sup>(٥)</sup>، وما يلاحظ على الذرائع أنها استعملت بكثرة في سد

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦١/٧.

(٢) الفروق: ٣٢/٢.

(٣) أحكام القرآن: ٧٤٢/٢.

(٤) أحكام القرآن: ٧٩٢/٢.

(٥) أحكام القرآن: ٧٩٨/٢.

الفساد، وإن كان يؤخذ بها في جلب المصالح، فإذا أضيفت إلى: «السد» تعين المراد انصرافها إلى الفساد؛ لأن المصالح لا يعمل من أجل سدها.

لذلك فالذرائع لا يراد منها كلها الفساد، وهو مما يؤخذ من تقسيم الشاطبي- رحمة الله- للذرائع؛ حيث نظر إلى ما يسببه من مفاسد لغير الفاعل، فجعل ذلك في أقسام أربعة:

**الأول :** فعل مأذون فيه، يؤدي إلى المفسدة قطعاً، ويعني بذلك القطع العادي؛ كحرق البئر خلف باب الدار في طريق مظلم، بحيث يقع فيه الداخل لا محالة، أقول: «ولا شك أن الإجماع الحكيم من قبل القرافي ينصرف إلى هذا القسم بالذات»<sup>(١)</sup>.

**الثاني :** فعل مأذون فيه، يكون أداؤه إلى المفسدة نادراً؛ كحرق البئر بموضع لا يؤدي غالباً وقوع أحد فيه، وكزراعة العنبر ولو اتّخذ ذلك العنبر بعد ذلك للخمر.

**الثالث :** فعل مأذون فيه؛ لما فيه من مصلحة، ولكنه يؤدي إلى المفسدة غالباً- أي من غلبة الظن لا من باب العلم القطعي-؛ كبيع السلاح وقت الفتنة، وبيع العنبر للخمار، ونحو ذلك مما يقع في غالب الظن أداؤه إلى مفسدة لا على سبيل القطع.

**الرابع :** فعل مأذون فيه لما فيه؛ من مصلحة ولكنه يؤدي إلى المفسدة كثيراً لا غالباً؛ بحيث إن هذه الكثرة لا تبلغ مبلغاً يحمل العقل على ظن دوام المفسدة فيه؛ وذلك كمسائل البيوع، ومنها بيع السلعة بعشرة إلى شهر، ثم شراؤها بخمسة قبل الشهر، فإن مالك يرى أنه أخرج من يده خمسة الآن، وأخذ عشرة آخر الشهر، فهذه وسيلة لسلف خمسة عشرة إلى أجل توسلاً بإظهار البيع لذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) الفرق: ٣٢/٢.

(٢) الفرق: ٣٢/٢.

ومن هذه التقسيمات أمكن القول: إن الذرائع أصل في الفقه الإسلامي أخذ به الفقهاء جميعاً، وإن اختلفوا في مقداره، إلا أنهم لم يختلفوا في كونه أصلاً مقرراً ثابتاً.

ومن تطبيقات هذه القاعدة في القرآن:

١- قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعْنَاكَ وَقُولُوا أَنْظَرَنَا وَأَسْمَعُوا رَلِكَنِيرِنَ عَذَابَ أَلِيْسَ﴾ [البقرة، الآية: ١٠٤]، ووجه الاستدلال بالآية الشريفة، هو أن الله - تعالى - نهى المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة - مع أن قصدهم كان حسناً -؛ لولا يكون ذلك ذريعة إلى أن تقولها اليهود للنبي ﷺ بقصد مغايير؛ إذ كانوا يعنون بها سب النبي ﷺ .

٢- قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَضْرِبُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور، الآية: ٣١]، ووجه الاستدلال من الآية الكريمة: أن الله - تعالى - منع المؤمنات من الضرب بالأرجل، وهو - وإن كان جائزاً في نفسه - إلا أنه يكون سبباً إلى سماع الرجال صوت الخلل، فيلفت أنظارهم إلى النساء فيكون ذلك داعياً إلى الفتنة.

٣- قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَلْقَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١٠]، قال العز بن عبد السلام - رحمة الله -: «وأكل مال اليتيم من الكبائر، فإن وقع في مال خطير فهذا ظاهر، وإن وقع في مال حقير؛ كزبيرة وثمرة، فهذا مشكل... ثم قال: ويجوز أن يجعل من الكبائر وإن لم تتحقق المفسدة فيه»<sup>(١)</sup>.

## ٢- قاعدة : النهي عن الشيء يقتضي فساده :

و قبل مباشرة القاعدة يحسن بنا أن نوطئ لها، وذلك ببيان ماهية النهي، ووجه استعماله في التحرير، وأثره في العبادات والمعاملات.

ماهية النهي: النهي هو القول الدال على طلب الامتناع من الفعل على وجه الاستعلاء، وهذا الطلب يكون بصيغة: «لا تفعل»، وهي صيغة النهي المعروفة؛ كقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥١]، ويكون بما يجري مجريها؛ كما في صيغة الأمر الدال على الكف؛ كقوله - تعالى - في شأن تلبية نداء الجمعة: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة، الآية: ٩]، وكما في مادة النهي؛ مثل قوله - تعالى - : ﴿وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾، وكما في الجملة الخبرية المستعملة في النهي من طرق التحرير أو نفي الحل؛ كقوله - تعالى - في شأن المحرمات من النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُنْهَاكُمْ وَبَنَائِكُمْ﴾ [النساء، الآية: ٢٣]، وقوله في شأن أخذ عوض من المطلقات: ﴿وَلَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة، الآية: ٢٢٩]، ولئن كان النهي في اللغة حقيقة في طلب الترك واقتضائه - كما يقول الأمدي - ، فإن استعماله ورد على وجوه عدة<sup>(١)</sup>. ومن هذه الوجوه التحرير؛ كقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنْنَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢١]، والكرابة؛ كقوله - تعالى - : ﴿يَنْهَا الَّذِينَ مَأْمَنُوا لَا حُرِّمُوا طَبِيتَ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة، الآية: ٨٧]، والإرشاد؛ كقوله - تعالى - : ﴿لَا تَسْهُلُوا عَنِ اشْيَاءِ إِنْ تَبْدِلُوكُمْ﴾ [المائدة، الآية: ١٠١]، والدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ تَسْوِيْكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، والتيسير: ﴿لَا تُعَذِّرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُخْرُونَ مَا عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]

(١) انظر الإحکام في أصول الأحكام للأمدي: ٢٧٥/٢

**كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [التحريم، الآية: ٧]، والتحقيق: «وَلَا تَمْدَنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَرْوَاجَ  
مِنْهُمْ زَهَرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» [طه، الآية: ١٣١].

والذى يعنينا من هذه الأوجه كلها استعماله في التحرير، على أن جمهور الأصوليين يذهبون إلى أن دلالة النهي على التحرير على الحقيقة، لا يتم إلا إذا ورد مطلقاً<sup>(١)</sup>، ومن أمثلته في القرآن قوله - تعالى -: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَتْ حَتَّى يُؤْمِنْ» [البقرة، الآية: ٢٢١]، وقوله - تعالى -: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَنَجَّمُ بِالْبَطْلِ» [البقرة، الآية: ١٨٨]؛ حيث جاء النهي مطلقاً، فأفاد في الآية الأولى تحريم زواج المسلم بالشركات، وأفاد في الثانية تحريم الاعتداء على أموال الآخرين، فتحصل من اللغة والشرع أن النهي يقتضي التحرير، ويترتب على مرتكب المنهي عنه كونه عاصياً مستحقاً للعقوبة، قال الشافعي - رحمه الله -: «وَمَنْ فَعَلَ مَا نَهَى عَنْهُ وَهُوَ عَالَمٌ بِنَهْيِهِ، فَهُوَ عَاصِ بِفَعْلِ مَا نَهَى عَنْهُ،  
وَلَيُسْتَغْفِرَ اللَّهُ وَلَا يَعُودْ»<sup>(٢)</sup>.

وما ينبغي على ما سبق هو أن: «النهي يقتضي فساد المنهي عنه، سواء كان ذلك في العبادات، أو في المعاملات، وهو مذهب جماهير الفقهاء من أصحاب الشافعى، ومالك، والحنابلة، وجميع أهل الظاهر»<sup>(٣)</sup>، ومسلكهم في هذا النهي - حين يرد بصفة الإطلاق -؛ فإنه ينصرف بكليته إلى ذات الشيء المنهي عنه على وجه الحقيقة، كما أن سلامة التصرفات الشرعية من عبادات ومعاملات إنما تُسْتَمدُ من حكم الشارع بصحتها؛ لاستيفائها ما حدد لها في أوامره ونواهيه كي تكون صحيحة<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير النصوص: ٣٧٩/٢.

(٢) الرسالة، ص: ٣٥٣.

(٣) تفسير النصوص: ٣٨٩/٢.

(٤) تفسير النصوص: ٣٩١/٢.

والصحابة، ومن جاء بعدهم، كانوا يستدللون على بطلان الأفعال والعقود بنفي الشرع عنها، من غير نكير من أحد منهم، ومن ذلك استدلال ابن عمر على بطلان نكاح المشرفات بقوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَنِكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنْ لَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتُمُّهُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٢١]، وكذا استدلالهم على تحريم الربا والبيع والأنكحة بما ورد من النهي في الكتاب والسنّة<sup>(١)</sup>، ومن تطبيقات هذه القاعدة في القرآن الكريم قوله - تعالى - : ﴿يَتَآتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُوِيدُوكَ لِلصَّلَوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعُوا إِلَيْهِ ذِكْرَ اللَّهِ وَذَرُوهَا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة، الآية: ٩]، فالأمر الوارد في قوله : ﴿وَذَرُوهَا الْبَيْعَ﴾ يدل على أن من ثابثه بالبيع وقت النداء فإن بيته فاسد.



## المطلب الثاني :

ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

من بعض القواعد الفقهية

### ١- قاعدة: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح:

وذلك لأن اعتماد الشارع بالمنهجيات أشد من اعتماده بالأمورات<sup>(١)</sup>، قال ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم»<sup>(٢)</sup>.

ومن تطبيقاتها في القرآن الكريم:

أ- قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: «إِلَّا مَنْ أَكْنَرَهُ وَقْبَلُهُ مُظْمِنٌ بِالْأَيْمَنِ» [النحل الآية: ١٠٦]، فالتلتفظ بكلمة الكفر مفسدة محمرة؛ لكنه جائز بالحكاية والإكراه إذا كان قلب المكره مطمئناً؛ لأن حفظ المهج والأرواح أكمل مصلحة من مفسدة التلفظ بكلمة لا يعتقدها الجنان»<sup>(٣)</sup>.

ب- قوله - تعالى -: «يَسْأَلُوكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِنَّمَا كَيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ تَفْعِيلِهِمَا» [البقرة، الآية: ٢١٩]، فحرّمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما، أما منفعة الخمر فالتجارة ونحوها، ومنفعة

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ٢٠٥.

(٢) رواه البخاري ٢٥١/١٣ (كتاب الاعتصام، باب الاقداء بسنن رسول الله ﷺ).

(٣) قواعد الأحكام: ٧٥/١.

الميسر فيما يأخذ القامر من المعمور، وأما مفسدة الخمر فيإيازاتها العقول، وما تحدثه من العداوة والبغضاء، والصدّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهي نفس المفاسد الناجمة عن القمار، وهي مفاسد عظيمة نسبة إلى المنافع المذكورة إليها<sup>(١)</sup>.

## ٢- قاعدة: إذا تزاحمت المصالح قُدْمَ الأعلى منها، وإذا تزاحمت المفاسد، واضطر إلى واحد منها، قُدْمَ الأخف:

وهو أمر من وفق إليه هديه إلى صراط مستقيم، وأول سبيله معرفة المصالح وفضلهها؛ بحيث يتعين المضي إلى جلب الأفضل فالأفضل، وما يقال في المصالح يقال في المفاسد؛ حيث يعمد إلى درء الأعظم مفسدة بالأخف عند التزاحم.

ومن تطبيقاتها في القرآن الكريم:

### ١- في تزاحم المصالح:

قوله - تعالى -: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا شَرِكُوا بِهِ، شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنَا﴾ [النساء، الآية: ٣٦]، فطاعة الله - عز وجل - هي الأولى بحيث لا تقدم طاعة أحد على طاعته، ومن صوره ألا يطيع والديه في منعهما له من الحج الواجب، والجهاد المتعين، فلا طاعة لخلق في معصية الخالق.

\* وكذلك ما يتعلق بالأركان الباقية بحيث يجب عليه تقديم الواجب من الصلاة على النافلة، والزكاة على الصدقة، والصيام الفرض على صيام النفل.

## ٢- في تزاحم المفاسد :

\* قوله - تعالى - : **﴿فَانظَلُّهَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾** [الكهف، الآية: ٧١] لأن خرق السفينة مفسدة وذهبها كلها غصبا من الملك الذي أمامهم مفسدة أكبر، فارتکب الأخف وهو الخرق؛ لغلا يقول الأمر إلى الغصب، وهو أعظم مفسدة، وأشد ضررا على المساكين.

\* قوله - تعالى - : **﴿فَانظَلُّهَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا عَنْهَا فَقَنَلُمُ﴾** [الكهف، الآية: ٧٤]، وذلك أن الحال دائرة بين قتله للغلام وهو مفسدة، وبين إراهقه لأبويه بالكفر، وإفساده لدينهما، وهي مفسدة أعظم، فارتکب الأخف؛ وهو القتل.

\* قوله - تعالى - : **﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَتَوَسَّطَ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِيُونَ إِلَيَّ لِيَقْتُلُوكَ﴾** [القصص، الآية: ٢٠]، فإذا اعتبر هذا من قبل النعيمة فهو مفسدة محرمة؛ لكنها جائزة، أو مأمور بها، إذا نقل للمسلم أن هناك من يريد قتله، أو هتك عرضه، أو أخذ ماله، فيكون من قبل التوسل بهذا إلى دفع ما هو أعظم مفسدة عن هذا المسلم.



## الفصل الثالث :

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾

المبحث الأول : ذكر بعض محل ورودها في القرآن

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : منهج القرآن في رفع الحرج

المبحث الخامس : مواكبة الكلية لمواكبة الحياة

المبحث السادس : الكلية والتشريع

المبحث السابع : تفريعات وتطبيقات

the first time, the author has been able to show that the *lute* was used in the same way as the *guitar* in the same period. The author also shows that the *lute* was used in the same way as the *guitar* in the same period.

1990

## المبحث الأول :

### ذكر بعض محالٍ ورودها في القرآن

\* قوله - تعالى :- **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِرٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِنَّمَا عَلَيْهِ﴾** [البقرة، الآية: ١٧٣].

\* قوله - تعالى :- **﴿كُنْبَتِ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾** إلى أن قال : **﴿فَذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾** [البقرة، الآية: ١٧٨].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَذِيَّةٌ طَعَامٌ وَسِكِينٌ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٤].

\* قوله - تعالى :- **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْأَئْمَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُشَرَّرَ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٥]، قوله : **﴿عِلْمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٧].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِكَادِ﴾** [البقرة، الآية: ٢١٨]، قوله : **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتُكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٠]، قوله : **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٥]، قوله : **﴿لَا يُكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** [البقرة، الآية: ٢٨٦]، قوله - تعالى :- **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** [البقرة، الآية: ٢٨٦].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَلَلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾** [آل عمران، الآية: ٩٧].

\* قوله - تعالى - : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ [النساء، الآية: ٢٤]، قوله - تعالى - : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ الْأَنْسَنَ صَعِيفًا﴾ [النساء، الآية: ٢٨]، قوله : ﴿وَلَا نَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء، الآية: ٢٩]، قوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْجُونَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَ�يِطِ أَوْ لَمْسَتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَبَيَّنُوا صَعِيدًا طَبَيْنَا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِهِمْ وَأَيْذِيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ [النساء، الآية: ٤٣]، قوله - تعالى - : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَوْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوُّ أُولَئِكَ الرَّصَدُ وَالْمُجْهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُلُوهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [النساء، الآية: ٩٥]، قوله : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ نَقْصُرُوا مِنَ الْأَصْلَوَةِ إِنْ خَفْتُمْ أَنْ يَقْنِتُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء، الآية: ١٠١]، قوله : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذْكَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلَحَتُكُمْ﴾ [النساء، الآية: ١٠٢].

\* قوله - تعالى - : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَحْسَنَةٍ غَيْرِ مُتَجَافِفِ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية: ٢٣]، قوله - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا آتَقُوا وَمَآمُنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ ثُمَّ أَنْقَوْا وَمَآمُنُوا ثُمَّ أَنْقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة، الآية: ٩٣].

\* قوله - تعالى - : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأనعام، الآية: ١٢]، قوله - تعالى - : ﴿وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَضْطُرْرَتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام، الآية: ١١٩]، قوله - تعالى - : ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام، الآية: ١٥٣]، قوله : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَابِرٌ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام، الآية: ١٤٦].

\* قوله - تعالى - : ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف، الآية: ٤٢]، قوله - تعالى - : ﴿وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصرَهُمْ وَالْأَغْلَلُ أَلَّى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٧].

\* قوله - تعالى :- **﴿أَنْفَنَ حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ ضَعْفًا﴾** [الأفال، الآية: ٦٦].

\* قوله - تعالى :- **﴿لَيْسَ عَلَى الْضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُنَّ مَا يُنْفِقُونَ حَرُجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [التوبه، الآية: ٩١] ، وقال - تعالى :- **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُمْ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَخْلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَا يَحْدُثُنَّ مَا يُنْفِقُونَ﴾** [التوبه، الآية: ٩٢].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَالآنَعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَّةٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَاهَلٌ حِيَاتٌ تُبْرُونَ وَحِينَ تَسْرُونَ وَتَخْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَئِنْ تَكُونُوا بِنَاعِيْهِ إِلَّا يُشِقُّ الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [النحل، الآيات: ٥-٧] ، قوله - تعالى :- **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقْلَبُهُ مُظْمِنٌ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنَّ مَنْ شَرَحَ إِلَى الْكُفَّارِ صَدَرَ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [النحل، الآية: ١٠٦] ، قوله - تعالى :- **﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِعٍ وَلَا عَادِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [النحل، الآية: ١١٥].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** [آل الأنبياء، الآية: ١٠٧].

\* قوله - تعالى :- **﴿وَلَا تُكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَنِنَا كَتَبْ يَنْطَقُ بِالْحَقِّ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ﴾** [المؤمنون، الآية: ٦٢].

\* قوله - تعالى :- **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بِيُوتَنَا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَنْعَ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبَدِّلُونَ وَمَا تَكْتُبُونَ﴾** [النور، الآية: ٢٩].

\* قوله - تعالى :- «**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِسْتُ عَنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكْتُ أَيْمَنَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَنْلَوْا الْحَلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَجِئَنَ تَضَعُونَ بِيَابِكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوكُمْ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» [النور، الآية: ٥٨].**

\* قوله - تعالى :- «**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَغْرَاجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ» [النور، الآية: ٥٩].**

\* قوله - تعالى :- «**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهِلًا لِالْقَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَنْلُو عَلَيْهِمْ أَيَّتِنَا**» [القصص، الآية: ٥٩].

\* قوله - تعالى :- «**أَذْعُوهُمْ لِأَبَاهِيهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ لَمْ تَعْلَمُوا مَا بَاءَهُمْ فَإِخْوَنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَيُكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ إِيمَانَهُ وَلَكِنَّ مَا تَعْمَدَتْ قُلُوبُكُمْ» [الأحزاب، الآية: ٥٥]، قوله - تعالى :- «**فَلَمَّا فَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا رَوَاحِنَكُمَا لَكَنَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَذْعَبِيَّهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً» [الأحزاب، الآية: ٣٧]. **(فَقَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ لِكِيلًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا** ﴿٢﴾ تُرْجِي مَنْ شَاءَ مِنْهُنَّ وَتُنْقِي إِلَيْكَ مَنْ شَاءَ وَمَنْ أَنْفَقَتْ مِنْهُ عَزَلَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» [الأحزاب، الآية: ٥١، ٥٠]، قوله - تعالى :- «**لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي مَآبَاهِنَّ وَلَا أَبْنَاهِهِنَّ وَلَا إِخْوَنَهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِغْرَيْهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخْوَتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ وَأَتَقْيَنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴿٣﴾ [الأحزاب، الآية: ٥٥].****

\* قوله - تعالى :- «**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَغْرَاجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِنَّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**» [الفتح، الآية: ١٧].

\* قوله - تعالى :- ﴿الَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنْكُمْ مَنِ نِسَاءُهُمْ مَا هُنَّ بِأَمْهَنِهِمْ إِنْ أَمْهَنُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ وَلَدَنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لِيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعُوْغَفُرٌ ﴾ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظْهِرُونَ مِنِ نِسَاءِهِمْ تُمْ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَبْطَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴾ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَحْذِفْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُسْتَأْعِيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سَيِّئَةً مِسْكِنًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكُفَّارِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾ [المجادلة، الآية: ٤-٥] ، قوله - تعالى :- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدْ دُمِّرُوا بَيْنَ يَدَيْنِكُوكَ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُوكَ وَاطْهَرٌ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿١٢﴾ [المجادلة، الآية: ١٢].

\* قوله - تعالى :- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنُتُ مُهَاجِرَةً فَامْتَحِنُهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ جُنُّلٌ لَمُنْ وَلَا هُنَّ يَحْلُونَ لَهُنَّ وَمَا تُوْهُمُ مَمَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْكِحُوهُنَّ إِذَا أَنْتُمُوهُنَّ أَبْرَارٌ ﴾ ﴿١٠﴾ [المتحنة، الآية: ١٠].

\* قوله - تعالى :- ﴿فَلَنَقُوا اللَّهُ مَا أَسْتَطَعُتُمْ ﴾ [التغابن، الآية: ١٦].

\* قوله - تعالى :- ﴿لِسُفْقٍ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَيْهُ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلِيُسْفِقْ مِمَّا مَأْتَهُ اللَّهُ لَا يُكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا مَأْتَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ﴿٧﴾ [الطلاق، الآية: ٧].

\* قوله - تعالى :- ﴿وَنِسْرُكَ لِلْمُسْرَى ﴾ ﴿٨﴾ [الأعلى، الآية: ٨].

\* قوله - تعالى :- ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ﴿٩﴾ [الشرح، الآيات: ٦، ٥].



## المبحث الثاني :

### فقهها

### المطلب الأول :

لئن كان مطلع الآية الكلية يوحى بأن الله - تعالى - يأمر بالجهاد في سبيله، وهو قاتل أهل الكفر، فإن من المفسرين من رأى أن العموم حسن<sup>(١)</sup> ، حيث يأمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يجاهدوا أنفسهم، وأن يجاهدوا الكفار والمنافقين، وأن يجاهدوا الظلمة المعتدين، فكان ذلك أمراً عاماً يلزم منه أن يكون المأمور أهلاً للإتيان بالماضي به؛ لذلك أتبعه بقوله - عز وجل - : **﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾** ، هذا الاجتباء الذي يعني الاختيار والاصطفاء، وهو قربة وزلقى من الله، ومن قربه العظيم، لرمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بترك ما لا يرضاه.

ودفعاً لتوهم التكاليف والمشاق التي لا تطاق عند التلبس بهذه المأمورات والمنهيات المؤلفة للتشريع، حرص الشرع أن يزفّ البشرة إلى المكلفين مخبراً إياهم بقوله - تعالى - : **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**<sup>(٢)</sup> [الحج، الآية: ٧٨].

(١) المحرر الوجيز .٢٢٠/١١

(٢) والقول بسماحة الشريعة ويسراها حق لا مراء فيه، إلا أن من الناس من يمضي في الاحتجاج بهذا التيسير قصد التفلت من أحکام الشريعة، والتحايل عليها، واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والشذوذات الفقهية، وكل ذلك باطل يتبعه أصحاب الهوى يريدون بذلك تحلل المجتمع من أحکام الشريعة تحت مظلة التيسير! وترك الحرج، وصدق الله العظيم: **﴿وَرِيدُ الَّذِينَ يَتَسَعَونَ أَلَّهُمَّ أَنْ يَبْلُوَا مَيْلًا عَظِيمًا﴾** [النساء، الآية: ٢٧].

وذلك حتى يسهل العمل بهذه الشريعة فيسعد أهلها بسهولة الامتثال، ولقد امتن الحق - سبحانه - بهذا في كثير من الموضع منها هذه الآية الكلية، حيث يَبَيِّنُ أن هذه الحنيفية السمحنة التي جاء بها النبي ﷺ مبنية على التخفيف واليسر لا على الحرج الذي يعني الضيق. وقد أطلق الحرج على عسر الأفعال تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، كما أن الرسول ﷺ يشَرُّ أتباعه بهذا في أحاديث كثيرة؛ منها قوله ﷺ : «بَعْثُ الْحَنِيفَيَّةِ السَّمْحَنَةِ»<sup>(١)</sup> ، فكان أن سَمَحَ اللَّهُ هذَا الدِّينَ، تَحْبِيَّتْ لَهُ فِي النُّفُوسِ، وَرَفَعَ لِلأَصْارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْحِرْجِ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ، فَقِيلَ: هُوَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنَ النِّسَاءِ مُثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ وَمِلْكَ الْيَمِينِ، وَقِيلَ الْمَرَادُ قَصْرُ الصَّلَاةِ، وَالإِفْطَارُ لِلْمَسَافِرِ وَالصَّلَاةُ بِالْإِيمَاءِ عَلَى مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِسْقَاطُ الْجَهَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ وَالْأَعْمَى وَالْمَرِيضِ، وَاغْتِفارُ الْخَطَايَا فِي تَقْدِيمِ الصَّيَامِ وَتَأْخِيرِهِ؛ لَا خِتَالَفُ الْأَهْلَةِ وَكَذَا فِي الْفَطْرِ وَالْأَضْحِيِّ.

وقيل المعنى أنه - سبحانه - ما جعل عليهم حرجاً بتکلیف ما يشق عليهم ولكن کلفهم بما يقدرون عليه.

وقيل: المراد بذلك أنه جعل من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتکفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش والقصاص في الجنایات وردد الملل أو مثله أو قيمته في الغضب ونحوه<sup>(٢)</sup>.

لو قال أَمْعَنَ لَكَانَ أَخْسَنَ، أَقُولُ: وَمَنْ غَلَطَ النَّظَرَ فِي الْآيَةِ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْأَمْرَ أَعْمَّ؛ لأنَّه - تَعَالَى - قَالَ: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ»، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَمْرَاتِ ذُكِرَتْ هِيَ مِنَ الدِّينِ وَلَا شَكٌ، فَاقْتَضَتِ الْآيَةُ الْعُمُومَ فِي كُلِّ التَّكَالِيفِ، حِيثُ «حَطٌّ» - سبحانه - مَا فِيهِ مُشْقَةٌ مِّنَ التَّكَالِيفِ عَلَى عِبَادِهِ إِمَّا بِإِسْقَاطِهَا مِنَ الْأَصْلِ، وَدُمُّ التَّكَلِيفِ بِهَا، أَوْ

(١) مسند أحمد: ٢٦٦/٥.

(٢) فتح القدير: ٤٧١/٣.

بالتخفيف، وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه أو بمشروعية التخلص من الذنب بالوجه الذي شرّعه الله، فتكون الآية أعظم نفعاً وأشد وقعاً وأكثر فائدة إن أخذت على الوجه العام<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### إطلاقات عليها

إن التأمل للآيات السابقة التي وردت في سياق الحديث عن امتنان الله - عَزَّ وَجَلَّ - برفع الحرج والكلفة عن المكلفين، ليجدَنَّ رفع الحرج وارداً بإطلاقات متعددة، وهو من قبيل براعة الكتاب في تصريف القول، وثراته في أفنين الكلام، حيث يورد المعنى باللفاظ وطرق مختلفة بمقدمة فائقة خارقة، وحسبنا أمثلة تهدينا إلى الإشراف على هذه الحقيقة، حيث إن الحرج يُرِدُ في القرآن بتعبير ذات الحرج، ومرة بتعبير اليسر والتخفيف، ومرة برفع العسر، وأخرى بنفي العنت، وفي مقام آخر نجد التعبير بنفي الجناح، ومرة بالنهي عن الغلو في الدين، ومرة بنفي المؤاخذة، ومؤدي هذه التعبيرات وهذه الإطلاقات كلها هو رفع الضيق والمشقة التي لا تطاق عن المكلفين، وإليك نماذج لكل هذه الإطلاقات.

١- من آيات نفي الحرج : ومن هذه الآيات ما هو نصٌ صريح في نفي الحرج عن الدين كله؛ كقوله - تعالى - : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [الحج، الآية: ٧٨]، فهي عامة في بابها، جامدة لكل ألوان المشاق التي قد تلاسِن التكاليف.

ومنها ما هو خاص يُقصِّرُ نفي الحرج على فئات معينة، وفي أحوال خاصة، وهذا لا يعني قصور دلالتها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن مثل ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكُنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرُكُمْ وَلَيُسْتَمِّ نِعْمَتَنِّ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ» [المائد، الآية: ٦]، فهذا الجزء من الآية الكريمة إنما ورد تعليلاً لرخصة التيمم، والحرج المنفي هنا هو:

أولاً : الحرج الحسي لو كلفوا بطهارة الماء مع المرض والسفر.

ثانياً : الحرج النفسي لو مُنعوا من أداء الصلاة في حال العجز عن استعمال الماء؛ لضرر أو لسفر أو لغيرها، فإن المسلمين الخالص كانوا - ولا زالوا - يرتحون إلى الصلاة ويفدون إليها<sup>(١)</sup> ، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : **﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُخْسِنِينَ مِن سَيِّئٍ﴾** [التوبه، الآية: ٩١] ، فالآية تمثل جواباً عن سؤال مقدر نشأ من تهويل القعود عن الغزو وما توجهه به إلى المخالفين من الوعيد، وإعادة صرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه<sup>(٢)</sup> ، ومثله - أيضاً - قوله - تعالى - : **﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجَنَّكُمْ لِكَنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَقَ أَدِيعَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً \* مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لِمُسْتَهْلِكَةِ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَّرًا مَقْدُورًا﴾** [الأحزاب، الآيات: ٣٧، ٣٨] ، «فالحكمة من هذا التزويج في إقامة الشريعة تظهر - كما أشارت الآية - في إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل بزوجة دعيه»، فلما أبطله الله بالقول في سورة الأحزاب؛ حيث قال - تعالى - : **﴿وَمَا جَعَلَ أَدِيعَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُم﴾** [الأحزاب، الآية: ٤] ، أكد إبطاله بالفعل حتى لا يبقى أثر من الحرج كأن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالاً فينبغي التزه عنه لأهل الكمال، فاح提ط لانتفاء ذلك بإيقاع الزوج بأمرأة الدعي بعد طلاقها منه - من أفضل الناس وهو النبي ﷺ فلا حرج على أي مسلم في زواج من هذا القبيل، فإن له في رسول الله إسوة حسنة، ولا حرج على النبي ﷺ فيما فرض الله له<sup>(٣)</sup> .

(١) التحرير والتنوير: ١٣١/٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩٤/١٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٨/٢٢.

## ٢- من آيات التيسير والتحفيض :

أ - ومن هذا النوع ما وَرَدَ على شكل التيسير، فجاء الإخبار بهذا التيسير والتحفيض ابتداءً، وذلك كقوله - تَعَالَى -: ﴿وَيُبَشِّرُكُمْ بِالْيُسْرَى﴾ [الأعلى، الآية: ٨]، أي نهيك للأمور البسيطة في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن - الذي هو وعاء الشريعة - وتيسير الشريعة التي أُرْسِلَتْ بها<sup>(١)</sup> ، ومن هذا القبيل قوله - تَعَالَى -: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٦٥، الآية: ٦]، حيث وعد الله - تَعَالَى - نبيه ﷺ بأن يجعل له الأمور العسيرة عليه يسراً له، وهو ما سبق وعلمه في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَيُبَشِّرُكُمْ بِالْيُسْرَى﴾ [٨] (الأعلى، الآية: ٨)، ومن آثار هذا التيسير أن رسول الله ﷺ ما خَيَرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، وقد قال لأصحابه - رضوان الله عليهم -: «إِنَّمَا بَعْثَمْ مَيْسُرِينَ لَا مَعْسُرِينَ»<sup>(٣)</sup>.

ب - ومن هذا النوع من الآي ما يرد باعتباره علة لما قبله ويكون القصد منه التحفيض والتيسير، وذلك كقوله - تَعَالَى - عقب الحديث عن الصيام وبعض أحكامه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٥]، فهذا القول الكريم يتكون من جملتين، جملة إثبات وجملة نفي، الأولى: مقصودة ابتداء، والثانية: جاءت تأكيداً لها فهما معاً تُبَيَّنُانِ أنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أراد بتشريعه الأحكام، البساطة والسهولة والرفق بالناس، ونفي العسر والشدة والضيق عنهم، ولكن كان هذا القول وارداً مباشرة بعد النص على

(١) التحرير والتنوير: ٢٨٢/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٤١٤/٣٠.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١/٣٢٣ (كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد).

التريخيص - إذ هو كالعلة له - فإن دلالته على العموم واضحة جلية، وقد أشار غير واحد من المفسرين إلى ذلك<sup>(١)</sup>.

والمراد باليسر في الآية العمل الذي لا يجهد النفس ولا يشق الجسم وليست فيه مشقة زائدة، ويقابله تمام المقابلة العسر؛ لأن هذا فيه إجهاد للنفس، وفيه ضرر للجسم وفيه مشقة زائدة.

ومن أمثلته - أيضاً - قوله - تعالى -: «بِرُّيْدَ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا» [ النساء، الآية: ٢٨]، وفيها تذكير بأن الله - تعالى - لا يزال مراعياً رفقه بالعباد ولا يريد بهم إلا اليسر، وإلى جانب هذا المعنى، فقد حوت الآية إشارة تدل على أن هذا الدين بين حفظ المصالح ودرء المفاسد في أيسير كيفية وأرفقها، حتى إن الشريعة لتعمد إلى إلغاء المفاسد حين يشعر الحمل إلى تركها أنه مؤذ بالناس إلى تعطيل مصالحهم<sup>(٢)</sup>.

- ٣- من آيات نفي العنت : «والعنت يطلق ويراد به المشقة والصعوبة والشدة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ والزنا»<sup>(٣)</sup> ، وما يهمنا من هذه المعاني ما ورد منها أولاً وهو ما دل على المشقة، وقد ذكر العنت في آيتين من القرآن:

\* في قوله - تعالى -: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِّي» [الحجرات، الآية: ٧]، فقوله - تعالى -: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ»، خبر أريد به إيقاظ السامعين وتحذيرهم على سبيل الكناية؛ لأن وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم أمر معلوم من الخاص والعام، وما كان كذلك لا يُحْبِرُ عنه عادة، فيقين أن يكون المقصود دعوة المسلمين إلى اتباع ما شرع لهم رسول الله ﷺ من أحكام ولو

(١) التحرير والتبيير: ١٧٥/٢.

(٢) التحرير والتبيير: ٢٢/٥.

(٣) النهاية غريب الحديث: ٣٠٦-٣٠٧. ٣/٦.

كانت معارضة لأهوائهم ورغباتهم الخاصة في الظاهر أو العاجل، وجملة **﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾**؛ تفيد تقريراً وتأكيداً من الله - تعالى - بأن الرسول ﷺ أطاعهم في كثير مما يختارون؛ لأدى ذلك إلى وقوعهم في المحرج كما قال - سبحانه وتعالى - في آية أخرى: **﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقَّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾** [المؤمنون، الآية: ٧١]؛ لأن بعض ما يطلبونه مضر بالغير أو بالراغب نفسه، فربما أحب عاجل النفع دون أن يعلم أنه عائد عليه بالضرر<sup>(١)</sup>، وبتحبيبه الإيمان إلى نفوسنا وتزيينه في قلوبنا، إنما هو من قبيل الإجراءات الوقائية حتى يحول بيننا وبين الوقع في العنت.

\* وفي قوله - تعالى -: **﴿وَيَسْتَوْنَكَ عَنِ الْيَتَمَنَ قُلْ إِصْلَاحٌ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِلْخَوَنَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتُكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٠]، وأين تبرز مشيئة الله الإعنات بالملطفين المخالفين لليتامى؟ إنما تبرزها في تكليفنا بالقيام بشئون اليتيم تربية وحفظاً لماله - ثم لا يأذن بمخالطته ولا يأكل ولو لقمة واحدة من طعامه - إلا أنه لسعة رحمته لا يُكلّف نفساً إلا وسعها، وما جعل علينا في الدين من حرج، لذلك أباح المخالطة والمعاملة لليتامى معاملة الإخوة مع عفوه عما جرى العرف على التسامح فيه لعدم استغباء المخلطاء عنه<sup>(٢)</sup>.

٤- من آيات نفي المؤاخذة : قوله - تعالى -: **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُ قُلُوبُكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ٢٢٥]، فالآية التي قبلها أفادت النهي عن التسرع بالحلف بما أثار التشوف عند من كانت عادته جريان الحلف على لسانه ولكن دون قصد منه، فطلع بخوف وحذر إلى حكم هذا النوع من الأيمان، فجاءت

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣١٦/٣.

(٢) التحرير والتوضير: ٢٥٥/٢.

هذه الآية الكريمة مطمئنة له بنفي المؤاخذة باللغو في الأيمان وإثباتها فقط لما يكسبه قلبه وتنزعُم عليه نفسه من إصرار على اليمين الغموس<sup>(١)</sup>.

٥- من آيات النهي عن الغلو في الدين : وهو تجاوز الحد المأثور: يقال: غاليت الشيء وغلوت فيه أغلو غلو إذا جاوزت فيه الحد من المعقول أو من المشروع. والغلو في الدين: أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدّه له الدين<sup>(٢)</sup> ، وما ورد في القرآن من آيات النهي عن الغلو:

« قوله - تعالى - : ﴿يَأَهْلَ الْكِتَبِ لَا تَنْهَا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَنَهَا إِلَيْنَا مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء، الآية: ١٧١] ، فالخطاب للنصارى وقيل: يدخل معهم اليهود، والإضافة فيه بين أهل الكتاب تضمن تعريضاً بليغاً بكونهم خالفوا كتابهم بالإفراط فيه والافتئات عليه.. وإذا كان هذا النهي موجهاً لأهل الكتاب ويخص النهي عن الغلو في الدين، فإن فيه عبرة للمسلمين، فهم أولى بالانتهاء عن الغلو من غيرهم وأحق بهذا الخطاب من سواهم، حيث إن دينهم دين الرحمة واليسر والعدل والاعتدال فلا إفراط ولا تفريط ولا تقتير ولا تبذير، ومثل هذا في قوله - تعالى - : ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَبِ لَا تَنْهَا فِي دِينِكُمْ عَنِ الْحَقِّ وَلَا تَنْهَا عَنِ الْهُوَاءِ قَوْمٌ قَدْ ضَلَّوْا مِنْ قَبْلٍ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة، الآية: ٧٧] ، والآية تتعذر على أهل الكتاب غلوthem الذي كان متأهلاً لاتباع هوا الصلال والإضلal، حتى أنسوههم منهج الله، فحادوا عن الصراط المستقيم الذي يتسم بالوسطية، فلا وكس ولا شطط، وهي سنة الأنبياء والصالحين والخواربين الذين كانوا لهذا النوع من العبادة منكرين.

(١) التحرير والتفسير: ٢٨٠ / ٢.

(٢) غريب القرآن وتفسيره: ١٨٧ / ٣، وانظر مجاز القرآن: ١٤٣ / ١، وانظر معجم مفردات ألفاظ القرآن: ص: ٣٧٧.

## ٦- آيات أخرى دالة على رفع الضيق والخرج من حيث المعنى :

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء، الآية: ٢٩] ، فهي دالة بإشارتها على أن ذلك من جهة الرفق بالعباد ، وقوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَّحِيمًا﴾ [النساء، الآية: ٢٩] ، وفيها إشارة إلى رفع الحرج عن المكلف؛ إذ الرحمة تقتضي الرفق بالمكلف ، ونظيرها قوله - عز وجل - واصفًا نبيه عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنباء، الآية: ١٠٧] ، وقوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا قَاتَلُوكُمُ الظَّالِمُونَ أَنْتُمُ الْمُأْمَنُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٦] ، وقوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجَّةٌ أَبْيَتِ مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [آل عمران، الآية: ٩٧] ، وقوله - تعالى - : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَلَ أَلْقَى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٧] ، « والمراد بالإصر: التكاليف الصعبة؛ كقتل النفس في توبته وقطع الأعضاء الخاطئة ، وأما الأغلال فيراد بها - والله أعلم - الأحكام الشاقة نحو قطع الأعضاء بالقصاص عما كان أو خطأ من شرع الدية »<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص: ٢٨.

## المبحث الثالث :

### قيمتها

## المطلب الأول :

### الكلية من مقاصد الشريعة

تضافرت الأدلة إلى حد القطع - كما رأينا - حتى ظهر أن الكلية من مقاصد الشريعة، وفي هذا الشأن يقول الشاطبي - رحمه الله -: « ورفع الحرج مقصود للشارع في الكليات، فلا تجد كلية شرعية مكلفاً بها، وفيها حرج كلي أو أكثرى البة، وهو مقتضى قوله - تعالى - : ﴿وَمَا جَعَلَ عَيْنَكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾<sup>(١)</sup> [الحج، الآية: ٧٨] ، ولو كان قصد الشارع إلى المشقة في التكاليف، لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وهو أمر تزهت عنه الشريعة بلا ريب؛ إذ لو كان وضعها على قصد الإعانت، لحصل التناقض وهو محال، وما يشهد لهذا القصد الشرعي، والثابت من مشروعية الرئحص المقطوع بها حتى صارت من المعلوم من الدين بالضرورة، كرخص القصر والفترط والجمع وتناول الحرمات عند الاضطرار، فهذه كلها دالة بالقطع على رفع الحرج، ولا يلزم من قصد الشارع عدم التكليف بما لا يطاق أن يفهم منه انتفاء المشقة بالكلية، فالتكليف بالمشاق حاصل بدليل لفظة التكليف نفسها، إلا أنه في العادة المستمرة لا تسمى مشقة « فشأن هذا النوع من المشاق شأن طلب المعاش؛ لأنه ممكن معناد لا يقطع ما فيه من الكلفة عن العمل في الغالب، بل أهل العقول السليمة يعدون المنقطع عنه كسلان، ويذمونه بذلك، فكذلك بالنسبة للتکاليف »<sup>(٢)</sup> ، فالمشقة - إذا -

(١) المرافقات: ٣١٣/١.

(٢) المرافقات: ٨١/١، ٨٢.

كائنة إلا أن الشارع جعل فيها للمكلف مخرجا، والشارع قصد بذلك المخرج أن يتحرر المكلف كما جاء في الرخص المخروطة من المشاق، فإن هو توخي الخروج من ذلك على الوجه الذي رسمه الشرع، عدّ ممثلاً، وإن لم يفعل وقع في محظورين: أحدهما: مخالفته لقصد الشارع، الثاني: سُدُّ باب التيسير عليه وقد المخرج عن ذلك الأمر الشاق<sup>(١)</sup>، ومن أمثلة هذا ما لو طلق الرجل زوجته ثلاثة ابتداء حيث يكون بذلك مخالفًا لرسم الشارع، فيفقد المخرج من ورطته تلك، في حين لو تحرى السبيل الأقوم في ذلك حيث جعل له الشرع أن ينفَسْ كربته الشديدة من الزوجة، وذلك بتطليقها طلقة واحدة فيؤدبها بهذا حتى إذا عرفتوبتها وراجعت نفسها في تحملها حفظاً لصلحته، راجعها، فإذا اشتد كربه ثانية، عاود تطليقها.

وهكذا يكون له من خلال تحريره لمقصود الشرع مخرجا، وفي نفس الأمر امتثالاً للشارع الحكيم<sup>(٢)</sup>. وعلى الجملة؛ «إن من المقاصد الجليلة لهذه الكلية أن يسدّ باب التعمق في الدين؛ لئلا يعوا عليها بنواجذهم، فيأتي من بعدهم قوم فيظنون أنها من الطاعات السماوية المفروضة عليهم، ثم تأتي طبقة أخرى فيصير الظن يقيناً؛ والمحتمل مطمئناً به، فيظلُّ الدين مُحرقاً، وهو قوله - تعالى -: ﴿وَرَهَبَانِيَةً أَبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الم الحديد، الآية: ٢٧]<sup>(٣)</sup>، فالمُكْلَفُ مُطالب بالإتيان بوظائف شرعية واجبة عليه يقوم فيها بحق الله - تعالى - وبحقوق الغير، فإذا أوغل في عمل شاق، فربما كان سبباً في عدم القيام بأمر آخر واجب التكليف، فيكون بذلك ملوماً غير معذور؛ إذ المطلوب القيام بجميع المأمورات على وجه لا يخلُ بواحد منها، وما هو معلوم أن الحقوق تزاحم على المكلف؛ لذلك أوجب الإتيان بها دون الإخلال بواحد منها، روى البخاري - رحمة الله - في صحيحه عن أبي جحيفة - رضي الله عنه - قال: «آخر

(١) المرافقات: ٣٠٨/١

(٢) انظر تعليق دراز هامش ٢ من المرافقات: ٣٠٧/١

(٣) انظر حجة الله البالغة: ٥٤، ٥٥/٢

رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فرأى أم الدرداء وهي زوجة مبتدلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كُلْ فإني صائم، فقال: ما أنا بأكل حتى تأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال له النبي ﷺ: صدق سلمان<sup>(١)</sup> ، والحديث يشتمل على جواز النهي عن المستحبات إذا خيف الإفشاء إلى السامة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المنووبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور<sup>(٢)</sup> ، وإذا كان رفع الحرج مقصوداً للشارع في التكاليف فإن الحكمة من ذلك، هي: الإبقاء على هذه التكاليف من حيث إتيان المكلف لها دون تقصير أو خوف من الانقطاع وبغض العبادة وكراهة هذا التكليف<sup>(٣)</sup> .



(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٤/٢٠٩ (كتاب الصيام باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع..).

(٢) المرافقات: ٤٤٠/٢.

## المطلب الثاني :

### الكلية تتماشي والفطرة الإنسانية

لا شك أن بين شريعة الله وفطرة الإنسان تلاحمًا كبيراً وتجاوzaً وانسجامًا، ذلك أن من البدئيات التي لا يجادل فيها إثنان أنه ما من إنسان إلا ويحب الخير لنفسه، ويسعى جاهداً لتحقيق مصالحه، ويجهد في تلبية رغباته، كل ذلك منصوص عليه في الكتاب قال - تعالى - مبيناً نزعات الإنسان : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات، الآية: ٨] ، وقال - تعالى - : ﴿لَا يَسْمَعُ إِنْسَنٌ مِّنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَهُ أَثْرٌ فَيُنُوشُ قَنُوطٌ﴾ [فصلت، الآية: ٤٩].

وحين يتلبس المكلف بالشر ظنناً منه أنه خير، ويتورط في المفسدة ظنناً منه أنها مصلحة؛ فإنما لقصور إدراكه وسوء فهمه؛ إذ المعول عليه في هذا المقام هو الشّرع، هذا الشر الذي لم يُغيّب التلاقي بين طبيعة الإنسان وأحكامه؛ حيث جاء بها على وفاق تام بينهما، فلم تقف الشّريعة حائلًا في طريق ازدهار وتطور هذا الإنسان، بل جاءت مليئة لرغباته الفطرية، مستجيبة لمطالبه الحيوية، آخذة بعين الاعتبار مجموع مصالحه الحقيقة، كما أنها لم تقف به عند الحد الأدنى الذي يتنهى بالحصول على الضروريات، بل فتحت دونه الطريق للتمكن من وسائل التوسعة والتّرفية، فأقامت كل ما من شأنه أن يخفف العبء ويرفع الحرج؛ حرصاً من الشّريعة على عدم إرهاقه بما فوق طاقته، وتفادياً لكل ما يتتجاوز حدود استطاعته، مريدة من ذلك كله التخفيف كما عبر الكتاب ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُسُرَ﴾ [البقرة، الآية: ١٨٥] ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِقَ عَنْكُمْ وَخَلِقَ إِنْسَنًا ضَعِيفًا﴾ [النساء، الآية: ٢٨] ، فعالجت - من ضمن ما عالجت - حالات؛ كحالتي الصحة والمرض، وحالتي الإقامة

والسفر، وحالتي العجز الجزئي والعجز الكلي، وحالتي الذكر والنسيان، وحالتي النوم واليقظة، وحالتي العمد والخطء، وحالتي اليسر والعسر، وحالتي الغنى والفقر، وحالتي العقل والجنون، وحالتي الحرية والرق، وحالتي الطفولة، والبلوغ، وحالتي المكره والختار، وحالتي الحياة والموت، إلى غير ذلك من الأحوال التي قد يتعرض لها المكلف بحيث لم تترك الشريعة مجالاً من حياة الإنسان إلا قالت كلمتها فيه إما بواسطة قاعدة كلية، وإما بحكم جزئي فرعى، وإذا حرمت الشريعة على الإنسان شيئاً عوضته عنه بما هو خير منه وأنفع، وأباحت له ما تدعو حاجته إليه، الأمر الذي يستطيع معه أن يتحرك بكل يسر وسهولة ضمن إطار الشريعة العام دون اللجوء إلى سواها مما هو غريب عنها، «وحتى لا يخفى على المكلف شيء منها، فإن من مظاهر هذه الكلية أن جعل التكليف بينا واضحاً منضبطاً؛ إذ لو كان خفيّاً لشق ذلك على المكلف ولأدّى به إلى الواقع فيما سواه مما لم يأذن به الله»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر حجة الله البالغة: ٢٨١/١.

### المطلب الثالث :

## الكلية من سنن الأنبياء

إلى جانب كون هذه الكلية مقصودة للشارع متناسقة والفطرة البشرية؛ فإنها تعتبر من سنن الأنبياء كلهم، قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : **﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ شَرِّهِ إِنَّ اللَّهَ فِي الدِّينِ خَلَوَ مِنْ قِبْلَةٍ﴾** [الأحزاب، الآية: ٣٨]، قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: «أي حكم في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج»<sup>(١)</sup> ، فلا مأثم، ولا ضيق، ولا حرج فيما أباحه الله لأنبيائه ورسله وسننه لهم، فإن ذلك توسيعة عليهم، فلينالوا ما أحبوا من المباحثات والطبيات وبهدائهم القدوة وقد عدَّ ابن عاشور - رحمه الله - قوله - تعالى - : **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** [البقرة، الآية: ٢٨٦]، دليلاً على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله - تعالى - لعموم لفظ **﴿نَفْسًا﴾** الوارد في سياق النفي؛ لأن الله - تعالى - ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله<sup>(٢)</sup> ، من أجل ذلك وجدنا هذه الصفة لا تفك عن نبينا - صلوات الله وسلامه عليه - فمرة يومئ إليها القرآن إيماء، كما في قوله - تعالى - : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء، الآية: ١٠٧]، ومرة يجعلها ضمن وظائفه التي من أجلها أُرسِلَ، كما في قوله - تعالى - : **﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** [الأعراف، الآية: ١٥٧]، وما الآصار والأغلال التي بُعثَت لرفعها إلا تلك التشديدات التي نزلت على من قبلنا «نكأة بهم»<sup>(٣)</sup> ، والناظر في سيرة رسول الله ﷺ يعجب لذلك اليسر الذي

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٩٣/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٣٥/٣ وقوله: «في أديان الله» الظاهر أنه أراد الشرائع.

(٣) انظر مقاصد الشريعة، ص: ١٠٠.

كان يأخذ به نفسه في عبادته ودعوته وتعامله مع صحابته وأعدائه... كان عليه السلام يصوم من الشهر، حتى يقول القائل: لا يفطر، ويفطر من الشهر، حتى يقول القائل: لا يصوم، وإذا وجد طعاماً أكل وإذا وجد شراباً شرب، وإذا لم يجد لا هذا ولا ذاك صبر، يدعوا - عليه الصلاة والسلام - فيستجاب، ويسأل فيعطي، وفي كلمات يسيرة يعالج القلوب وما استحکم فيها من أمراض نفسية، وكان يقيم الحجة على الخصوم في أيسر عبارة، وبنفس الطريقة كان يقود المجتمع المسلم حيث كان، يرقب صحبه عليهم السلام فإذا رأى منهم ميلاً إلى العسر ردهم إلى اليسر، وأرشدهم إلى طريق الرفق، وهو القائل فيما: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»<sup>(١)</sup>.

ودخل المسجد مرة فإذا حبل ممدود بين ساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟ قالوا: هو لزيبب فإذا فترت تعلقت به، فقال عليه السلام: «لا! حلوه يصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقع»<sup>(٢)</sup>.

ودخل يوماً على عائشة - رضي الله عنها - وعندها الحولاء بنت تويت - رضي الله عنها - وكانت تذكر من عبادتها، وأنها لا تنام الليل فرداًها الرسول عليه السلام إلى المنهج الوسط قائلاً: «مهما عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل حتى تملوا»، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه<sup>(٣)</sup>.

وكان يكره أن يوجه إليه سؤال يكون سبباً في تحريم أمر لم يكن محرماً من قبل، فكان - صلوات الله وسلامه عليه - يقول: «ذروني ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على آنبيائهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٦٣/١ (كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالمؤطقة والعلم كي لا ينفرو).

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٦/٣ (كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة).

(٣) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٠١/١ (كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدموه).

(٤) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي: ١١٠/٥ (كتاب مناسك الحج، باب وجوب الحج).

وكان بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَقُولُ مِيلَ بَعْضِ النَّفَوسِ عَنْ مَجاوِزَةِ جَادَةِ الطَّرِيقِ فِي قِيمَتِهَا عَلَى الْاعْدَالِ، وَهُوَ مَا يَحْقِقُ الْيُسُرَ وَالسُّعُونَ لِلَّذِينَ يَتَصَافَّ بِهِمَا هَذَا الدِّينُ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ رَفْضُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ السَّمَاحِ لِمَنْ سُوَلَ لَهُ نَفْسُهُ بِالْأَنْقَاطَعِ لِلْعِبَادَةِ فِي سَفْحِ جَبَلٍ، وَرَفْضُ تَوْجِهِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْعِبَادَةِ نَحْوَ الْغَلُوِ، كَمَا وَيَخُذُ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنِ النَّكَاحِ وَالْطَّيَّاتِ، وَكَانَ مِنْ وَصَايَاهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِأُمَّتِهِ - إِشْفَاقًا عَلَيْهَا - : « لَا تَشَدُّدُوا فِي شَدَّدِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، إِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ؛ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتَلَكَّبُوا بِقَوْمِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ، وَرَهْبَانِيَّةِ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ »<sup>(١)</sup> ، فَكَانَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِذَلِكَ كَلِمَةُ رَحْمَةٍ وَنِعْمَةٍ وَمِنْهُ امْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْنَا، وَمِنْ شُكُورِ هَذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ تَفْقَهَهُ يَسِيرُ هَذَا الدِّينُ، فَإِنَّهُ يَشْرُمُ التَّعَامِلَ بِهِ عَلَى طُولِ امْتِدَادِ الزَّمْنِ دُونَ كُلِّ وَلَا مُلْلٍ، وَلَا يَزَالُ الْمُفْسِرُونَ يَنْقُلُونَ الْإِشَادَةَ بِهَذِهِ الْكَلِيّْةِ الْعَظِيمَةِ، فَقَدْ أَسْنَدَ الطَّبَرِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ - إِلَى قَتَادَةَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: أُعْطِيْتُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَا لَمْ يَعْطُهِ إِلَّا نَبِيٌّ! كَانَ يَقَالُ لِلنَّبِيِّ: لَيْسَ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَقَيْلٌ لِهَذِهِ: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ، وَكَانَ يَقَالُ لِلنَّبِيِّ: سَلْ تَعْطُ، وَقَيْلٌ لِهَذِهِ: ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ<sup>(٢)</sup> ، وَعَلَى هَذَا النَّهَجِ سَارَ السَّلْفُ الصَّالِحُ، فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَحُولُ الْمَقَامَ رَفِقًا بِالنَّاسِ. فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتَمٍ عَنِ ابْنِ عَيْنَةَ قَالَ: كَانَ الْمَقَامُ فِي سَقْعِ الْبَيْتِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَحَوَّلَهُ عُمَرُ، فَجَاءَ سِيلٌ فَذَهَبَ بِهِ فَرَدْهُ عُمَرُ إِلَيْهِ. وَلَمْ تَنْكِرِ الصَّحَابَةُ هَذَا الْفَعْلُ وَلَا مِنْ جَاءَ بَعْدِهِمْ، فَصَارَ إِجْمَاعًا، وَكَانَ فَعْلُ عُمَرٍ إِنَّمَا لَمَ رَأَهُ مِنَ التَّضْيِيقِ عَلَى الطَّائِفَيْنِ أَوْ عَلَى الْمُصْلِيْنَ فَوْضَعَهُ فِي مَكَانٍ يَرْتَفِعُ بِهِ الْحَرْجُ<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي: ٢٣٢/٨ (كتاب آداب القضاة، تأويل قول الله-عز وجل-: « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »).

(٢) المحرر الوجيز: ٢٢١/١١.

(٣) فتح الباري: ١٦٩/٨.

## المطلب الرابع :

### الكلية أصل إحدى القواعدخمس

#### التي بني عليها الفقه الإسلامي

وهي قولهم: «المشقة تجلب التيسير»، أما الثانية فقولهم: «الضرر يزال»، والثالثة: «اليقين لا يزول بالشك»، والرابعة: «العادة مُحَكَّمة». وهو ما يعني عُزْفُ الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم ونحو ذلك، ومن الناس من يستدل لهذا بقوله - تعالى - : **﴿وَأَمْرٌ بِالْمُرْتَفِ﴾** [الأعراف، الآية: ١٩٩]، والخامسة هي: «الأمور تبع للمقاصد»، وقد استدل لهذا بقوله **عليه السلام** : «إنما الأعمال بالنيات»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٩/١ (كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ).



## المبحث الرابع :

### منهج القرآن في رفع الحرج

**لقد سلك القرآن في مسألة رفع الحرج مسلكين :**

#### المطلب الأول :

ورود بعض الآيات على هيئة بشارات تؤذن من خلالها بمقدم شريعة لا كُلفة فيها ولا مشقة وقد ورد ذلك على مستويين اثنين:

أ - على مستوى التلقى تحفيظاً وتفهيمًا، قال - تعالى -: ﴿ لَا تُحِرِّكْ بِيَهُ إِسَائَكَ لِتَعْجَلَ بِيَهُ إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَأَلْيَعَ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بِيَكَانُهُ (١٩) [القيامة، الآيات: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩]، حيث إن في الآية ما يدل على البشري والطمأنة لرسول الله ﷺ للتمكن من ألفاظ القرآن وفهم شرائعه وأحكامه وتغيير ما فيه من الحلال والحرام<sup>(١)</sup>.

ب - على مستوى الممارسة، حيث يقول - تعالى -: ﴿ وَيُسِّرْكَ لِلْيُسِّرَى ﴾ (٨) [الأعلى، الآية: ٨]، وهي من أول القرآن نزولاً، قال ابن كثير - رحمه الله - في معناها: «نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سمحاً سهلاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر»<sup>(٢)</sup> ، وقال ابن عاشور - رحمه الله -: «نهيتك للأمور اليسيرة في أمر الدين وعواقبه من تيسير حفظ

(١) انظر فتح القدير: ٣٢٨/٥

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٠٠.

القرآن لك، ويسير الشريعة التي أُرسِلتَ بها، ويسير الخير لك في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup> ، ولا شك أن هذه البشارة بشاره عامة في مضمونها، فتناولت الدين كله، كما أنها عامة في المخاطبين بها فتناولت جميع المكالفين إلى يوم الدين.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا يَعْلَمُ وَأَعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَنْنَا﴾ [آل عمران: ٢٨٦] ، كل عناصر هذا الدعاء من عدم تحمل الإصر وما لا طاقة للمكالفين به والعفو والغفران والرحمة، كل هذه المكونات لهذا الدعاء الخاتم، يبرز كيف أن رب العزة يعلم الأمة أن تطلب منه اليسر، وهو من إشارة الشارع إلى أنه قاصد في تعاليم شرعه أن تكون كذلك موسومة بسمة السعة واليسر، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قد قرأ هذه الآية، فقال الله - تعالى - : نعم، وفي رواية: قد فعلت<sup>(٢)</sup> .

قال ابن القيم - رحمه الله - عن هذه الخاتمة: «فيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي كتاباً مفرداً»<sup>(٣)</sup> ، فمن خلال هذه النظرة التي تصورها ابن القيم - رحمه الله - يظهر أنها خاتمة ثمينة لسورة ثمينة. جمعت التشريع كله، فكان جديراً برحمة الله - وهو يأمر وينهى ويحلل ويزحرم - أن تختتم بهذا الدعاء التعليمي التربوي الذي يحمل في طياته الإشعار برفع الكلفة والخرج عن أهل هذه الملة.

ونظير هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢٩] ، ومن الرحمة عدم إيقاعهم في الحرج؛ إذ الإيقاع في المشقة

(١) التحرير والتتوير: ٢٨٢/٣٠

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣٤٣/١

(٣) التفسير القيم، ص: ١٧٣

لا يتناسب وصفة الرحمة، وحينما تحدث - سبحانه وتعالى - عن رسول الله ﷺ مبشرًا به ذاكرا بعض أوصافه مادحًا المؤمنين به، كان من ضمن ما مدحه به قوله - تعالى -: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَأَلْغَلَنَّ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٧]، وهذا الوصف دال على أن هذه الشريعة أيسر الشرائع حيث وضع - سبحانه - عن هذه الأمة كل ثقل أنقض ظهور الأمم السابقة وهي نعمة - يمنها علينا - سبحانه - أولى أن نتوجه إليه بالشكر وأن نعظّم ونوقر المبعث بها وذلك بنصرة هذا الدين، وهو غير مختص بعصر رسول الله ﷺ ، وإنما هو واجب لازم إلى انقضاء التكليف.



## المطلب الثاني :

### التنصيص على رفع الحرج وينظر إليه من جهتين

أ- من جهة رفعه بالكلية .

ب- من جهة التخفيف منه .

أ- من جهة رفعه بالكلية: ويتم ذلك إما :

لعدم لازم غير منفك ناجم عن ضعف في التركيب، لا يطيق معه المكلف الإتيان بالتكليف، وذلك كالعمى والعرج ونحوهما مما هو نقص ناسبه التخفيف في التكليفات، ومنه عدم تكليف الصبي والجنون، وعدم تكليف النساء مما يجب على الرجال كالجماعة والجهاد والجماع<sup>(١)</sup>.

أو عن عرض طارئ؛ كالمرض الذي يعُن للمكلف، أو الفقر الذي لا يقدر معه بالبذل من أجل الإتيان بالمؤمر، وهذا هو المعبر عنه عند بعض العلماء بتخفيف الإسقاط، قال العز بن عبد السلام - رحمه الله - حين تعرّض، للحديث عن تخفيفات الشرع: « وهي أنواع ستة منها: تخفيف الإسقاط كإسقاط الجماعات والصوم والحج والعمرة بأعذار معروفة »<sup>(٢)</sup> ، وفي القرآن أمثلة لهذا النوع من حطّ الحرج من ذلك:

(١) الأشباء والنظائر للسيوطى، ص: ٨٠.

(٢) قواعد الأحكام: ١٩٢/٢.

- \* ما ورد في شأن المضطر غير المجانف للإثم، حيث يقول - تعالى - : ﴿فَمَنْ أَضْطُرَ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة، الآية: ٣]، قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ أَضْطُرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية: ١٧٣].
- \* ما ورد في أمر من ليست له القدرة على الحج، حيث يقول - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، الآية: ٩٧].
- \* ما سبق في شأن الجهاد حيث رفع الله - تعالى - الكلفة والخرج عن جملة من المعدورين بيئهم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَضْعَافَةِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الْأَذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبه، الآية: ٩١].

### ب - من جهة التخفيف منه :

وهو ما أجمل فيه العلماء عدم الخرج باستقراء مواطن التخفيف فألفوها منحصرة في هذه الأنواع الآتية:

- \* تخفيف التقىص، كقصر الصلاة الرباعية.
- \* تخفيف التقديم، كتقديم العصر إلى الظهر وكذا العشاء إلى المغرب.
- \* تخفيف التأخير، كتأخير الظهر إلى العصر وكذا المغرب إلى العشاء.
- \* تخفيف الترخيص، كمن صلى متىئماً مع الحديث أو مستجمراً - حيث إن فضلة النجو مغفورة - وكأكل التجasse والمداومة والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه<sup>(١)</sup>، ولا يأس أن نذكر في هذا المقام ما للسنة الشريفة من تأثير بين في كشف سمات رفع

(١) قواعد الأحكام: ١٩٢/٢.

الخرج المعتبر عنه في القرآن، حيث تولى تفصيل ما أجمل في هذا الشأن. وأين نجد الكثير من التخفيفات المذكورة آنفًا إن لم نجدها في السنة، وذلك كتحفيض التنقیص من قصر الصلاة وتنقیص أفعالها بالنسبة للعاجز من رکوع وسجود، وتحفيض الإبدال كإبدال القيام بالقعود والقعود بالاضطجاع، وتحفيض التقدیم والتأخیر، كل ذلك تولته السنة بالبيان والتفصیل.



## المبحث الخامس :

### مواكبة الكلية لمجالات الحياة

لم تقتصر كلية رفع الحرج على مجال واحد أو مجالات معدودة، بل شملت كل مجالات الحياة في العقيدة وفي العبادات والمعاملات والجنيات والأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يؤكدده القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله - تعالى - : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، حيث إن الآية نصت على أن الله - تعالى - لا يكلف العباد عبادة لأعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضي إدراكه وبنيته، - ثم قال - وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر<sup>(١)</sup>، وقال ابن كثير - رحمه الله - : « وهذه الآية جامعة والمعنى: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهو من لطف الله بخلقه ورافقته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفِيُوهُ يُحَايِسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٤]، أي وهو إن حاسب وسائل لا يذهب إلا بما يملك الشخص دفعه، أما ما لا يملك دفعه من وسوسه النفس وحديثها، فهذا لا يُكلِّفُ به الإنسان<sup>(٢)</sup> ولنحاول أن نجول بساحة كتاب الله الفسيحة لنقف على هذه المكرمة التي عممت أرجاء شريعته، وكشفت بذلك عن المكلف الغمة، وأقامت عليه الحجة بأن هيئت له سمت العبادة واضح المعالم سهلاً ميسوراً، موصلًا إلى أعلى المطالب والغايات.



(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤٢٩/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣٤٢/١.

## المطلب الأول :

### الكلية والعقيدة

لقد وجدنا الشريعة وإن كانت قد اعتبرت الثبات على الإيمان - رغم كل الأحوال - من عرائض الأمور وعظامها، فإنها قد رخصت للمكلف بأن يتظاهر بالكفر - شريطة أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان - وفي هذا يقول - تعالى - : «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكَرَهَ وَقْبَلَهُ مُطْمِئِنٌ بِالإِيمَانِ وَلَكِنَّ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفُرِ صَدِرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [١٠٦] [النحل] الآية: ، والآية دليل على أن المكره غير مكلف، وأن الإكراه يبعي التلفظ بكلمة الكفر، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، قال ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآية: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءاً لمحاجته، وقد روى العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر - رضي الله عنه - حين عذبه المشركون حتى يكفر بـ محمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء متذرراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، وفي رواية للبيهقي أنه ﷺ قال لعمار: «كيف تجد في قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ : «إن عادوا فعد»<sup>(١)</sup> ، فكانت الآية ترخيضاً ومدعراً لما صدر من عمار بن ياسر وأمثاله إذا اشتد عليهم عذاب فاتنيهم.




---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٢، وانظر القصة في أسباب النزول للواحدي، ص: ١٩٠.

## المطلب الثاني :

### الكلية وحديث النفس

روى الإمام أحمد - رحمه الله - من طريق مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس - رضي الله عنه -، فقلت: كنت عند ابن عمر - رضي الله عنه - فقرأ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسُكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٤]، فبكى فقال ابن عباس: إن هذه الآية لما نزلت غمت أصحاب رسول الله ﷺ غمًا شديداً، وقالوا: يا رسول الله أهلتنا فإن قلوبنا ليست بأيدينا، فقال: قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا، فنسختها هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup>، وإبداء ما في النفس: إظهاره قوله قوله: «إن الله يتتجاوز لأمتى عما وسوست - أو حدثت - به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم»<sup>(٢)</sup>.



(١) مسند أحمد: ٣٣٢/١، وانظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٦٠.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٤٩/١١، (كتاب الأيمان والذور، باب إذا حث ناسينا في الأيمان).



## المبحث السادس :

### الكلية والتشريع

#### المطلب الأول :

##### في العبادات

١- الطهارة ، يقول الله - تعالى - : **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْجُحُونَ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاهَةً أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَ�يْطِ أَوْ لَمْسَتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَحْدُوا مَاءَ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيْبًا فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوا عَفْوًا عَفْوًا﴾** [النساء، الآية: ٤٣] ، وفي تذليل الآية بقوله : **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوا عَفْوًا عَفْوًا﴾** [النساء، الآية: ٤٣] ؛ بيان حكم الرخصة حيث لم يكلف المؤمنين الغسل أو الوضوء عند المرض ، ولا ترقب وجود الماء عند عدمه .

٢- الصلاة ، حيث يقول الله - تعالى - في شأن التخفيف من هذه العبادة التي تعتبر الركن الأساس : **﴿وَإِذَا ضَرِبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتَنِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [النساء، الآية: ١٠٠] ، وبذلك تكون الآية قد أشارت إلى قصر الصلاة الرابعة في السفر ، وقد بينه فعل النبي ﷺ إذ صَيَّرَ الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين ، ولقد أجملت الآية فلم تعين الصلوات التي يعتبرها القصر فيبيتها السنة بأنها الظهر والعصر والعشاء .

ولسائل أن يقول : لعل هذا القصر والإذن فيه مشروط بحال الخوف ؟ والجواب هوأن الصحابي يعلى بن أمية - رضي الله عنه - سأله عمر عن هذه الآية بقوله له : إن الله - تعالى - يقول : **﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾** وقد أمن الناس ، فأجابه عمر - رضي الله عنه - بقوله : **﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾**

عجبتُ ما عجبتَ منه، فسألتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ فقال: «صَدَقَةٌ تَصْدِقُ اللَّهَ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبِلُوا صَدَقَتِهِ»، فكانَ الْقُصْرُ لِغَيْرِ الْخُوفِ، كَمَا أَنَّهُ صَدَقَةٌ مِّنَ اللَّهِ قُصِّدَ بِهِ التَّخْفِيفُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>.

-٣- الصيام ، بعد أن نصّت الآية بفرضية الصيام، وذلك في قوله - تعالى -: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُبَّ عَيْنَكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُبَّ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَنَقُّونَ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٣]، أتبّعه - سبحانه - بذكر أحوال يرفع فيها الحرج عن الصائم، فيباشر الفطر إلى حين زوال تلك الأحوال العارضة تطمئناً لنفس المكلّف؛ لئلا يظن وجوب الصوم عليه في كل حال وبلا استثناء، فقال - عز وجل - : **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامِ أُخْرَ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٤]، قال - تعالى - : **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَذِيَّةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٌ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٤]، والذين يطيقونه هم بعض المخاطبين بحيث يجهدهم، فتشتد بهم مشقة الصوم، ورحمة بهم وإشفاقاً عليهم، رخص لهم، ففي البخاري: «قال الحسن وإبراهيم: في المرض والحامل إذا خافت على أنفسهما أو ولدهما تفطران ثم تقضيان، وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم «أنس» بعد ما كبر عاماً أو عامين كل يوم مسكيتاً خبزاً ولحماً وأفطر»<sup>(٢)</sup> ، وعن عطاء سمع ابن عباس يقرأ: **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَذِيَّةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٌ﴾** ، قال ابن عباس: ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كل يوم مسكيتاً<sup>(٢)</sup> ، وفي نفس هذه الشعيرة لم يشا اللَّه أَنْ يحرج عباده المؤمنين - فهو لا يريد بهم إلا اليسر - حيث نجد القرآن ينتقل إلى بيان أعمال في بعض أزمنة

(١) التحرير والتنوير: ١٨٣-١٨٤/٢.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٧٩/٨ (كتاب التفسير، باب أيام معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين...).

رمضان قد يُظْنَ أنها تنافي عبادة الصيام، فأنزل الله - تعالى - بهذا الشأن قوله - تعالى -: **﴿أَحِلَّ لَكُم مِّنَ اللَّهِ الْصِّيَامُ أَرْفَثَ إِلَيْنَا يَوْمَكُمْ هُنَّ لِيَوْمٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَوْمٍ لَهُنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَأْوُنَّ أَنْفُسَكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَإِنَّ بَشِّرُوهُنَّ وَإِنْتُغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٧]، فكان المقصود شيئاً توهمه بعض المسلمين، وهو أن الأكل بين الليل لا يتجاوز وقت الإفطار وقت السحور، وجعلوا وقت الإفطار هو ما بين المغرب إلى العشاء لأنهم كانوا ينامون إثر صلاة العشاء؛ وقيامها، فإذا صلوا العشاء لم يأكلوا إلا أكلة السحور، وأنهم كانوا في أمر الجماع كشأنهم في أمر الطعام، ولأنهم لما اعتادوا جعل النوم مبدأ وقت الإمساك الليلي، ظنوا أن النوم إن حصل في غير إبانه المعتاد يكون - أيضاً - مانعاً من الأكل والجماع إلى وقت السحور وأن وقت السحور، لا يباح فيه إلا الأكل دون الجماع؛ إذ كانوا يتأنثون من الإصباح في رمضان على جنابة<sup>(١)</sup> ، ولو كان العموم مفروضاً على الناس ليلاً، لشقّ؛ ذلك عليهم؛ لأن من لوازمه عدم قربان النساء، وهو مما ينزل بهم العنت والشدة التي ليست موجودة في الإمساك عن قربانهن في النهار لإمكان الاستعانة عليه بالبعد عن المرأة، خلافاً لوقت الليل حيث يشتد الاتصال بين الزوجين، وهو المعبر عنه بقوله: **﴿هُنَّ لِيَوْمٍ لَكُمْ﴾**؛ لذلك كشف الحق - سبحانه - عن مصارعة المكلف لهذه الحال ومراؤته للخيانة في كلّ نفسه ما لم تُكَلِّفْ به بحيث يوهمها أن المشقة مشروعة عليها وهي في الواقع ليست بمشروعة، وهو المعبر عنه بقوله: **﴿عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَأْوُنَّ أَنْفُسَكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٧]، حيث أباح المباشرة<sup>(٢)</sup> . روى ابن القاسم - رحمه الله - عن الإمام مالك - رحمه الله -

(١) التحرير والتبيير: ١٨١/٢.

(٢) التحرير والتبيير: ١٨٣-١٨٢/٢.

كان في أول الإسلام من رقد قبل أن يطعم لم يطعم من الليل شيئاً، فأنزل الله: **﴿فَأَنْتَ بَشِّرُوهُنَّ وَإِسْغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَأَشْرِبُوا حَقَّ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾** [البقرة، الآية: ١٨٧]، فأكلوا بعد ذلك<sup>(١)</sup>، قوله - تعالى -: **﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾** دليل على أن القرآن نزل بهذا الحكم لزيادة البيان؛ إذ علم ما ضيق به بعض المسلمين على أنفسهم فأوحى به سبحانه - إلى نبيه ﷺ .

٤- الحج ، وفيه يقول - تعالى -: **﴿وَلَلَّهُ عَلَى النَّاسِ جِبُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾** [آل عمران، الآية: ٩٧]، ولكن تماماً العلماء على الاستدلال بهذه الآية على وجوب الحج فإن ما يطالعنا من خلالها ما طبعت به من رفع للحج تخلٰ من خلل التقييد بالاستطاعة وهو خطاب يخص طائفة القادرين، كما أن هذه الطائفة نفسها رفعت عنها كلفة إتيان الحج كل عام على سبيل الفرض، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، فقال: «إن الله - عز وجل - قد فرض عليكم الحج، فقال رجل: في كل عام؟ فسكت عنه حتى أعاده ثلاثة، فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما قمت بها، ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشيء فخذلوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوا»<sup>(٢)</sup>. فدلل الحديث على أن الحج إن وجب على القادر فإنما هو مرة في العمر، وما سواه يكون تطوعاً، فانظر كيف ورد استهلال هذه الفريضة موسوماً باسمة رفع المشقة والحرج، ثم إذا عدنا للنظر في مجال الاستطاعة، أفينا أن الأمر كله يُشرِّ لا غير فيه؛ إذاً إن هذه الاستطاعة نوعان:

(١) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى: ٩٢/١١ . وانظر فتح البارى: ٤٦٢-١٣١/٤ .

(٢) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ١١٠/٥ (كتاب مناسك الحج، وجوب الحج).

استطاعة مبادرته بنفسه، واستطاعة تحصيله بغيره، فأما الأولى: فتعلق بوجود الراد والراحلة لما روي عن رسول الله ﷺ أنه فسر السبيل في قوله - تعالى - : **﴿مَنْ أَسْتَطَعَ إِلَيْهِ﴾** بأنه الراد والراحلة<sup>(١)</sup> ، ومن العلماء من لم يقصِّر الاستطاعة على هذين بل رأى أنها تتعلق بالمال والبدن؛ لأنها لو اخْتُصَّت للزم، وأما الاستطاعة الثانية فتشمل إلى الاستتابة، ومن العلماء من قيَّدها بموت أو زمانة مستديمة لا يرجى زوالها<sup>(٢)</sup> ، واستدلَّ لهذا النوع بما رواه البخاري - رحمه الله - عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهمَا - قال: «كان الفضل رديف النبي ﷺ فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي ﷺ يصرف وجهه إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة، أفح ح عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع»<sup>(٣)</sup> ، وعند مباشرة الحاج للمناسك للحظ رفع الحرج واضحاً، حيث تعرّضه بعض الأمور التي هو في حاجة إلى التخفيف من أجلها، من بينها مثلاً:

«الإحصار وذلك بعده أو مرض أو سواهما مما يحبسه عن المضي في إتمام حجه، قال - تعالى - : **﴿فَإِنْ أَخِرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْمُهْدَى﴾** [البقرة، الآية: ١٩٦].

وكذا العفو عن الحلق بسبب التأدي من المرض والقمل، فعن كعب بن عجرة - رضي الله عنه - قال: «وقف على رسول الله ﷺ بالحدبية - ورأسي يتهافت قملاً - فقال: يؤذيك هوامك؟ قلت: نعم، قال ﷺ : فالحلق رأسك، قال: في نزلت هذه الآية: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ يَدْعُ أَذْيَ قِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَارٍ أَوْ**

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي ٤/٣٢٧، (كتاب الحج، باب بيان السبيل الذي بوجوهه يجب الحج إذا تمكن من فعله).

(٢) انظر الجموع شرح المذهب: ٣٩/٧.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٧٨/٣ (كتاب الحج باب وجوب الحج وفضله...).

**نسك** [البقرة، الآية: ١٩٦]، فقال النبي ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة مساكين أو انسك ما تيسر<sup>(١)</sup> .

والانتقال من منسك إلى بدل أخف منه كما في قوله - تعالى :- **فَمَنْ تَمَّنَّعَ بِالْعُمَرَةِ إِلَى الْحَجَّ فَمَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدَىٰ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامًا ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجَّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةً كَامِلَةً ذَلِكَ لِمَنْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** [البقرة، الآية: ١٩٦]، وهو هدي التمتع أو بدله وهو الصيام، والمعنى أن الهدي على الغريب عن مكة كي لا يبعد السفر للعمراء، فأما المكي فلم يتسع بالاستغناء عن إعادة السفر؛ فلذا لم يكن عليه هدي، وهذا قول مالك والشافعي والجمهور - رحمهم الله - تعالى - فلم يكن عندهم على أهل مكة هدي في التمتع والقرار؛ لأنهم لا مشقة عليهم في إعادة العمرة<sup>(٢)</sup> .

وإباحة الاتجاه أثناء الحج، وبما أن الله - تعالى - قد بينَ أعمالاً في الحج ونهى عنها لكونها تنافي ومقاصد الحج، نقل الكلام إلى إباحة ما كانوا يتحرجون منه في الحج وهو التجارة، حتى يدرك الحاج أنها لا تنافي المقصد الشرعي وفي نفس الأمر إبطالاً لما كان عليه المشركون حيث كانوا يرون التجارة للمحرم بالحج حراماً؛ لذلك قال - تعالى :- **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبَتَّغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ** [البقرة، الآية: ١٩٨]<sup>(٣)</sup> .

والإذن بالرخصة في ترك حضور بعض أيام منى لمن أوجله الرجوع إلى وطنه، قال - تعالى :- **وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** [البقرة، الآية: ٢٠٣]، فأفادت الآية الترخيص بالسفر عن منى بعد زوال اليوم الثاني من أيام التشريق، وذلك بنفي الإثم عنمن يريد الدفع إلى الحرم.

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٠ (باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب العذرية لحلقه وبيان قدرها).

(٢) التحرير والتنوير: ٢/٢٣٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢/٢٣٧-٤٦٥.

- الزكاة، وتمثل الركن المالي ضمن أركان الإسلام فيها- مع التوحيد وإقامة الصلاة- يتم الانتماء إلى جماعة المسلمين، ويستأهل المكلّف أخوة الإسلام، قال - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَإِنَّهُمْ كُمْ فِي الْأَدِينَ﴾ [التوبه، الآية: ١١]، وما شرّع هذا الركن إلا رأفة بالفقراء وقصدًا إلى مصلحتهم، وقد بينَ - سبحانه وتعالى - أصناف من تجوز في حقهم، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينَ وَالْمَعْنَى لِلَّهِ وَأَتَنِ السَّبِيلَ وَالْمُؤْلَفَةُ فُلُوْهُمْ وَفِي الْرِّقَابِ وَالْغَنِيمَةِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبه، الآية: ٦٠]، وتجب في الزروع والثمار عند حصادها بنص الكتاب، قال - تعالى -: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام، الآية: ١٤١]، وكذا الركاز؛ إذ لا يشترط فيها حولان الحول، وأما ما تبقى من الأموال فليجوب الزكاة فيها لابد من حولان الحول، ومعناه أن يمر على الملك اثنا عشر شهرًا عريئاً<sup>(١)</sup> ، وذكر ابن رشد: أن جمهور الفقهاء اشترطوا في وجوب الزكاة في الذهب والفضة والماشية الحول لثبت ذلك عن الخلفاء الأربع ولانتشار العمل به، ولاعتقادهم أن مثل هذا الانتشار من غير خلاف لا يجوز أن يكون إلا عن توقيف، وقد روی عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول»<sup>(٢)</sup> ، وهذا مجمع عليه عند فقهاء الأمصار، وليس فيه في الصدر الأول خلاف إلا ما روی عن ابن عباس ومعاوية، وسبب الاختلاف أنه لم يرد في ذلك حديث ثابت<sup>(٣)</sup> .

(١) فقه الزكاة: ١/٦٢.

(٢) مسنّ أحمد: ١٤٨/١.

(٣) بداية المجتهد: ١/١٩٧.

وإن أول ما يطالعنا باعتباره مظهراً من مظاهر رفع الحرج في ركن الزكاة هو حولان الحول، فالزكاة لا تؤدى من مال واحد مرتين في العام، روى البيهقي في سننه عن الزهري - رحمة الله - قال: لم يلغنا عن أحد من ولادة هذه الأمة الذين كانوا بالمدينة - أبو بكر وعمر وعثمان - أنهم كانوا يثنون الصدقة لكن يبعثون عليها كل عام في الخصب والجدب؛ لأن أخذها سنة رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ، وروى أبو عبيدة القاسم بن سلام أن النبي ﷺ قال: «لا ثني في الصدقة»<sup>(٢)</sup> ، وهو من سبق الشريعة الإسلامية وعدلها حيث لم ترك فرض الزكاة لرغبة الحكام والطامعين يفرضونها كلما اشتهرت أنفسهم، ولا لهوى الأفراد من الناس الذين أحضرت أنفسهم الشح، بل جعلتها فريضة دورية محددة، وقدرّتها بالحول؛ لأنه الذي تتغير فيه الفصول وتتجدد مكاسب ذوي الأموال وتطرأ حاجات ذوي الحاجات، وهو المدة المعقولة التي يمكن أن يتحقق فيها نماء رأس المال، وتربيع التجارة، وتلد الماشية، وتكبر صغارها وهكذا<sup>(٣)</sup> ، قال ابن القيم - رحمة الله - في هدي الرسول ﷺ في الزكاة: «إنه أوجبها مرة كل عام، وجعل الزروع والثمار عند كمالها واستواها، وهذا أعدل ما يكون؛ إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضرُّ بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة يضر بالمساكين فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة»<sup>(٤)</sup> .

ومن مظاهر رفع الحرج في الزكاة جواز تعجيلها وتقديمها على حولها، إن كان يرى في ذلك سدا لحاجة الفقراء، ففي سنن البيهقي أن العباس - رضي الله عنه - سأله النبي ﷺ في تعجيل صدقته قبل حلولها فرخص له في ذلك<sup>(٥)</sup> .

(١) سنن البيهقي: ٤/٨٨٥. (كتاب الزكاة: باب ما على الإمام من بعث السعادة على الصدقة).

(٢) كتاب الأموال، ص: ٣٧٥.

(٣) فقه الزكاة: ١/١٦٤.

(٤) زاد المعاد: ١/١٨١.

(٥) السنن الكبرى: ٤/١١١. (كتاب الزكاة، باب تعجيل الصدقة).

كما أن من مظاهره- أيضاً- عدم وجوبها إلا فيما فاض عن الحاجة الأصلية، فلا زكاة في دور السكنى وثياب البدن وأثاث المنزل ودواب الركوب وسلاح الاستعمال وكتب العلم إذا لم تكن للتجارة، وآلات المحترفين وغير ذلك مما لا بد منه في معاشه<sup>(١)</sup> وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابداً من تعول»<sup>(٢)</sup>.

ومن مظاهره- أيضاً- ألا تيم كرائم الأموال فإن فيه حرجاً لصاحبها عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: إنك تُقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوههم إليه عبادة الله- عَزَّ وَجَلَّ- فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم فترد على فقراءهم فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتفوّق كرائم أموال الناس<sup>(٣)</sup> ، وكرائم الأموال: نفائسها من أي صنف كانت، وقيل: ما سميت بالنفيسة إلا لأن نفس صاحبها تتعلق بها، وفيما لو تحرى الساعي النفائس فقط، فسيتحقق برب المال حرجاً ولا شك وقد أورد أبو يوسف في كتابه «الخرج» ألا يؤخذ من غنم الصدقة فحلها ولا الحوامل ولا الرتبى- وهي التي معها ولد تربيه- ولا الأكيلة وهي التي يسمّنها صاحبها ليأكلها: وليس لصاحب الصدقة أن يتخيّر الغنم فيأخذ من خيارها ولا يأخذ من شرارها، ولكن يأخذ الوسط من ذلك على السنة<sup>(٤)</sup>.



(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص: ٨٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٢٩٤/٣ (باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى...).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٣٢٣/٣ (كتاب الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة).

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف، ص: ٧٧، ٧٨.

## المطلب الثاني :

### في المعاملات

١- المعاملات المالية: وذلك لأن ضروريات الحياة تقضي التعامل وانتقال الملكية بين الأفراد، وقد أباح الشارع ذلك في صور البيع والشراء فقال - تعالى -: **﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا﴾** [البقرة، الآية: ٢٧٥]، وأبرز - سبحانه - حرمة الأموال وحدّر من الاستيلاء عليها بنية عدم إرجاعها لأربابها، فقال - تعالى -: **﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَسْكُنُ بِالْبَطْلَلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ يَنْجِرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾** [النساء، الآية: ٢٩]، وما تطرق إليه القرآن من جنس المعاملات المالية، معاملة اليتامي، ففي تفسير الطبرى بسنده إلى بن عباس، لما نزلت: **﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَمِّمْ إِلَّا بِالْقِيْمَةِ﴾** [الأعراف، الآية: ١٥٢]، عزلوا أموال اليتامي فذكرها ذلك رسول الله ﷺ فنزلت: **﴿وَلَنْ تَخُالِطُوهُمْ﴾**؛ فكانت هذه لهم فيها رخصة<sup>(١)</sup> ، فورود النهي في مطلع الآية الجاهم إلى تجنب النظر في شئون اليتامي، وهو ما يشق على الجانبين معاً إلا أن قوله: **﴿وَلَنْ تَخُالِطُوهُمْ﴾** إذنان بإصلاح أحوالهم مالياً وتربوياً، بل إن المخالطة تعني المشاركة والكافلة والمصاهرة، وقد حثّ الشرع على ذلك فلفظة: **﴿إِخْرِزُوكُمْ﴾** تشي به وما الأخوة إلا التواصي والتعاون وبذل النصح كل ذلك رفقاً للحرج عن القيمين والمحاجير على السواء، وقد امتنَ الله به وأعلن عنه في قوله: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾** هذا الإعنات الذي هو حرمانكم من مخالطة اليتامي، فتجدوا ذلك شاقاً عليكم؛ لأن تجنب المرء مخالطة أقاربه من إخوة وأبناء عم، ورؤيته إياهم مضيعة أمورهم لا يحفل بهم أحد يشق على

الناس في الجبلة، وهم وإن فعلوا ذلك حذراً وتنزهاً، فلا يعني المداومة عليه حتى يصير لهم ديدناً<sup>(١)</sup>.

ومن هذا النوع - أيضاً - الدعوة إلى نبذ الغش الذي من مظاهره التطفيف في الميزان لذلك قال - تعالى -: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، فهي دعوة صريحة إلى إقامة العدل، وحتى لا يُظن أن هذا التكليف لا يتسامح في مثقال حبة فيشّىء ذلك على الناس فيتكون التعامل بينهم خشية الوقع في الخطأ أو الغفلة مما يفضي إلى تعطيل منافع جمة، عَقْب سبحانه وتعالى الجملة السابقة بقوله ﴿لَا تُكْفِرْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تسجيلاً عليهم بأن جميع ما دعا إليه هو في طاقتهم ومكتنهم<sup>(٢)</sup> وأنه لن يكلفهم فوق ما لا طاقة لهم به.

ومن المعاملات ما يتعلق بالأنكحة حيث كملها الشارع بسمة رفع المحرج صيانة لها وإبقاء على الروابط الزوجية، ولا يزال القرآن يحث الزوجين على حظهما المحمود فيما أُتيح لهما منه ومن ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾<sup>(٣)</sup> [النساء، الآية: ٢٤]، فالآلية تتحدث عن المهر بعد التسمية -؛ إذ هو ركن من أركان النكاح - لكن عند وجوبه، «فلا بأس أن يقع فيه التراضي بعد ذلك بين الرجل والمرأة وهما مالكان أمرهما، وإن كان بينهما من لا يملك أمر نفسه فذلك إلى الولي كما أشار إليه قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا أَلَّا يَبِدِّئُهُ عَقْدَةُ النِّكَاح﴾<sup>(٤)</sup> [البقرة، الآية: ٢٣٧]، وحين تقرر في الشريعة تحريم نكاح ما نکح الآباء -؛ إذ كل من تعاطاه بعد ذلك عُدُّ من المرتدین عن دينه يقتل ويصير ماله فيما

(١) التحرير والتنوير: ٣٥٨/٢

(٢) التحرير والتنوير: ١٦٦، ١٦٥/٨

(٣) انظر أحكام القرآن: ١/٣٩٠.

(٤) انظر أحكام القرآن: ١/٣٩٠.

لبيت المال<sup>(١)</sup> - استثنى من ذلك ما قد سلف ومضى، فغدا مغفوا عنه غير مواحد عليه  
لئلا يتخرج الفاعلون لذلك قبل ورود التحرير.

وحين تعرّض الشرع لذكر المحرّمات من النساء، أراد به التنويه ببيان هذه القرابة  
القريبة غارساً لها في النفوس نوعاً فريداً من الوقار متزهاً عن شوائب الاستعمال في  
اللهـو والرفث - لأن مآل هذا التحرير إلى قاعدة حفظ العرض، وهو من الضروريات -  
كما أنه قصد به التيسير في الخلطة، قال الرازي، - رحمـه اللهـ: «لو لم يدخل على  
المـرأة أبوـالرـجل وابـنهـ، ولمـ تـدـخـلـ عـلـىـ الرـجـلـ أـمـ المـرأـةـ وـابـتـهـاـ لـبـقـيـتـ المـرأـةـ كـالـحـبـوـسـةـ فيـ  
الـبـيـتـ، وـلـتـعـطـلـ عـلـىـ الزـوـجـ وـالـزـوـجـةـ أـكـثـرـ المـصالـحـ وـلـوـ أـذـنـاـ فـيـ هـذـاـ الدـخـولـ وـلـمـ نـحـكـمـ  
بـالـمـحـرـمـةـ، فـرـبـماـ اـمـتـدـ عـيـنـ الـبـعـضـ إـلـىـ بـعـضـ وـحـصـلـ الـمـيلـ وـالـرـغـبـةـ وـعـنـدـ حـصـولـ التـطـلـيقـ  
وـالـفـرـاقـ، أـمـاـ إـذـاـ حـصـلـتـ الـمـحـرـمـةـ، اـنـقـطـعـتـ الـأـطـمـاعـ وـانـجـبـسـتـ الشـهـوـةـ فـلـاـ يـحـصـلـ  
ذـلـكـ الضـرـرـ، فـبـقـيـ النـكـاحـ بـيـنـ الـزـوـجـينـ سـلـيـمـاـ عـنـ هـذـهـ الـمـفـسـدـةـ»<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت الحياة الزوجية يعتريها ما يعتريها من هزات تجبر بالتأديب حيناً، وبالصلح  
والإشهاد عليه حيناً آخر، وأحياناً تصاب الزوجية بفتور لا ينفع معه سوى الفراق، هذا  
الذي وضعـتـ لهـ الشـرـيـعـةـ قـوـاعـدـ وـأـحـكـامـ منـ بـيـنـهاـ أـحـكـامـ الـإـنـفـاقـ عـلـىـ الـمـعـدـاتـ  
وـالـمـرـضـعـاتـ، قـالـ - تـعـالـىـ: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَلِيلٌ فَانْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضْعَفَ حَلَمُهُنَّ  
فَإِنْ أَرْضَعُنَّ لَكُمْ فَتَأْوِهُنَّ أَجْوَاهُنَّ وَأَتَيْرُوْا بِيَنْكُمْ بِمَرْعُوفٍ وَإِنْ تَعَسَّرْتُمْ فَسَرُّضُ لَهُ أُخْرَىٰ  
﴾<sup>(١)</sup> لـيـنـفـقـ ذـوـ سـعـةـ مـنـ سـعـيـةـ وـمـنـ قـدـرـ عـلـيـهـ رـزـقـهـ فـلـيـنـفـقـ مـمـاـ ءـاـتـهـ اللـهـ لـاـ يـكـلـفـ اللـهـ  
نـفـسـاـ إـلـاـ مـاـ ءـاـتـهـاـ سـيـجـعـلـ اللـهـ بـعـدـ عـسـرـ يـسـرـ﴾<sup>(٢)</sup> [الطلاق، الآيات: ٦، ٧]، فيـنـ  
تـعـالـىـ - كـيـفـ أـنـ الـنـفـقـ إـنـ كـانـ فـيـ ضـيـقـ مـنـ الـمـالـ، فـلـيـنـفـقـ بـمـاـ يـسـمـحـ لـهـ رـزـقـهـ، وـهـ

(١) مسند أحمد: ٤/٢٩٢.

(٢) التفسير الكبير: ١٠/٢٣.

داخل تحت قول النبي ﷺ لهند: «خذني ما يكفيك وولدي بالمعروف»<sup>(١)</sup>، والمقصود منه إقناع المنفق عليه بأن لا يطلب من المنفق أكثر مما يطيقه... وفي قوله - تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ خبر لا يقتضي إلا أنّ من تصرفات الله - عزّ وجلّ - أن يجعل بعد عسر قوم يسراً، فمن كان في عسر، رجاً أن يكون من يشمله فضل الله فيدلّ عسره باليسر<sup>(٢)</sup>، وما قيل في هذه النماذج على مستوى رفع الحرج يقال في باقي المعاملات التي تعتبر من متطلبات الحياة كالقراض وإباحة المزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة والهبة وغيرها.



(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٠٦/٩. (كتاب النفقات باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف).

(٢) التحرير والتنوير: ٢٣١/٢٨ . ٣٢٢/٣٢١.

## المطلب الثالث :

### في العادات

ومنها هذه المطاعم والملابس والراكب وكل ما به يقوم بنيان الله الذي هو جسد ابن آدم حيث سمى هذا كله الطيبات. قال - تعالى - : **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا مَأْتُمُوا كُلُّهُمْ مِن طَيِّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَأَشْكَرُوا لِلَّهِ مَا إِن كُنْتُمْ إِيمَانَهُ تَسْبِدُونَ﴾** [آل عمران، الآية: ١٧٢] ، وأنكر على من حرم الطيبات بقوله : **﴿فَقُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْجَجَ لِعِبَادَهُ وَالظَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** [الأعراف، الآية: ٣٢] ، والطيبات لا تكون كذلك حتى تكون ظاهرة وتكون واقعة في نفس أهل المروءة والأخلاق الجميلة أنها طيبة، ويرى الشافعي - رحمة الله - أن الطيبات هي الحلال المستلزم، ويؤكّد هذا بقوله - تعالى - : «خلق لكم ما في الأرض إلا أنه دخله التخصيص بحرمة الخباث»<sup>(١)</sup> ، وهي موطن رفع الحرج وظهوره جلياً حيث يعرض القرآن الكريم جملة من الآيات يعدد فيها المحرمات المتناولات، فيقول - تعالى - : **﴿حَرَمْتُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمْ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَكَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّيْئُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾** [المائدة، الآية: ٣] ، ويقول - تعالى - : **﴿فَمَنْ أَضْطُرَ فِي مَخْصَصَتِهِ غَيْرَ مُتَجَاهِفٍ لِإِثْرِ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [المائدة، الآية: ٣] ، ويقول - تعالى - : **﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرْتُ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ مَا حَرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَضْطُرْتُمْ إِلَيْهِ﴾** [الأنعام، الآية: ١١٩] ، ويقول - تعالى - : **﴿فَقُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِيمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فِإِنَّمَا يُرْجِسُ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطُرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَابِرًا فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [الأنعام، الآية: ١٤٥] ، فللحظ في هذه الآيات كيف يستعرض القرآن هذه المحرمات ثم يتبعها برفع

(١) التحرير والتنوير: ١١١، ١١٢.

الخرج عن المكلف؛ إذ علم الله أن هذا المكلف سيوجس خيفة الحاجة عند الضرورة بعد تحريم ما حرم عليه؛ لذلك أعقبه بذلك المنه نزعاً لما يتوجسه في نفسه ليقول الحرم المنوع جائزاً، وذلك عند الاضطرار، هذا الاضطرار المعتبر عنه بالمحمصة التي هي المجاعة المقيدة بالتجانف المراد به ضبط حالة الاضطرار في الإقدام والإحجام، فلا يقدم على أكل الحرمات إلا إذا اشتدت الحاجة إليها، وهو نظير قوله - تعالى -: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلَا عَادِ فَلَا إِنْمَ عَلَيْهِ﴾** ثم قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

- ومن العادات - أيضاً - هذه السراويل التي تتعدد وظيفتها ويمكن إجلاؤها في مقاصدين رئисين:

**الأول :** مواراة عورة ابن آدم، وهي من أصل الفطرة الإنسانية ومظهر من مظاهر تكريم الإنسان.

**الثاني :** درء المشقة عنه في حالتي الحر والقر، وبذلك يتن الله على عباده، فيقول - تعالى -: **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَبِيلَ تَقِيمُ الْحَرَّ﴾** [النحل، الآية: ٨١]، ويقول: **﴿وَالآنَقَدَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفَ﴾** [النحل، الآية: ٥].

هذه الأنعام الرواحل التي يذكرها - سبحانه - في معرض الامتنان على عباده، فيقول - تعالى -: **﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَقَرْشَاءٌ﴾** [الأنعام، الآية: ١٤٢]، ثم يقول في موضع آخر - كاشفاً عن أحد مقاصد تسخيرها لعباده - **﴿وَتَخْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدِ لَوْ تَكُونُوا بَنِيَّهِ إِلَّا يُشَقِّ الْأَنْقَسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوِيقٌ رَّحِيمٌ ﴾** [النحل، الآية: ٧]، وفي هذا التذليل ما ينبغي عن كامل رحمته ورأفته بعباده.

## المطلب الرابع :

### في الأخلاق

ومنه الكذب وفيه يقول - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَأْيَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل، الآية: ١٠٥] ، فالكذب من المحرمات في الإسلام بلا شك ، وهو من صفات الذين كفروا ومن خصال المافقين ، وكم من آية تحت المكلفين أن يكونوا من زمرة الصادقين ، قال - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١١٩] ، ومن المعلوم أن الكلام وسيلة إلى القصد وكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وإن لم يكن ذلك إلا بالكذب جاز<sup>(١)</sup> ، ومن الأدلة على جوازه في أحوال معينة قوله ﷺ : «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَيُئْمِنُ بِخَيْرًا أو يَقُولُ بِخَيْرًا»<sup>(٢)</sup> ، ومن هنا كان الكذب في الحرب للنصرة ، وكذب الرجل على الزوجة لإزالة الخصومة ، والكذب للإصلاح بين الناس جائزًا مرفوعًا عنمن أتاها إذا لم يكنه إلا سلوك هذه السبيل ، لأن الغاية محمودة ومشروعة ، وفي صحيح الإمام مسلم - رحمه الله - أن ابن شهاب الرهري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل أمراته وحديث المرأة

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، ص: ١١٣.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٩٩/٥ (كتاب العلم بباب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس) ، قوله: «يُئْمِنُ» من تقييم الحديث أئمته إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير. انظر النهاية في غريب الحديث: ١٢١/٥ . مادة «نما».

زوجها<sup>(١)</sup> ، ومن أمثلة جواز الكذب عند الاضطرار، ما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختلف عند آخر فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم<sup>(٢)</sup> .

ومنه هذه التدابير التعليمية والخلاقية والاجتماعية التي وضعتها الشريعة بالنسبة لإتيان البيوت عند الرغبة في زيارة أربابها، قال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُوًّا غَيْرَ بُوًّتُكُمْ حَقًّا تَسْتَأْسِفُو وَتُسْلِمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَكَبَّرُونَ﴾ [النور، الآية: ٢٧] ، وهي قاعدة في آداب الاستئذان أراد بها - سبحانه - إصلاح وضع سابق جرت عليه عادة الجاهلية من ولوج الدور دون إذن؛ لذلك أعطى الشرع للفرد حق الخلوة لا يجوز لغيره أن يقتتحمه إلا برضاه، ثم يمضي القرآن ليتحدث عن طائفة لها خصوصيتها من حيث حكم هذه القاعدة وهم الخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، فهولاء قد رفع الله عنهم الحرج إلا في أوقات معلومة نظراً لكثره تردادهم على البيت، أما الأطفال بحكم الصغر، وأما الخدم بحكم قيامهم بالخدمة؛ لذلك قال الله - تعالى - : ﴿طَوَّفُوكُمْ عَلَيْنَا﴾ ، ثم نعت تلك الأوقات المستثناء من الإذن بالعورات غالباً، وبذلك يكون قد جمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات، ورفع المشقة والحرج عن هؤلاء<sup>(٣)</sup> ، وفي نفس السياق نجد القرآن بعد أن تناول بالحديث إخفاء زينة النساء - منعاً لإثارة الفتنة - عاد ليستثن منهن القواعد التي فرغت نفوسيهن من الرغبة في معاشرة الرجال فرفع عنهن الحرج فيما إذا خلعن ثيابهن على ألا تنكشف عوراتهن أو يكشفن عن زينتهن وإلا فما دون ذلك معفو عنه<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

(١) صحيح مسلم: ٢٨/٨ (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه).

(٢) فتح الباري: ٥/٣٠٠.

(٣) تفسير سورة النور ص: ١٩٢.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/٢٥٣٢-٢٥٣٣.

## المطلب الخامس :

### في السياسة الشرعية

ومنه الجهاد، قال الله - تعالى - : ﴿أَلَقَنَ حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعِلْمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَمُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَمُوا أَلْفَيْنِ يُبَدِّلُنَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأفال، الآية: ٦٧] (١)، وقد وردت عقب آية تستنهض همم المسلمين للجهاد والقتال من أجل الذب عن الحوزة وقتال أعداء الله، وما كان العدو كثير العدد احتاج المسلمين إلى التقوية - فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوى نفوس أهله - فجعل تقويتهم في الإيمان حيث زرع في نفوسهم ما يدفع عنهم وَهُنَّ اسْتَشْعَارُ قلتهم، وأن الله كفيل بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله من عدوهم، وهو مما يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة من أمثاله، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات للعدد والواقع في قوله - تعالى - : ﴿إِذَا لَقِيْتُمْ فِيْكُمْ فَاثْبُتُوْا﴾ [الأفال، الآية: ٤٦]، وإطلاق النهي عن الفرار أيضاً في قوله - تعالى - : ﴿فَلَا تُولُوْهُمُ الْأَذْبَارَ﴾ [الأفال، الآية: ١٥]، وهو ومن هذه الناحية التشريعية حكم شاق اقضته قلة عدد المسلمين يومئذ، لكن الله الرؤوف الرحيم يدارك عباده برحمته وينزل التخفيف المناسب ليسر هذا الدين، فيقول - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿أَلَقَنَ حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعِلْمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، روى ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَمُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: كان لكل رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفرّ منهم، فكانوا كذلك حتى أنزل الله ﴿أَلَقَنَ حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ (١) فخفف الله عنهم لعلمه السابق أن فيهم ضعفاً، وإنما آخر التخفيف لما يقتضيه استصلاح حالهم (٢)،

(١) جامع البيان: ٣٩/٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٧٠، ٦٩/١٠.

وفي موضع آخر يقول - تعالى -: «لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّجِيعٌ» [التوبه، الآية: ٩١]. فبعد نعيه على طائفة المخالفين تخلفهم؛ تارة بالوعيد والتهديد، وتارة بالسخرية والاستهزاء - كاشفاً عن إيثارهم نعمة الدعوة والاستكانة على سمعة الجهاد وثوابه، بادر - سبحانه وتعالى - بالخطاب إلى طائفة أخرى وهم الضعفاء - إما مادياً أو بدنياً - الذين حيل بينهم وبين ما يشتهونه من النفر في سبيل الله فبشرهم بنعمة التخفيف، ويكفيهم إسهاماً في عمليات الجهاد أن يسدوا النصح لل المسلمين، وأن يسعوا لما ينفعهم فيتبوعوا بذلك منزلة الحسينين، ونظير هذه الآية قوله - تعالى -: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَهْمَرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذَّبَ عَذَابًا أَلِيمًا» [الفتح، الآية: ١٧] والقصد منها نفي الوعيد عن أصحاب الضرورة تنصيصاً على العذر للعناية بحكم التولي والتحذير منه.

وما يدخل في مجال السياسة الشرعية القصاص، وقد رواعي فيه - أيضاً - جانب عدم التكلفة، ويعتبر من الأحكام التي أعطي لها السبق، والقصد هو تعظيم الأنفس بحيث لو احتل حفظها لاحتلت الأحوال، من أجل ذلك جعله الله حقاً لازماً لا محيد عن الأخذ به إلا أن يغفو ولـي الدم عن دم ولـيه، وإن تعويض هذه الجناية بالمثل من باب الإنصاف والعدل المأمور به لقيام الحياة.

ولما كانت مشروعية القصاص كافية في تحقيق مقصد الشريعة في شرع القصاص من ازدجاج الناس عن قتل النفوس وتحقيق حفظ حق المقتول، أردفه سبحانه بما هو أولى إبقاءاً على أوصار الدين وأخوة الإسلام فرغب في المصالحة عن الدماء بقوله «فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخْيَهُ سَبَّهُ فَأَنْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً» [البقرة، الآية: ١٧٨]، حتى إن هذا الترغيب ورد بأسلوب كله ترقيق لنفس

ولي المقتول وذلك باستعمال لفظة «أخيه» التي تذكره بأخوة الإسلام؛ لأنه إذا اعتبره أخا له، كان من المروءة ألا يرضي بالقود، لأنه يكون كمن رضي بقتل أخيه، ويضيف - تعالى - : فيقول: ﴿ذلِكَ تَحْقِيقٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةً﴾، أي أن ذلك من آثار رحمته، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة.

ومنه - أيضاً - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وائن كان من فروض الكفاية على الأمة - بحيث إذا قام به البعض سقط الفرض والخرج عن الباقيين، قال - تعالى - : ﴿وَلَا تُكُنْ مِّنَ الظَّالِمِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٤٠]، وقد أوجبت الآية أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه ينقلب إلى فرض عين على من تعين عليه بحيث لا يستطيع غيره القيام به، أو لا يعلم غيره به، أو عينه الحاكم لإنكاره، وهذا هو مراد قوله ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده»، ومن لم يستطع فلبسانه، ومن لم يستطع فقبله وذلك أضعف الإيمان<sup>(١)</sup> ، ومن خلال الحديث يمكن الكشف عن مقامات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى التطبيق بحيث لا يؤخذ القائم وهي كالتالي:

**المقام الأول** : أن يكون قادرًا على التغيير باليد والمراد القوة والقدرة، وهو مقام خاص بأولي الأمر ونوابهم ومن لهم سلطة على آخر كالوالد على ولده، والزوج على زوجته ونحوهم من يجب في حقهم تغيير المنكر باليد.

**المقام الثاني** : وهو دون الأول بحيث يتعدى على الغير للمنكر أن يغيره بيده - إذ ليست له أهلية التغيير باليد - فيلجأ إلى التغيير باللسان، ولا حرج على أن يبذل كل ما في وسعه للتأثير من أجل إزالة المنكر.

(١) سنن الترمذى: ٢١٨ / ٣ (باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب).

المقام الثالث : ويصادر إليه إذا انتفت مؤهلات الأول والثاني فيصبح عاجزاً عن التغيير باليد واللسان، فلا يبقى في وسعه إلا الإنكار بالقلب، فله ذلك ولا حرج عليه، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : « جاهدوا المنافقين بأيديكم ، فإن لم تستطعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فاكفهروا في وجوههم »<sup>(١)</sup> ، وقال الإمام علي - رضي الله عنه - : « فمن رأى منكراً يُذْغِي إِلَيْهِ فَأَنْكَرْهُ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ بَرِئَ وَسَلَّمَ، وَمَنْ أَنْكَرْهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَمَنْ أَنْكَرْهُ بِالسِيفِ لَتَكُونَ كَلْمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا وَكَلْمَةُ الظَّالِمِينَ السُّفْلَى، فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَتَوَرَّ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينِ »<sup>(٢)</sup>.

إلى جانب ما مرَّ نلاحظ أن الحرج مرفوع - أيضاً - فيما يتعلق بزمان ووقت فعل بعض التكاليف، حيث نجد المدد الزمنية قصيرة مستطاعة بالنسبة للمكلف؛ إذ بإمكانه الإتيان بأفعال التكليف في وقت قصير لا يشقه ولا يعتنه، فالإيمان بالله مجرد التصديق القلبي بالشهادتين حتى ينضم المكلف في سلك المؤمنين ويصير في عدادهم، والصلوات خمس فقط، في ركعات معدودات وأوقات معلومات متفرقات بإمكان المسلم الإتيان بأضعافها لو شاء ووقته يسع ذلك، والصوم شهر واحد في السنة على المستطيع فقط، بإمكان المسلم أن يصوم أزيد من ذلك، والحج لا يجب على القادر إلا مرة واحدة في العمر.

وهكذا نلحظ أن هذه الكلية لم تترك حيزاً من التشريع إلا وطبعته بطبعها الخاص وحق بذلك أن يكون قوله - تعالى - : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » حقاً وصدقـاً وعدلاً.



(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٧).

(٢) نهج البلاغة: ٨٩/٤.



## المبحث السابع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

#### من بعض القواعد الفقهية والأصولية<sup>(١)</sup>

لما كانت مواطن رفع الحرج في كتاب الله جمة، ألفينا الفقهاء وقفوا عندها بعيناً فراحوا يستنبطوا منها قواعد مثُلْ أصولاً جامدة حوت فوائد نافعة يانعة.

#### المطلب الأول :

### حديث النفس

فعن حديث النفس - مثلاً - قالوا: «إذا ورد حديث النفس من غير استقرار في القلب فإنه معفو عنه في الشر مكتوب في الخير»<sup>(٢)</sup> ، وهي قاعدة لا جرم أنها مستقاة

(١) هذه القواعد التي نحن بصدد بسطها والحديث عنها سواء كانت من كبريات القواعد أو ما يتفرع عنها لا تعد من القواعد الأصولية إلا من قبيل التجوز، وقد أفردت بالتصنيف، ومن صنف فيها الإمام أحمد بن إدريس القرافي - رحمه الله - الذي استهل مصنفه بقوله: «أما بعد فإن الشريعة المعظمة الحمدية زاد الله - تعالى - منارها شرفاً وعلواً اشتغلت على أصول وفروع، وأصولها قسمان: أحدهما المسمى بأصول الفقه، وهو غالب أمره ليس فيه إلا قواعد الأحكام الناشئة عن الألفاظ العربية خاصة وما يعرض لتلك الألفاظ من النسخ والتترجم، ونحو الأمر للوجوب والنهي للتحرير والصيغة الخاصة للعلوم ونحو ذلك... والقسم الثاني: قواعد كلية فقهية جليلة كثيرة العدد عظيمة المدى مشتملة على أسرار الشرع وحكمه لكل قاعدة من الفروع في الشريعة ما لا يخص ولم يذكر منها شيء في أصول الفقه وإن اتفقت الإشارة إليه هنا لك على سبيل الإجمال فبقي تفصيله لم يحصل» الفروق ٢-٣.

(٢) المشار في القواعد: ٣٩٦/٣

من قوله - تعالى - : ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦] ، والآية وردت في سياق الحديث عن وسعة النفس الدال عليها قوله - عز وجل - : ﴿وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفِيْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٤] ، ف تكون الآية السابقة قد رفع بها - عز وجل - الحرج ، بل ويزيد من فضله وسعة كرمه فيبشر المؤمنين بقوله - تعالى - فيما يرويه النبي ﷺ : «إِذَا هُمْ عَبْدِي بِحَسْنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلُوهَا كَبِيرًا لَهُ حَسْنَةٌ، إِنْ عَمَلُوهَا كَبِيرًا لَهُ عَشْرُ حَسْنَاتٍ إِلَى سَبْعِمَائَةِ ضَعْفٍ، وَإِذَا هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلُوهَا كَبِيرًا عَلَيْهِ فَإِنْ عَمَلُوهَا كَبِيرًا لَهُ سَيِّئَةٌ»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٢٣/١١ (كتاب الرفاق، باب من هم بالحسنة أو السيئة) وصحيف مسلم ١/٨. (كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتب وإذا هم بسيئة لم تكتب).

## المطلب الثاني :

### قاعدة الإكراه

وعن الإكراه قالوا: «إنه يسقط أثر التصرف رخصة من الله - تعالى»<sup>(١)</sup> : ولا ريب أن هذا مأمور - أيضاً - من القرآن كقوله - تعالى - : «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقْلُبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ» [الحل، الآية: ١٠٦] ، فمن الجائز إلى فعل ما يكره فقد رخص له الشارع، ولا أدل على هذا الترجيح من أن يشمل العقيدة التي هي أصل الدين حيث نطقت الآية بالغفو عن اضطر إلى النطق بكلمة الكفر - تقية ومداراة - رفقاً به واعتباراً للأشياء بغاياتها ومقاصدها.

ومن هذا القبيل مقارفة الزنا تحت وطأة الإكراه والإجلاء، حيث يتحدث القرآن قائلاً: «وَلَا تُكَرِّهُوْ فَيَنِتَّكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحْصُنَا لِتَنْجُوْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكَرِّهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [النور، الآية: ٣٣] ، فدليل الآية صريح في المغفرة وعدم المؤاخذة ورفع الحرج عن المكرهة بفعل أجبت عليه وهو الزنا.

على أن الفقهاء قد استثنوا من القاعدة: إكراه القتل والزنا باعتبار الفارق بينهما وبين الكفر؛ إذ التلفظ بالكفر لا يوجب وقوع مفسدة الكفر؛ لأن الكفر الموجب للمفسدة إنما هو الكفر القلبي بخلاف الزنا والقتل فإنهما يوجبان المفسدة<sup>(٢)</sup>.

ولا وجه لهذا الاستثناء بالنسبة لزنا المكره، وقتله فساد وعدوان؛ لأن الصواب - إن شاء الله - أنه «لا يقع التكليف إلا بما يدخل تحت القدرة ولذلك يقال: إنه لا حدٌ عليه؛ لأن الإكراه يسقط حكم التكليف، ولو قيل: إن الزاني ينتهي ويشتهي إذا اتصل

(١) المنصور في القواعد: ١٨٩/١.

(٢) المنشور في القواعد: ١٩٩، ١٩٨/١.

بالمرأة فالجواب: أن الإلقاء إلى ذلك هو الذي أسقط حكمه<sup>(١)</sup> ، وأما القتل فقد أجمعوا على أن المكره لا يستفيد من الإكراه في حالة القتل، قال القرطبي - رحمة الله -: «أجمع العلماء على أن من أُكْرِه على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمه بجلده أو غيره، وبصبر على البلاء الذي نزل به ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره»<sup>(٢)</sup> ، وهذا الإجماع المنقول من قبل القرطبي يعضده حديث رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، الذي يقول فيه: «تتكافأ دمائهم» الحديث.

ومن أمثلة هذه القواعد- أيضاً قاعدة في النسيان ومفادها: «أن النسيان ليس عنراً في ترك المأمورات، وهو عندر في المنهيات»<sup>(٣)</sup> ؛ إذ النسيان يهجم على العبد قهراً بحيث لا تكون له حيلة في دفعه، وقد أجمعت الأمة على أنه لا إثم فيه وحسبنا في هذا قوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٦]، فقد جوز المفسرون أن يكون هذا الدعاء تلقينا من جانب الله للمكلفين - كتلقيهم التحميد في سورة الفاتحة - حيث إنه - تعالى - بعد أن قرر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، لقنهن مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوع و منها النسيان<sup>(٤)</sup> ، وفي هذا يقول ﷺ : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»<sup>(٥)</sup> ، ولست هنا بقصد الاستقراء لهذه القواعد المنتزعة من القرآن، وإنما بغطيتي أن أجعل من هذه الأمثلة مدخلاً إلى البحث الذي سيشمل بعض القواعد الكبرى التي اعتبرت بحق من أمهات القواعد، وهي على وزان الكلية القرآنية المتمثلة في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج، الآية: ٧٨].

(١) أحكام القرآن: ١٣٨٦/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٨٣.

(٣) المنشور في القواعد: ٣٩٨/٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٣/١٤٠.

(٥) سنن ابن ماجة: ١/٦٥٩. (كتاب الطلاق، باب طلاق المكره).

### المطلب الثالث :

#### قاعدة : «المشقة تجلب التيسير»

ومن مرادفاتها قولهم: «إذا ضاق الأمر اتسع» وقد عزت هذه العبارة إلى الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - عند كلامه على الذباب يقع في الماء القليل<sup>(١)</sup> ، وتعتبر هذه القاعدة أصلًا كبيراً ينبيء - كما سبق - على أن الشريعة سمحنة في الأحكام والأعمال، «ويخرج عليها جميع رخص الشرع وتخفيقاته»<sup>(٢)</sup> ، على أن الفقهاء حين صاغوا هذه القاعدة، اشترطوا لأن تكون المشقة جالبة للتيسير ألا تصادم نصاً، فإذا صادمت نصاً روعي دونها<sup>(٣)</sup> ، كما أنه لا اعتبار لهذه المشقة الجالبة للتيسير إلا إذا اتفكت عنها التكليفات الشرعية - كمشقة الحدود والرجم والجهاد وقتل البغاة والخوف على النفوس والأطراف ومنافع الأعضاء - حيث يجب التخفيف في حق هذه التكليفات والترخيص قطعاً؛ لأن حفظ هذه المذكورات كلها لإقامة مصالح الدين أولى من تعريضها للقوات في عبادة أو عبادات يفوت بها أمثالها، قال القرافي رحمه الله - محرباً محل الفرق بين المشقة المنفكة وغير المنفكة -: «أحدها: لا تنفك عنه العبادة كالوضوء والغسل في البرد والصوم في النهار الطويل والمخاطرة بالنفس في الجهاد ونحو ذلك، فهذا القسم لا يوجب تخفيفاً في العبادة لأنه نوع في الرتبة العليا «كالخوف على النفوس والأعضاء والمنافع فيوجب التخفيف؛ لأن حفظ هذه الأمور هو سبب مصالح الدنيا والآخرة.

(١) انظر على سبيل المثال: المثور في القواعد: ١٦٩/٣، الأشباه والنظائر لابن نجيم والقواعد والأصول الجامحة ص: ١٨، وشرح القواعد الفقهية ص: ١٥٧ والفرائد البهية في القواعد والقواعد الفقهية ص: ١٤، الأشباه والنظائر لابن نجيم السبكي: ٤٨/١، ٤٩.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٨٤.

(٣) نفسه لابن نجيم، ص: ٩٣، ٩٢.

ونوع في الرتبة الدنيا: كأدنى وجع في أصعب، فتحصيل هذه العبادة أولى من درء هذه المشقة لشرف العبادة وخفة المشقة.

النوع الثالث: مشقة بين هذين النوعين مما قرب من العليا أو جب التخفيف، وما قرب من الدنيا لم يوجبه، وما توسط يختلف فيه لتجاذب الطرفين له...»<sup>(١)</sup>.

وها هنا قاعدة للفقهاء تنص على أن التكليفات المنفكة هي المعتبرة في جلب التيسير، وهي قولهم: «الحرج اللازم لل فعل لا يسقطه»<sup>(٢)</sup> وَتَبَّأَ عَلَيْهِ الزَّرْكَشِيُّ فِي الْمُشَوْرِ بِقَوْلِهِ: «هَذَا إِذَا كَانَتِ الْمَشَقَةُ وَوْقَعَهَا عَامِّا فَلَوْ كَانَ نَادِرًا لَمْ تَرَعِ الْمَشَقَةُ فِيهِ»<sup>(٣)</sup>؛ «لأن العموم بكثرته يقوم مقام العظم»<sup>(٤)</sup>، ولا شك أن الزركشي - رحمه الله - لا يريد بالمشقة النادرة إلا تلك المشاق التي لا أثر لها في إسقاط العبادات والطاعات أو التخفيف منها إذ لو أثرت، لفاتها مصالح هذه العبادات، ولفاتها ما رُتب عليها من ثواب ولأنها مشقات عادلة تستلزم عادةً أداء الواجبات والقيام بالمساعي التي تقضيها الحياة الصالحة، ومعلوم أن كل واجب لا يخلو من مشقة؛ كمشقة العمل واكتساب العيش وبذك النفقات الواجبة، فلكل من هذه الأعمال نوع مشقة تستلزمها طبيعته وتختلف بحسب درجاتها، وهذا كله لا ينافي التكليف ولا يوجب التخفيف؛ لأن التخفيف فيه عندئذ إهمال وتفريط.

والإليك صوراً تطبيقية لهذه القاعدة، وقد أجملها الفقهاء في سبعة أنواع:

الأول: السفر، ومن تيسيراته:

\* إباحة قصر الصلاة وجمعها.

(١) الفرق: ١١٩/١، القواعد للمقربي: ٣٢٦/١.

(٢) الفرق: ١١٩/١، القواعد للمقربي: ٣٢٦/١.

(٣) المشور في القواعد: ١٧١/٣.

(٤) الفرق: ١١٩/١.

- الفطر في رمضان.
  - وإطالة المسح على الخفين.
  - وترك الجمعة والجماعة.
  - جواز بيع الإنسان مال رفيقه في السفر وحفظ ثمنه لورثته بدون ولاية ولا وصاية إذا مات في السفر وليس قاضي ثمة.
  - جواز إنفاق المضارب على نفسه في السفر من مال المضاربة.
  - إمكان كتابة القاضي إلى المدعى في بلد المدعى عليه بشهادة شهود المدعى عنده.
  - جواز تزويع الولي الأبعد للصغرى عند عدم انتظار الكفاء الخاطب استطلاع رأي الولي الأقرب المسافر<sup>(١)</sup>.
- الثاني: المرض، ومن تيسيراته:
- جواز التيمم عند مشقة استعمال الماء.
  - القعود في صلاة الفرض وخطبة الجمعة.
  - الاضطجاع في الصلاة والإيماء.
  - الجمع بين الصلاتين ما لم يتخذ عادة<sup>(٢)</sup>.
  - جواز الفطر في رمضان.
  - ترك الصوم للشيخ الهرم مع الفدية والانتقال من الصوم إلى الإطعام في الكفارة.

(١) انظر هذه الصور في شرح القواعد الفقهية، ص: ١٥٧، ١٥٨.

(٢) المجموع: ٣٠٩/٤.

\* والاستنابة في الحج.

\* التداوي بالنجاسات.

\* إساغة اللقمة بالخمر إذا غص.

\* إباحة النظر للغورة<sup>(١)</sup>.

الثالث: الإكراه، وهو التهديد من قبل من له القدرة على أن يوقع بالمكره ضررًا مبرحًا، أو إزهاقاً لروحه بالكلية، أو إتلاف عضو من أعضاءه سواء كان بقيد أو حبس وسواء طالت مدة الإكراه أم قصرت، ويسمى هذا النوع من الإكراه ملجمًا، وقد يكون الإكراه دون ذلك كأن يكون مما يوجب الغم ويسمى غير ملجم.

« والإكراه بنوعيه إما أن يوجد في العقود أو في الإسقاطات أو في المنهيات، والعقود والإسقاطات إما أن يؤثر فيها الهزل أو لا، وما لا يباح عند الضرورة إما أن يكون جنائية على الغير؛ كقتل محقون الدم أم قطع عضو محترم، أو لا يكون جنائية على الغير؛ كالردة.

« أما العقود والإسقاطات التي يؤثر فيها الهزل كالبيع والإجارة والرهن والبهبة والإبراء، إذا أكره عليها بملجم أو بغير ملجم ففعلها ثم زال الإكراه، فله الخيار إن شاء فسخ وإن شاء أمضى.

« وأما العقود والإسقاطات التي لا مكان لتأثير الهزل فيها كالنكاح والطلاق والغفران عن دم العمد، فلا تأثير للإكراه فيها، فلا خيار للمكره بعد زوال الإكراه، بل ماضية على الصحة ولكن له أن يرجع على المكره له على الطلاق غير الزوجة، فلو كانت هي المكرهة سقط المهر عن الزوج.

(١) انظر الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية، ص: ٨٤

\* وأما النهيات التي تباح عند الضرورة كإتلاف مال الغير وشرب المسكر فإنها تحل بل تجب بالملجئ لا بغير الملجئ وضمان المال المتلف على المكره.

\* وأما النهيات التي لا تباح عند الضرورة وهي جنائية على الغير كما تقدم فإنها لا تحل ولا بالملجئ، ولو فعل فموجبها هو القصاص على المكره.

\* وما لا جنائية فيه على الغير وليس في معنى الجنائية، وهو الردة، فإنه يرخص له أن يجري كلمتها على لسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان ويوري وجواباً إن خطر بياله التورية<sup>(١)</sup>.

الرابع: النسيان، فإنه مسقط للإثم كما أسلفنا، وقد يكون في ترك مأمور أو فعل منهى عنه ليس هو من باب الإتلاف أو فيه إتلاف.

فمن فروع القسم الثاني - وهو فعل منهى عنه وليس من باب الإتلاف - الإتيان بفسادات العبادة كالأكل في الصلاة، والصوم، والجماع في الصوم والاعتكاف والإحرام، وارتكاب محظورات الإحرام كاللبس والاستمتاع والدهن والطيب ونحوها، فالحكم في الجميع عدم الإفساد وعدم الكفاره والفدية<sup>(٢)</sup> ، على أن المسألة فيها اختلاف في تضمين الناس هذه العبادات أو عدم تضمينه إليها، ومن قال بالتضمين الفقهاء المالكية، ومن قواعدهم « كل ما يفسد العبادة عمداً يفسدها سهواً<sup>(٣)</sup> .

الخامس: الجهل، وهو نوعان:

١- نوع لم يتسامح صاحب الشرع عنه، فلم يعف عن مرتكبه، وضابطه أن كل

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٥٨، ١٥٩.

(٢) الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية، ص: ٨٤.

(٣) الإشراف في مسائل الخلاف: ٢٤/١، ٢٢٦/١، ٢٠٢/١، وانظر عمدة الأحكام لابن دقيق العيد: ٢١/٢.

ما يتعدى الاحتراز عنه ولا يشق لم يعف عنه، وهذا النوع يطرد في أصول الدين وأصول الفقه - على قول من الحق الفقه بأصول الدين<sup>(١)</sup>.

أما أصول الدين فلأن صاحب الشرع حين شدد في جميع الاعتقادات تشديداً عظيماً بحيث إن الإنسان لو بذل جهده واستفرغ وسعه في رفع الجهل عنه في صفة من صفات الله أو في شيء يجب اعتقاده من أصول الدين ولم يرتفع ذلك الجهل لكان بترك ذلك آثماً على المشهور من المذاهب<sup>(٢)</sup>.

- النوع الثاني: من أنواع الجهل هو النوع الذي تسامح عنه صاحب الشرع فعفا عنه مرتكبه، وضابطه أن كل ما يتعدى الاحتراز عنه عادة فهو معفو عنه<sup>(٣)</sup> ومن تيسيراته:

- لو جهل الشفيع بالبيع، فإنه يعذر في تأخير طلب الشفعة.

- ومنها ما لو جهل الوكيل أو القاضي بالعزل أو المحجور بالحجر، فإن تصرفهم صحيح إلى أن يعلموا بذلك، ومنها لو باع الأب أو الوصي مال اليتيم ثم ادعى أن البيع وقع بغير فاحش وقال لم أعلم تقبل دعواه.

- ومنها لو جهلت الزوجة الكبيرة أن إرضاعها لضرتها الصغيرة مفسدة للنكافح لا تضمن المهر.

- ومنها لو أجاز الورثة الوصية ولم يعلموا ما أوصى به الميت لا تصح إجازتهم.

- ومن المسائل التي يعذر فيها بالجهل ما لو اختلعت المرأة من زوجها على بدل، ثم ادعت أنه كان طلّقها ثلاثة قبل الخلع وبرهنت فإنها تسترد البدل، ويغفر تناقضها

(١) انظر المعتمد في أصول الفقه: ٥/١

(٢) تهذيب الفروق: ١٦٢/٢

الواقع في إقدامها على الاختلاع ثم دعواها الطلاق؛ لأن الطلاق فعل الغير فإن الزوج يستبُدُّ به دون علمها فكانت معدورة.

- ومنها أن من أسلم في دار الحرب ولم تبلغه الشريعة فتناول المحرمات جاهلاً حرمتها فهو معدور<sup>(١)</sup>.

السادس: العسر وعموم البلوى، ومن تيسيراته: الصلاة مع النجاسة المعفو عنها كدم القروح والدمامل، والبراغيث، والقبح والصديد، وقليل من دم الأجنبي، وطين الشارع، وأثر نجاسة عسر زواله، وذرق الطيور إذا عمَّ في المساجد والمطاف وما يصيب الخف في الدوس من روث البقر وبوله، وما لا نفس له سائلة، وريق النائم، وفم الهرة، وقليل الدخان.

ومن تيسيراته: مشروعية الاستجمار بالحجر، وإباحة الاستقبال والاستدبار في قضاء الحاجة في البنيان.

ومنه إباحة أربع نسوة، فلم يقتصر على واحدة تيسيراً على الرجال وعلى النساء أيضاً لكثرتهن، ولم يزد على أربع لما فيه من المشقة على الزوجين في القسم وغيره، ومنه الرد بالعيوب والتحالف والإقالة والحوالة والرهن والضمان والإبراء والقرض والشركة والصلح والحجر والوكالة والإجارة والمزارعة والمسافة والمضاربة والعارية والوديعة للمشقة العظيمة في أن كل واحد لا يتتفع إلا بما هو ملكه ولا يستوفى إلا من عليه حقه ولا يأخذ إلا بكماله ولا يتعاطى أمره إلا بنفسه فسهَّلَ الأمر بإباحة الانتفاع بذلك الغير بطريق الإجارة والإعارة والقرض وبالاستعانة بالغير وكالة وإيداعاً وشركة ومضاربة ومسافة وبالاستيفاء من غير المديون حواله، وبالتوثيق على الدين برهن وكفيل ولو بالنفس وإسقاط بعض الدين أو كله إبراء..

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٠، ١٦١.

ومنه مشروعية الطلاق لما في الإبقاء على الزوجة من المشقة عند التنازع وكذا مشروعية الخلع والافتداء والرجعة في العدة الثالث<sup>(١)</sup>.

السابع: النص، فإنه نوع من المشقة؛ إذ النفوس مجبرة على حب الكمال فناسبه التخفيف في التكليفات.

ومن ذلك عدم تكليف الصبي والجنون، ففوض أمر أموالهما إلى الوالي، وتربيته وحضانته إلى النساء رحمة به وإشفاقاً عليه، ولم يجبر النساء على الحضانة تيسيراً عليهم.

ولم يكلفهن بكثير مما وجب على الرجال كالجماعة والجمع والجهاد والجزية وتحمل العقل على قول، وإباحة لبس الحرير وحلبي الذهب، وعدم تكليف الأرقاء بكثير مما وجب على الأحرار لكونه على النصف من الحر في الحدود والعدة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الأشيه والنظائر لابن نجيم، ص: ٨٧-٨٩.

(٢) الأشيه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٠.

## المطلب الرابع :

### «الخرج مرفوع»<sup>(١)</sup>

والمراد بالخرج أن يتحمل المكلف مشقة زائدة عن المشقة المعتمدة في التكاليف الشرعية إذ الخرج في اللغة: المشقة والضيق، وقيل: «إنه أضيق الضيق»<sup>(٢)</sup> ، قال المقرى - رحمه الله -: «الخرج مرفوع، وكل ما يؤدي إليه فهو ساقط برفعه إلا بدليل على وضعه»<sup>(٣)</sup> يريد أن كل شيء يؤدي إلى الخرج فهو ساقط استناداً إلى هذا الأصل العظيم.

وسقوطه يكون لأسباب منها:

أ- أن أوامر الشارع ونواهيه مختلفة ومتنوعة ومقصودة من جهة الأمر والناهي لا بدّ من القيام بها قال - تعالى -: ﴿تُمْ جَعَلْنَكُمْ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس، الآية: ١٤] ، وقال - تعالى -: ﴿لِيَبْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك، الآية: ٢] ، وهو، الآية: ٧] ، إلا أن المكلف وجد بطبيعته ضعيفاً في نفسه وزمه وصبره، فكان بذلك أن عذر ربه حيث جعل له من جهة هذا الضعف ما يشدّ به أزره ويستند عصده أثناء الدخول في الأعمال وإلا لو تجاوز حد الاعتدال في ناحية يكون بذلك قد تعرض للانقطاع أو التقصير في ناحية أخرى كمن يجتهد في العبادة ويكون اجتهاده على حساب غلط حقوق الزوجة والأبناء، وهذا عبد الله بن

(١) وهي قاعدة لا تعود أن تكون أختاً للسالفة وإن كانت هذه تخبر عن انتفاء رفع المشقة قبل ملابسة الفعل، وتلك تتحدث عن انتفاء ابتداء وملابسة، لذلك أفتينا الفقهاء بوردون صوراً متماثلة عند الحديث عنها.

(٢) النهاية في غريب الحديث: ٣٦١/١

(٣) القواعد للمقرى، ٤٣٢/٢

مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سُئلَ عن سر إقلاله الصوم، أجاب «إنه يضعفني عن قراءة القرآن وهي أحب إلى منه»<sup>(١)</sup>.

أنه لو أوصد باب رفع الحرج لورث للمكلف بعض التكاليف، وما القصد منها إلا إيتانها - كما مر - فهي برهان ودليل على الطاعة، لذلك شفعها - سبحانه - بتقوية المكلف عليها وحبه لها، وكان معه - عَزَّ وَجَلَّ - عند صبره عليها، وبذلك تم فتح باب رفع الحرج وهيأ للمكلفين للتخفيف عنهم استقبلاً بذلك ثقل المداومة حتى لا يصعب عليهم البقاء فيه والاستمرار عليه، وذلك ما يزكيه حديث رسول الله ﷺ حيث يقول: «إن هذا الدين متين فأوغلو فيه برفق»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) المواقفات: ١٤٢، ١٤١/٣.

(٢) مسند أحمد: ١٩٩/٣.

## المطلب الخامس :

### قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»<sup>(١)</sup>

والقاعدة حديث شريف نصاً ومعنى، رواه ابن ماجة وأحمد- رحمها الله- من حديث عبد الله بن عباس، وعبادة بن الصامت- رضي الله عنهم-<sup>(٢)</sup>. وتعتبر ثالث القواعد الأصول الواردة في شأن رفع الضرر، وما سواهن يعتبر تقييداً أو تكميلاً لقولهم- مثلاً-: «يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام»<sup>(٣)</sup> ، فالقاعدة الأولى هي هذه التي معنا واعتبرت عند بعض الفقهاء متحدة أو متداخلة مع السابقة التي هي: «المشقة تحجب التيسير»<sup>(٤)</sup> ، وأما الثانية فهي قولهم: «الضرر يزال»<sup>(٥)</sup> ، وهي دالة على وجوب إزالة الضرر بعد الواقع وقد قيدت بقولهم: «الضرر لا يزال بالضرر»<sup>(٦)</sup>. وأما الثالثة فهي قولهم: «الضرر يدفع بقدر الإمكان»<sup>(٧)</sup> ، بحيث إذا حلَّ الضرر فإن أمكن دفعه بالكلية، وإلا فقدر الإمكان.

وهذه القاعدة الجامعة التي تمثلت في الحديث النبوي الشريف: «مقيدة إجماعاً بغير ما أذن به الشرع من الضرر، كالقصاص والحدود وسائر العقوبات والتعازير؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، على أنها في الحقيقة لم تُشرع إلا لدفع الضرر

(١) انظر شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٥، والقواعد والأصول الجامعة، ص: ٥٢.

(٢) انظر سنن ابن ماجة ٧٨٤/٢ (كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره) وانظر مسند أحمد ٣٢٧/٥.

(٣) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٩٧.

(٤) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٤.

(٥) الأشباه والنظائر لتابع الدين السبكي: ٤١/١.

(٦) الأشباه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٦.

(٧) شرح القواعد الفقهية، ص: ٢٠٧.

أيضاً<sup>(١)</sup>، فكل هذه العقوبات المأمور بها - مع أن في الأصل فيها ضرر - لدفع ما هو أعظم ضرراً منها وهي جرائمها؛ إذ لا يمكن دفع الفساد الكبير إلا بهذا الفساد الصغير.

وما أورد القرآن الكريم في شأن النهي عن المضاراة:

\* مضاراة الزوجة والتضييق عليها لتفندي من زوجها بغير حق، قال - تعالى -: ﴿وَلَا نُضَارُوهُنَّ لِتُصْبِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق، الآية:٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْدُوَا﴾ [البقرة، الآية:٢٣١].

\* مضاراة أحد الوالدين للآخر من جهة الولد، قال - تعالى -: ﴿لَا تُضْكَأْرَ وَلَدَهُ يُولَدُ هَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَادَهُ﴾ [البقرة، الآية:٢٣٢].

\* المضاراة في الكتابة، قال - تعالى -: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة، الآية:٢٨٢]، والآية تحتمل أن يكون الكاتب، والشهيد مصدراً للأضرار فيكونان منهين عن مضاراتهم لصاحب الحق بأي ضرر يكون، أو يكون المكتوب له والمشهود له مصدراً للأضرار، قال ابن عاشور - رحمه الله -: « وقد أخذ فقهاؤنا من هذه الآية حكماتاً كثيرة تتفرع عن الأضرار: منها الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنة النسيان، ومنها استفساراً يوقعه في الاضطراب ..»<sup>(٢)</sup>.

\* ومن المضاراة أيضاً إضرار المورث والموصى، قال - تعالى -: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصْيَةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ عَيْرَ مُضَارَّ﴾ [النساء، الآية:١٢]، إذ النهي عن المضاراة في الآية ينصرف إلى الموصى أو المورث بحيث يروم بوصيته المحجفة إلى الإضرار بالوارث فقيئد بما دلّ على النهي عن هذا اللون من الإضرار.

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٥.

(٢) التحرير والتنوير: ١١٧/٣.

وعلى الجملة، فكل ضرر أوصله المكلف إلى مسلم أو غيره بغير حق، فهو محروم داخل في هذا الأصل.

ومن تطبيقات هذه القاعدة:

بعض الخيارات كخيار الرؤية، وختار الشرط، فإن الأول شرع لدفع الضرر عن المشتري بدخول ما لا يلائمه في ملكه، والثاني شرع للحاجة إلى التروي لثلا يقع ضرر الغبن.

ومنها أنواع الحجر، فإنها شرعت وقاية من وقوع الضرر العائد تارة لذات الحجور وتارة لغيره، فإن من وجب حجره إذا ترك بدون حجر قد يضر نفسه وقد يضر غيره.

ومنها الشفعة فإنها شرعت توقياً من ضرر جار السوء.

ومنها لو باع لآخر ما يتسارع إليه الفساد وغاب المشتري قبل قبضه وقبل نقد الثمن فأبطأ، فللبائع بيعه لغيره توقياً من تضرره بفساده، ولا يرجع على المشتري شيء لنقص الثمن الثاني عن الأول<sup>(١)</sup>.

ومنها حبس الموسر إذا امتنع عن الإنفاق على أولاده توقياً من وقوع الضرر بأولاده بإبقائهم بلا نفقة<sup>(٢)</sup>.

ومنها مشروعية الخيار للبائع في فسخ البيع إذا كان يتضرر في غير ما باعه، كما لو باع جذعاً - مثلاً - من سقف، أو باع حصة شائعة من زرع مملوك له غير مستحصد، فإن له الخيار في فسخ البيع في الأولى؛ لأن بقلع الجذع يتضرر في غير ما باعه، وهو بقية السقف، وكذلك له الخيار في الثانية إذا طالبه المشتري بالقسمة قبل استحصاد

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٦-١٦٧.

(٢) الأشيه والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٦.

الزرع توقياً من تضرره فيما لم يبعه وهو بقية الزرع؛ إذ لا تمكن القسمة إلا بعد قلع الكل<sup>(١)</sup>.

\* «الضرورات تبيح المخظورات» ويقرب منها قولهم «ما جاز لعذر بطل بزواله»<sup>(٢)</sup>  
وتعتبر من فروع القاعدتين السابقتين «لا ضرر ولا ضرار» و«المشقة تجلب التيسير»<sup>(٣)</sup>  
، وما يتفرع عنها يمكن أن يتفرع عن هذه أيضاً.

ومن تطبيقاتها:

- جواز أكل الميّة عند المخصصة.

- إساغة اللقمة بالخمر.

- إتلاف مال وأخذ مال الممتنع من الدين بغير إذنه<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) شرح القواعد الفقهية، ص: ١٦٨، وهذا الخيار خيار مختلف فيه، والصورتان اللتان أوردتهما على مذهب الأحناف.

(٢) الأشباء والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٥

(٣) الأشباء والنظائر لتابع الدين السبكي ٤١/١ وشرح القواعد الفقهية، ص: ١٨٥ والأشباء والنظائر لابن نجيم، ص: ٩٤

(٤) المنشور في القواعد ٣١٧/٢ وهناك قواعد أخرى متفرعة عن هذه القاعدة تنظر في مظانها من كتب القواعد والأشباء والنظائر، ومنها: «اليسير مفترض» ، ما لا يتخرج عنه مغفو عنه، ويرتكب أخف الضررين، ولا تكليف بما لا يطاق ، و«ال الحاجة تنزل منزلة الضرورة» وغيرها.

الباب الثالث :

## كليات في الطاعة والجزاء

الفصل الأول : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُفْلِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ﴾

[النساء : ٥٩]

الفصل الثاني : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

الفصل الثالث : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١]



بين يدي الكلية :

طالعنا في هذا الباب الثالث كليات ثلاث، إحداها تروم إلى تأسيس الطاعة التي تعتبر معلماً من معالم العقيدة الصادقة والتسليم التام؛ انطلاقاً مما استيقنته الأنفس واستقرّ في الأفئدة، وتمثل في قوله - تعالى - : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَنَا وَأُولَئِكُمْ أَنْتُمْ بِهِمْ أَنْجَحُونَ﴾.

والثانية توصل لمبدأ الجزاء المنوط بإيمان المكلف أو عدمه؛ إذ الإيمان والكفر سيكونان من سعيه، وهذا الجزاء من عده وقوطاسه سبحانه، ولأجل ذلك سُخرت طاقات الأنبياء والمرسلين، وتمثل الكلية في قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾.

أما الثالثة؛ فقد جمعت بين الشتتين فتمثلت فيها الطاعة أحياناً، والجزاء حيناً آخر، وذلك عند قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ⑨﴾، أضف إلى هذا شموليتها لقواعد الدعوة والسلوك.

فتَمَ بذلك ثلاَث كليات، وسنفرد عنهن الحديث في فصول ثلاثة مستقلة. آخذين على أنفسنا أن نسير على النهج السابق في إبقاء جمل الكليات بنصها القرآني.



# الفصل الأول :

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ الْأَمْرٌ مِنْكُمْ﴾

[ النساء : ٥٩]

المبحث الأول : تحرير بعض محال ورود الكلية في القرآن

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : من تجليات الطاعة

المبحث الخامس : مثمراتها

المبحث السادس : من المثبتات عن الطاعة

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية



## المبحث الأول :

### تحرير بعض محال ورود الكلية القرآنية

قوله - تعالى :- ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِيَّاكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٥].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَبَعُ الرَّسُولَ مِنْ يَنْقِلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة، الآية: ١٤٣].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُذْخَلُهُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِنَّ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء، الآية: ١٢].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ مَا تَوَلَّ وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١١٥].

قوله - تعالى :- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطْكَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء، الآية: ٦٣].

قوله - تعالى :- ﴿مَنْ يُطِيعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء، الآية: ٨٠].

قوله - تعالى :- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحَدَرُوا إِنْ تَوَيَّتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة، الآية: ٩٢].

قوله - تعالى - : « وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الرَّكْوَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ ⑯ الَّذِينَ يَتَّعِنُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِينَ الَّذِي يَحْدُوْنَهُ مَكْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْأَنْجِيلِ » [الأعراف، الآيتين ١٥٦ و ١٥٧].

قوله - تعالى - : « فَاقْتُلُوا أَللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْتِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ » [الأفال، الآية ١].

قوله - تعالى - : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيْكُمْ » [الأفال، الآية ٢٤].

قوله - تعالى - : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفَشُلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ » [الأفال، الآية ٤٦].

قوله - تعالى - : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِمَضْمُونِ أَوْلَاهُمْ بَعْضُهُنَّ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسِّمُونَ الْمَسْلَوَةَ وَيُؤْتُونَ الرَّكْوَةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّدُهُمُ اللَّهُ » [التوبه، الآية ٧١].

قوله - تعالى - : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّتِي وَأَمْهَاجُونَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ » [التوبه، الآية ١١٨].

قوله - تعالى - : « إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحُكُّ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَيَعْنَا وَأَطْعَنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤١ » [النور، الآية ٥١].

قوله - تعالى - : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » [النور، الآية ٥٤].

قوله - تعالى - : « وَأَفِسِّمُوا الْمَسْلَوَةَ وَءَاثُوا الرَّكْوَةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ » [النور، الآية ٥٦].

قوله - تعالى :- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور، الآية: ٦٢].

قوله - تعالى :- ﴿فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يُخَالِقُونَ عَنْ أَمْرِهِنَا أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور، الآية: ٦٣].

قوله - تعالى :- ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١١٥ ﴿الشعراء، الآية: ٢١٥﴾.

قوله - تعالى :- ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَلْخِرَةٌ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ ١١٦ ﴿الأحزاب، الآية: ٣٦﴾.

قوله - تعالى :- ﴿تَقَبَّلُ وُجُوهُهُمْ فِي الْأَنَارِ يَقُولُونَ يَلَيَّنَا أَطْعَنَا اللَّهَ وَأَطْعَنَا الرَّسُولَ ﴾ ١١٧ ﴿الأحزاب، الآية: ٦٦﴾.

قوله - تعالى :- ﴿وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٧١].

قوله - تعالى :- ﴿يَتَأَبَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطْبَعُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُوا الرَّسُولَ وَلَا يُبَطِّلُوا أَعْنَلَكُمْ ﴾ ١١٨ ﴿سُمْدَن، الآية: ٣٣﴾.

قوله - تعالى :- ﴿وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخَلُهُ جَنَّةً بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح، الآية: ١٧].

قوله - تعالى :- ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ ١١٩ ﴿الْحَدِيد، الآية: ٢٧﴾.

قوله - تعالى - : ﴿وَمَا مَا إِنَّكُمْ أَرَسَلْتُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾ [الحشر،

آلية: ٧]

قوله - تعالى - : ﴿فَأَلْفَوْا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن، آلية: ١٦].



## المبحث الثاني :

### فِقْهُهَا

#### المطلب الأول :

#### مفهوم الطاعة في اللغة

يقال: الطوع: الانقياد، وهو نفيض الكرة، قال - تعالى:- **﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾** [فصلت، الآية: ١١]، والطاعة: مثله، لكن أكثر ما يقال في الاتّمار فيما أمر، وقوله - تعالى:- **﴿طَاعَةٌ وَقُولٌ مَعْرُوفٌ﴾** [محمد، الآية: ٢١]، أي أطيعوا ول يكن منكم طاعة معروفة بلا إثم..<sup>(١)</sup> ، وطاع يطاع أطاع: لأن وانقاد، وأطاعه إطاعة وانطاع له: كذلك، وفي التهذيب: وقد أطاع له يطاع: إذا انقاد له، فإذا مضى لأمره، فقد أطاعه، فإذا وافقه فقد طاوته، وفي الحديث: «إِنَّهُمْ أَطَاعُوهُ لِكَ بِذَلِكَ»، فالملطاوحة: المموافقة، ولسانه لا يطوع بكنـا أي لا يتبعـه<sup>(٢)</sup> . فلم تتأ لفظة الطاعة لغوياً عن معنى الانقياد والموافقة والمتابعة في إتيان الأفعال.

\* \* \*

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ١٩/٣٥ بصيرة في «طوع» .

(٢) لسان العرب: ٨/٢٤٠-٢٤١. مادة «طوع» .

## المطلب الثاني :

### مفهوم الطاعة في الشرع

وين المفهوم اللغوي والاصطلاحي مواطنة على مستوى أصل اللفظة، غير أن المعنى يغدو مختلفاً متى وضعت في السياق كما أفادته الآية الكلية حيث تمثل فيها مراتب الطاعات بعضها فوق بعض؛ إذ ليست طاعة الله هي طاعة رسوله - فهما متغايران - كما أن طاعة الرسول ليست طاعة أولي الأمر؛ «لأن طاعة هؤلاء طاعة امثال وتنفيذ»<sup>(١)</sup>، فبدا الاختلاف واضحاً، وذلك بحسب ما أضيفت إليه الطاعة.

\* فأما طاعة الله؛ فقد قال أهل التأويل: إنها تعني إتيان المأمورات، والوقوف عند المنهيات<sup>(٢)</sup>. وقالوا: إنها اتباع كتابه<sup>(٣)</sup>، وقالوا: إنها طاعة شريعته، فإنه - تعالى - هو مُنَزَّلُ الشريعة ورسوله مبلغها، والحاكم بها<sup>(٤)</sup>.

\* وأما طاعة الرسول ﷺ فتمثل في طاعته في حياته فيما أمر ونهى، وبعد وفاته في اتباع سنته، وذلك أن الله - تعالى - عمّ بالأمر بطاعته، ولم يخصص ذلك في حال دون حال، فهو على العموم حتى يخصّ ذلك ما يجب التسليم له<sup>(٥)</sup>.

فدلل بهذا أن «طاعة الله وطاعة رسوله، هي وجوب متابعة الكتاب والسنة»<sup>(٦)</sup>.  
فما أعيد فعل الطاعة عند الأمر بها لرسوله ﷺ إلا لإظهار الاهتمام بتحصيل طاعته

(١) التحرير والتبيير: ٩٧/٥.

(٢) انظر جامع البيان: ١٤٧/٥ فتح القدير: ٤٨٧/١.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم: ١٥١٨/١ وتفسير المنار: ٥١٨٠/٥.

(٤) التحرير والتبيير: ٩٦/٥.

(٥) جامع البيان: ١٤٧/٥.

(٦) التفسير الكبير: ١٤٨/٩.

لتكون أظهر مرتبة من طاعة أولي الأمر، ثم لينبه سبحانه على وجوب طاعته فيما أمر به، ولو كان أمراً غير مقترن بقرارئن تبليغ الوحي، لعذلاً يتوهם السامع أن طاعة الرسول عليه السلام المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه على الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امثثال أمره كله خير<sup>(١)</sup>. لذلك أفاد الأمر بطاعته مع إعادتها، أنها تجب له استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر، وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أمر لم يكن، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه<sup>(٢)</sup> وهما اللذان يعرف بهما ما يقع به التكليف، فلا يقال -إذا- إن في طاعة الرسول عليه السلام ما يدل على الجعل لغير الله في الأمر والنهي والتشريع والتأثير؛ لأنه عليه السلام هو المبلغ عن ربها، والشريعة نفسها قضت بذلك وتحدثت عن عصمتها، وبقيت أن طاعة الله في طاعته، فلم يبق سوى اتباعه فيما يبيّن من الدين والشريعة<sup>(٣)</sup>.

\* أما الطاعة المأمور بها لأولي الأمر، فإنها تعني الانقياد والاتباع- أيضاً- إلا أنه يتبعنا علينا تحديد أولي الأمر.

- فمن الناس من ذهب إلى القول بأنهم الأمراء في عهد الرسول عليه السلام وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية<sup>(٤)</sup>. وأحسب أن هذا القول مُشتَدُّه سبب نزول الآية، فقد نقل البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - **﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ أَلْمَرْءُونَ مِنْكُمْ﴾** [النساء: ٥٩] قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عُدي؛ إذ بعثه النبي عليه السلام في سرية<sup>(٥)</sup>.

(١) التحرير والتنوير: ٩٧/٥

٢) إعلام الموقعين: ٤٨/١

(٢) انظر تفسير المنار: ١٨٠/٥

(٤) أنوار التنزيل: ٩٤، ٩٥ / ٢

(٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٥٣/٨ (كتاب التفسير، باب أطعوا الله والرسول وأولي منكم) قال القرطبي: قال أبو عمر: وكان في عبدالله بن حذافة دعابة معروفة ومن دعاته أن =

على أنه إذا تعين هذا المفهوم، فإن الرضوخ لطاعتهم مشروطة بـألا يأمرها بـمـحرـم «بعد أن تكون ولايتهم شرعية لا طاغوية»<sup>(١)</sup>، وهم الموصوفون - عند الزمخشري - في قوله: «أمراء الحق؛ لأن أمراء الحور الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثارة العدل واختيار الحق، والأمر بهما والنهي عن أصدادهما، كاختلاف الراشدين ومن تبعهم بإحسان»<sup>(٢)</sup>، ولا ريب أن القيد المذكور مُتنزع من النصوص النبوية الشريفة، كقوله ﷺ: «لا طاعة لخليوق في معصية الخالق»، قوله - عليه الصلاة والسلام -: «إنما الطاعة في المعروف»<sup>(٣)</sup>، قوله - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره ما لم يؤمر بـمعصية، فإذا أمر بـمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(٤)</sup>. فلا طاعة - إـذـا - لأحد المخلوقين إلا من أذن الله في طاعته... ولا طاعة لأحد في معصية الله - عـزـوجـلـ -، لما فيه من المفسدة الموبقة في الدارين أو في أحدـهـماـ، فمن أمر بـمعصـيـةـ فلا سمع ولا طاعة له»<sup>(٥)</sup>.

= رسول الله ﷺ أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً، فلما أوددوها أمرهم بالتقحم فيها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بـطاعـيـ؟ وقال: «ومن أطاع أميرـيـ فقد أطاعـيـ»، فقالـواـ: ما آمنـاـ باللهـ واتـبعـناـ رسـولـهـ إـلـاـ لـتـجـوـ منـ النـارـ»، فصـوـبـ رسـولـهـ ﷺ فـعـلـهـمـ، وـقـالـ: «لا طـاعـةـ لـخـلـوقـ فيـ مـعـصـيـةـ الـخـالـقـ»، قال الله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْسَكْمُ»، الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٠ . ٥/٥

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٨١/١.

(٢) الكشاف: ٥٣٥/١.

(٣) وهو جـزـءـ منـ حـدـيـثـ روـاهـ البـخـارـيـ فيـ كـتـابـ الـأـحـكـامـ، بـابـ السـمـعـ وـالـطـاعـةـ لـإـلـامـ ماـ لـمـ تـكـنـ مـعـصـيـةـ عـنـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - انـظـرـ فـتـحـ الـبـارـيـ شـرـحـ صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ: ١٢٢/١٣.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢١-١٢٢ (كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية).

(٥) انـظـرـ قـوـاعـدـ الـأـحـكـامـ: ٣٠٤/٢.

ويرجح الشافعي هذا المنحى في تحديد أولي الأمر محتاجاً لذلك بأن قريشاً كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير، فامروا بالطاعة من ولـي الأمر، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث المتفق عليه: «من أطاع أميري فقد أطاعني»<sup>(١)</sup>.

ومن أهل التأويل من رأى أن أولي الأمر هم أهل القرآن والعلم كما ذهب إليه الإمام مالك - رحمه الله - قال مطرف وابن مسلمة: سمعنا مالكا يقول: هم العلماء، وقال خالد بن نزار: وفـقـتـ عـلـىـ مـالـكـ، فـقـلـتـ: يـاـ أـبـاـ عـبـدـ اللـهـ! مـاـ تـرـىـ فـيـ قـوـلـهـ؟ تـعـالـىـ: ﴿وَأُولَئِكَ أَمْرٌ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؟ قال: - وكان مُحتبـياـ فـحـلـ حـبـوـتـهـ، وكان عنده أصحاب الحديث ففتح عينيه في وجهـيـ، وعلـمـتـ ماـ أـرـادـ وإنـماـ عـنـيـ أـهـلـ الـعـلـمـ<sup>(٢)</sup>. وهو المختار عند الزمخشري في تفسيره، حيث يرى أن أولي الأمر هم: «أولو العلم الـدـيـنـونـ الـذـيـنـ يـعـلـمـونـ النـاسـ الـدـيـنـ وـيـأـمـرـونـ بـالـعـرـوـفـ، وـيـنـهـوـنـ عـنـ الـمـنـكـرـ»<sup>(٣)</sup>، وهو المروي عن مجاهد وعطاء وأبي العالية - رحمـهـ اللهـ تـعـالـىـ - من التابعين، وقد احتج أبو العالية لرأيه بقوله: ألا تـرـىـ أـنـ يـقـولـ: ﴿وَلَوْ رَدَوْهُ إِلَىَ الرَّسُولِ وَإِلَّا أُولَئِكَ أَمْرٌ مِنْهُمْ لَعِلْمُهُ الَّذِينَ يَسْتَطِعُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء، الآية: ٨٣].

وبذلك تكون الحجة عند هؤلاء أن أولي الأمر هم العلماء القادرون على استنباط الأحكام غير المنصوصة من الأحكام المنصوصة<sup>(٤)</sup>.

ولو سلمنا أن أولي الأمر في الآية هم ذوو السلطـانـ، فإن طـاعـتـهمـ - رغم ذلك - لا تـمـ إـلـاـ إـذـاـ أـمـرـواـ بـمـقـضـىـ الشـرـعـ، ولا رـيبـ أنـ الـعـلـمـاءـ هـمـ الـمـصـدـرـ وـالـمـرـجـعـ فـيـ هـذـاـ

(١) انظر الرسالة، ص: ٧٩، ٨٠.

(٢) أحكام القرآن: ٤٥٢/١، وانظر التحرير والتوكير: ٩٨/٥.

(٣) الكشاف: ٥٣٥/١.

(٤) انظر جامع البيان: ١٩٥/٥٥.

(٥) تفسير المنار: ١٨١/٥.

الشأن، ومن ثم فطاعة الأمراء تصدر من طاعة العلماء؛ إذ الكتاب والسنة هما المخرج،  
وهما المحدد للطاعة على وجه الجزم واليقين.

ولذلك حسن أن تكون الآية جامعة للفريقين شاملة لكليهما. كما نصَّ عليه ابن  
كثير - رحمه الله - عند قوله: «والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من  
الأمراء والعلماء»<sup>(١)</sup>. وأتَيْنُ من هذا قول ابن تيمية - رحمه الله - الذي يقول فيه:  
«وقد أمر الله - تعالى - في كتابه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من  
المؤمنين، وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرُون الناس، وذلك يشترك  
فيه أهل اليد والقدرة، وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء  
والأمراء، فإذا صلحوا، صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس»<sup>(٢)</sup>، وصححه ابن  
العربي - رحمه الله - معللاً ذلك: «أن أصل الأمر من الأمراء والحكم إليهم، وأما  
العلماء فلأن سؤالهم واجب متى عُنِّي على الخلق وجوابهم وامتثال فتواهم واجب»<sup>(٣)</sup>  
، «قال سهل بن عبد الله - رحمه الله - لا يزال الناس بخير ما عظمو السلطان  
والعلماء، فإذا عظمو هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد  
دنياهم وأخراهم»<sup>(٤)</sup>.

وأنعم به حين يكون الأمير عالماً فيجمع بين السلطان والقرآن، مما يكفل له الإمامة  
في ضوء الشرع وهديه لترت الطاعة في نهايتها من حيث بدأت، وهي طاعة الله وطاعة  
رسوله ﷺ .

\* \* \*

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥١٨/١.

(٢) الحسبة في الإسلام، ص:

(٣) أحكام القرآن: ٤٥٢/١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٠/٥ - ٢٦١.

### المبحث الثالث :

#### قيمتها

#### المطلب الأول :

### الطاعة من المقاصد العظمى في دعوة الأنبياء والرسل

فما خلا في أمة نذير إلا نادى في قومه بتقوى الله وطاعته، لقد جاء ذلك على لسان نوح وهود ولوط وعيسى ابن مريم وهارون وصالح - عليهم السلام -، فكل من هؤلاء ردد في قومه: ﴿إِنَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] ﴿فَأَنَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوْنَ﴾ [الشعراء: ٦٣] [الآيات: ١٠٨-١٢٥، ١٤٤-١٤٣، ١٦٢، ١٦٣، ١٢٦، طه، الآية: ٨٩، آل عمران، الآية: ٤٩، الزخرف، الآية: ٦٣]، وقد أجمل بيان هذا القصد في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُطْكِعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء، الآية: ٦٤]؛ لأن المنفرد من الضلال هو طاعة الأنبياء والرسل بأمر منه - تعالى - ووصايتها، وإنما الفائدة من الشرائع إن لم يكن هناك أمثال لضامينها؟ وهذا يقتضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، وتحضى له الفوس خضوع طاعة وتنفيذ.

ومن ثم أرسل الله - تعالى - هؤلاء الرسل ليطاعوا بإذنه وفي حدود شرعه؛ لتكون طاعتهم طاعة له - سبحانه - وتحقيقاً لنهجه الكامل في الحياة، فلم يرسل الرسل - إذا - مجرد التأثير الوجданى والشعائر التعبدية .. فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم وحكمة الله مِنْ إرسال الرسل، وهي إقامة منهج معين للحياة في واقع الحياة.. وإنما أهون دنيا. كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظاً لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ثم يمضي يستهتر بها المستهترون..!

من هنا كان تاريخ الإسلام دعوة وبلاغاً ونظاماً وحكماً، وبعد ذلك خلافة عن رسول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول. وليست هناك صورة أخرى يقال لها الإسلام، أو يقال لها الدين إلا أن تكون طاعة للرسول محققة في وضع وفي تنظيم، ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف، ويبقى أصلها الثابت وحقيقةها التي توجد بغيرها، استسلام لمنهج الله وتحقيق لمنهج رسول الله وتحاكم إلى شريعة الله، وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله، وإفراد الله بالألوهية، ومن ثم إفراده بالحاكمية التي تجعل التشريع ابتداء حقاً لله لا يشارك فيه سواه، وعدم احتكام إلى الطاغوت في كثير ولا قليل، والرجوع إلى الله والرسول فيما لم يرد فيه نص من القضايا المستجدة والأحوال الطارئة حين تختلف فيه العقول<sup>(١)</sup>.

وفي قوله - تعالى - : ﴿إِذَا دَعَاهُمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ [ النساء : ٦٤] ما يؤذن بالاحتراس؛ لأن الطاعة - في الحقيقة - لله - تعالى - ، فهو قيد من قيود القرآن المزيلة لظن من يظن أن الرسول يطاع لذاته، والله - عز وجل - بين أن الطاعة الذاتية ليست سوى لرب العالمين، وقد أمر أن تطاع رسله، فطاعتكم واجبة إذنه فيما يبلغون أو يحكمون به<sup>(٢)</sup> ، فالأمر بالطاعة لله ولرسوله، لكن الخشية لله دون سواه.



(١) في ظلال القرآن: ٦٩٦/٢.

(٢) انظر تفسير المنار: ٢٢٣، ٢٢٢/٥.

## المطلب الثاني :

### الطاعة شرط لقبول الأعمال

إن ثبت أن المرجعية في كل القضايا - جليها وخفتها - إلى كتاب الله وسنة رسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وأن اتباع أولي الأمر وطاعتهم يكون في معروف.

إن ثبت هذا، كانت الكلية ترسم «المنهج المهيمن على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية أبد الدهر في حياة الأمة المسلمة، وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي الذي لا تكون مؤمنة إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه... إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك. ورُدّ المسائل التي تجُدُّ وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله شرط الإيمان وحدَّ الإسلام شرطاً، واضحاً ونصراً صريحاً إن كتمت تحبون الله واليوم الآخر، فإذا انتفى هذا الرُّدّ انتفى الإيمان ضرورة انتفاء المزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما يتنتفي بانتفاء الآخر<sup>(١)</sup>.

إذا انتفى الرُّدّ الذي هو من الأعمال العبادية كان ذلك يعني عدم قبوله لانتفاء الطاعة والابتعاد؛ لأن الله - تعالى - إنما يُعبدُ بأمره الذي بعث به رسوله. ألا ترى إلى الذين كفروا من أهل الكتاب حين أحلوا أ Hibar لهم مكانة الحاكمية والتشريع، فأطاعوهم في التحليل والتحريم فاتخذوهم بذلك أرباباً من دون الله، وُصِّمُوا بالشرك وإن لم يبعدوهم العبادة الصريحة؛ لأن انصياعهم لفتاويمهم وقبولها واطمئنان أنفسهم بها، كان بمثابة عبادتهم، وَعُدُّ صنيعهم ذلك إقحاماً لهؤلاء في خصيصة الإلهية استثار الله بها نفسه، وهي الحاكمية العليا والمطلقة - ولذلك قال - عَزَّ وَجَلَّ - في هذا

(١) إعلام الموقعين: ٥٠/١

السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكَ  
بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [ النساء، الآية: ٤٨].

فكان الجزاء في الآية حتى يؤذن بخطورة الموقف، ويتوعد كل من حالف إلى طاعة  
غير الله ورسوله، وذلك بقطع الطمع عنه في الرضا والمغفرة.



### المطلب الثالث :

## الطاعة مَقْلِمٌ مِنْ مَعَالِمِ الْاِتِّلَافِ وَنَبْذُ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافَةِ

وذلك لقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفَشُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُوكُ﴾ [الأنفال، الآية: ٤٦] ، ولئن كانت الآية تتحدث في شأن القتال وميدانه، فإنها تنطبق - أيضاً - على ميدان النفس بالأولى؛ لأن طاعة الله وطاعة الرسول عليه السلام مأمورة بها في السلم وال الحرب، في المنشط والمكره، وإلا فماذا ينتظر من أفراد مجتمع لم ينشؤوا على الطاعة ابتداء قبل حلول الشدائـد وإحداث النـكبات؟

إنه بغياب الطاعة يغيب المنهج الهادي، ويقع تمزـدـ الأفراد على منفذ الشـريـعة الأولى نتيجة حلول الأهواء وتشابـكـ الآراء، فـيـنـفتحـ بـابـ الفـرقـةـ، وـيـنـتـصـرـ سـلـطـانـ الـهـوىـ ما يفضـيـ إـلـىـ وـهـنـ الـأـمـةـ وـضـعـفـهـاـ.

وبـحـضـورـ الطـاعـةـ وـاسـتـسـلامـ الـأـفـرـادـ لـلـهـ وـرـسـوـلـهـ، يـنـتـفـيـ التـنـازـعـ وـيـرـجـحـ الـحـقـ عـلـىـ الـذـاتـ اـبـتـداءـ، فـيـكـونـ ذـلـكـ إـعـلـاماـ بـأـنـ هـذـاـ اللـوـنـ مـنـ الطـاعـةـ لـيـسـ خـدـدـهـ تـلـكـ الطـاعـةـ الـظـاهـرـةـ، وـإـنـماـ هـيـ قـلـبـيـةـ غـائـرـةـ لـاـ يـقـومـ وـلـأـهـاـ لـلـقـيـادـةـ إـلـاـ عـلـىـ وـلـائـهـاـ لـلـهـ - تـعـالـىـ - .

وـحـينـماـ تـكـونـ الطـاعـةـ مـؤـسـسـةـ لـلـقـوـةـ الـعـاصـمـةـ مـنـ الـاـخـتـلـافـ، تـلـكـ القـوـةـ الـتـيـ عـبـرـ عنـهـاـ - عـزـ وـجـلـ - بـقـولـهـ: ﴿وَتَذَهَّبُ رِيحُكُوكُ﴾ [الأنفال: ٤٦] ، وأـحـسـبـ أنـ وجـهـ الشـبـهـ، «ـهـوـ أـنـ الـرـيـحـ لـاـ يـمـانـعـ جـريـبـهاـ وـلـاـ عـمـلـهـاـ شـيـءـ»، فـشـيـهـ بـهـاـ الغـلـبـ وـالـحـكـمـ<sup>(١)</sup>ـ، وـلـاـ إـنـثـاقـ لـهـذـاـ الغـلـبـ إـلـاـ بـتـحـصـيلـ أـسـبـابـهـ الـتـيـ مـنـهـاـ التـفـاهـمـ وـالتـشـاـورـ، وـمـرـاجـعـةـ ذـوـيـ الرـأـيـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ حـتـىـ يـصـدـرـواـ عـنـ رـأـيـ جـامـعـ، فـإـنـ أـوـشـكـوـاـ عـلـىـ التـنـازـعـ، أـحـالـوـاـ قـضـيـتـهـمـ إـلـىـ كـتـابـ اللـهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـهـ عليه السلامـ وـأـوـلـيـ الـأـمـرـ، قـالـ - تـعـالـىـ - : ﴿فـإـنـ نـتـزـعـمـ فـيـ

(١) التـحـرـيرـ وـالـتـوـيـرـ: ٣١/١٠

شَيْءٌ فِرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَرَسُولٍ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [النساء، الآية: ٥٩]، «ولفظ» شَيْءٌ [النساء، الآية: ٥٩] نكرة متوجلة في الإبهام فهو في حيز الشرط يفيد العموم أي في كل شيء، فصدق بالتنازع في الخصومات على الحقوق، كما يصدق بالتنازع في اختلاف الآراء عند التشاور أو عند مباشرة عمل ما؛ لذلك كان موقع لفظ: شَيْءٌ [النساء، الآية: ٥٩] محسناً لتعظيم الحوادث وأنواع الاختلاف<sup>(١)</sup> فجاء كل ذلك ونظيره مأموراً أصحابه برد أمره إلى الله والرسول، ورد كل نوع من ذلك يتquin أن يكون بحيث يرجى معه زوال الاختلاف، وذلك ببذل الجهد من أجل الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال.

وذكر الرد إلى الله في هذا، مقصود منه مراقبة الله - تعالى - في طلب الجلاء للحق في موقع النزاع تعظيماً له - سبحانه -، فإن الرد إلى الرسول يحصل به الرد إلى الله، إذ الرسول هو النبي عن مراد الله..<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

(١) التحرير والتنوير: ٥/٩٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٠٠-١٠١.

## المطلب الرابع :

### طاعة الله تقتضي طاعة الرسول ﷺ :

وذلك لقوله - تعالى -: **﴿مَن يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء، الآية: ٨٠]، وأول ما يطالعنا في هذه الآية الشريفة، إثباتها لرسالة محمد ﷺ<sup>(١)</sup> ، ثم دلالتها على عصمته - عليه الصلاة والسلام - في جميع أوامره ونواهيه، في كل ما يبلغه عن ربه؛ لأنَّه لو أخطأ في شيء منها، لم تكن طاعته طاعة لله، ومثل هذا يقال في أفعاله؛ لأنَّه - تعالى - أمر بمتابعته فقال - عزَّ وجلَّ -: **﴿فَتَمَّا مَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الْأَعْيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَّمَنِي، وَأَتَّمُوْهُ﴾**<sup>(٢)</sup> [الأعراف، الآية: ١٥٨]، ومن ثمَّ كانت آية الطاعة بهذه المهدات بثابة الأمان للمتَّبع متى انقاد انتِباداً تاماً في القول والفعل، في العبادات والفضائل والأعمال العامة والخاصة، فمن أطاع النبي ﷺ في ذلك فقد أطاع الله، قال الشافعي - رحمه الله - في باب ما أمر الله من طاعة رسوله من كتابه «الرسالة»: وقال - تعالى -: **﴿مَن يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء، الآية: ٨٠]، فأعلمهم أن يعثِّرُونَ رسوله، يبعثه، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم له طاعته<sup>(٣)</sup> ، وقال - أيضاً - عند قوله - تعالى -: **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَّعْنَا﴾** [التور، الآية: ٥١]، «فأعلم الله الناس في هذه الآية أن دعاءهم إلى رسول الله ليحكم بينهم دعاء إلى حكم الله؛ لأنَّ الحاكم بينهم رسول الله، وإذا سلموا لحكم رسول الله ليحكم بينهم، فإنما سلموا لحكمه بفرض الله، وأنَّه أعلمهم أن حكمه حكمه على معنى افتراض حكيمه، وما سبق في علمه جلَّ ثناوه من

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٣٥/٥.

(٢) انظر التفسير الكبير: ١٩٨/١٠.

(٣) الرسالة ص: ٨٢.

إسعاده بعصمه و توفيقه، وما شهد له من هدايته و اتباعه أمره<sup>(١)</sup> ، وبذلك يكون القرآن قد دلّ بهذا أن كل تكاليف الشرع التي كَلَفَ اللَّهُ بها عباده؛ عادات ومعاملات - ولو لم يكن ذلك مبيناً في القرآن - فحيثند لا سبيل لنا بالقيام بتلك التكاليف إلا بيان الرسول ﷺ ، وإذا كان الأمر كذلك، لزم القول بأن طاعة الرسول عين طاعة الله<sup>(٢)</sup> .



(١) الرسالة، ص: ٤٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٠/١٩٩.

## المبحث الرابع :

### من تجليات الطاعة

#### المطلب الأول :

#### ملازمتها في الشدة والرخاء

وذلك لأن عنصر الصدق وأمارته لا يدوان على الطاعة بإتيانها مرة أو مرتين أو لزومها في النشط دون المكره، فمثُلُ هذا غير معود في الطاعة، ولا صاحبه في زمرة الطيعين؛ إذ لابد من التكاليف الممحضة الكاشفة عن مدى هذه الطاعة أو تلك، كالهجرة والجهاد والصبر على مناكدة العدو ومواجهة مواطن الشدة بكل ما هو شاهد على صدق المطاع وتفانيه في إتيان المأمور.

وهو ما يصوّره القرآن الكريم حين يفرضُ الواناً من الطاعة المثالية، منها هذه الآية الشريفة التي تعرض طائفة الأنصار والماهجرين عرضًا نموذجيًا يشرف على صدق العبارة - والتي يقول - تعالى - فيها ﴿لَقَدْ قَاتَبَ اللَّهُ عَلَى الْئَيْتِي وَالْمَهْجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَيْمُوْهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيْغُ فُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبه، الآية: ١١١] قال ابن كثير - رحمه الله -، متحدثاً عن ساعة العسرة هذه: «قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدية وحرّ شديد، وعسر من الراد والماء، قال قنادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهب الحرّ على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة

يinهم، يصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم  
وأقلهم من غزوتهم ..»<sup>(١)</sup>.

هكذا يأتي القرآن الكريم على ذكر مثل هذا اللون من الطاعة الصادقة، فالرغم من العسرة لم يهن القوم ولم يستكينوا - وإن كانت هناك هزات نفسية تحت مطارق هذه العسرة - فالرغم من ذلك أبدوا الثبات على المبدأ والطاعة والامتثال التامين فسجّلوا بذلك انتصاراً على النفس وخرجوا بأقوى روح وأصلب عود، وذلك لما بصرهم الله به من الحق **«إِنَّمَا يَهْمَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ»** [التوبه، الآية: ١١٧].

\* \* \*

## المطلب الثاني :

### التسليم لله والرسول

ومن أمارات الطاعة والاتباع، النزول عند قضاء الله ورسوله والرضا والقبول به انطلاقاً مما استيقنته نفس المطیع واستقرّ في قلبه استقراراً، وذلك لأنّ المؤمن الحق ليس له من أمره شيء، وإنما هو وما ملكت يده لله - تعالى - يصرّفه كيف يشاء ويختار له ما يريد<sup>(١)</sup> ، قال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب، الآية: ٣٦] ، وإذا كان للنص علاقة بإبطال التبني وإحلال مطلقات الأدعية، فإن القاعدة التي تقرّها الآية أعم وأشمل، قال ابن كثير - رحمه الله - : « هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك - تعالى - : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقَّ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بِنَهْمَةٍ ثُمَّ لَا يَحْدُدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴽ٦٥﴾ [النساء، الآية: ٦٥] » ولهذا شدّ في خلاف ذلك، فقال : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب، الآية: ٣٦] ، وحدّ من ذلك، فقال - تعالى - : ﴿فَإِنَّمَا يُحَذِّرُ الَّذِينَ يُخَالِقُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> [النور، الآية: ٦٣] ، فلا بدّ من السمع والطاعة - إذن - « بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم وما عداه الهوى »<sup>(٣)</sup> ، ولذلك نفي - سبحانه - خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، ثم أطلق على من بقيت له

(١) في ظلال القرآن: ٢٨٦٥/٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم: ٤٩٠/٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٥٢٧/٤.

خيره عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم علّق على المعصية بذلك الضلال<sup>(١)</sup> ، فواجب على المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، سمع طاعة وطاعة تسليم، مطمئنين إلى هذا المنهج، ماضين فيه لا يتباطئون، فلا تتوزع طاقاتهم، ولا يمزقهم الهوى كل مزق، ولا تقودهم الشهوات والأهواء.

والنهي الإلهي أمامهم واضح لنبذ كل داعية إلى اختيار ما هو خلاف ما أمر الله ورسوله به؛ لأن الإيمان بهما حقيقة يقتضي الامتثال لما أمرا به من العمل. وزعم الإيمان بالله ورسوله، ثم التحاكم والرضا بقضاء غيرهما في مشكلات الحياة، غير مقبول وهو زعم كاذب، برهانه التحاكم إلى الطاغوت، قال - تعالى - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعَمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيَّكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكِمُوا إِلَيْنَا﴾ [النساء، الآية: ٦٠]، فمحبتهم للتحاكم إلى الطاغوت تبعث على فعل المحبوب، وإنما قال: ﴿وَيَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضْلِلَهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء، الآية: ٦٠]، لأنه يحب ذلك ويحسنه لهم حيث ألقى في روعهم الدعاء إلى تحكيم الطاغوت والانصراف عن حكم الرسول<sup>(٢)</sup> .



(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٨٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٠٥.

## المبحث الخامس :

### من مثمرات الطاعة

#### المطلب الأول :

#### تقوى الله - عز وجل

وذلك لأن تقوى الله طريق إلى الهدى وهاد إلى النور، وزاد من أزواد الله يخص به المتقين حتى يميزوا بين الحق والباطل، قال - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَفْقُوا اللَّهَ يَعْلَمُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال، الآية: ٢٩]، وقد فسر هذا الفرقان بالهدایة والمعرفة وشرح الصدر كما قال - عز وجل - وهو يجري مقارقة بين المهدى والضال - : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدَرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَلِلَّهِ لِلْقَسِيسَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ <sup>(١)</sup> [الزمر، الآية: ٢٢]، كما فسر بال بصيرة التي يفرق بها بين الحق والباطل، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين الحق والمبطل بما يعز المؤمن ويذل الكافر وبالنجاة من الشدائيد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة، وهو من الفرقان العملي <sup>(٢)</sup> . وجميع ما ذكر قبله من العملي - أيضاً - يمكن المتقى أن يشرف على تعاليم الإسلام وأخلاقه وأدابه، ويكسب به فرحاً بحاله، ومسرة برضى ربه، وجزماً بأنه على الحق والهدى في كل أمر، يجعل من الله - تعالى - الذي أفضى عليه من معارفه، فأخرجه من التباس الأحوال وانبهام المقاصد فاتخذ سبيله في تعظيم شعائر الله التي هي من تقوى القلوب «وَمَنْ أَبْرَزَهَا وَأَعْلَمَهَا طَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَاتَّبَاعُ شَرْعِهِ» <sup>(٣)</sup> ، كل ذلك

(١) انظر التفسير الكبير: ١٥٨/١٥

(٢) تفسير المنار: ٦٤٨/٩

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢١٩/٣

مائاه التقوى ومنبعه الخوف ومراقبة المولى - عَزَّ وَجَلَّ -، ومن ثم اعتبرت التقوى ملاك السير على الهدى وزمام الطاعن على الحق والصواب الذي جاء به الرسول ﷺ وبشر به الحق بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِنَ اللَّهَ وَيَتَّقِنَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور، الآية: ٥٢]. فجمعت الآية بين ثلاثي يقود إلى الفوز والفلاح، ومنه التقوى.



## المطلب الثاني :

### التجرد في طلب الحق

إذ الحق - في أثناء البحث عنه - لا يتوقف الحرص على معرفته وإدراكه فحسب، بل لابد - مع ذلك - من أمر، قلبي هو التجرد والحرص على سلامه القصد، والتبرؤ من الهوى، ولا يتم ذلك إلا بالإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهو أمر له تعلق بتنقية النفوس من الشوائب والأهواء وتزكيتها قال - تعالى -: ﴿فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكِنَّهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا (٢) [الشمس، الآيات: ٩، ١٠]، وإلزامها بالطاعة وترك المعصية ظاهراً وباطناً، وعدم الإعراض عن الحق، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «.. وكذلك من أعرض عن اتباع الحق.. فإن ذلك يورثه الجهل والضلال؛ حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح، كما قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ مُلُوكَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ﴾ (٣) [الصف، الآية: ٥]، فوجب على المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويشتبه على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى كما قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَلَذِكَرُ فَادِعٌ وَأَسْتَقِيمٌ كَمَا أَمْرَتُ وَلَا تَنْبَغِي أَهْوَاءُهُمْ وَقُلْ إِنَّمَاتُ إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى، الآية: ١٥].

\* \* \*

### المطلب الثالث :

## الرغبة في العمل

ويتم ذلك بالنظر في الوحين والإدمان في تدبر نصوصهما، كما يتم بالسير على نهج السلف.

١- النظر في الوحين: وذلك؛ لأن الإسلام دين أساسه الوحي، والوحي لا يدرك إلا بالتعلم والتفقه، ومن ثم فلا وسيلة للعمل بأحكام الشرع واتباع النبي ﷺ إلا عن طريق التعلم، ولذلك ألفينا البخاري - رحمه الله - يعقد باباً في صحيحه وهو باب العلم قبل القول والعمل، لقوله - تعالى -: «فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(١)</sup> [محمد، الآية: ١٩]، فبدأ بالعلم، وكان أول ما نزل قوله - تعالى -: «أَقْرَأْ يَاسِرَ رَبِّكَ»<sup>(٢)</sup> [العلق، الآية: ١]، ولا ريب أن القراءة أداة ووسيلة إلى العلم.

ولما كان القرآن والسنة النبوية الصحيحة هما ينبوع الحق ومصدر تلقيه كما قال - تعالى -: «إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ» [الإسراء، الآية: ٩]، وقوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه -: «إني تركت فيكم شيئاً لن يتضلوا بعدهما: كتاب الله وسنти، ولن يتفرقوا حتى يردا على الحوض»<sup>(٣)</sup> ، ولقد تكفل الله بحفظ نصوص كتابه من أن يلحقها تحريف، وتضمن ذلك حفظ السنة الشريفة بما هيأ لها من أئمة ثقات في الدين، أكفاء في خدمة السنة، فميزوا صحيحةها من سقيمهها، لما كان هذا كله، كان لزاماً من أراد الاتباع - وبعد عن الابداع - أن يحرص كل الحرص على اجتناء النصوص منهما والعمل بموجبهما فعلاً وتركتاً.

(١) انظر فتح الباري: ١٩٢/١.

(٢) المستدرك: ٩٣/١ (كتاب العلم).

ولا شك أن العائد من تدبر النصوص النبوية الصحيحة؛ كالعائد من تدبر النصوص القرآنية؛ لأن كلاً منها مصدر الأحكام، وطريق الاعتصام، والأمن من الريغ والضلالة.

٢- التشبه بالسلف : وهو إجراء يعين على لزوم الحق؛ وذلك باتخاذ الصدر الأول مثلاً أعلى لما أُتي هؤلاء من فهم في الدين ومعاينة للوحين حتى بوأتهم هذه المؤهلات المكانة العلية التي أشار إليها ﷺ في قوله: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»<sup>(١)</sup> ، وأوضح منه ما جاء في حديث الانفصال حين ذكر ﷺ أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلات وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»<sup>(٢)</sup> ، فأفادت الجملة الأخيرة من الحديث، أن مسلك الصحابة اتباع رسول الله ﷺ ، بل ويكون اتباع السنة ملزماً باتباع ما كان عليه الصحابة، فمن سلك سبيلهم ونهج نهجهم، فهو أولى الناس بالنبي ﷺ ، ومن أرادأخذ السنة بعيداً عن طريقهم، كانت دعواه عريضة عن الحق، قال الشاطبي - رحمه الله -: «وحاصل الأمر أن الصحابة كانوا مقتديين به، مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم وأثنى عليهم متبعهم ﷺ ، وإنما خلقه القرآن، فقال - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم، الآية: ٤]، فالقرآن هو المتبع على الحقيقة، وجاءت السنة مبينة له؛ فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم، فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله»<sup>(٣)</sup> .

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥/٢٥٨، ٢٥٩ (كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة زور إذا شهد).

(٢) سنن الترمذى: ٤/١٣٥ (أبواب الإيمان، باب انفصال هذه الأمة).

(٣) الاعتصام: ٢/٢٥٢.

والطريق إلى بوابة السلف، الصحبة الصالحة. قال ﷺ : «الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالفه»<sup>(١)</sup>؛ والسبب في ذلك أن الخليل يحمل صاحبه على ما هو عليه، إن طاعة كانت الطاعة والاتباع، وإن معصية كان العصيان والابداع، وهو كما قال - عليه الصلاة والسلام - : «مثـل الجليس الصالح والجليس والسوء، كـحامـل المـسـك ونـافـخـ الـكـيرـ، فـحامـلـ المسـكـ إـماـ أـنـ يـحـذـيـكـ إـماـ أـنـ تـبـتـاعـ مـنـهـ، وـإـماـ أـنـ تـجـدـ رـيـحـةـ طـيـةـ، وـنـافـخـ الـكـيرـ إـماـ أـنـ يـحرـقـ ثـيـابـكـ، وـإـماـ أـنـ تـجـدـ مـنـهـ رـيـحـةـ خـبـيـثـةـ»<sup>(٢)</sup> ، فإن في الحديث «النهي عن مجالسة من يتأنى بمحالسته في الدين والدنيا، والترغيب في مجالسة من ينتفع بمحالسته فيهما»<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) سنن أبي داود: ١٦٨/٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٦٦٠/٩ (كتاب الذبائح والصيد، باب المسك). وقوله: «إن لم يحذك» ، أي إن لم يعطك من الدنيا والخذية النهاية في غريب الحديث ٣٥٨/١ (باب الحاء مع الذال).

(٣) فتح الباري: ٣٢٤/٤.

## المبحث السادس :

### من المثبطات عن الطاعة

#### المطلب الأول :

#### الجهل واتباع الهوى

أ- الجهل : وهو بطبيعته حاجب عن الحق بل عدو له؛ لأن الجاهل لم يكلف همه بالبحث فعطل ذهنه عن التفكير، وأوى إلى الظنون عديمة الجدوى، فكان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْقِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم، الآية: ٢٨].

أو استحب التقليد الأعمى الذي أنكره الشَّرِعُ، قال - عَزَّ وَجَلَّ - مُخْبِرًا عن المقلدة على سبيل التَّعْبِيرِ - : ﴿بَلْ قَاتُلُوا إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الرَّحْمَن، الآية: ٢٢].

وما القناعة بالظنون واستحباب اتباع سنتين من قبل إلا دليل على فصور في المدارك والعلم الذي من شأنه أن يستوعب الذكر ويغدو مقصد النجا، ولو سطعت شمس الحق في قلوب الجهلة، والمقلدة لا وروا إلى ركن شديد؛ ولتبعد ظلمة الجهل وأزيالت عنهم غمة العممية فأبصروا الحق جلائاً وأورثهم ذلك الطاعة والاتباع.

لذلك كان الجهل غشاوة تحجز عن الأ بصار وتبطئ عن السير في مدارج الهدى، قال ابن تيمية - رحمه الله - : «إن الجهل سبب للمحرمات جميعها من كفر وفسق وعصيان؛ لأن العبد لا يقترب المعاصي إلا لجهله، فكان أصل وقوع السيئات عدم

العلم<sup>(١)</sup>، وفي القرآن حشد من الآيات تتضاد لتقدير ما يشعر بخطورة الجهل ويحذر من مغبته، ويحث على التزام بالعلم، من ذلك قوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنَّا حَرَمَ رَبِّ الْفَوْجَيْشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَإِلَّا مِمَّ وَالْبَغْيَ يُغَيِّرُ الْحَقَّ وَأَن تُشَرِّكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٣] ، قال صاحب المnar- رحمة الله - عند تفسير هذه الآية - : «أما القول عل الله بلا علم فهو أشد هذه الحرمات التي عليها الشرائع والأديان، قال - تعالى - : ﴿إِنَّا حَرَمَ رَبِّ الْفَوْجَيْشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٣] ، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال : ﴿وَإِلَّامْ وَالْبَغْيَ يُغَيِّرُ الْحَقَّ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٣] ، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال : ﴿وَأَن تُشَرِّكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ [الأعراف، الآية: ٣٣] ، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه؛ فقال : ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ٣٣] ، فهذا أعظم الحرمات عند الله وأشدها إثماً، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبدلاته، ونفي ما أثبتته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما أحقه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب من أبغضه، وبغض من أحبه، ووصفه بما لا يليق في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس الحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً، وهو الشرك، وعليه أنسنت البدع والضلالات»<sup>(٢)</sup> ، ومن الآيات أيضاً قوله - تعالى - : ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا﴾ [الإسراء، الآية: ٣٦] ، حيث أفادت الآية أنه لا يقوم شيء في هذا الدين على الضلن أو الوهم أو الشبهة، سواءً كان ذلك في حكم شرعي أو في عقيدة، وهي دعوة قرآنية صريحة لبيان أنه لا مجال للظنون أو الشبهة من أجل سلوك سبيل الحق<sup>(٣)</sup> . وهو إصلاح عقلي جليل يعلم التفرقة بين المعلوم والموهوم، ليؤدي في منتها إلى إصلاح فكري يجنب صاحبه المهالك جراء اتباعه للخرص والتخمين.

(١) الفتاوى ١٤/٢٢-٢٣ تصرف.

(٢) تفسير المnar: ٤٠٠/٨.

(٣) انظر في ظلال القرآن: ٤/٢٢٧.

ب - اتباع الهوى وما تشتهيه الأنفس : وهو يعد - أيضاً - من العوائق الصارفة عن الحق، وذلك؛ لأن من طبيعة النفس البشرية الرغبة فيما تهواه، ويصعب صرفها عن ذلك ما لم يكن هناك وازع ديني قوي يزاحم هذه الرغبات إلى حد يشبع النفس بالاطمئنان إلى الشرع، مما يتولد عنه حب الشارع والشريعة، فيكون الهوى الحق الذي يحل محل الهوى الباطل، ويتحقق ذلك بالاتباع والحرص على الكمال فيه، وفي قوله - تعالى -: **﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكَ فَأَعْلَمُ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ هَوَاءَهُمْ﴾** [القصص، الآية: ٥٠]، ما يفيد أن سبب الحيلولة دون الهدى إنما هو الهوى، قال ابن تيمية - رحمة الله -: «... ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد، يجعل من أهل الأهواء.. وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله، ولهذا قال - تعالى -: في موضع: **﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيَضْلُّونَ إِلَهُوَيْهِمْ يُغَيِّرُ عِلْمَهُمْ﴾** [الأعراف، الآية: ١١٩]، وقال في موضع آخر: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتَبَعَ هُونَهُ يُغَيِّرُ هُدَى مِنْ أَنْهَ﴾** [القصص، الآية: ٥٠]، فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه، ومقدار حبه وبغضه، هل هو موافق لأمر الله ورسوله، وهو هدى الله الذي أنزل على رسوله، فإنه قد قال: **﴿لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [المجادلة، الآية: ١]، ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله، ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله، ومجرد الحب والبغض هو، لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله، ولهذا قال: **﴿وَلَا تَنْتَهِي الْهَوَى فَيُضْلِلُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضْلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾** [ص، الآية: ٢٦]، فأخبر أن من اتبع هواه أضل له عن سبيل الله، وهو هداه الذي بعث به رسوله وهو السبيل إليه»<sup>(١)</sup>.

ومن الهوى ما يكون خفيًا، إلا أن خطورته شديدة، وهو حين يعمد المحب للشرع - على حد زعمه - فيتخير سواء أوقف ذلك محبوب الله أم خالفه، وهي من أمارات الزيف عن الهدى والتخلُّف عن الطاعة بسبب ما علق في النفس من الهوى والتشهي، ولا حجة حينئذ مثل هذا في غموض عقيدة أو ضعف حجة أو نقص دليل كما يدعون.. فالذين لم يستجيبوا لهذا الدين غير معدورين؛ لأنقطاع عذرهم بوصول الحق إليهم وعرضه عليهم، فلم يعد لهم حجة ولا دليل، فقد أخبر - تعالى - بقوله:

﴿ وَلَقَدْ وَصَلَنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> [القصص، الآية: ٥١]

ومن متمات هذا المطلب - المسمى في إكبار الهوى في النفوس - مجالسة أهل الأهواء والركون إليهم، فيزيرون لجلسائهم ما هم عليه من باطل؛ ولذلك اشتد نكير السلف وعظم تحذيرهم من مخالطة هؤلاء، (ففي قصة عمر مع صبيغ) قال أبو عثمان الروي «إن عمر كتب إلينا ألا تجالسوه، قال: فلو جلس إلينا ونحن مائة لتفرقنا عنه»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر في ظلال القرآن: ٢٦٩٩/٥، ٢٧٠٠.

(٢) سنن الدارمي ٥٥/١ (باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع).

## المطلب الثاني :

### إيثار العقل على النقل

لقد شرف الله الإنسان بالعقل وزيمه به، وذكر أولي الألباب ذكرًا حسناً، فقال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ [الرعد، الآية: ١٩] ، وقال - تعالى - : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ إِلَيْكُمْ مُّبَرَّكَ لِتَدْبِرُوا مَا يَنْهَا وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ [٢٩] [ص، الآية: ٢٩] ، فجعل في أولي الألباب قابلية التفكير والتدبر حتى يظهر أن هؤلاء أقرروا بنعمة العقل فشكروا الله على ما أعطاهم؛ وذلك بإعمال عقولهم وتوظيفها في التفكير والتدبر.

غير أن كثيراً من الناس لم ييقوا للعقل مكانته، فهم بين معطل لوظيفته مفرط في إبطاله، وبين مفرط في جعله المرجع الوحيد؛ حتى قدموه - بلا استحياء - على شرع الله؛ فبنوا من جراء ذلك لأنفسهم الضلالات ووسموها بالحقائق واليقينيات، ولم يعلم هؤلاء أن للعقل حدًا ينتهي إليه في المدركات، وأن الله - تعالى - لم يجعل له سبيلاً إلى إدراك كل شيء<sup>(١)</sup> ، كما أنهم جهلوا أن الله - تعالى - حافظ دينه وعاصم نيه من الرزل في التبليغ، ومن ثمَّ بما جاء به من حق ويقين لا مروية فيه، وأن يقينياتهم المزعومة ما هي إلَّا عين الباطل، بدليل تبادل العقول والفهم في تعين الحقائق والمصالح، وبدليل أن الله - تعالى - أمرنا بالتسليم لحكم رسوله ﷺ تسليماً مطلقاً، وجعل ذلك من علامات الإيمان، قال - تعالى - : ﴿فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَحْدُوُا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [ النساء، الآية: ٦٥] ، وما أحسن قول ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - حين شرح قول الطحاوي: «ولا ثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم

(١) انظر الاعتصام: ١/٢٩٤-٣٠١

والاستسلام»، قال: «أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقد إليها ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقول قياسه»<sup>(١)</sup>، وإن أفسد الدين، قال ابن القيم - رحمه الله -: «فما أفسد أديان الرسل إلا أرباب منازعات العقول، الذين يتنازعون بمعقولهم في التصديق بما جاءت به، وإثبات ما أثبتوه ونفي ما نفوه، فنازعت عقولهم ذلك، وتركوا لتلك المنازعات ما جاءت به الرسل، ثم عارضوهم بتلك المعقولات، وقدموها على ما جاءوا به، وقالوا: إذا تعارضت عقولنا وما جاءت به الرسل، قدمنا ما حكمت به عقولنا على ما جاءوا به... ثم قال: وقد هلك بهؤلاء طوائف لا يحصيهم إلا الله وأغلوا بسيبهم من أديان جميع الرسل»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) شرح الطحاوية: ٢٣١/١.

(٢) مدارج السالكين: ٥٠١/٣.

## المطلب الثالث :

### التعليق بالشبهات

فدين الإسلام قائم على تسليم العبد المطلق للوحى - غير أن كثيراً من بضاعته فيه مزاجة لا يقدرها، حق قدره ولم يجد التوقير طريقاً إلى قلبه، فتعلق بالشبهات متوهماً المصالح فيها، وأنها السبيل الحق، فسبق ذلك إلى فؤاده فتمكّن منه، فلما جاءه الحق الثابت، تعلق قلبه بما سكته من شبهة، ولبس عليه إبليس فلم يؤمن بالحق، بل صار يناضل بالباطل ليحضر به الحق، فآخر بذلك الضلال على الهدى، فضل وأضل.

وقد حذرَ الرسُولُ ﷺ من هذا شأنه، حيث قال فيما رواه عنه أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «سيكون في آخر أمتى ناسٍ يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباءكم فإياكم وإياهم»<sup>(١)</sup>، كما حذرَ السلف الصالح - أيضاً - من الشبهات وأصحابها، من ذلك قول عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «إنه سيكون أناسٍ يجادلونكم بشبهات القرآن فخذلهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»<sup>(٢)</sup>، وقول أبي قلابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «لا تجالسو أهل الأهواء ولا تجادلوكم فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»، وعنده - أيضاً - قال: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال»<sup>(٣)</sup> ، ويقول ابن سيرين - رَحْمَهُ اللَّهُ -: «إن هذا العلم دين فانظروا عنمن تأخذون دينكم»<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح مسلم: ٩/١ (باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم).

(٢) سنن الدارمي: ٤٥/٤ باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤٧٢/٤.

(٤) صحيح مسلم: ١١/١ (باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم).



## المبحث السابع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية

#### المطلب الأول :

﴿وَمَن يُشَاقِقُ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ  
وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَهُ، مَا تَوَلَّ وَأَنْصَلَهُ،  
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [ النساء ، الآية: ١١٥].

**القاعدة الأولى :**

١- فقه القاعدة : يبين الله - تعالى - في هذه الآية القاعدة أن من يباين الرسول عَزَّلَهُ اللَّهُ عَنِ الْمُحَاجَةِ بالمعاداة والمخالفة، فيفارقه على العداوة له من بعد ما تبين له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ثم يتبع طريقة غير طريق أهل التصديق ويسلك منهاجاً غير منهاجهم، وما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه، فإنه سيجعل الله له ناصره ما استنصره واستعنان به من آلهة الباطل، ثم يكون مصيره بعد ذلك جهنم <sup>(١)</sup>.

والآية نظير قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ  
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَئِنْ يَضْرُبُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُخْبِطُ أَعْنَاهُمْ﴾ [محمد، الآية: ٣٢]، فكل من ظهرت له الهدایة على لسان النبي عَزَّلَهُ اللَّهُ عَنِ الْمُحَاجَةِ، وقامت عليه الحجة

(١) انظر جامع البيان: ٢٧٧/٥، وفتح القدير: ٥١٥/١.

بحقيقة ما جاء به، فهو مستحق لهذا الوعيد؛ لأن المشاقة بعد تبین الهدى، إنما تكون عناداً وعصبية واتباعاً تُفیت هذه الهدایة المبنية على قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح؛ وللهذا كان من غير المعقول أن يتخلّى عنها بعد معرفتها، وإن وقع لا بد له من سبب، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم عند قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَأَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة، الآية: ١٣٠]، فلا أحد يرغب عنها إلا أن يكون محترقاً لنفسه مزدرها نتيجة جهالته أو استكباره.

ولست بحاسِر الوعيد في طعمة بن أبيريق كما تحدثت به التفاسير<sup>(١)</sup>، وإنما الوعيد في حق كل من أتى بلون من ألوان المشاقة الظاهرة كمخالفة الكتاب والسنة عمداً، أو الباطنة كاضمار الشر أو الكيد للشريعة ولأهلها ونحو ذلك.

## ٢- قيمتها :

لقد كان بعض المفسرين نظرات استدلالية من خلال هذه الآية الجامعة، من ذلك.

\* أنها دلت على وجوب عصمة النبي ﷺ عن جميع الذنوب، والدليل عليه، أنه لو صدر عنه ذنب لجاز معه، وكل من منع غيره عن فعل يفعله كان مشاققاً له؛ لأن كل واحداً منها يكون في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر، فثبتت أنه لو صدر الذنب عن رسول الله ﷺ لوجبت مشاقته، لكن مشاقته محرمة بهذه الآية، فوجب ألا يصدر الذنب عنه.

\* كما أن الآية دلت على وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله؛ إذ لو كان فعل الأمة غير فعل الرسول، لزم كون كل واحد منها في شق آخر من العمل فتحصل المشاقة، لكن المشاقة محرمة، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله.

(١) انظر - على سبيل المثال - جامع البيان: ٤٧٨.

\* كما دلت على أنه لا يمكن تصحيح الدين إلا بالدليل والنظر والاستدلال؛ وذلك؛ لأنه - تعالى - شرط حصول الوعيد بتبيين الهدى، ولو لم يكن تبيين الهدى معتبرا في صحة الدين، وإلا لم يكن لهذا الشرط معنى<sup>(١)</sup>.

\* كما أن من المفسرين - كبعض الزيدية - من اعتبر أن مشاقة الرسول عليه السلام تبلغ إلى حد الكفر<sup>(٢)</sup>.

\* ثم إنه قد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية؛ لكون إجماع علماء الإسلام على حكم من الأحكام حجة، وأولهم الشافعى - رحمه الله -، وتقرير الاستدلال، أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبا. وبيان المقدمة الأولى أنه - تعالى - الحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين، ومشاقة الرسول وحدها موجبة لهذا الوعيد، فلو لم يكن اتباع غير سبيل المؤمنين موجبا له، لكان ذلك ضما لما لا أثر له في الوعيد إلى ما هو مستقل باقتضاء ذلك الوعيد، وأنه غير جائز، فثبتت أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فإذا ثبت هذا، لزم أن يكون اتباع سبيلهم واجبأ<sup>(٣)</sup>.

وينحو المهاجمي في تفسيره هذا التحويل مستدلاً على حرمة مخالفنة الإجماع بهذه الآية؛ «لأنه - عز وجل - رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومن خالفه الإجماع؛ حرمة كل واحد منهما»<sup>(٤)</sup>.



(١) انظر التفسير الكبير: ٤٤/١١، ٤٥.

(٢) انظر محاسن التأويل: ٤٥٨/٥.

(٣) التفسير الكبير: ٤٣/١١، ٤٤.

(٤) انظر تفسير المهاجمي: ١٦٥/١.

## المطلب الثاني :

القاعدة الثانية:

﴿وَمَا عَلِمْتُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا لَمْ تَعْلَمْنَاهُ عَنْهُ﴾

﴿فَأَنْهَاوُا﴾ [الحشر، الآية: ٧].

١- فقه القاعدة : قال أهل التفسير: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين، فإنهم كانوا حيتان فقراء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فإنهما كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهما من هذا الفيء؛ فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوا فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهي عن كل شر وفساد؛ كإitanكم الغائم ومنعكم الغلول<sup>(١)</sup>.

### ٢- قيمتها :

إن من أعظم المظان التي تتجلى فيها السنة النبوية الشريفة باعتبارها حاكمة هذه الآية القاعدة؛ إذ إنها عامة في كل ما أمر به رسول الله ﷺ ونهى عنه<sup>(٢)</sup>، فهي تعني مهما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوا، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر إلا بالإصلاح، ولا ينهى إلا عن الإفساد، فإنه يتبع منها أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله، وأن كل ما نهى عنه نهى من الله<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان: ١٤/٣٩ بصرف. (٢) التفسير الكبير: ٢٨٧/٢٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣٣٦/٤.

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣٩٢/٤ بصرف.

وهكذا نجد أن الآية وإن كانت واردة في شأن الغنائم، فإن جميع أوامرها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ونواهيه داخلة فيها، قال الصاوي - رحمه الله -: «فقد جمعت أمور الدين كما هو معلوم»<sup>(١)</sup>. قال سيد - رحمه الله تعالى -: «فأما القاعدة الثانية - وهو يقصد هذه الآية - فهي تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول بِسْمِ اللَّهِ قَرَأَنَا أو سنة، والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف أنماطه جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه، لم يكن لتشريعها هذا سلطان؛ لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان،.. وهذه النظرية تختلف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات.. وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان. فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول بِسْمِ اللَّهِ ، والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وفي هذا تنحصر حقوق الأمة وليس لها أن تخالف أنماطها الرسول في أي تشريع»<sup>(٢)</sup>.

\* وما ييرز قيمتها - أيضاً - حضورها المتميز في فتاوى الصحابة - رضي الله عنهم - فقد جعلوها مجمعاً للأوامر والنواهي واتخذوها أصلًا في إصدار فتاواهم.

- فهذا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لعن الله الواشمات والموشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، بلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كثيئ وكيف، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله بِسْمِ اللَّهِ . ومن هو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، مما وجدت فيه ما تقول، قال: لعن كنت قرأته، لقد وجدتني، أما قرأت: **﴿وَمَا ءاَنَّكُمُ الرَّسُولُ فَحَذِّرُوهُ وَمَا نَهَّكُمْ عَنْهُ فَإِنَّهُمْ** ﴾ [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه<sup>(٣)</sup>.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٤/٣٩٢ بتصريف.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/٣٥٢٥.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٨/٦٣٠ (كتاب التفسير، باب وما آتاكم الرسول فخذلوه).

- ومثله قوله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لرجل حين لقيه محرماً وعليه ثيابه فأمره بتنزعها عنه، فقال الرجل: أتقرأ علىي بهذا آية من كتاب الله - تَعَالَى - ؟ قال: نعم: ﴿وَمَا أَنْذَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا تَهْنَكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾<sup>(١)</sup> [الحشر: ٧]

- ويضي الشافعي - رحمه الله - في منهج الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، فقد نقل القرطبي - رحمه الله - عنه أنه قال: سلوني عما شتمتم أخباركم من كتاب الله - تَعَالَى - وسنة نبيكم ﷺ . قال الفريابي: فقلت له: ما تقول - أصلحك الله! - في المحرم يقتل الزببور؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله - تَعَالَى - : ﴿وَمَا أَنْذَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا تَهْنَكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾ [الحشر: ٧] .. وقال حذيفة بن اليمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إن رسول الله ﷺ قال: «اقتدوا بالذين من بعدي أبى بكر وعمر» .. وقد أمر عمر بقتل الزببور، قال القرطبي: فأفني بجواز قتل الزببور في الإحرام، وبين أنه يقتدي فيه بعمر، وأن النبي ﷺ أمر بالاقتداء به، وأن الله - تَعَالَى - أمر بقبول ما يقوله النبي ﷺ ، فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة، وهو جواب في غاية الحسن<sup>(٢)</sup> .

- ومن هنا قال العلماء: «كل ما ثبت عن رسول الله يصح أن يقال عنه في القرآن أخذًا من هذه الآية»<sup>(٣)</sup> ، وكل ذلك فيه وجوب امثال أوامره ونواهيه، قال ابن عاشور - رحمه الله - : «وهذه الآية جامدة للأمر باتباع ما يصدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل، فيدرج فيها جميع أدلة السنة»<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/١٨ والكشف: ٤/٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨، ١٧/١٨.

(٣) محسن التأويل: ٦/٩٩.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٨/٨٧.

## المطلب الثالث :

### تطبيقات

وفي القرآن الكريم نماذج مثبتة هنا وهناك، من المسارعة إلى الطاعة والإنقياد لأوامر الله - تعالى - دون أدنى تردد، فالإيمان قد وقَّ في الصدور وشربته القلوب، وكلما دعاء داعي الحق، تراحم الناس على بوابته، وتنافسوا في النزول عند طاعته، وأقبلوا بانكسار وخضوع على سيدهم طمعاً في فضله ورحمته، وإليك من هذه النماذج:

#### أ - طاعة الصحابة عند أمرهم بالهجرة :

حين كان المسلمون الأول في مكة يحيون لدينهم ولربهم، لم يطل بهم التفكير لما قيل لهم: هاجروا إلى موطن تحيون فيه، وتعيشون لهذا الدين فيتعش بكم وتعيشون به، وترتبطوا مصالحكم الخاصة بمصالحه.

لقد كانت نتيجة هذا العرض أن جمهرة من المسلمين تخلت عن مصالحها لتهاجر إلى الله ورسوله.

إنه اختيار يُعرض على هؤلاء حتى يتبين الصادق من الداعي، ﴿وَلَيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفَّارِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٤١].

والحق أن الفتنة كانت فتنتين: فتنة الإبقاء على حال الإيذاء والإذلال، وفتنة التخلّي عن الديار والأموال، فكان الموقف إثارة الآخرة على الأولى، فهاجر الصحاب طاعة لله ورسوله ونزاً عند أمره بكل ثبات وعزّم عنديين.

وهو المثل الحق في الإخلاص للدين والطاعة لله ولرسوله، فاستأهلو بذلك المدح الإلهي المسطور في كتابه، قال - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ

دِيَرْهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ يَنْغَوْنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُونَا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوتَيْكُمْ  
الصَّدِيقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر، الآية: ٨]، «الذين قالوا كلمة الإيمان بأسنتهم وصدقها  
بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه،  
وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه»<sup>(١)</sup>.

### ب - طاعة الصحابيات - رضي الله عنهن - عند تلقينهن لآية الحجاب :

وذلك حين نزل قوله - تعالى -: **﴿وَلِيَضْرِبَنَّ بَخْرِهِنَّ عَلَى جُبُوبِهِنَّ﴾** [النور، الآية: ٣١]،  
قالت عائشة - رضي الله عنها -: «يرحم الله نساء المهاجرات الأولى لما أنزل الله:  
﴿وَلِيَضْرِبَنَّ بَخْرِهِنَّ عَلَى جُبُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها. وفي رواية: «أخذن  
أزرهن فشققنها من قبيل الحواشي فاختمرن بها»<sup>(٢)</sup> ، قال ابن حجر - رحمه الله -:  
ولابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عثمان عن صفية - رضي الله عنها -: «ذكرنا  
عند عائشة نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن نساء قريش لفضلاء، ولكنني والله ما  
رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت  
سورة النور: **﴿وَلِيَضْرِبَنَّ بَخْرِهِنَّ عَلَى جُبُوبِهِنَّ﴾** [النور: ٣١] فانقلب رجالهن إليهن يتلون  
عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها، فأصبحن يصلين الصبح  
معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن نساء الأنصار  
كن سباقات إلى هذا<sup>(٣)</sup> كما يستشف من الرواية الثانية طاعة الرجال الذين لم يتوانوا  
في التبليغ.

(١) في ظلال القرآن: ٦/٢٥٢٦.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٤٨٩/٨ (كتاب التفسير، باب ولip ضربن بخمرهن على جبوبهن).

(٣) انظر فتح الباري: ٤٩٠/٨.

### ج - طاعة الصحابة - رضوان الله عليهم - وهم يتلقون التحريم البات للخمر :

روى البخاري في صحيحه أن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «ما كان لنا غير فضيلكم هذا الذي تسمونه الفضيخت، فإني لقائم أُسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً؛ إذ جاء رجل، فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سأله عندها ولا راجعواها بعد خبر الرجل»<sup>(١)</sup> ، وعن أبي بريدة - رضي الله عنهما - عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلاً إذ قمت حتى آتني رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ مَاءَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ يَرْجِسُونَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾** إلى آخر الآيات **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾** [المائدة، الآيات: ٩١، ٩٠] فجئتم أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾** [المائدة، الآية: ٩١] ، قال: وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطitemهم فقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا<sup>(٢)</sup> .

### د - طاعة الصحابة وهم يستقبلون نبأ تحويل القبلة :

فحين تحولت القبلة شطر المسجد الحرام سفة من سفة وتبين المتاب للرسول من انقلب على عقبيه، ولعلها إحدى الحكم التربوية التشريعية التي كان من أجلها هذا التحويل، قال - تعالى -: **«وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَبَعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِيقَتِهِ﴾** [البقرة، الآية: ١٤٣] ، فلم تكن دالة على حقيقة الاتباع

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٧٧/٨ (كتاب التفسير، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأرلام رجز من عمل الشيطان).

(٢) جامع البيان: ٧/٣٤

والانقلاب إلا؛ لأنها أمر عظيم وامتحان عسير خفّ وطؤه على الذين هدى الله به حيث كانت الهدایة مجتَهدة ووقاية من الضلال، وكبرت على الذين في قلوبهم استعداد وقابلية الفتنة واتباع الهوى.

عن البراء - رضي الله عنه -: «أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشرة شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته قبلَ البيت وإنه صلّى - أو صلاها - صلاة العصر، وصلّى معه قوم، فخرج رجل من كان صلّى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ بالله لقد صلّيتُ مع النبي ﷺ قبلَ مكة، فداروا كما هم قبلَ البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تتحول قبلَ البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْبِغَ إِيمَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَأْنِسُ إِلَّا وَقُرْبَةً رَّحِيمًا﴾**<sup>(١)</sup> [البقرة، الآية: ١٤٣]، وفي رواية له عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «بینا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء؛ إذ جاء فقال: أنزل الله على النبي ﷺ قرآنًا أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة»<sup>(٢)</sup>.

### و - طاعة الصحابة للرسول ﷺ وهو يُرغّب في الإنفاق :

روى مسلم - رحمه الله - في صحيحه عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتافي التمار - أو العباء - متقدلي السيوف، عامتهم من مصر، بل كلهم من مصر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلا، فأذن وأقام فصلّى ثم خطب فقال: **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَجَهَدَهُ﴾** إلى آخر الآية **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ**

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٧١/٨ (كتاب التفسير بباب سيدخل السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها...).

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٧١/٨ (كتاب التفسير بباب سيدخل السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها...).

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [السباء، الآية: ١]، والآية التي في الحشر «أَنْقُوا اللَّهَ وَلَسْتُرْ نَفْسٌ مَا فَدَمْتَ لِغَنِيٍّ وَانْقُوا اللَّهَ» [الحشر، الآية: ١٨]، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمرة، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاءه رجل بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) صحيح مسلم: ٣/٨٦، ٨٧ (كتاب الركaka، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار).



## الفصل الثاني :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

المبحث الأول : ذكر بعض مظان ورود الكلية

المبحث الثاني : فقهها

المبحث الثالث : قيمتها

المبحث الرابع : أنواع الجزاء

المبحث الخامس : الجزاء الآخرمي وبعض مظاهره

المبحث السادس : الجزاء بين الاستعجال والاستبطاء

المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن اللكية من القواعد



## بين يدي الكلية :

هاتان الجملتان جدير بأن تتجسد فيهما كلية الجزاء العظمى التي تناولها القرآن في كثير من السور والآيات، فهي معدودة من جوامع الكلم.

وذلك عائد لأمور منها:

- أن رسول الله ﷺ وصفها بوصفين، وصفها بالجامعة وبالفاذة، ففي البخاري أنه عَنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر، فأما الذي له أجر؛ فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرقاً أو شرقين كانت أرواثها وأثارها حسنات له، ولو أنها مررت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فأما الرجل الذي عليه وزر، فهو رجل ربطها فخرأ ونواة لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك، وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾** (١) الرزلة، الآيات: ٧، ٨، ٩. «فسمها جامعة؛ لشمولها لجميع الأنواع من طاعة ومعصية، وسمها فاذة؛ لأنفرادها في معناها» (٢).

وهو الفهم الذي سرى إلى الصحابة - رضي الله عنهم -، فهذا عبد الله بن مسعود يسمها بأحكام آية في القرآن ويروي الحسن البصري - رحمه الله - أن صعصعة بن

(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٦٤، ٦٣/٦ (كتاب الجهاد، باب الخيل ثلاثة...)، سن ابن ماجة ٩٣٢/٢ (كتاب الجهاد، باب ارتباط الخيل في سبيل الله).

(٢) فتح الباري: ٦٥/٦

معاوية - رضي الله عنه - قدم على النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال صعصعة: حسيبي، قد انتهت الموعظة، لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها!

وقال كعب الأحبار: «لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصنا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ثم قرأهما»<sup>(١)</sup>.

- إلى جانب هذا ما قررته من مبدأ الجزاء تقريراً وافياً بروز من خلال التعبير بالذرة في أسلوب جمع بين التصريح والإطناب، بلغت بذلك أقصى غاية الترغيب والترهيب، كاشفة عن حقيقة الجزاء، وأنه لا محالة كائن، جل شأن الأعمال أو أقل.

- ومن ثم حق لهاتين الآيتين أن تتصدرا موضوع الجزاء؛ باعتبارهما الكلية القرآنية التي يرجع إليها متى احتج إلى الاستدلال على الجزاء في أجلى صورة له على أكمل وجه.



(١) التحرير والتنوير: ٤٩٥/٣٠، وانظر محسن التأويل: ٢٣١/١٧

## المبحث الأول :

### ذكر بعض مظانها في القرآن

إنه من العسير استقراء مواطن الجزاء في القرآن استقراءً تاماً؛ يحيط إحاطة كاملة بالآيات؛ إذ العمل يستدعي تقييد معظم الأجزاء القرآنية، فالسور لا تكاد تخلو من حديث عن الجزاء.

ولما كان منهج البحث يقتضي ذكر مواطن الكلية المراد تحليلها؛ فإننا سنجتهد في عرض بعض الآيات، على أن تكون حاوية لمجمل صنوف الجزاء الواردة في كتاب الله، مع مراعاة بسطها في شكل موضوعات مقدرة بتقديم يتناول إيماءات قرآنية إلى مبدأ الجزاء في القرآن.



## المطلب الأول :

### إيماءات إلى الجزاء

#### أ- الرجوع إلى الله - تعالى - :

- قوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَخْبَثْتُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ ثُمَّ يُحِيقُّكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٨].

- قوله - تعالى - : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرَهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٣].

- قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الظَّنِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْقَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل الأنعام، الآية: ٣٦].

- قوله - تعالى - : ﴿ لَا يَتَحَذَّلُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَفَرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَنِعَنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ تُفْتَنَةً وَيَعْدِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٨].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَّدُونَ إِلَى عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَنَةِ ﴾ [التوبه، الآية: ١٠٥].

- قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجَهَدًا فَإِذَا هُمْ جَيْعٌ لَدَيْنَا مُحْصَرُونَ ﴾ [يس، الآية: ٥٣].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ إِلَيْكَ رَيْكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم، الآية: ٤٢].

- قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّاهُمْ ﴾ [الغاشية، الآية: ٢٥].

## ب - الملك لله يوم القيمة :

- قوله - تعالى - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿الْيَمْنَ الرَّجِيمَ ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة، الآيات: ٤-٢].

- قوله - تعالى - : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج، الآيات: ٥٦:٣].

- قوله - تعالى - : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِرَحْمَنٍ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكُفَّارِ عَسِيرًا﴾ [الفرقان، الآية: ٢٦].

- قوله - تعالى - : ﴿يَوْمَ هُمْ بَرِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِنَّ الْمُلْكَ أَلِيمٌ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر، الآية: ١٦].

- قوله - تعالى - : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار، الآية: ١٩].



## المطلب الثاني :

### التنصيص على الجزاء

١ - ذكر محاسبة الناس يوم القيمة وإيفاؤهم جزاءهم :

أ - ذكر المحاسبة :

- قوله - تعالى : ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدِوْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٤].

- قوله - تعالى : ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعَرِّضُونَ ﴾ [الأنبياء، الآية: ١].

- قوله - تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لِصَادِقٍ ﴾ [الذاريات، الآيات: ٦، ٥].

- قوله - تعالى : ﴿ وَأَنَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٠].

ب - إيفاء الجزاء :

- قوله - تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ إِلَيْهَا أَكَادُ أُخْفِيَهَا لِتُجَزَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا نَسَعَ ﴾ [طه، الآية: ١٥].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِثُورَ رَبَّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَهُمْ بِالنَّيْنِكَنَ وَالشَّهَدَاءِ وَفُضِّلَ يَنْهَمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ وَوَفِيتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ [المرمر، الآيات: ٦٩، ٧٠].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَأَنَّ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ٤١ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سُوفَ يُرَى ﴾ ٤٢ ﴿ ثُمَّ يُبَعَّذَهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ ﴾ ٤٣ ﴿ [النجم، الآيات: ٤١-٤٣].

## ٢- أصناف الناس المجزيين :

### أ- المسلمين وجزاؤهم :

- قوله - تعالى :- ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ تَحْسِينٌ فَلَهُ أَجْرٌ مُّغْرُبٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُجُونَ ﴾ ١١٢ ﴿ [البقرة، الآية: ١١٢].

- قوله - تعالى :- ﴿ يَنْبَغِي لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْرَثُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِعِيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ٦٩ ﴿ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَسْتُرُ وَأَرْجُمُكُمُ تُحْبَرُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ [الزخرف، الآيات: ٦٨-٦٩].

### ب- الكافرون وجزاؤهم :

#### ١- المغضوب عليهم :

- قوله - تعالى :- ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ مَاءَنَا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَنِسْقُونَ ﴾ ٦٥ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَيْشُكُمْ يَشَرِّقُ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقَرْدَةَ وَالْخَازِيرَ وَعَبَدَ الظَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السِّبِيلِ ﴾ ٦٦ ﴿ [المائدة، الآيات: ٦٥، ٦٦].

## ٢- الضالون :

- قوله - تعالى - : ﴿أَهَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة، الآيات: ٦، ٧].

- قوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَبْهَانَ الظَّالِمُونَ ⑤ لَا كُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَوْفٍ ⑥﴾ [الواقعة، الآية: ٥٢، ٥٣].

## ٣- المشركون :

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ، وَعَفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء، الآية: ٤٨].

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا أُولَئِكُمْ أَنْتُمْ ② وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة، الآية: ٧٢].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِيطًا عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ [الأعراف، الآية: ٨٨].

## ج- المنافقون وجزاؤهم :

- قوله - تعالى - : ﴿أُزَلِّيَّكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَحِتَ يَحْدَثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهَتَّدِينَ ⑪﴾ [البقرة، الآية: ١٦].

- قوله - تعالى - : ﴿بَشِّرِ الْمُنَفِّقِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ⑫ الَّذِينَ يَنْحُذُونَ الْكَفَرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء، الآية: ١٣٨، ١٣٩].

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُنَفِّقِينَ فِي الدُّرُّكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَمْحَدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١٤٥].

- قوله - تعالى :- **﴿وَمِنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَفِّقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُنَّ هُنَّ نَعْلَمُهُمْ سَعْدَهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾** [التوبه، الآية: ١٠١].



## المطلب الثالث :

### من آيات الجزاء في مجال العقيدة

#### أ - جزاء المؤمنين بالغيب :

- قوله - تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لِهِ هُدَى لِلنَّاسِ ۚ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَعْمَلُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُفْعَلُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ أَوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ ﴾ [البقرة، الآيات: ١-٥].

- قوله - تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَّاءً وَذِكْرًا لِلنَّاسِ ۚ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُسْفِقُونَ ۚ ﴾ [الأنباء، ٤٨].

الآية: ٤٩، ٤٨.

- قوله - تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ ﴾ [الملك، الآية: ١٢].

#### ب - المخلصون وجزاؤهم :

- قوله - تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ أَلَّا سَكِّلُ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۚ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا بِإِلَهٍ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ۚ ﴾ [النور، ٣٥].

فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ [النساء]

الآيات: ١٤٥، ١٤٦.

- قوله - تعالى - : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا مَا لِهِنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونَ بَلْ جَاءَ إِلَّا حِقٌّ وَصَدَقَ النَّبِيُّنَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَاهِبُوا إِلَيْنَا الْعَذَابُ أَلَّا يُرِيكُمْ وَمَا تَخْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ ﴿٣٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْهُ مَعْلُومٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الصفات، الآيات: ٤١-٣٦].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُقْلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلَصُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصفات، الآية: ٧٤-٧١].

## ح - أولياء الرحمن وجزاؤهم :

- قوله - تعالى - : ﴿الَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ إِذَا مَأْمُنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ﴾

[البقرة، الآية: ٢٥٦].

- قوله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٦٧].

- قوله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُنْقَذِينَ﴾ [الحاوية، الآية: ١٨].

- قوله - تعالى - : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾

[يونس، الآية: ٦٢].

## د - أولياء الشيطان وجزاؤهم :

- قوله - تعالى - : ﴿وَمَن يَتَّخِذُ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسَرَ حُسْرًا مَمْبِنًا﴾ [النساء، الآية: ١١٩].

- قوله - تعالى - : ﴿فَرَبِّنَ لَهُمُ الْشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل، الآية: ٦٣].

## ه - أولياء الكفار والمنافقين وجزاؤهم :

- قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءِ لِقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة، الآية: ٥١].

- قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا إِبَاءَكُمْ وَإِخْوَنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ أَسْتَحْبُّ أَكُفَّرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبه، الآية: ٢٣].

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَرِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنَّ تَوَلُّهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المتحنة، الآية: ٩].

## و - النَّابُونَ وجزاؤهم :

- قوله - تعالى - : ﴿فَنَّ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَثُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ

الله عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ [المائدة، الآية: ٣٩].

- قول - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَمَأْمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٣].

- قوله - تعالى - : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَئُمُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور، الآية: ٣١].

- قوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَّا نَعَمَ﴾ [هود، الآية: ٣].

- قوله - تعالى - : ﴿وَنَفَرُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدُكُمْ قُوَّةً إِلَى فُورِكُم﴾ [هود، الآية: ٥٢].

\* \* \*

## المطلب الرابع :

### من آيات الجزاء في مجال العبادات والمعاملات

#### أ- جزاء العابدين :

- قوله - تعالى - : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُسْكِنَنَّهُمْ بِمِنْهُمُ الَّذِي أَرَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَرْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [السور، الآية: ٥٥].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْأَيْمَانِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِي هَا عِبَادَى الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَنِيدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنياء، الآيات: ١٥، ١٦].

. [١٠٦، ١٠٥]

- قوله - تعالى - : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مرى، الآية: ٦٣].

- قوله - تعالى - : ﴿يَتَعَبَّدُ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْشَدُ تَحْزُونُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف، الآية: ٦٨].

#### ب- جزاء المتقين :

- قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَتَقَّى اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَحْرًا \* وَرِزْقًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿١٩﴾﴾ [الطلاق، الآية: ٢، ٣].

- قوله - تعالى - : ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٤].

- قوله - تعالى - : ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٨٢].

- قوله - تعالى - : ﴿مَنْهَا أَنْهَرُ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُلُهَا تِلْكَ عَقْبَى الَّذِينَ أَنْفَوُا﴾ [الرعد، الآية: ٣٥].

### ج - جزاء الخاضعين :

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِثَانِيتِنَا الَّذِينَ إِذَا دُكَرُوا إِلَيْهَا حَرُوفًا سُجَّدًا وَسَبَحُوا بِمُحَمَّدٍ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَجَّافَ جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ فَقْسٌ مَا أَخْفَى هُنْ مِنْ فُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَرَاءٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة، الآيات: ١٥-١٧].

### د - جزاء الشاكرين :

- قوله - تعالى - : ﴿كَذَّبَ قَوْمٌ لُوطًا بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا إِلَّا لُوطٌ بِحِينَتِهِمْ بِسَحْرٍ ﴿٢٤﴾ يَقْتَمِهِ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ يَخْرِي مِنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر، الآية: ٢٣-٢٥].

- قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا تَأذَّنَ رَبُّكُمْ لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم، الآية: ٧].

- قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَبَّحَى الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٤٥].

### ه - جزاء المصلين :

- قوله - تعالى - : ﴿فَدَأْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون، الآيات: ١-٢].

- قوله - تعالى - : ﴿فَدَأْلَحَ مَنْ تَرَكَ ﴿٣﴾ وَذَكَرَ أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى، الآيات: ١٤، ١٥].

- قوله - تعالى - : ﴿وَأَمْرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبَرَ عَلَيْهَا لَا نَسْكُكَ رِزْقًا تَحْنُ فِرْزُوكَ وَالْعَنْقَبَةُ لِلنَّقْوَى ﴿٥﴾﴾ [طه، الآية: ١٣٢].

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ نِحْرَةً ۚ ۚ لِيُوْفِيْهُمْ أُجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلَلِهِ ۚ﴾ [فاطر، الآية: ٢٩، ٣٠].

### و - جراء الصائمين :

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَاتِ وَالصَّدِيقَاتِ وَالصَّدِيقَاتِ وَالصَّابِرَاتِ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَشِعَاتِ وَالخَشِعَاتِ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرَاتِ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظَاتِ وَالْحَافِظَاتِ وَالْمَذَكَّرَاتِ اللَّهُ كَثِيرًا وَالْمَذَكَّرَاتِ أَعْدَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۚ﴾ [الأحزاب، الآية: ٣٥].

### ز - جراء عمار بيت الله الحرام :

- قوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۚ﴾ [الحج، الآية: ٣٠].

### ح - جراء المنفقين في سبيل الله :

- قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُحْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۚ﴾ [سبأ، الآية: ٣٩].

- قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُشْيِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذْيَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُثُونَ ۚ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٦٢].

- قوله - تعالى - : ﴿فَالَّذِينَ إِمَّا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَيْرٌ ۚ﴾ [الحديد، الآية: ٧٧].

- قوله - تعالى - : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۚ﴾ [الأفال، الآية: ٦٠].

## ط - جزاء أكلي أموال الناس بالباطل :

- قوله - تعالى :- **﴿فَيُظْلِمُونَ مَنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبِيتٌ أُحِلَتْ لَهُمْ وَيُصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾** **﴿وَأَخْذُهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَا عَنْهُ وَأَكْلُهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكُفَّارِ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾** [النساء، الآيات: ١٦١، ١٦٠].

- قوله - تعالى :- **﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَنَزَّهُمْ بِالْبَطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِحْكَرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَفْتَلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾** **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسُوقَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾** [النساء، الآيات: ٣٠، ٢٩].

- قوله - تعالى :- **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَبَقُلُونَ سَعِيرًا ﴾** [النساء، الآية: ١٠].

- قوله - تعالى :- **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُولُونَ إِلَّا كَمَا يَقُولُ الَّذِي يَتَبَخَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءُ مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّهِ فَأَنْهَاهُ فَلَمْ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴾** [البقرة، الآية: ٢٧٥].

## ي - جزاء المطففين :

- قوله - تعالى :- **﴿وَلَيْلٌ لِّمُطَّفِفِينَ ﴾** **﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَشْتَوِفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَوْهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾** **﴿أَلَا يُظْنِنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾** **﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُولُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** [المطففين، الآيات: ١-٦].

- قوله - تعالى :- **﴿وَلَا نَنْفَعُوا الْمُكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّ أَرْسَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنَّ أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾** [هود، الآية: ٨٤].

## المطلب الخامس :

### من آيات الجزاء في المجال الخالقي

#### أ - جراء الصادقين :

- قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقُهُمْ لَهُمْ حَنَتٌ بَحْرٌ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة، الآية: ١١٩].

- قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب، الآية: ٧١، ٧٠].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْتَقُوتُ ﴾ [الزمر، الآية: ٣٣].

#### ب - جراء الصابرين :

- قوله - تعالى - : ﴿ أَسْتَعِينُكُمْ بِالصَّابِرِ وَالصَّلَوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة، الآية: ١٥٣].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَلَنَجِزِنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِإِحْسَانِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التحل، الآية: ٩٦].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يُلْقَنَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص، الآية: ٨٠].

- قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر، الآية: ١٠].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَجَرَيْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرَيرًا ﴾ [الإنسان، الآية: ١٢].

### ج - جراء المحسنين :

- قوله - تعالى :- ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَرَّ وَلَا ذِلْكَ أُولَئِكَ أَصْحَبُ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴾ [يونس، الآية: ٢٦].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَلَلَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْرِيَ الَّذِينَ أَسْفَلُوا بِمَا عَمِلُوا وَلِيَجْرِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم، الآية: ٣١].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٥].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَمَنْ يَعْرِفُ حَسَنَةً تَرِدُ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [الشورى، الآية: ٢٣].

### د - جراء الكاذبين :

- قوله - تعالى :- ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسَوَّدةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الرمر، الآية: ٦٠].

- قوله - تعالى :- ﴿ فَنَّ أَظَلَّهُ مِنَ كَذَبَ بِإِيمَانِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَبَّاجِرِيَ الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ إِيمَانِنَا سُوءَ الْعَدَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِقُونَ ﴾ [الأنعام، الآية: ١٥٧].

- قوله - تعالى :- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَبُوا بِإِيمَانِنَا أُولَئِكَ أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴾ [البقرة، الآية: ٣٩].

### ه - جراء الفاسقين :

- قوله - تعالى :- ﴿ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا سَتَعِجلْ لَهُمْ كُلَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمَرْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلْغُ فَهَلْ يَهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف، الآية: ٣٥].

- قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا زَاغَ اللَّهُ قُوْبِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ﴾

﴿[الصف، الآية: ٥].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ﴾

﴿[التوبه، الآية: ٨٠].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا مُنْذِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْفَرِيْكَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ﴾

﴿[العنكبوت، الآية: ٣٤].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيقُونَ﴾

﴿[الحشر، الآية: ١٩].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَنَّ الْفُجَارَ لَهُ جَحِيرٌ يَصْلَوْهَا يَوْمَ الْدِينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَافِيْنَ ﴿١٦﴾﴾

﴿[الإنفطار، الآيات: ١٤-١٦].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَهُ سِيْعَيْنَ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرِكَ مَا سِيْعَيْنَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْفُوْمٌ ﴿٩﴾ وَلَلِيْلٌ يَوْمَيْدٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿[المطففين، الآيات: ٧-١٠].﴾

### و- جزاء المستهزيئين :

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَمَنْ سَأَلَنَّهُ لِيَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَيَّالَهُ وَأَيَّالِنِيْهِ وَرَسُولِهِ كُنُّتُمْ تَسْتَهْزِيْنَ ﴿١٦﴾ لَا تَعْنِدُرُوا فَقَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾

﴿[التوبه، الآية: ٦٥، ٦٦].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِيْنَ ﴿١١﴾﴾

﴿[الأعام، الآية: ١٠، والأنبياء، الآية: ٤].﴾

- قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِيْنَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿[الحجر، الآية: ٩٥].﴾

- قوله - تعالى :- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ إِيمَانِنَا شَيْئاً أَنْخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

[المائحة، الآية: ٩].



### ح - جراء المتكبرين :

- قوله - تعالى :- ﴿الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّمَاءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِكُمْ فِيهَا فَلِئِنْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل، الآيات: ٢٨، ٢٩].

- قوله - تعالى :- ﴿وَلَا يُصْعِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمِشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْنَالٍ فَهُوَرِ﴾ [لقمان، الآية: ١٨].

- قوله - تعالى :- ﴿فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفَّىٰهُمْ أُجُورُهُمْ وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَمَا الَّذِينَ أَسْتَكَفُوا وَأَسْتَكَبُرُوا فَيُعَذَّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَحِدُّونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾ [المائدة، الآية: ١٧٣].

- قوله - تعالى :- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْنِرُونَ عَنِ عِبَادَتِي سَيَدِ الْحُكُومَ جَهَنَّمَ دَاهِرِينَ﴾ [غافر، الآية: ٦٠].

### ط - جراء الخائنين :

- قوله - تعالى :- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَوَّانًا أَشِمَّا﴾ [النساء، الآية: ١٠٧].

- قوله - تعالى :- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانِ كَهُورِ﴾ [الحج، الآية: ٣٨].

- قوله - تعالى :- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف، الآية: ٥٢].

- قوله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٍ نُّوَجَ وَأَمْرَاتٍ لُّوَطٌ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَدِيقَيْنِ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ أَذْخَلَا أَنَارَ مَعَ الْأَذْخَلِينَ ﴾ [الحرم، الآية: ١٠].

### ي - جزاء المسكين :

- قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سُرُّ لَهُمْ سَيِطُوقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٠].

- قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَقَوْلًا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبُوهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْفَفُوا اللَّهُ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبه، الآيات: ٧٧، ٧٦].

- قوله - تعالى - : ﴿ وَآتَيْنَا مَنْ بَخِلَ وَأَسْتَغْنَى ﴾ [الليل، الآيات: ٨-١٠].



## المطلب السادس :

### من آيات الجزاء في مجال السياسة الشرعية

#### أ - جزاء المفسطين :

- قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقُسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٤٢].

#### ب - جزاء القاسطين :

- قوله - تعالى -: ﴿وَمَا الْقَسْطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن، الآية: ١٥].

#### ج - جزاء الموفون بالعهد :

- قوله - تعالى -: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِنَّمَا فَارَّهُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٤٠].

- قوله - تعالى -: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَأَنْقَنَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: الآية: ٧٦].

- قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح، الآية: ١٠].

#### د - جزاء الناكثين بالعهد :

- قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْنَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبه، الآية: ١٢].

- قوله - تعالى - : «فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّيثَاقُهُمْ وَكُفُرُهُمْ بِمَا يُنذَّرُونَ أَلَا إِنَّمَا يُغَيِّرُ حَقًّا وَّقَوْلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَاعُ اللَّهِ عَلَيْهَا يُكْفُرُهُمْ» [النساء، الآية: ١٥٥].

- قوله - تعالى - : «الَّذِينَ يَنْفَضِّلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَنْقُضُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ وَيُنْسِدُكَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة، الآية: ٢٧].

### هـ - جزاء الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر :

- قوله - تعالى - : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران، الآية: ١١٠].

- قوله - تعالى - : «الَّذِينَ يَسْجُدُونَ أَلَا مَرْءُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالَّذِينَ هُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَشِّرِّقُ الْمُؤْمِنِينَ» [التوبه، الآية: ١١٢].

### وـ - جزاء الذين لا يتناهون عن المنكر :

- قوله - تعالى - : «أَعْنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِتِ إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤَدَ وَعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لِنَسَكِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [المائدة، الآيات: ٧٩، ٧٨].

### زـ - جزاء من يقتل النفس بغير حق :

- قوله - تعالى - : «وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَيِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَلِيلًا فِيهَا وَغَضِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعْدَ اللَّهُ عَذَابًا عَظِيمًا» [النساء، الآية: ٩٣].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُونًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [ النساء ، الآية: ٢٩ ] .



### ح - جزاء حفاظ الأمانة :

- قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَاهَدُوهُمْ رَعْوَنَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَواتِهِمْ يَحْفَظُونَ ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَرِثُونَ ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُوْنَ ﴾ [ المؤمنون ، الآيات: ٨-١١ ] .



### ي - جزاء العتدين على حدود الله :

- قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُخْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [ المائدة ، الآية: ٨٧ ] .



- قوله - تعالى - : ﴿لَكُوْنُوا مِنْ طَبِيبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحْلَ عَلَيْكُمْ غَضَبِيٌّ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيٌّ فَقَدْ هَوَى ﴾ [ طه ، الآية: ٨١ ] .



- قوله - تعالى - : ﴿وَمَن يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلُهُ نَارًا خَتِيلًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِمِّثٌ ﴾ [ النساء ، الآية: ١٤ ] .



- قوله - تعالى - : ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [ البقرة ، الآية: ١٩٠ ] .



### ك - جزاء السارقين :

- قوله - تعالى - : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيهِمَا جَرَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ المائدة ، الآية: ١٣٨ ] .



### ل - جزاء الزناة :

- قوله - تعالى - : ﴿الَّرَبِّيْهُ وَالرَّازِي فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَجِيلٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذُكُم بِهِمَا رَفَقًا فِي دِيْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور، الآية: ٢٠].

### ن - جزاء القاذفين للمحسنات :

- قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوْا بِأَبْعَدَ شَهَدَةَ فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَنِيْنَ جَلْدًا وَلَا نَقْبِلُوْا لَهُمْ شَهَدَةً أَبَدًا وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْفَسِيْقُوْنَ ﴿٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور، الآية: ٤٥].



## المطلب السابع :

### من إطلاقات القرآن على الجزاء

فهذه جملة من الآيات تناولت الجزاء بنوعيه ثواباً وعقاباً، ومعاشاً ومعاداً. ولنエン كان معظمها خلوا من التعبير بلفظة: «الجزاء»؛ فإن ذلك لا يعني أن القرآن لم يورده بل قد استعمل في كثير من الآيات تربو على المائة والعشرين موضعًا، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِيَعْصِيْنَ الْكِتَبِ وَتَكْفُرُونَ بِيَعْصِيْنَ فَمَا جَرَأَهُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَزْنَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة، الآية: ٨٥].

- قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ يَاهِي وَإِنَّكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَّاؤُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٢٩]. وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا جَزَّاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَاتَلُوا أَوْ يُصْكَلُوْا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خَزْنَىٰ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة، الآية: ٣٣]، وقوله - تعالى -: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيْلًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١٢٣].

وما وظفه القرآن من الألفاظ - أيضاً - مریداً به الجزاء لفظة: «العقوبة» ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿شِئْمَ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُؤْسَىٰ بِشَاهِنَتَنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَهُ فَظَلَمُوا إِلَيْهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقَيْهُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٠٣]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَمَكَرْنَا مَكْرَهُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٥] فانظر كيف كان عنقية مكريهم أنا دمرناهم وقومهم ألمعين [٥٥] [النس، الآيات: ٥١، ٥٠].

وقوله - تعالى - : ﴿تَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَقِبَةُ لِلْمُنَقِّبِينَ﴾ [القصص، الآية: ٨٣].

كما ترد لفظة: «العقبي» ويراد بها الجزاء ب نوعيه، وما يرد في ذلك قوله - تعالى - : ﴿مَثُلُ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقْوِنُ بَخِرِي مِنْ تَحْنَاهَا الْأَنْهَرُ أَكُلُّهَا دَائِرٌ وَظَلَلُهَا تَلَكَ عَقِبَ الَّذِينَ آتَقْوَا وَعَقِبَ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد، الآية: ٣٥].

ومن الإطلاقات - أيضا - لفظة: «الدين»، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿مِنْ لِكِ يَوْمِ الْلِّيْلِ﴾ أي الجزاء، قوله - تعالى - : ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظَلَمًا أَوْ نَا لَمَدِيْنُونَ﴾ [الصفات، الآية: ٥٣]، قوله - تعالى - : ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِيْنِيْنَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِيْنَ﴾ [الواقعة، الآيات: ٨٦، ٨٧].

\* \* \*

## المبحث الثاني :

### فقه الكلية

معناها: إن لفظ «من» الذي تكرر عند مطلع كلا الآيتين دال على شمول الجزاء بقسميه للمؤمن والكافر على السواء<sup>(١)</sup>. والمعنى أن «من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه ويجد جزاءه لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر»<sup>(٢)</sup>، فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير ثوابه هناك، ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك<sup>(٣)</sup>، وقيل - أيضًا: «فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماليه وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماليه وفي نفسه وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر»<sup>(٤)</sup>. ويفيد هذه الرواية ما أخرجه ابن جرير في تفسيره عن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان أبو بكر - رضي الله عنه - يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ حَسَنًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾، فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله: إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل الشر، ويدخر لك الله مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيمة<sup>(٥)</sup>.

(١) نظر محسن التأويل: ٢٣٢/١٧.

(٢) نظر محسن التأويل: ٢٣٢/١٧.

(٣) جامع البيان: ٢٦٧/١٥.

(٤) جامع البيان: ٢٦٨/١٥ وانظر فتح القدير ٤٨٠/٥.

(٥) جامع البيان: ٢٦٨/١٥

كما أن فيه إشارة إلى الترغيب لإتيان أعمال الخير والترهيب لل濂ف عن أضدادها، عظم شأن العمل أم صغير، ونظيره قوله - تعالى -: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» [ النساء ، الآية: ٤٠ ]، حيث صرّح بكونه - عز وجل - لا ينقص أحداً من أجر عمله والجزاء عليه شيئاً وإن صغر كالذرة، وإنما يُوفّيه أجره، وفيه من الدلاله على عدله - سبحانه - وقسطه ما لا يخفى.

ومن نظائره - أيضاً - قوله - تعالى -: «وَنَسْطَعُ الْمَوَازِنَ الْقَسْطَ لِيُؤْمِرَ الْقِيمَةَ فَلَا نُظْلِمُ نَفْسًا شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا» [ الأنبياء ، الآية: ٤٧ ]، فعبر بالحدبل هنا بدلاً من الذرة هناك، وأفادت الجملة نفي جنس الظلم عن كل نفس مما دل على ألا بقاء لظلم بدون جراء، كما أن ذيل الآية دل على تأمين الناس من أن يجازى أحدهم بما لا يستحق، وفي ثناياه ما يشعر بالتحذير من العذاب، والترغيب في الثواب، فهو كسابقه فيما نصت عليه الكلية القرآنية، وما يقرب من هذا قوله - تعالى -: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا» [ النساء ، الآية: ٤٩ ]، والفتيل: شبه خيط في شق نواة التمرة، وقد شاع استعارته للقلة؛ إذ هو لا يُنفع به وله مرأى واضح<sup>(١)</sup> ، قوله - تعالى -: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الظَّلِيلَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ تَقْيِيرًا» [ النساء ، الآية: ١٢٤ ]، والنمير: هو النكتة التي تكون في ظهر النواة وهي ثقبة صغيرة، وتسمى نقرة لأنها حصلت بنقر منقار صغير، وهي - أيضاً - مضرب مثل في القلة<sup>(٢)</sup>.



(١) التحرير والتنوير: ٨٤-٨٥/٥

(٢) تفسير المنار: ٤٣٦/٥

## المبحث الثالث :

## قيمتها

## المطلب الأول :

## عموم الجزاء في الشرائع

اقتضت حكمة الحق - سبحانه - أن يُركي رجالاً ويصطففهم على خلقه ويصطنهم لنفسه وينشئهم على ما أراد من إعدادهم؛ لتلقي الرسالة في الإبان لتربيه خلقه رحمة منه - تعالى - بهم وعلماً منه بأنهم لا يصلحهم إلا ذاك، ولا يقي على إصلاحهم إلا هذه الجملة من الأوامر والنواهي الإلهية التي تعصمهم من عذابه، فهي الحاملة على بعث الأنبياء والرسل، وإليها الإشارة في الحديث المروي عن أبي بردة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثل ما بعشني الله به؛ كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم إنني رأيت الجيش بعيني، وإنني أنا الذي أرى العريان»، فلا يكون الجزاء - إذاً - إلا بعد كشف الشبهة وصحة التبليغ «ليهلك من هلك عن بينة ويزحها من حيٍّ عن بينة»<sup>(١)</sup>.

لذلك تم التنصيص في القرآن على انتقاء العبيبة من حيث إيجاد الإنسان، قال - تعالى -: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْرًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» [١٥] ( المؤمنون ، الآية: ١١٥] ، و «وَبِيَانِ كُونِهِ عَبْرًا أَنَّهُ لَوْ خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَحْسَنَ الْمُحْسِنَ وَأَسَاءَ الْمُسَيِّءَ وَلَمْ يَلْقَ

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٥٠/١٣ (كتاب الاعتصام، باب الاقداء بسنن رسول الله ﷺ) وخص العريان لأنَّه أَيْنَ للعين، وأَغْرَبَ وأَشْنَعَ عند المبصر، وذلك لأنَّ ربيبةَ القوم وعيونَهم يكونُ على مَكَانٍ عالٍ، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاَّحَ به لينذر قومه، النهاية في غريب الحديث . ٢٢٥/٣

جزاءه، لكان ذلك إضاعة لحق المحسن، وإغضاء عما حصل من فساد المسيء، فكان ذلك تسليطاً للعبث<sup>(١)</sup>، فحق أن يتبع بما يقرر التنزيه عن هذه العبادة، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿فَنَعْلَمُ اللَّهَ الْمَلِكَ الْحَقَّ﴾ [المؤمنون، الآية: ١١٦]، ومنه - أيضاً - قوله - عز وجل - : «أيحسب الإنسان أن يترك سدى» [القيامة، الآية: ٣٥]، «إِنَّ الَّذِي خَلَقَهُ فِي أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ وَأَبْدَعَ تَرْكِيهِ وَوَهْبَهُ الْقُوَى الْعُقْلَى الَّتِي لَمْ يَعْطُهَا غَيْرُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَاةِ لِيَسْتَعْمِلَهَا فِي مَنَافِعٍ لَا تَنْحَصِرُ وَفِي ضَدِّ ذَلِكَ مِنْ مَفَاسِدِ جَسِيمَةٍ، لَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَهْمِلَهُ مِثْلَ الْحَيَاةِ، فَيَجْعَلُ الصَّالِحِينَ كَالْمُفْسِدِينَ، وَالظَّائِعِينَ لِرَبِّهِمْ كَالْمُجْرِمِينَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْمُتَمَكِّنُ بِحِكْمَتِهِ وَقُدرَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ إِلَيْهِ الْمَصِيرَ، فَلَوْ أَهْمَلَهُ لِفَازَ أَهْلُ الْفَسَادِ فِي عَالَمِ الْكَسَادِ؛ وَلَمْ يَلْاقِ الصَّالِحُونَ مِنْ صَلَاحِهِمْ إِلَّا الْأَنْكَادُ، وَلَا يَنْسَابُ حِكْمَةُ الْحَكِيمِ إِهْمَالُ النَّاسِ يَهْمِمُونَ فِي كُلِّ وَادِيٍّ، وَتَرْكُهُمْ مَضْرِبًا لِقَوْلِ الْمَثَلِ: «إِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي»<sup>(٢)</sup>، وَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَقْرَرُ عِنْدَ بَعْثَةِ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، قَالَ - تعالى - : ﴿وَأَمَّا لَمْ يُبَشِّرْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَقَاتَ أَلَّا نَرِدُ وَزَرَهُ﴾ وَزَرَ أَخْرَى<sup>(٣)</sup> ﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يُجْزَأُونَ بِمَا كَانُوا لَهُمْ يَعْمَلُونَ﴾ [النجم، الآيات: ٤٠ - ٣٦]، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي - قَوْلِهِ - : «وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى»<sup>(٤)</sup> أَرِيدَ بِهِ جَنْسُ الْإِنْسَانِ، فَظَاهِرُ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَيِّ إِنْسَانٍ كَائِنًا مَا كَانَ إِلَّا سَعَيْهِ وَعَمَلَهُ فَلَا يَجْزِي بَعْدَهُ، «وَقَدْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ عَمَلِهِ مَا يَكُونُ سَبِيلًا لِهِ كَالَّذِي يَسِّئُ سَنَةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً، فَلِهِ مُثْلٌ جَزَاءً مِنْ يَعْمَلُ بِهِمَا مِنْ بَعْدِهِ»<sup>(٥)</sup>، وَهِيَ حَقِيقَةُ سُطْرَتْ فِي أَثْنَاءِ الدُّعَوَاتِ السَّالِفَةِ وَنَصَبَتْ عَلَيْهِ عَلَامَةٌ عَلَى الْاسْتِجَابَةِ وَالتَّوْلِيِّ مَعًا، وَيَكْفِي أَنْ نَسْتَعْرُضَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ هُودٍ، فِي ثَنَيَاها مَا يَنْصُ على أَنَّ مَرْجِعَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ - تعالى - وَأَنَّهُ مَا خَلَقَهُمْ إِلَّا لِلْجَزَاءِ قَالَ - تعالى - : «إِلَى

(١) التحرير والتنوير: ١٣٤/١٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٦٦/٢٩.

(٣) الْوَحْيُ الْمُحْمَدِيُّ، ص: ١٣٢، وَسِيرِدُ التَّفْصِيلِ فِي هَذَا عِنْدَ التَّعْرُضِ لِقَاعِدَةِ «لَا تَزَرُ وَزْرًا وَزْرٌ أَخْرَى» .

اللَّهُ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍٰ ۝ [هود، الآية: ٤]، وقال - تعالى - : «**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ يَبْنُوكُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً**» [هود، الآية: ٧]، كما تنص - كذلك - على عرض أحوال الأمم البائدة من قوم نوح وتفصل ما حل بهم، وقوم عاد، وثモود، وإبراهيم، ولوط، ومدين، وموسى، وعيسى تعرضاً بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي من الحذر، وأن ملاك ضلال الضالين، عدم خوفهم عذاب الله وتكذيبهم بما سيحل بهم جزاء وفاقاً.

فهذا نبي الله لوطن - عليه السلام - حين أعياه أن يستجيب قومه وأثروا المنكر على المعروف، والرذيلة على الفضيلة، وركبوا مهيم الفاحشة، أمره ربّه بقوله: «**فَأَسْرِي** بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْيَنِيلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَتَرَأَنَّكُمْ إِنَّهُ مُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبُّحُ أَلَيْسَ الصَّبُّحُ بِقَرِيبٍ؟ فَمَا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ» [مو، الآية: ٨٢، ٨١]، وهكذا يأتي نصر الله وإعلاء كلمته وهي سنة كائنة في الأنبياء والرسل قال - عَزَّ وَجَلَّ - : «**حَقٌّ إِذَا أَسْتَيْسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرُدُّ بِأَسْنَانِ** القَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» [يوسف، الآية: ١١٠]، حيث إن لوطن - عليه السلام - يتلّع به توقع أذى ضيفه مبلغ الجزع ونفاد الحيلة إلى حد استبطائه نزول العذاب، فيجد لما كان يجيئ في صدره من هذا الاستبطاء جواباً، هو قوله - تعالى - على لسان الملائكة: «**أَلَيْسَ الصَّبُّحُ بِقَرِيبٍ؟**»<sup>(١)</sup> ، قال بعض المفسرين: «وقد جاء في التوراة: أن الله أرسل عليهم كبريتاً وناراً من السماء، ولعل الحسف فجرة من الأرض براً كين قدفت عليهم حجارة ومعادن محترقة كالكبريت<sup>(١)</sup>.

وهذا شعيب أخو مدين - عليه السلام - الذي كان يدعو في قومه وكانت دعوته تنصب في إصلاح الاعتقاد، وإصلاح الأعمال وعلى رأسها ما خصهم بالنهي عنه؛ إذ

إن إقدامهم عليه نما واستفحلا حتى غدا فيهم عادة، وهذا المنهي عنه هو نقص المكياط والميزان وهي مظلمة جمعت بين خصلتي السرقة والغدر، كما نهاهم عن الإفساد عامة، حادثاً إياهم على شكر النعم الخافحة بهم - فحق عليهم شكرها - وما لم يجد من وقع الدعوة شيئاً وأعرضوا، حذرهم من عاقبة مكرهم، ولقرب الزمان بينهم وبين قوم لوط ذكرهم بما حل بهؤلاء غير أنهم لم يرعوا، ﴿وَأَخَذْتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَاحِيمَ﴾ [مود، الآية: ٩٤]، ولشدة الصلة التي تربط بين شعيب وموسى - عليهما السلام -، تمضي الصورة ل تستعرض أنحاء من دعوة هذا الأخير المعززة بالأيات الباهرات، المُظْهِرَة لصدق الجائي بها، إلا أن الملا آثر اتباع فرعون حيث أملى عليهم بالتكذيب، فكان ذلك الإمام سفها نائِي بالقوم عن سبيل العقلاء؛ إذ أنهم اتبعوا ما ليس فيه أمارة الرشد ولا سداد الرأي - ومن ثم استحقاقه أن يتبع فأتبعوا بذلك اللعنة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُنَسَّ الْرِّفَدُ الْمَرْفُوذُ﴾ [مود، الآية: ٩٩].

هذه بعض أبناء الذين ظلموا أنفسهم كما تحكيمها هذه السورة، وما كان الله ليظلمهم لأن ما أصابهم من العذاب كان جزاء عن سوء أعمالهم، وجعل الله عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة؛ لأن هذه القرى التي ظلمت توعّدها الله بالعذابين الدُّنْيَويِّ والأُخْرَوِيِّ كما ذكره - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا مُّوْنَذًا وَلِنَكَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور، الآية: ٤٧]، وهو بهذا يقرر حصول الجزاء بلا ريب، ف تكون هذه الصورة ومثيلاتها<sup>(١)</sup> ناصحة على هذا الأصل الجامع، ولا يلتفت إلى أسفار العهد القديم التي غبت هذا المبدأ تماماً إلى أن أصبحى هذا الإغفال مؤثراً على

(١) كما سبق بسطه في مطان الكلية حيث إن الجزاء يتكرر التذكير به في القرآن بأساليب عجيبة فيها من حسن البيان وتقرير البعيد من الأذهان تارة باللحجة والبرهان وتارة بضرب الأمثال مما يبيّن عن الإعجاز، فهي لا تمل على كثرة تردادها ولا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها وإن تقاربها، ويمكن تأمل هذا في سور المفصل، فقد جاء الحديث عن البعث والجزاء فيها ترى لا سيما تلك السور المناسبة المتصلة كالمسلات مع النبأ والنازعات مع عبس والتوكير مع الانفطار والمطففين مع الانشقاق وغيرهن.

النفس اليهودية، التي أخلدت إلى الأرض وهبطت بالفكر العقدي إلى حضيض، «ولئن كانت بعض الأسفار منها يلفت الأنظار إلى وجود الجنة والنار، فإن ذلك اللفت، لم يفلح في تخفيف نهمة اليهود إلى الحياة الدنيا، وتعلقهم بها وحدها، والزعم بأنهم لو كانت هناك آخرة فهم ورثتها، على حد ذلك القائل: ﴿وَمَا أَظْنُنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَمُ لَهُ مُسْكِنٌ﴾<sup>(١)</sup> [فصلت، الآية: ٥٠]، وبراءة موسى من هذا الزعم قضى بها كتاب الله المهيمن، حيث إن أول لقاء له مع ربه كانت التعليمات الأولى هي قوله - تعالى -: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي \* إِنَّ السَّاعَةَ مَائِسَةٌ أَكَادُ أُخْفِيَّا لِتُعْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴾<sup>١٦</sup> ﴿فَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنَّهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَنَهُ فَتَرَدَّىٰ﴾<sup>١٧</sup> [ط، الآيات: ١٤-١٦]، فالمسألة عند الله ليست مسألة محاباة، وإنما هي ذات مبدأ عام، وحكم عام، إن تحقق المبدأ تتحقق الحكم، قال - تعالى -: ﴿لَيْسَ إِلَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَبِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يُحْمَدُ لَهُ مَنْ دُونَ اللَّهِ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾<sup>١٨</sup> [النساء، الآية: ١٢٣]، فالقرآن - إذا - جاء بهذا الإصلاح، فإنه أعاد لدين الأنبياء قاطبة أصله المعقول، في الجزاء وهو ما كرم الله - تعالى - به الإنسان من جعل سعادته وشقائه ممتوطين بإيمانه وعمله اللذين هما من كسبه وسعيه، وأن هذا الجزاء سيكون بعدله - سبحانه - بين جميع خلقه دون محاباة.

من أجل ذلك سحرت طاقات الأنبياء والمرسلين في مجال الترغيب والترهيب والوعيد وأساليب عديدة وأنفاس مديدة، حتى غدت الرسائل كلها ناطقة بهذا الأسلوب التربوي المتميز، ولذلك وجدنا من العلماء الآباء من استقرى مواطنها - أعني الترغيب والترهيب والوعيد - فاستنبط قاعدة ذهبية في هذا المقام، ومن مؤلاء الإمام الشاطبي - رحمة الله - الذي يقول: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف» ثم يضرب

(١) انظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص: ١٥٠

لذلك الأمثال مبينا ما تقتضيه الأحوال من تغلب أحد الطرفين على الآخر حيث يرد التخويف ويتسع مجاله دون انفكاك الترجية عنه، كما ترد الترجية -أيضاً- ويتسع مجالها وذلك عند مواطن القنوط، على أن الغالب هو جانب التخويف؛ وذلك راجع إلى غلبة جانب الإخلال من قبل العباد؛ حيث يرد في مظانه الخاصة لا على الإطلاق، فإنه إذا لم يكن مظنة هذا ولا هذا أتى الأمر معتدلاً<sup>(١)</sup>.

وهذا هو القانون الشائع ولا ينقض بجزئيات إن كان ثمة جزئيات؛ لأنه كما يقول: «فالكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت واعتمدت في الحكم بها»<sup>(٢)</sup>.

هذا هو منهج القرآن في الترغيب والترهيب والقصد منه التربية والتأديب، ومن ثم البلوغ إلى ما عبر عنه الشاطبي -رحمه الله- بقوله: «ومن هنا يتصور للعباد أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما، وقد دل على ذلك الكتاب العزيز على الخصوص فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَّةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَرَجُلَهُمْ أَنْتَمُ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِيعُونَ ﴿٦٠﴾»<sup>(٣)</sup> [المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١]، والاستيقان بيوم الرجوع إلى الله ليس تصوراً حالماً ليوم بعيد، ولكنه -كما أسلفنا- نوع من التربية يقمع طبائع الشر بالرهبة، ويغري حواجز الخير بالرغبة، فإن المؤمن حين يلمح بصيرته ما أعد الله لعباده في الجنة والنار يغريه الطموح الشريف إلى الظفر بنعمة الله ورضوانه، ويزعجه القلق البالغ من عذاب الله وسخطه فيكون سلوكه بين هذين الشعورين كريماً مستقيماً.

(١) المواقفات: ٣٢٢/٣ وما بعدها.

(٢) نفسه.

(٣) انظر المواقفات: ٣٢٩/٣، ٣٣٠.

## المطلب الثاني :

### الجزاء والنية والعمل

إن النية بالنسبة للجزاء تشكل المعيار الحقيقي للقيمة العملية، كما تشكل الشرط النهائي للجزاء؛ سواء كان هذا الجزاء ثواباً أو عقاباً، قال البيضاوي: «النية هي انباع القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مالاً»<sup>(١)</sup> ، وهو ما يفصح عنه رسول الله ﷺ في حديثه الجامع: «إِنَّمَا الْأَعْمَالَ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرَئٍ مَا يُصْبِحُهُ أَوْ امْرَأَ يُنْكِحُهُ فَهَجَرَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَ هَجَرَهُ لِدُنْهَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَ يُنْكِحُهَا فَهَجَرَهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup> ، فالحديث يصور المنبع الأصلي لصدر الأعمال، ويقدرها بحسب ذات النية التي ليست بمعزل عن الرقابة الربانية قال - عَزَّ وَجَلَّ - : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعْلَمَ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسُهُ» [ق، الآية: ١٦]، لذلك نجد الدعوة القرآنية تشير في الشعور الإنساني إلى إخضاع ضميره لهذا القانون الذي يشمر الإخلاص، قال - تعالى - : «وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ حُنْفَّةٌ وَيُقْسِمُوا الْأَصْلَوَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكُوَةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ» [آل عمران، الآية: ٥]، وقال - تعالى - : «إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا» [الأنفال، الآية: ٧٠]، ومن هنا وجدنا المكلف مطالباً بممارسة جهد من أجل تحرير نفسه من جميع المؤثرات إلا من المؤثر الذي يفرضه الشرع ويرضاه ولا استمداد لذلك إلا بالإيمان القوي الذي يصل صاحبه بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ويشمر حبه - تعالى -، وتقديره حق قدره، فيكون هذا الإيمان هو الدافع الحقيقي المتعمق في النفس المبنية للنية الحقة بعيداً عن النية السطحية المصطنعة.

(١) فتح الباري: ١٢/١

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٩/١. (كتاب بدء الوعي، باب كيف كان بدء الوعي إلى رسول الله ﷺ).

وإذا كان القرآن قد بين القصد الأعظم من الخلق، وذلك في قوله - تعالى - : **﴿وَمَا حَفَّتُ لِجِنَّةً وَلِإِنْسَانًا إِلَّا يَعْبُدُونَ﴾** [الذاريات، الآية: ٥٦] ، فإن هذا البيان نجده مشفوغاً بشيء هو الإخلاص في هذه العبادة، قال - عَزَّ وَجَلَّ - : **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ﴾** [الزمر، الآية: ٢٢] ، وقال - تعالى - : **﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ﴾** [الزمر، الآية: ١١] ، وقال - تعالى - : **﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَغْمَلْكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُنَا﴾** [البقرة، الآية: ١٣٩] ، وسبيل تنمية الإخلاص هو التجدد من سلطان الهوى حيث يلح القرآن على هذه المسألة، فيقول - عَزَّ وَجَلَّ - : **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَنْتَ هَوَاهُ يَغْرِي هُدَى مِنْ أَنَّ اللَّهَ﴾** [القصص، الآية: ٥٠] ، فكل الأعمال الملاة من قبل الإرادة الناشئة عن الهوى والشهوة قمين بأن يكون صاحبها أضل؛ لما فيها من اتباع مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته من أجل النجاة<sup>(١)</sup> . وبعد هذا يمضي كتاب الله ليفصل بين نيتين حسنة وسيئة من خلال ما يتربى على كلٍّهما.

أما النية الحسنة فإن هناك مواطن عديدة تدلنا عليها، منها قوله - تعالى - : **﴿وَسَيَجِنُّهَا الْأَنْقَى﴾** [١٧] **﴿الَّذِي يُؤْتَى مَالَهُ يَرْزَقُ﴾** [١٨] **﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُهُ مِنْ تَعْصِيمٍ بَحْرَانِيَّةَ**  
**إِلَّا ابْتِغَاهُ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾** [١٩] **﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾** [٢٠] [الليل، الآيات: ٢١-١٧] ، والآيات تبرز تلك الإرادة الطائعة في الظاهر والباطن المتوجهة نحو صاحب الأمر متصلة به منفصلة عن كل جهة أخرى، وفي قوله - تعالى - : **﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾** [٢١] وعد بالثواب الجزييل الذي يرضي صاحبه وهو تتميم لقوله: **﴿وَسَيَجِنُّهَا الْأَنْقَى﴾** [١٧] ؛ ومثلها قوله - تعالى - : **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاهُ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء، الآية: ١١٣] ، قوله - تعالى - : **﴿وَمَا ءَانِيْتَ مِنْ رَكْوَقٍ تُرِيدُونَكَ وَجْهَ اللَّهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾** [الروم، الآية: ٣٩] ؛ وبذلك يكون القرآن هدفاً إلى اجتناب الأنفس من

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٤٠/٢٠ وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٩٢/٣٠

كل وجهة سوى وجهة سيطرة الفكرة الربانية التي تحكم هذا التوجه، وهو الدور الذي تملئه النية الحسنة، بحيث يتم بها اختيار الحل الأسلم من حيث هو حسن.

أما النية السيئة فحين يكون السعي إلى الحياة سعيًا غير مشروع؛ نتيجة اختيار مضلل منطلق من عدم التمييز بين الخير والشر، تغيب معه النية الحسنة التي تحدّرنا من الخَرَم، وتخضع الرغبة إلى ما هو حلال، وتحل محله النية السيئة التي تضعف الإحساس بالإجلال والتوقير نحو الله - تعالى -: قال الحكم الترمذى: «والعباد محتاجون في انقطاع الوسوسة إلى الخوف لا خوف العقاب، ولكن خوف العظمة، حتى تذهب النفس وتنقطع وسوستها»<sup>(١)</sup>، ومتى تبعثرت الجهود ولم يقتصر المكلف على جهة واحدة خالصة، وقع في المحظور وهو ما نهى الله عنه من الشرك، بحيث رتب عليه وعيًّا شديداً تمثل في جعل العملية كلها افراط على الله قال - تعالى -: «وَمَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَأَ إِثْمًا عَظِيمًا» [ النساء، الآية: ٤٨]، ووسمها بالضلالة؛ فقال: «وَمَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ بَعِيدًا» [ النساء، الآية: ١١٥]، كما أن العملية تسبب في إحباط العمل، قال - تعالى -: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِيطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [ الأنعام، الآية: ٨٨]، بل وتبليغ بصاحبها إلى الجزاء المسلط، قال - تعالى -: «إِنَّمَا مَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَصْكَارٍ» [ المائدة، الآية: ٧٢]؛ ولهذا امتنع في فعل العباد عند ضرورتهم ودعائهم و تمام قصدهم، ألا يتوجهوا إلا إليه توجهاً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا أمئاً؛ لأنَّه الصراط المستقيم القريب، وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه، فمع القصد التام الذي هو الداعي للعبد إلى العبودية المحسنة الخالصة يمتنع أن يتوجه إلى سواه، فالم Gould على - إذا - هو المطابقة بين النية ومقاصد الشرع، فإن جاءت مطابقة فهي النية الحسنة الموجهة التوجيه الحسن، وإن كانت النية مفضية إلى الإثم والغواية، فستتأهل تلك الجزاء الجميل، وستتأهل هذه الجزاء المبتدل.

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٤٩٨

والنية التي قصدنا إليها فيما سبق هي النية المنشئة للعزم، الذي يغدو معتبراً تلقائياً إلى الواقعية والتنفيذ، لا تلك النية الهاشة اللينة التي لا اعتبار لها في ميزان الله؛ كتلك التي تحدث عنها - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِيَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَا كُنْتُمْ قَالُوا كُمَا مُسْتَقْضِيْنَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَنَّمَا تَكُونُ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَنَاهَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَبَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [٩٧] إِلَّا مُسْتَقْضِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدِينَ لَا يَسْتَطِيْعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [٩٨] فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا عَفْوًا﴾ [٩٩] [النساء، الآيات: ٩٧-٩٨]، والآية خطاب لأولئك الذين لم يهاجروا متعللين بأعذار تشرع بالتخلف عن الهجرة، حيث وبخوا على صنيعهم، وكان الأجدى بهم أن يظهروا نياتهم فيخرجوا من الأرض التي استضعفتهم وبذلك يظهروا إيمانهم.

فالمراد - إذا - النية التي استقرت على الاختيار الحسن - في معيار الشرع - وأصبحت قاب قوسين من الإخراج إلى الواقع، على مستوى الفعل والترك؛ «لأن الإسلام منهج حياة واقعية لا تكفي فيه المشاعر والنيات ما لم تتحول إلى حركة واقعية، وللنية الطيبة مكانها، ولكنها بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء، إنما تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل، وهذا هو معنى الحديث: «إنما الأعمال بالنيات» الأعمال... لا مجرد النيات<sup>(١)</sup> ، فما لم يكن هناك عمل في الخارج، ناشئ عن هذه النية لا يكون ثمة جزاء، فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوسـتـ به صدورـهاـ ما لم تـعملـ بهـ أوـ تـكلـمـ<sup>(٢)</sup> ، ولا تنـخرـمـ القاعدة ببعض الصور المستثنـاةـ والتي يمكن إبرازـهاـ في صورـ ثلاثـةـ:

**الصورة الأولى:** وهي التي ترد فيها النية مقرونة بمحاولة التنفيذ، فعن أبي بكرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل

(١) في ظلال القرآن: ١٧٠٩/٣.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٦٠/٥ (كتاب العنق، باب الخطأ والنسيان والعناقة والطلاق ونحوه...).

والمقتول في النار! » فقلت: يا رسول الله! هذا القاتل بما بال المقتوّل؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه<sup>(١)</sup>، فليس من الصعب في هذه الصورة، أن نتصور أن يعامل المنهم بنفس القسوة التي يعامل بها المنتصر، لا لأنّه كان يتحرك بروح عدوانية حاقدة فحسب، بل لأنّه كان مسخراً كلّ قواه من أجل الفتّك بصاحب، ومن ثم إنجاز ما أملته عليه طويته الخبيثة، فقد أراد بذلك كلّه إرادة جازمة وفعل ما قدر عليه، وإن لم يدرك مطلوبه فهو بمنزلة امرأة العزيز، حيث كان همها هم إصرار، وأجهدت نفسها في تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب<sup>(٢)</sup>، فلا فرق - إذا - بين الاثنين إلا في نتيجة جهد كلّ منهما.

**الصورة الثانية:** وفيها يتمثل فعل النية وهو منوع بطارئ، ومن مثل هذا ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»<sup>(٣)</sup>.

**الصورة الثالثة:** حيث وردت فيها النية فرضية فقط وتتمثل فيما رواه الصحابي أبو كبشة الأنباري - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث أقسام عليهم وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: فأما الثلاث التي أقسم عليهم: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده الله - عز وجل - بها عزّ، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله - عز وجل - مالاً فهو يتقي فيه ربّه، ويصلّ به رحمه، ويعلم لله - عز وجل - فيه حقه، فقال: فهذا بأفضل المنازل،

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٨٥/١ (كتاب الإيمان، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما).

(٢) الفتاوى: ٥٧٥/٦

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ١٢٦/٨ (كتاب المغازي، باب عن المغيرة بن شعبة قال: ذهب النبي ﷺ لبعض حاجته فقمت أسكب عليه الماء...).

قال: وعبد رزقه الله - عَزَّ وَجَلَّ - علمًا ولم يرزقه مالًا قال: فهو يقول: لو كان لي مال عملت بعمل فلان، قال: فأجرهما سواء، قال: وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقه، فهذا بأخت المنازل، قال: وعبد لم يرزقه الله لا مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو كان لي مال لعملت بعمل فلان قال في نيته فوزرهما فيه سواء<sup>(١)</sup>.

فالنية في الصور الثلاث لم تخرج عن حديث النفس، والهم بالفعل، ورغم ذلك أفينا الشرع يرتب عليها الثواب أو العقاب، وأيًّا ما كان فإن للنية ما يناسبها من الجزاء وإن كان مظهر الجزاء يبدو واضحاً جلياً عند ملابسة الفعل وذلك من خلال الاستقراء للعديد من النصوص، بل قد يرد الفرق بين النية المتحققة والنية المتحدث بها، ومن ذلك قوله - تعالى -: «فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ يَأْمُولُهُمْ وَأَنْفَسِهِمْ عَلَى الْقَعْدَيْنَ دَرَجَةً وَكُلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسْنَى وَفَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَعْدَيْنَ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء، الآية: ٩٥]، وهذا كله مُصدِّرٌ بقوله - تعالى -: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْرُ أُولَئِكَ الْفَارِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُولُهُمْ وَأَنْفَسِهِمْ» [النساء، الآية: ٩٥]، فنبي الشفاوي في الفضل مع ذكر ما للباذل في سبيل الله لنفسه وما له من مظاهر الجزاء التي أفصحت عنه الدرجة والدرجات والأجر العظيم، ما يتبين عن الدليل؛ إذ من أين تجيء هذه الرفعة إن لم يكن هناك بون بين المجاهدين الباذلين للأنفس والأموال، وبين الضعفاء القاعدين الذين لم يتعدوا أن حدثوا أنفسهم بالغزو؟

ونجد القرآن الكريم يرتقي في بيان قوة الجزاء بالنسبة للنية الفاعلة ومن، ذلك قوله - تعالى -: «ذَلِكَ إِنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمًا وَلَا نَصْبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْهُرُكُمْ مَوْطِئُ الْكُفَّارِ وَلَا يَنَالُوكُمْ مِنْ عَذَابٍ نَيْلًا إِلَّا كُنْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَنَلْحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [التوبه، الآية: ١٢٠]، وبذلك يتبيَّن أن النية يجازى عليها، فهي خير إلا أن الفعل خير أرفع، به تقوم النيات، ثم يحصل

الجزاء من جنس الفعل، فالقيمة التامة التي تبلغها النية لا تبلغها إلا في العمل التام<sup>(١)</sup>.

وبعد تبيان قيمة العمل حيال مسألة الجزاء، فإنها هنا مسألة ينبغي معرفتها، وهي أن العمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء؛ لأن المكلف لا يزال مقصراً محتاجاً إلى عفو الله ومغفرته، وقد ثبت في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل». قوله ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم وكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم»<sup>(٢)</sup>، فما من أحد من العباد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله، قال الله - تعالى -: «وَأَنَّ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِ كَمِنْ دَآبَتْهُ» [فاطر، الآية: ٤٥].

وناظر عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يوماً أحد التابعين في قضية الإيمان، فقال عبد الله: لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة؟ فقال له التبعي: يا صاحب رسول الله! هذه زلة منك، وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث، والميزان وتقييم الصلاة، والصوم، والزكاة؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أنها من أهل الجنة، فمن أجل ذلك نقول إننا مؤمنون، ولا نقول إننا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: صدقت إنها مني زلة<sup>(٣)</sup>، قال ابن تيمية - رحمة الله -: «ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة رب - تعالى - وعفوه فهو ضال»<sup>(٤)</sup>.

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٤٦٧.

(٢) الفتاوى: ٦/٢١٧.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/٩٦.

(٤) الفتاوى: ١/٢١٧ و يمكن أن يكون كلام رسول الله ﷺ ، وأثر عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - من قبيل المكلفين للعمل دون الاتكال على العمل والاغترار به.

المطلب الثالث :

الجزء من أركان الإيمان

إن أول ما تَصَدَّرَ كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - سورة الفاتحة، وهي سورة أحضرت مقاصد القرآن جملة ومن بين هذه المقاصد: البعث والجزاء على الأعمال المعتبر عنهمما في قوله - تعالى -: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فهـي الصفة التي دلت على كونه - سبحانه - صاحب الحكم يوم الجزاء المخبر عنه في آيات أخرى؛ كقوله - تعالى -: ﴿إِلَيْهِ يُحْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر، الآية: ٣٧]، وقوله - تعالى -: ﴿لِيَجزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم، الآية: ٥٣]؛ لأنـ الجزاء على الفعل سبـبـ في الامثال والاجتناب، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيمة؛ ولذلك اختير وصف الملك مضافاً إلى يوم الدين لما يشعره من تدبير وإصلاح وإقامة الجزاء على أوفـقـ كـيفـياتـهـ بالأفعال المجزـيـ عنـهاـ.

وغير بعيد عن هذه السورة الأساس نجد سورة البقرة، وقد استهلت بقضية هي ألم القضايا، إنها قضية الإيمان حيث يسجل الكتاب أن هذه التعاليم التي ستلى على الخطاب لن تكون نبراساً ودليلًا يوصل إلى البعنة إلا لمن له الأهلية، هذه الأهلية التي تمثلت في طلب الوقاية والصيانة والحفظ من المكروه. وهي غير مدركة شرعاً إلا بالامتناع للأوامر واجتناب النواهي، فكل من تجرد عن المكابرة، وزره نفسه عن حضيض التقليد، وخشي العاقبة، وصان نفسه من خطر غضب الله، وتلقى الأوامر بعزم، وابتعد عن النواهي بحزم، فذلك هو المؤهل للخطاب - ولن يتم ذلك إلا بشيء اسمه الإيمان بالغيب الذي لا دخل للحس فيه قال - تعالى -: ﴿الَّذِي ذَلِكَ الْكِتَبُ لَا رِبُّ لَهُ هُدَى لِمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية: ٢١]، أي الذين سلموا لما أخبر به الرسول ما لا مجال للإدراك بالحواس مما غاب من العوالم العلوية والأخروية؟

كالإخبار عن الذات الإلهية والصفات، والملائكة، والبعث، والروح، ونحو ذلك مما هو في عالم الغيب، وهذا هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تُخْبِر به الرسل؛ لأن إيمان المرء به حافر لسماع دعوة الرسول والنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى -، لذلك أفيانا موضوع الجزاء آخذًا بحِيزٍ كبير من القرآن، فالإيمان به ركن من أركان الإيمان في جميع الأديان، وهو من لوازم الركن الأول؛ الذي هو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال المترتبة عن العبث في أفعاله وأحكامه، وكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه، كما يستلزم جهله بما وهبه الله من المشاعر والقوى العقلية... ومن لوازمه- أيضًا- احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبئًا لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنحصر بالهموم والمصائب والظلم والبغى والآثام، وأنه يترك سدى دون أن ينال جزاءه<sup>(١)</sup>.

قال سيد - رحمه الله - عند قوله - تعالى -: «إِنَّ أَحَسَنَتُمْ أَحَسَنَتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأَتُمْ فَلَهَا» [الإسراء، الآية: ٧]، «إنها القاعدة التي لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجـه، وتجعل الحرجـة ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتـج وبـه تتكـيف، وتجعل الإنسان مسؤـلاً عن نفسه؛ إن شـاء أحسـن إلـيـها، وإن شـاء أـسـاء إلـيـها، لا يـلـومـنـ إلا نـفـسـهـ حين يـحقـ عـلـيـهـ الـجـزـاءـ»<sup>(٢)</sup>، فـها أـنـتـ تـرىـ كـيفـ جـعـلـ اللهـ فيـ الأـوـامـرـ إـذـاـ اـمـتـلـتـ وـفـيـ التـوـاهـيـ إـذـاـ اـجـتـبـتـ أـجـورـاـ مـنـتـظـرـةـ وـلـوـ شـاءـ لـمـ يـفـعـلـ، وـجـعـلـ فيـ الأـوـامـرـ إـذـاـ تـرـكـتـ وـفـيـ التـوـاهـيـ إـذـاـ اـرـتـكـبـتـ جـزـاءـ عـلـىـ خـلـافـ الـأـوـلـ؛ ليـكونـ جـمـيعـ ذـلـكـ مـنـهـضـاـ لـعـازـمـ الـمـكـلـفـينـ فـيـ الـامـتـالـ، وـلـاـ يـصـدـنـكـ عـنـ هـذـهـ السـنـةـ الـكـوـنـيـةـ الـعـامـةـ الـقـاطـعـةـ الـتـيـ تـسـرـيـ عـلـىـ جـمـيعـ الـخـلـقـ وـلـاـ تـتـخـلـفـ عـنـ فـردـ أوـ أـمـةـ أوـ جـمـاعـةـ - فاللهـ - تعالىـ - هوـ ربـ الـعـالـمـينـ وـالـكـلـ أـمـامـ هـذـهـ السـنـةـ سـوـاءـ .

(١) انظر تفسير المغار: ٢١٢، ٢١١/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٤٢٢١.

ولا يصدقك عن هذه الحقيقة مقوله طائفة من يؤولون النصوص ويلوون ألسنتهم بالكتاب متلاعبين؛ ليفصلوا بين الجزاء وعلاقته بالعمل، محتالين بذلك على تحقيير مظاهر الخير في العمل الطيب، ومظاهر الشر في العمل الفاسد.

ومن الحيل التي يتذرعون بها، إيهام العامة أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا، لا بعمل الإنسان، ومن ثم يجوز لمرتكب الكبائر أن يدخل الجنة كما يجوز للقانت العابد أن يلج النار، والله - تعالى - لا يسأل عما يفعل، وهو كلام سفسطائي مخالف للحقائق المقررة في دين الله والقصد منه - كما أسلفنا - إسقاط قيم الأعمال فتتمحى الرهبة من قلوب العباد وتخبو الرغبة في أحشائهم، وذلك قصد هم ومرادهم حتى يُهمّش الدين ويهان ويلوث المجتمع بكل ألوان الفاحشة والرذيلة والله - عَزَّ وَجَلَّ - يكذب ذلك كله بأسلوب صريح فيقول - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُنَّ  
كَالَّذِينَ ءاَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ تَحْكَمُهُمْ وَمَعَافِيْهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الحاقة، الآية: ٢١]، فقد أنكر الحق - سبحانه - أن يستوي الكفار مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات، فكما خالف الله بين حالاتهم في الحياة الدنيا، فجعل فريقاً كفراً مسيئين وفريقاً مؤمنين، فكذلك سيخالف بين حالاتهم في الممات، فيما يموت المشركون على اليأس من رحمة الله؛ إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الموت هول ما توعدهم الله به، ويموت المؤمنون رحمة الله والبشرى بما وعدوا به ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه<sup>(١)</sup>.

هذا هو الحق الصراح الذي كان يُنكي السلف الصالح كلما هم أحدهم أن يتلو هذه الآية حتى غدا يطلق عليها مبكاة العابدين<sup>(١)</sup>، ونظيرها قوله - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُوْنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت، الآية: ٤]، فكان هذا إبطالاً لكلامهم ومزاعهم ورداً على تطاولهم على الله - تعالى -.

## المطلب الرابع :

### الجزاء من ثمرات الإيمان

حين تستيقن الأنفس الجزاء وتراه من خلال أنبائه العظيمة؛ كأنه عين اليقين، فإن ذلك يشعر بداخلها ولا شك داعي الخير ويقمع باغي الشر فتلوح على قلب العبد ولسانه وجوارحه وحياته كلها ثمرات طيبة ومن بين هذه الثمرات :

#### ١- العبدية الخالصة :

وحققتها الطاعة والمتابعة للرسول ﷺ ، فالموقن بيوم اللقاء تلقاء حريصاً على أن يقدم عملاً غير مشوب بما يحبطه، وكلما عظم اليقين زاد هذا الحرص حتى لا تضيع منه الأعمال الصالحة الخالصة المخلصة، يوم يكون في أشد الحاجة إليها؛ لذلك، فهو يجتهد أثناء حياته في تسبيحها؛ لغلا يهجم عليها ما يذكرها من شرك أو رباء أو عجب أو مثٰ أو طلب جاه وشرف، لعل الله - تعالى - ينفعه بها، كما أن هذه الأعمال لا تخلو من متابعة لرسول الله ﷺ ، بعيدة عن الابتداع؛ لأن الله - تعالى - لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً، قال - تعالى -: «**فَلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّنْذَكِرٌ** يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَيْهِمْ كُمْ إِلَهٌ وَّلَا يَجِدُونَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلَ عَمَّا صَنَلَهَا وَلَا يُشْرِكَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف، الآية: ١١٠].

#### ٢- إعطاء كل ذي حق حقه :

وذلك منوط ولا شك بتذكر العبد لهذا اليوم العصيب الذي لا يضيع فيه عند الله

شيء كما قال - عَزَّ وَجْلَهُ - : ﴿وَقَضَى الْمَوْزِنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا ظُلْمُ نَفْسٍ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرَدِلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ [الأنباء، الآية: ٤٧] ، فإذا هو أيقن بتحققه، هرع إلى الاجتهاد لإ يصل الحقوق لذويها والعمل على أن لا تختلف عنده مظلمة في دم أو مال أو عرض خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم، وبالذات في يوم الفزع الأكبر، يوم هم بارزون فيقضى بينهم بالحق. على أن التناضي عمله يومئذ الحسنات والسيئات لا الدراهم والدنانير.

### ٣- بسط العدل في أرجاء المجتمع :

لأن مجتمعًا يسود بين أهله اليقين بالآخرة والجزاء والحساب، لا شك أنه مجتمع تجمع بينه الألفة والمحبة، ومن ثم يعمه السلام، ولأن تعظيم الله - عَزَّ وَجْلَهُ - سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله بديلاً، ولا تقبل الرضوخ والاستسلام إلا لحكمه، وهو ما سيجعل من الأمن والأمان يستتبان؛ لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرع الله ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام. وهذا لا يعني قطع دابر الظلم بالكلية لأنه لم يسلم أي عصر من هذا البلاء لكن هذه المخالفات تبقى حالات فردية يؤدب أفرادها بحكم الله وحدوده، أما إذا قلل الواقع الديني يكون التحاكم إلى الأهواء وهو البلاء العظيم والفساد العريض، حيث تُداس القيم والحرمات ويأكل القوي الضعيف فلا يأمن الناس على أديانهم ولا أموالهم ولا أغراضهم وكفى بذلك تهارجاً وتمارجاً وفوت حياة.

## ٤- سلامة التفكير وانضباط الموازين :

حين يتسبّع العبد بهذه العقيدة يعلو على سواه ويُفوقه، وهل يستوي ذاك الذي يؤمن بيوم الجزاء ويُوقن به ولا يكاد يغفل عنه، والذي يؤمن بذلك الإيمان الذي لا يتجاوز ترقّته وهو في مَتَّعِ الحياة غافل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، الآية: ٩٠]، إنّهما لا يلتقيان في التصور ولا في التفكير ولا في الميزان الضابط للأشياء والأحداث، فالهوة متّباعدة، فبقدر ما تسمى أخلاق الأول وبصفو تصوّره وميزانه بقدر ما ينحدر الآخر إلى أسفل فترذل أخلاقه لرذالة تصوّره وفساد ضوابطه.

## ٥- الفوز برضاء الله والجنة :

وهي غاية الغايات؛ إذ الفوز بالجنة يعني الدخول في جوار الله ورحمته وهو مسك الختام في هذا الشأن، قال - تعالى -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوفَّى كُلُّ أُجُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ رُحِظَّ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ إِلَّا مَتَّعُ الْمُرُورِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٥].



## المطلب الخامس :

### الجزاء يعمُّ المكْلَفِينَ ذكوراً وإناثاً

لم يبق السياق القرآني في مجال السعي والجزاء مجملأ، من حيث مخاطبته للمكْلَفِينَ، وإنما فُصِّلَ في مواضع، ومن نوع هذا التفصيل بيان كون الذكر والأئمَّة فيه سواء، من ذلك قوله - تعالى - : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ مَنْ كُنْتُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٥]، وبعد حكايته - سبحانه - عن هؤلاء أنهم عرفوه بالدليل وذلك من خلال قوله : ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتَلْفُ أَلْيَلِ وَأَنْهَارٍ لَّا يَنْتَزِعُ الْأَلْبَابُ﴾ [آل عمران، الآية: ١٩٠]، ثم حكايته عنهم المواظبة على الذكر وعلى التفكير والثناء عليه - سبحانه - والشهادة بانتفاء العببية من خلق هذا الكون واشتغالهم بالدعاء، يتبع كل ذلك بأن بشرَّهم أن هذه الأعمال الإيجابية قد آتت ثمارها المرجوة؛ وهي القبول والاستجابة لكل عامل وعاملة، فلا تفاوت ولا محاباة، فهما سيان إذا كانوا جمِيعاً في التمسك بالطاعة على السوية وفيه ما فيه من درء توهُّم النساء؛ أنه لا حظ لهن في تحقيق هذا الوعد، فهن كالرجال ولا اعتبار لاختلاف الجنس في هذا المقام، كلهم سواء ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup>، وكما أن في ذكر هذه المساواة أيضاً بين الذكر والأئمَّة عند الله في الجزاء ما يدرأ عن الرجل من الاغترار بقوته وقوامته على المرأة، فيظن أنَّه أقرب إلى الله منها، ولا تسيء المرأة بنفسها فتوهم أن قوامة الرجل تقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله، وقد بين - تعالى - علة هذه المساواة بقوله ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ فلا فرق بين الرجل والمرأة في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا في الأعمال<sup>(٢)</sup>؛ ومثل هذا يقال في قوله - تعالى - :

(١) انظر التفسير الكبير: ١٥٦/٩ وما بعدها.

(٢) تفسير المنار: ٣٠٥-٣٠٦

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْفَضْلَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ [النساء، الآية: ١٢٤]، ونظير هذه الآية قوله - تعالى -:  
 ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا أَكْنَسَبْنَا﴾ [النساء، الآية: ٣٢]،  
 فجميع الحظوظ المستحقة سواء كان مما أنجر من الثواب على العمل أو كان من منافع  
 الدنيا فبحسب ما يستحقه كل شخص من سعيه الذي سعاه ذكرًا كان أو أنثى<sup>(١)</sup>.

ومن نظائرها - أيضًا - ما ورد في شأن المنافقين حيث يقول - تعالى -: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَفَّقَةُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْمَانَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقَيْنَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١٧] وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقَيْنَ وَالْمُنَفَّقَةَ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسِيبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ ثُقِيمٌ﴾ [التوبه، الآيات: ٦٧، ٦٨]، فآية آل عمران تحدثت عن الوعد بالنسبة للجنسين،  
 وهذه تتحدث عن وعدهما، ففي ذكر المنافقات في الآية ما يظهر أن ذكر انهم وإناثهم  
 من حيث المجازة سواء، فجميع المتصفين بالمنافق يستوون في الأحكام، قال ابن  
 عاشور - رحمه الله -: «كي لا يخطر بالبال أن العفو يصادف نساءهم والمؤاخذة  
 خاصة بذكر انهم»<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر التحرير والتنوير: ٥/٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/٤٥٢.

## المطلب السادس :

### الجزاء من عدل الله

لا ريب أن من ضمن المقاصد القرآنية إقامة العدل بين الناس، وتلك دعوة القرآن فيما من آية، قال - تعالى - : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِلَيْهِ أَنْسَنَنِي» [الحل، الآية: ٩٠]، وقال لنبيه ﷺ «وَقُلْ إِيمَانُكَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرُكُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ» [الشورى، الآية: ١٥]، وأواماً إلى مقصد العدالة فقال «أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [المائدة، الآية: ٨].

وما هذا العدل الذي يريد - تعالى - في هذه الحياة الدنيا إلا نموذجاً لعدله المطلق في اليوم الآخر، فإذا كان حكام الدنيا مطالبين بإعطاء الحقوق لأهلها، وتوعده الخالفين عن أمره والقاسطين على خلقه، وذلك في مثل قوله - عز وجل - : «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» [المائدة، الآية: ٤٤]، وقال - تعالى - : «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [المائدة، الآية: ٤٥]، وقال - تعالى - : «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيْقُونَ» [المائدة، الآية: ٤٧]، حيث وسمهم بما يستلزم العذاب، وما ذلك إلا دليل على وجوب التقيد بقانون الجزاء على منوال قانون الله وستته.

ومن يطالع آيات الجزاء يقف على بعض أسبابه والتي من بينها :

\* ما يقدمه المرء من خير أو شر بحيث يكون أوجب لحصول الثواب أو العقاب.

\* عدله - سبحانه وتعالى - الذي يوجب كون هذه العقوبة أو المثوبة في مقداريهما المشاهدين، لا يظن أن في ذلك إفراطاً أو تفريطًا لذلك يقول - تعالى - : «هُذَا لَكَ بِمَا

فَدَمْتَ أَيْدِيكُمْ»، ثم قال مباشرة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨٢]، فهذا العذاب الذي يصيب البعض لا يصيّبهم إلا بما كسبوا، وهو من عدله - سبحانه - فلا جور ولا ظلم، ولا تماثل بين البر والفاجر، ولا المؤمن والكافر، ولا الحسن والسيء، ولو جاز في حقه الظلم - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - لجاز أن يفلت الذين أجرموا بکفرهم واستهزأوهم بآيات الله وقتلهم النبّين بغير حق، فيلحقوا بالمتقين والأبرار الذين آمنوا برسله وعزروهم ووقروهم واتبعوا النور الذي جاءوا به و- إذا - لكان الدين عبثاً، قال - تعالى -: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَسِلُوا أَصْلَاحَتِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾ [ص، الآية: ٢٨]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُتَّلِئِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم، الآيات: ٣٥-٣٦]، والاستفهام في الآية يفيد الإنكار الدال على أن التسوية بين الفريقين من قبيل وضع الشيء في غير موضعه مناف للحكمة ناهيك به ظلماً كبيراً، فكانت المسوقة أو العقوبة عدلاً منه - تعالى - وقطعاً مستقيماً.

ولا يزال كتاب الله يقرر هذه المسألة في مبدأ الجزاء ومن ذلك قوله - عز وجل -: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل، الآية: ١١١]، وذلك حين يحاول المكلف الدفاع عن نفسه بالقول للتخلص من تبعه أعماله، فيكون عدل الله هو الحاسم؛ حيث تعطى كل نفس في التو والحين عطاء كاملاً غير منقوص؛ جزاء ما عملت من ثواب أو عقاب «وتوفيق الجزاء على العمل تستلزم كون تلك التوفيقية عدلاً، فصرح الله بهذا اللازم بطريقة نفي الضد وهو نفي الظلم عنهم، وللتبيّه على أن العدل من صفات الله - تعالى -»<sup>(١)</sup>، ونظير هذا في القرآن كثير، بل نجد من الآي من يذهب بعيداً في هذا المجال ليعبر عن ذلك بأحرق الأشياء، وذلك في مثل قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾

﴿فَمَنْ أُولَئِكَ كَتَبَهُ اللَّهُ يَعْلَمُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كَتَبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتَيَّلَ﴾ [الإسراء، الآية: ٧١] بعدأخذ الكتاب باليمين - وهي علامة على عنابة المأخوذ - وبعد الاطلاع على فحوى الكتاب، يجدون فيه ما يثليج الصدر وتقر به العين ممحضى ضمن الثواب، لا ينقصون منه شيئاً ولو كان حقيراً تافهاً.



## المطلب السابع :

### الجزاء والتوبة

إن مكان التوبة عند مفترق طرقي الجزاء من حيث الرضا أو الألم ومن حيث النعيم أو الجحيم.

ومن ثم ألفينا خطاب الله الرحيم ينبع المكلف آخر فرصة من أجل تصحيح المسار نحو الفضيلة والنكوب عن الرذيلة.

فالتوبة- إذا- دعوة إلى تعويض التقصير في الواجب- بل، الإخلال به- والقرآن الكريم في دعوته ينص على المسارعة والتعجيل، قال- تعالى:- «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَئِمَّةَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [النور، الآية: ٣١]، وقال- تعالى:- «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصْوَحاً» [الحرم، الآية: ٨]، وفي هذه الدعوة المفيدة للفور ما يدل على أنه «متى صادفت إرجاء إلا وعرضها لخطر، وأول هذه الأخطار يتمثل في استمرار الإرادة على موقفها الخاطئ ينشئ في كل لحظة خطأ جديداً»<sup>(١)</sup>.

والله- عَزَّ وَجَلَّ- يسم المتدين بسمة عدم الإصرار على الذنب؛ وذلك في مثل قوله- تعالى:- «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [آل عمران، الآية: ١٣٥]<sup>(٢)</sup>، حيث انتفت عنهم صفة المقام على الذنب، قال ابن عاشور- رحمه الله:- «وَحَذَفَ مفعول يعلمون لظهوره من المقام؛ أي يعلمون سوء فعلهم وعظم غضب رب عليهم، ووجوب التوبة إليه وأنه تفضل بقبول التوبة فمحى بها الذنب الواقعة»<sup>(٣)</sup>، ولا ينسق هذا إلا من أُتي شعوراً وإحساساً بعظم الذنب، ثم بما ينتظره من الجزاء.

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص: ٢٥٠

(٢) التحرير والتنوير ٩٣/٤

لذلك فكل رغبة من المكلف في أن يأخذ من متع الحياة ما لذّ و طاب غير عابئ بساعة اللقاء، يرجى عملية التوبة إلى حين النزع الأخير، ليست سوى وهم باطل وظل زائل؛ لأن القرآن حسم الموقف، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ الْتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَسْتِكْنَاتٍ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي تَبَّتْ أَفْنَى﴾ [النساء، الآية: ١٨]. وبين التوبة القريبة العاجلة والإصرار على الذنب والتمادي فيه يجثم الحال البليد؛ الذي يتمثل في أسف المكلف على الحاضر، ثم يسوف في إصلاحه إلى حين، والقرآن الكريم نص على أن مغفرة الذنب ليست إلا من يتوب على الفور قال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَا الْتَّوْبَةَ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَسْوَأَهُمْ بِمَا هَلَّتْ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء، الآية: ١٧].

يجعل من قيود هذه التوبة أن يكون الإقلاع عن الذنب من زمن قريب من وقت عملسوء؛ لذلك فمن الحكمة أن يكون المرء على أبهة الاستعداد ل يوم الجزاء، قال الغزالي - رحمه الله -: «فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة، كان هذا من علامات الخذلان»<sup>(١)</sup> ، ومن هنا أمكن القول: إن التوبة من قبيل الإصلاح الجزايري أو الإجراء الوقائي الذي يكون منيعاً بين المكلف وعاقبة السوء، بحيث يتدارك الموقف قبل حلول العذاب؛ ويتمثل هذا الإجراء في انطلاق المكلف ليس من اتخاذ خط سوي لسلوكه فحسب، ولكن من تجديد البناء الممسوس بالصدع، ولربما بالهدم، وتعبير القرآن في هذا المجال صريح، حيث نجده يلحق دائماً بالتبوية أفالطاً مشيرة بذلك كعبارات الإصلاح والإحسان والإيمان والتبيين قال - تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيْنُوا فَأُولَئِكَ أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا أَتَوَابُ الْجِنَّمُ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٥٩] ، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا أَنْقَوْنَا مِمْنَ أَنْقَوْنَا وَمَأْمَنْنَا مِمْنَ مَأْمَنْنَا وَأَخْسَنْنَا﴾ [المائدة، الآية: ٩٣] ، فلكي تنشأ التوبة لا بد من الإصلاح والتبيين، كما أن التقوى الواردة

(١) إحياء علوم الدين: ٤٥/٤.

في الآية الثانية لا يمكن اعتبارها والتنويه بها إلا إذا قرنت بالمداؤمة على الإيمان ثم الارقاء به إلى مقام الإحسان، ولا شك أن هذه العبارات مطلوبة مضامينها على الوجه الأكمل، وذلك من أجل كسب الغفران الموعود وتغيير مسار الجزاء نحو الأمل المعقود والفضل المنشود.





## المبحث الرابع :

### أنواع الجزاء

يتوزع الجزاء ليشمل الدنيوي والآخروي للفرقين معاً؛ لذا يتعين إبراز مظاهر كل منهما في حياتهين المعاشية والمعادية.

ولقد رتب بعض العلماء الناس حيال الجزاء أربع مراتب :

**الأولى** : صالح الدارين وفائز الكوئين وعليه يدل قوله - تعالى - في إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَمَا تَنْهَىٰ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَئِنْفِي الْآخِرَةِ لَمَنْ أَصْنَلَهُ﴾ [التحل، الآية: ١٢٢]، وهذا أفضل المراتب وأكملها وإليه ندب سبحانه - بعميم كرمه و تمام رحمته - أمة محمد ﷺ ، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا مَا نَنْهَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٠١].

**الثانية** : خاسر الدارين ومردود النشأتين وهو الذي ذكره - سبحانه - في هذه الآية.

**الثالثة** : من سعد في الآخرة وخسر في الدنيا أي بإعدام أسبابها وآلاتها الفنية وإيثار المحن والمشاق في سبيل الله على اللذات الحسية المتلاشية عن قريب، وهذه المرتبة ليست بدون من المرتبة الأولى ، وإليها الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالصَّةِ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ [ص، الآية: ٤٦].

**الرابعة** : فائز الدنيا وخاسر العاقبة - ونعود بالله من هؤلاء - وهم الأكثرون الخارجون عن الحصر والعدد، وإليها الإشارة في قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ أَنْكَاسَ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا مَا نَنْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾<sup>(١)</sup> [البقرة، الآية: ٢٠٠].

(١) انظر الدين الحالص: ٣٥-٣٦.

## المطلب الأول :

### الجزاء الدنيوي وبعض مظاهره

#### ١- الجزاء الدنيوي قصير المدى :

وهو مظهر لصيق بتلكم السنة الكونية المتجسدة في فناء الإنسان ونهايته، قال - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفِسٍ ذَايَةٌ الْمَوْتُ وَإِنَّا نُوقِنُ بِأَجُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٥] ، ومن ثم ألفينا القرآن يطلق على هذه الحياة إطلاقات دالة على زوالها، وقصر زمانها ومن مثل ذلك قوله - تعالى - : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [الإسراء، الآية: ١٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ [القيامة، الآية: ٢٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ [الإنسان، الآية: ٢٧] فالمراد بالعاجلة: «الحياة العاجلة أو الدار العاجلة وهي مدة الحياة الدنيا»<sup>(١)</sup> .

وما ضربه الله مثلاً للحياة الدنيا بأطوارها من شباب وكهولة وهرم ومن جدة وبدل وبلى وإقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك، مما ضربه مثلاً قوله - تعالى - : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّا لَحِيَةُ الدُّنْيَا لَعُبُّ وَهُنُّ وَزِينَةٌ وَتَفَاقِرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ كَمَثِيلٍ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِمٍ ثُمَّ بَهِيجٌ فَتَرَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَنًا ﴾ [الحديد، الآية: ٢٠] .

فأطوار الزرع غيث كلها أعراض زائلة وآخرها فناء، وهو مثل لهذه الدنيا كاشف عن الحالة المخفرة لها، وكونها زائلة يجب التزهد فيها، لما في التعلق بها من إعاقة عن الفلاح، لذلك وجوب اتخاذها وسيلة للحياة الأبدية في النعيم الأبدي الحق.

وإذ قد علم يقيناً أن حقيقة هذه الحياة الدنيا الزوال والاندثار، عَلِمْ - أَيْضًا - أَنَّمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءَتِ وَمَا يُدْرِكُهُ الْمَرءُ مِنْ أَعْطِيَاتِ هِيَ لَا مَحَالَةُ زَائِلَةٍ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَكُلُّ إِخْبَارٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْجَزَاءِ فِيهَا سَوَاءُ الْحَسْنَةُ أَوِ السَّيْئَةُ إِنَّمَا هُوَ: «عِينَاتٍ وَمُقدَّماتٍ لِلْعِدْلَةِ الْكُلِّيَّةِ، فَالْجَزَاءَاتُ الْإِلَاهِيَّةُ التِّي تَبَرُّزُ لَنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ لِيُسْتَ شَامِلَةً وَلَا كَامِلَةً، وَهِيَ لِيُسْتَ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنِ الْجَزَاءَاتِ الْطَّبِيعِيَّةِ وَالْجَزَاءَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَأَمَّا أَنَّهَا لِيُسْتَ شَامِلَةً فَلَأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشُّورى، الآية: ٣٠]، وَأَمَّا أَنَّهَا لِيُسْتَ كَامِلَةً فَلَأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَنُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران، الآية: ١٨٥]، وَيَقُولُ - تَعَالَى -: ﴿وَوُقِيتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٥]؛ إِذَ التَّوْفِيقَةُ مَعْنَاهَا «بَذْلُ الشَّيْءِ وَافْيَا وَالْبُلوغُ بِهِ إِلَى التَّكَامِ»<sup>(١)</sup>.

كما أَنَّ هَذِهِ الْجَزَاءَاتِ لِيُسْتَ مَطْبُوعَةً بِطَابِعِ الْأَبْدِيَّةِ، وَهُوَ وَاقِعٌ تَكْشِفُهُ حَيَاةُ النَّعِيمِ الْمُخْلُوِعِ عَلَى أَشَدِ النُّفُوسِ تَعْنِتُّا وَأَحْلَكَ الْقُلُوبَ ظُلْمَةً، وَلَعِلُّ هَذِهِ الْجَزَاءُ الْمُتَجَلِّي فِي النَّعِيمِ إِنَّمَا هُوَ مَقَابِلُ لِأَعْمَالِ الْحَيْرِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا هَذِهِ النُّفُوسُ، فَقُوْبَلَتْ بِذَلِكَ الْجَزَاءُ الْفُورِيُّ مِنْ طَبِيعَاتِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، حِيثُ تَبْقَى جَرَائِهَا دُونَ مَقَاصِدَةٍ تَنْتَظِرُ الْفَصْلَ يَوْمَ الدِّينِ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَيَّنَاهَا ثُوْقَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُنَّ فِيهَا لَا يُبَخِّرُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارُ وَحَكِيلَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup> [هُودٌ، الآيات: ١٦، ١٥]، فَمَهْدِ سَبْحَانَهُ بِأَنَّ نَبَهَ عَلَى بُوارِقِ الْغُرُورِ وَمَزَالِقِ الْذَّهُولِ لَعْلًا تَغْتَرُ النَّفْسُ بِالْمَتَاعِ الْعَاجِلِ، ثُمَّ حَذَرَهَا بِأَنَّ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٥٢٨، (كتاب الواو) وانظر دستور الأخلاق في القرآن،

ص: ٣٦١.

(٢) التحرير والتفسير: ٢٢/١٢.

فإذا نظرنا إلى خصائص الجزاء الدنيوي المذكورة والمتجلية في كونه غير كامل ولا شامل ولا دائم، أدركنا أن هناك جزاء آخر ويشمل معاً له مواصفات هي أضداد ما ذكر، ضرورة كونه يمثل الشمرة النهاية للعامل والخامل على السواء، حيث يتسم بالشمول والكمال والديمومة، أما الشمول والكمال فقد عبر القرآن عنهما في مثل قوله- تعالى:- **﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾** [٤١-٣٩]، وأما الديمومة ففي مثل قوله- تعالى:- **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَلِيلِنَّ فِيهَا جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [١٤] [الأحقاف، الآية: ١٣]، قوله- تعالى:- **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيلِنَّ فِيهَا أَبَدًا﴾** [الجن، الآية: ٢٣].

## ٢- الجزاء الدنيوي في حياة طلاب الآخرة :

وهي طائفة أهل الفضائل والتقوى، فلا ريب أن الله سبحانه من الثواب في هذه الحياة ما تقر به العين وتهنأ به الروح.

ولئن كان القرآن يحرص على إبراز الجزاء المعادي في صورة أفضل، فإنه لم يغفل الوعد ببعض الخير العاجل في هذه الحياة.

ومن يستقر في مواطن الوعد، يجد أنه معبر عنه تارة بالإجمال وأخرى بالتفصيل حيث يجيء في صور جلية واضحة مغربية.

فمن الأول قوله- عز وجل:- **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْكِمَنَّ لَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾** [النحل، الآيات: ٩٧]، هذا العموم الوارد في عبارة «الحياة الطيبة» أدى بأهل التفسير إلى سوق أقوابيل، علم من خلالها كيف أطلقوا العنوان لاجتهااداتهم، فمنهم القائل: «إن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة

اليقين، وحلوة الإيمان، والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له، والاستكانة إلى معبد واحد، والتئور بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها<sup>(١)</sup> ولا شك أن ما ذكر تشمله العبارة، والنفوس تتفاوت في نيله بحسب النصيب الإيماني قوة وضعفاً، وهو مقام دقيق فيه من التناقض ما يمنع الله به من الأغطيات على مراتب الهم والأمال.

ومن أشباه الآية المذكورة قوله - تعالى - **﴿لِلَّذِينَ أَخْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾** [الزمر، الآية: ١١]، فعلى قول من قال: إن الحسنة أريد بها الجزاء الدنيوي يرى أنها ممثلة في الصحة والعافية وحملها على الثلاثة المذكورة في الأثر: «ثلاثة ليس لها نهاية الأمان والصحة والكافية»<sup>(٢)</sup> ومن نظائرها - أيضاً - قوله - تعالى - **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَخْرَجًا وَرِزْقًا مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** [الطلاق، الآيات: ٣-٤]، قوله - تعالى - **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾** [الطلاق، الآية: ٤].

ومن الثاني: ما يجيء الجزاء فيه مفضلاً؛ حيث ترتدي السعادة المعلنة الصفة التفصيلية في أثناء الخطاب، ومن أمثاله قوله - عز وجل - **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْفَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ دِيْنٌ الَّذِي أَرَضَى لَهُمْ وَلَمْ يُبَدِّلْنَاهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾** [آل عمران، الآية: ٥٣]، فالوعد الوارد في الآية المقربون بالإيمان والعمل الصالح للذين ورداً كالشروطين للخروج من عهدة التكليف، كان السبب في إقبال هذه المسبيات تهال على الأمة برزت من خلالها مقومات مهمة جالية للسعادة والهناء، وأولها البشارة بالاستخلاف الذي يعني «القيام بتنفيذ مراد الله - تعالى - من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحى، وتلقين الذرية مراد الله من هذا العالم الأرضي»<sup>(٣)</sup>.

(١) محسن التأويل: ١٥٦/١٠.

(٢) التفسير الكبير: ٢٥٦/٢٦.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٩٩/١.

ولا يخفى ما في هذا من التشريف، خصوصاً حين أضيف الدين إلى ضميرهم كما أنه لا يخلو من جانب التكليف أيضاً.

ثانيها: تمكين الدين الذي هو من عناصر السعادة بلا ريب؛ إذ التمكين مشعر «بأن سنة الله ألا تأمن أمة بأس أخرى حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها»<sup>(١)</sup> فالتمكين - إذا - مستلزم للأمن؛ لذلك أتبعه به وجعله ثالث؛ الثلاثة حيث إن الخوف النازل بساحتهم سيبدل أمّا وأماناً.

فهذه من أنواع الجزاء المفصلة مظاهره، وقد يجيء في بعض الآي ما يعبر عن هذا في صورة إجمالية كما في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الْعَذَابِ﴾ [الأنياء، الآية: ١٠٥]، ولا شك أن الوراثة تتضمن تلك العناصر الثلاث المذكورة آنفًا بل وزيادة، لكن تبقى هذه الوعود القرآنية في غالبيها واضحة صريحة كما في قوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَلَيَتَتَّقَّى أَفَدَامَكُمْ﴾ [محمد، الآية: ٧]، وقوله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال، الآية: ١٩]، وقوله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المافقون، الآية: ٨]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَلَبُونَ﴾ [المائد، الآية: ٥٦]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج، الآية: ٣٨].

فالوعد بالاستخلاف، والتمكين للدين، واستباب الأمن، ووراثة الأرض، والغلبة والنصرة والمعية الربانية، والعزة والمدافعة والولاية، كلها آثار الجزاء واضحة صريحة في الدنيا تتحقق ما تحقق شروطها ولو بعد حين؛ لأن المكتوب الإلهي ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الْعَذَابِ﴾ - كما رأينا - . وأهم الفضائل المطلوبة لهذه الأهلية هي الفضيلة الاجتماعية المعبر عنها بشتى التعبيرات في القرآن.

### ٣- الجزء الديني في حياة طلاب الدنيا :

وهم أهل الرذائل الذين سقطت همتهم؛ إذ لم تتجاوز الأرض، قال - تعالى -: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَيْنَاهَا تُوقِّفُ إِلَيْهِمْ أَعْنَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُمْكِنُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا أَثْنَاءُ وَحْكَمَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٦، ١٥] [مود، الآيات: ١٦، ١٥]، وهي تحمل أفادت الإخبار عن نوعية إنسانية قد أهتمتهم أنفسهم؛ يريدون أن يحيوا للدنيا وحدها، غير عابين بما وراءها، وسوف يذلون قصارى جهدهم وقواهم ومواهبهم للاستحواذ على ما في الحياة من خيرات والاستمتاع بها دون أن يكون لهم اتصال بالسماء.

وها هو الحق - سبحانه وتعالى - يخبر عن أنه سيعطون ما طلبوه، وسيتمكن لهم في هذه الحياة بقدر جهدهم دون بخس ولا حيف، أما الآخرة فلا نصيب لهم فيها إلا أن يتلوا الجزء الأول في على تكذيبهم ونسيانهم لربهم قال - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿لَا يَغُرُّنَكُمْ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۝ مَتَّعْنَا فَلِيَلِّ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴾ [آل عمران، الآيات: ١٩٦، ١٩٧] [١٩٦، ١٩٧]، فلا يحسب أن الكفر يوجب تعجيل العذاب كما لا ينبغي أن يظن أن المكذب سيحرم من بعض أقسام السعادة الدنيوية ما دام يكدر في جنباتها ويرغب في الفوز بطيبياتها؛ لذلك ورد التوضيح في هذا الشأن بقوله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَنَ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء، الآيات: ١٨، ١٩] [١٨، ١٩]، «فالملكون يتحرّكون داخل نطاق محكم من المشيئة العليا في البسط والسعّة والضيق، وهو تفاوت له صلة بطبيعة الاختبار الإلهي للناس ولا دلالة على الرضا أو السخط، قال - تعالى - ﴿كُلَّا نُمَدُّ

هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٧٦﴾ [الإسراء، الآية: ٢٠]، ويبدو أن هذه الطائفة- رغم أن حياتها الدنيوية لا تخلو من طيبات- إلا أن الله- عَزَّ وَجَلَّ- يخبر عن حياة مشوبة بنكد يعبر عنه في القرآن بالضنك وإحباط العمل والخسران، قال- تعالى-: «وَمَنْ أَغْرَصَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» [طه، الآية: ١٢٤]، وقال- تعالى-: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَقَهُمْ فَاسْتَمْتَعْ بِخَلَقَكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعْ أَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاصَّنَاهُ أُولَئِكَ حَيْطَتْ أَعْنَاثُهُمْ فِي الْأَنْتِيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾ [التوبه، الآية: ٦٩]، ففورة الأموال والأولاد لا توجب طمأنينة؛ لأن مآل ذلك كله الحبط «وَهُوَ الزَّوَالُ وَالْبَطْلَانُ وَالْأَسْعَالُ وَالْإِتْلَافُ وَذَلِكَ بِحَلْوِ مُخْتَلِفِ الْأَوَانِ الْعَذَابِ بِأَوْلَئِكَ الْأَمْمِ، وَفِي الْآخِرَةِ بَعْدِ تَعْوِيْضِ شَيْءٍ مَا ذُكِرَ مِنِ النَّعْمِ» <sup>(٢)</sup> ، ولذلك ذيل الآية بقوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ».

ويعتبر هذا من قبيل الجزاء الدنيوي لهؤلاء، وإذا جاء وروده في هذه الآيات السابقات مجملًا فإنما سقف على بعض التفصيات التي تتجلى فيها مظاهر هذا النوع من الجزاء بالنسبة لهذه الطائفة.

- من ذلك ما أخبر به- سبحانه- في قوله: «سُنُنُّنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشَرَّكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنَنَا وَمَأْوَاهُمُ الظَّارِ وَبِنَسَ مَئْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ [آل عمران، الآية: ١٥١]، فهذا الرعب المذكور في الآية جزاء دنيوي رتبه- سبحانه- على الإشراك به، فإن الشرك لما كان اعتقاد تأثير من لا تأثير له، وكان ذلك الاعتقاد يرتكز في نفوس معتقديه على غير دليل، كان من شأن معتقده أن يكون مضطرب النفس متخيلاً في العاقبة في تغلب بعض الآلهة على بعض، ومن

(١) انظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص: ١٥٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦٠ / ١٠.

هذا هو حاله لا يستقر له قرار في الثقة واليقين فيما أشرك واعتقد فقلبه وجّل مزلزل؛ إذ الرعب صاد له عن الطمأنينة والثبات<sup>(١)</sup>.

ومنه - أيضًا - قوله - عَزَّ وَجْلَهُ - : **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَيْنِ الْكَتَبِ وَتَكَفَّرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَرَاءَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَرَقَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [البقرة، الآية: ٨٥] ، «والآية دالة على أن الله يعاقب الحائد عن الطريق بعقوبات في الدنيا، ومنها الخزي الذي يعني ذلا في النفس طارئاً عليها فجأة لإهانة لحقتها، أو معرة صدرت منها أو حيلة تمشت عليها»<sup>(٢)</sup> ، فكل من نقض ميثاق الدين والشريعة التي هي مناط الأحكام، إلا وعوجل بالخزي في الدنيا والعذاب الآجل في الآخرة، قال صاحب المنار - رحمه الله - : «وقد دل المعمول وشهد الوجود بأنه، ما من أمة فسقت عن أمر ربها، واعتنت حدود شريعتها إلا وانتكث قتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان وهو الخزي المراد في القرآن، وهذه هي سنة الخليقة يذكرها الله لمن صرفته الغفلة عن الاعتبار»<sup>(٣)</sup> ، وما الرعب والخزي والخسران وحبوط الأعمال إلا نوع عقوبات معنية، وقد يتحدث القرآن عن نوع آخر حسي يلحق الأبدان ويتجلّ في مثل الحرمان من الطيبات والخسف والإغرق والجوع والخوف وغيرها، قال الله - عَزَّ وَجْلَهُ - : **﴿فَإِظْلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَتِ أُجْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾** [النساء، الآيات: ١٦١، ١٦٠] ، «والآية اقتضت أن تحرم للكافرين منهم عذاباً أليساً»<sup>(٤)</sup> ، لأنهم حين استمروا المنكرات وأضحت من

(١) انظر التحرير والتنوير: ٤/٤٢٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١/٥٩١.

(٣) تفسير المنار: ١/٣٧٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٦/٢٦.

الجبلات عوقبوا بالحرمان من الطبيات بعد أن كانت حلالاً لهم، وليس الأمر موقوفاً على أنس بأعيانهم أو جنسته بذاته وإنما الأمر يشمل كل من كان عدواً للحق وأهله، وللهدى وحملته، في كل جيل وفي كل زمان.

ومن هذه العقوبات- أيضًا- ما ورد في قوله- تعالى- : ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مُثْلًا قَرِيَةً كَانَتْ إِمَانَةً مُطْمِنَةً يَأْتِيهَا رَزْفُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل، الآية: ١١٢] . وفي التعبير بالإذابة، ما يدل على إحساس الألم والأذى إحساساً مكيناً، كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه، كما أن في اللباس ما يدل على غشيان العذاب لأصحابه، وملازمه لهم كملازمة اللباس لابسه، كل ذلك بما كانوا يصنعون جزاء على كفرهم، ونسياهم لنعمتي الأمان والاطمئنان النفسيين، والأمن الغذائي الوافر الهنيء<sup>(١)</sup> .

وهكذا نقف على تعداد النقم التي حلت بالناسين عن الطريق الحسين للدنيا، قال - تعالى : ﴿فَلَمَّا أَخْذَنَا يُذْنِيَّهُ فَيَنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَاهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسْفَنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت، الآية : ٤٠].

(١) انظر التحرير والتنوير: ٣٠٥/١٤

## المبحث الخامس :

### الجزاء الآخروي وبعض مظاهره

#### المطلب الأول :

### الجزاء الآخروي في حياة طلاب الآخرة

إن أول ما يتلقى هؤلاء منذ اللحظة الأولى التي تدعى فيها أرواحهم إلى بارئها، هو ذلك الاستقبال الضخم المتجلب في التحية، حيث تتقاهم الملائكة، وعن هذا يحدتنا القرآن، فيقول - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ نَوَّفْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السحل، الآية: ٣٢] ، ويقول - تعالى - : ﴿وَسَيَقَّا  
الَّذِينَ أَتَقْوَى رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةَ زُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ  
خَرَّنَتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِيعَتْ فَأَدْخُلُوهَا خَلِيلِينَ﴾ [الزمر، الآية: ٧٣] . ويقول -  
تعالى - : ﴿وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحْيَيَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان، الآية: ٧٥] ، وهو إعراب عن السرور  
باللقاء يحمل في طياته البشرى بالسلامة، والأمن من المكره المشاهد في هذه القيامة،  
وبعد هذا التلقي والإخبار بأنه ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنباء،  
الآية: ١٠٣] يتحدد النعيم الروحي من السعادة العلوية بما بشه - عز وجل - في وعوده التي  
يصورها القرآن الكريم، والتي منها:

- الاستقبال الرباني، قال - تعالى - : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنُهُمْ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب، الآية: ٤٤] ، وقال - تعالى - : ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحْمَةٍ﴾ [يس، الآية: ٥٨].

- الأمن من الخوف والحزن، قال - تعالى - : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٨].
- إبعادهم عن مواطن العذاب، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَّبْتُ لَهُمْ مِّتَّا الْحُسْنَةِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [١٠٢] لا يسمعون حسيسها وهم في ما أشتهرت أنفسهم خالدون ﴿[الأنياء، الآيات: ١٠٢ - ١٠١].﴾
- انتفاء الخزي، وهو مستلزم للتكرير، قال - تعالى - : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ الَّذِي وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التريم، الآية: ٨].
- نضارة الوجه وتشريفه بالنظر إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، قال - تعالى - : ﴿وُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِهَا نَاضِرَةٌ﴾ [٣٢] [القيمة، الآيات: ٣٢].
- الحظوة بمقام المقربين، قال - تعالى - : ﴿أُولَئِكَ الظَّرِيفُونَ﴾ [١١] [الواقعة، الآية: ١١].
- وقال - تعالى - : ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ الْيَتَيْنَ وَالصَّدِيقَيْنَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ﴾ [النساء، الآية: ٦٩].
- الفوز برضوان الله، قال - تعالى - : ﴿وَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الحديد، الآية: ٢٠].
- الرضا بالعاقبة، قال - تعالى - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَنَا أَلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الزمر، الآية: ٧٤].
- ضمان هذا الجزء في ظل الأبدية، قال - تعالى - : ﴿لَا يَدُوْفُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَنُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيرِ﴾ [٥٦] [الدخان، الآية: ٥٦].

ناهيك عما يصوره القرآن، في الجنان من مظاهر جمالية فيصفها بالرحابة، حيث يقول - تعالى - : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا أَلْسَمَوْثُ وَالْأَرْضُ أَعْدَتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٣]، ويصفها بأنها ذات ظل ظليل،

فيقول - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَنَذَّلُهُمْ ظَلَّاً ظَلِيلًا﴾ [النساء، الآية: ٥٧] وأنها تتفجر بنا يع قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَعِيُونٍ﴾ [الحجر، الآية: ٤٥] ﴿وَهَذِهِ الْجَنَّاتُ غَالِبًا مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهَا، فَيَصْفُهَا بِأَنَّهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبه، الآية: ٧٢] ، وذكر الجنات مقرونة بالأنهار الجارية، من تحتها أربى على الأربعين مرة في كتاب الله، أما الغذاء، والكساء، والنساء، فقد يُجمع في مثل قوله - تعالى - : ﴿وَفِيهَا مَا تَشَهِّدُهُ أَنفُسُ وَكَلَّ أَعْيُنٍ﴾ [الزخرف، الآية: ٧١].

وكل ذلك جزاء لعباده الخالص بل إن ﴿لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [الفرقان، الآية: ١٦] ، بل أزيد، قال - تعالى - : ﴿وَلَدَيْنَا مَرِيدٌ﴾ [ق، الآية: ٣٥].

والواقع أن ما من إنسان يعلم ما أعد لهؤلاء المحسنين من إنعم، فقد ألفينا القرآن يعرب عن ذلك، حيث يقول - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْةٍ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة، الآية: ١٧] ، وفي الحديث القدسي يقول - تعالى - : «أعددت لعبادتي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»<sup>(١)</sup> ، مما جعل عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - يقول: «ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء»<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري : ١٥/٨ (كتاب التفسير، باب فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين).

(٢) جامع البيان : ١٧٤/١

## المطلب الثاني :

### الجزاء الآخروي في حياة طلاب الدنيا

وهم الذين أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا، واستمتعوا بها فليس لهم في ذلك اليوم جزاء، إلا العذاب، قال - تعالى -: «أَنَّا رُبُّ يَعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» [غافر، الآية: ٤٦].

ويتناول القرآن الكريم في حدثه عن جزاء هؤلاء صورًا شتى، نذكر منها ما يأتي:

إخباره - عَزَّ وَجَلَّ - عن:

- استحقاقهم للعذاب، قال - تعالى -: «وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرَةً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتُحِّتَ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ حَرَّنَّهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتَلَوَّنُ عَلَيْكُمْ إِيمَانَ رَبِّكُمْ وَيُنَذِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كُلُّمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِ» [الزمر، الآية: ٧١].

- مثلهم بين يدي الله منكosi الرءوس، قال - تعالى -: «وَنَزَّ تَرَئَ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ» [السجدة، الآية: ١٢].

- يأسهم من رحمة الله ومغفرته، قال - تعالى -: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِإِيمَانِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْوِا مِنْ رَحْمَتِ اللَّهِ مِمَّا لَمْ يُمْكِنْ عَدَابُ أَلِيمٌ» [العنكبوت، الآية: ٢٣].

- لن تفتح لهم أبواب السماء، قال - تعالى -: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِيمَانِنَا وَأَسْكَبْرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ» [الأعراف، الآية: ٤٠].

- حرمانهم من أدوات الإدراك لحظة البعث، قال - تعالى :- ﴿ وَنَخْرُشُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبَكَّا وَصُمِّيًّا ﴾ [الإسراء، الآية: ٩٧].

- حرمانهم من كل اشتهاياتهم، قال - تعالى :- ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ، الآية: ٥٤].

- يأسهم من رؤية الله وتزكيته، قال - تعالى :- ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحَّجُوْنَ ﴾ [المطففين، الآية: ١٥]، وقال - تعالى :- ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُرَكِّيْهُمْ ﴾ [آل عمران، الآية: ٧٧].

- إلbasهم سراويل من الخزي والعار، قال - تعالى :- ﴿ سَيُصِيبُهُمُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَفَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأنعام، الآية: ١٢٤].

- عبوسة الوجه وكلاحتها، قال - تعالى :- ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَارِسَةٌ ﴾ [القيامة، الآية: ٢٤]، وقال - تعالى :- ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [٤١] ترهقها فقرةٌ [٤٢] [عس، الآيات: ٤١، ٤٠].

- ندمهم وتنبئهم أن لو باعد الله بينهم وبين خطاياهم، قال - تعالى :- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخْضِرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شُوُرٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْدَأْ بَعِيدًا ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٠].

- وإذا ما اطّلعوا على حسابهم تمنوا أن لو لم يكونوا عرفوه، قال - تعالى :- ﴿ وَمَا مَنْ أُوقِنَ كِتَابُهُ بِشَيْلِهِ فَيَقُولُ يَلْبَثُنِي لَرْ أُوتَ كِتَابِهِ ﴾ [٢٦] [الحاقة، الآيات: ٢٥، ٢٦]، وفي كلمة جامعة : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَنِيسُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> [البقرة، الآية: ١٢١].

(١) أما الألام البدنية التي سيتعرض لها هؤلاء بعد الحساب الأخير، فقد تحدث عنها القرآن بإسهاب وذلك قصدًا للتربیة المقارن للترغیب، فانظره في محاله من الآيات الكثيرة.



المبحث السادس :

## الجزاء بين الاستعجال والاستبطاء

## المطلب الأول :

الجزاء والاستعجال

وهي قضية لها وثوق الصلة بما جرى بين المنذرين والمنذرين، في أثناء المعاشرة والجادلة، التي - غالباً - ما تنتهي بهذا اللون من التحدي، إشعاراً منهم أنهم موقنون بآلاً صدق لهذا الرعيد.

ويعرض القرآن هذه القضية، تارة في أسلوب صريح، فيه إخبار عن هذه الحال كما جاء في قوله - تعالى - : ﴿وَسْتَعِذُ لَنَا بِالْعَذَابِ﴾ [الحج، الآية: ٤٧]، وقوله - تعالى - : ﴿وَقَالُوا رَبُّنَا عَجَلَ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [١٦] [١١].

وتارة يرد الاستعجال للعذاب، في معرض الحوار بين الأنبياء والرسل، وبين المجاهدين من أقوامهم وذلك بعد أخذ ورد.

\* فقد قيل ليهود - عليه السلام - : ﴿فَأَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾  
[الأعاف، الآية: ٧٠].

\* وقيل لصالح - عليه السلام - : ﴿يَصْلِحُ أثْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُثَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٧٧].

\* وقيل لشعيـب - عليه السلام - : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْصَّادِقِينَ﴾ [الشـعـراء، الآية: ١٨٧].

\* وقيل للوط: ﴿أَتَيْنَا يِعْذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت،

. الآية: ٢٩]

وهي مقولات كلها شبيهة بما قيل لرسول الله ﷺ ، فقد أخبر القرآن عن حال قومه، فقال - عز وجل -: ﴿وَسَتَعْلُمُونَكُم بِالْعَذَابِ﴾ [الحج، الآية: ٤٧]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَّا أُمْتَقَ مَعْدُودَةً لَيَقُولُوكُمْ مَا يَحِسِّسُهُ﴾ [هود، الآية: ٨]، «إذا أندّرهم الرسول بعقوبة العذاب استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقضته الحكمة الربانية، استفهّموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظناً أن تأخره عجز»<sup>(١)</sup> ، وهذا الموقف، إنما أثمره عدم الفهم، والتحدي للنذير والاستهزاء والتکذیب والإصرار على الباطل، والتبجح في وجه الإنذار، والشروع الذي لا تنتظره أوبة.

ولعلي سأجمل هذا كله في سبعين رئيسين هما :

### ١- الاستكبار والعناد :

وهو ما يحكى - عز وجل - في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْبِنَا يِعْذَابَ أَلِيمٍ﴾ [٣٢] [الأنفال، الآية: ٣٢]، عن قتادة - رحمه الله - قال: «قال ذلك سفة هذه الأمة»<sup>(٢)</sup> ، والعاقل لا يصدر منه كلام مثل هذا، ومن هذا الدعاء علّم أن كفرهم عناد، وكبراء، وعنتو، وعلو في الأرض، «روي أن معاوية - رضي الله عنه - قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة؟! فقال: أجهل من قومي حين قالوا:

(١) التحرير والتنوير: ١٠/١٢

(٢) فتح الباري: ٣٨٨/٨ وانظر تفسير الماز: ٦٥٥/٩

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، الآية: ٣٢]، ولم يقولوا: اهدنا له<sup>(١)</sup>، وهو الأصلح لهم، ولكن لشدة عنوهم وعنادهم، استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا تقديم العقوبة.

والظاهر أنهم كانوا من غرورهم يحسبون تصرفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - كتصرفات الناس من الاندفاع إلى الانتقام عند الغضب اندفعاً سريعاً، وأن الرسل مبعوثون لإظهار الخوارق نكاية بهم، فكانوا إذا ركبوا رءوسهم ولم تصبهم على إثر ذلك مصائب ازدادوا غروراً؛ لذلك أفينا القرآن الكريم يرد عليهم ويصحح لهم، فيقول - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَلَوْ مَعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعْجَلُهُمْ بِالْخَيْرِ لَعُذْنَى إِنَّهُمْ أَجَاهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُفْلَتِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس، الآية: ١١]، ولم تكن الآية ردًا على شبهتهم فحسب؛ وإنما تناولت في خواتيمها ما يطمئن فئة المؤمنين الذين لا يزالون يتربصون بالمكذبين ويستبطعون مجيء النصر، كاشفة عن نظام الرفق بالمخلوقات واستبقاء النوع إلى آجاله وهو نظام مستمر على عباده غير منقطع عنهم<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الجهل والغفلة :

حيث غفلوا عن قياس حالهم بحال أهل القرى السالفيين؛ فأعرضوا بذلك عن التذكر في آيات الله، وأبوا النظر في دلائل صدق الأنبياء والرسل؛ فكانت الغفلة عن الجزاء غير مقبولة من نفوسهم؛ بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة؛ وهو الإعراض عن الدلائل المورثة للعلم، قال - تعالى - : ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾

(١) تفسير المنار: ٦٥٦/٩، أضواء البيان: ٢٥٠/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ١٠٥/١١ - ١٠٦/١١.

**مُعَضِّضُونَ** ﴿١﴾ [الأنبياء، الآية: ١] هذه الغفلة هي التي أملت عليهم أن يقولوا **﴿عَجَلَ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾** [ص، الآية: ١٦] استخفافاً؛ فهم يسألون التعجيل بنصيبهم من العذاب في الدنيا، قبل يوم الحساب؛ إظهاراً لعدم اكتراثهم بالوعيد الديني، بلة الآخرة<sup>(١)</sup> ، كل ذلك ما أصله في نفوسهم إلا الجهل؛ لذلك يقرر القرآن أن وقوع الجزاء حق، وأن أكثر الناس يقيمون على الجهل استبعاداً واستحالة لحصوله بعد الفناء، قال - تعالى -: **﴿وَعَدَ اللَّهُ مَنْ يَخْلُقُ حَقًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [النحل، الآية: ٣٨]، وقال: **﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُقُ اللَّهُ وَعَدَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم، الآية: ٦٦]، فدل بصرىح العبارة أن وعد الله محقق بلا ريب، وأنه مأتى، وألا مجال للحسبان أن الله **﴿يَخْلُقُ وَعِدَّهُ رُسُلَهُ﴾** [إبراهيم، الآية: ٤٧]، فللمكذبين - إذا - **﴿مَوَعِدٌ لَنَّ يَحْدُثُ مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا﴾** [الكهف، الآية: ٥٨]، فلا ملجأ لهم من العذاب، ومراهنتهم عن عدم وقوعه بشتى ألوان الأساليب الساخرة إنما هو ناشيء عن قصور إدراك وجهل.



## المطلب الثاني :

### الجزاء والاستبطاء

وحال الاستبطاء، ليست بمنفعة عما أسلفناه من الدواعي والأسباب، التي أوجدت استعجال الجزاء، فهذه آيات تعبّر عن جرأة المكذبين على الله، - عَزَّ وَجَلَّ - من حيث استبظاؤهم للجزاء، قال - تعالى - : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ يُعَذَّبٌ وَاقْعِدَ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنْ أَنَّ اللَّهَ﴾ [المعارج، الآيات: ٢١، ٢٢، ٣٢] وكان سؤالهم سؤال مستهزئ؛ لذلك أعقبه بقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَزَّلَهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج، الآيات: ٦، ٧] فحكي حالهم تجاهلاً لهم؛ إذ اغترروا بما هم فيه من الأمان والحياة الناعمة، حتى أضحووا يرون العذاب الموعود بعيداً<sup>(١)</sup> ، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس، الآية: ٤٨] فكان سؤالهم من قبيل الاستهزاء، والتهاكم، قال ابن عاشور - رحمه الله - : «وحكى قولهم بصيغة المضارع؛ لقصد استحضار الحالة الدالة على تكرار صدوره منهم... وهو سؤال مستعمل في الاستبطاء، كناية عن عدم اكتراثهم به، وأنهم لا يأبهون به»<sup>(٢)</sup> ، ولما كان هذا حال الطوائف المكذبة، وديدنتها مع الرسل، تكررت الآية في مواطن عدة؛ للتدليل على أن هذه الحال لا تنفك عنهم<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٩/١٣٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/١٨٩.

(٣) انظر الآية في الأنبياء: ٣٨، والنمل: ٧١، وسبأ: ٢٩، والملك: ٢٥.

## المطلب الثالث :

### الجزاء والابتلاء

الابتلاء : معناه الاختبار، وفي القرآن الكريم نجد له مظہرين اثنين «فتارة يكون بالمسار؛ ليشکر المکلف، وتارة بالمضار؛ ليصبر، فصارت الحنة والمنحة جمیعاً بلاء»<sup>(١)</sup>، «إطلاق البلوى على ما يedo من الناس، من تجلد، ووهن، وشکر، وكفر على ما ينالهم من اللذات والألام ما بنى الله - تعالى - عليه نظام الحياة، وهو دال على اختلاف أحوال الناس في تصرفهم فيه، وتلقיהם إياه، أشبه اختبار المختبر، ليعلم أحوال من يختبرهم»<sup>(٢)</sup>، وفي كتاب الله منهج مرسوم لقضية الابتلاء، حيث يقرر - عز وجل - في بادئ الأمر أنه كائن ولا بد، فيقول - تعالى - : «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِيمَانًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ يَنْقُضُونَ إِيمَانَهُمْ فَلَيَعْلَمُنَّ اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿٢﴾ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمُنَّ الْكَذَّابِينَ ﴿٣﴾» [العنکبوت، الآیات: ٢٣، ٢٤]، فنص على أن الابتلاء سنة الله في سالف أهل الإيمان، القصد منه استخلاص الحق من الكذب، حتى يتبيّن الراسخ من المذهب، فدعوى الإيمان عارية من الدليل، دعوى عريضة لا بد لها من دليل تستند إليه، ومثل هذه الآية قوله - عز وجل - : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثُلُّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْأَسَاءَةُ وَالْأَصْرَارُ وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعْهُ مَنِ نَصَرَ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهَ فَرِیبٌ ﴿٢٤﴾» [البقرة، الآية: ٢٤]، فدخول الجنة لا يكون إلا بعد سبق عناء، وبلوى، وإزعاج، واضطراب إلى غاية يقول عندها المبتلى : متى نصر الله، فيكون الدخول إلى الجنة حينئذ دخولاً مستأهلاً؛ لأنّه وقع بعد تحيص أثمر الطائفـة الناجية، ثم يطالعنا القرآن ببيان مادتي الاختبار والابتلاء،

(١) المفردات، ص: ١٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٦٥/١٧.

وهما: الخير والشر، قال - تعالى - : « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَلَا خَيْرَ فِتْنَةً » [الأنياء، الآية: ٣٥]، وقال - تعالى - : « وَبَلَوْنَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » [الأعراف، الآية: ١٦٨]، حيث تنص الآيات على أن الحياة يعتري فيها الخير والشر سائر البشر، اختباراً وامتحاناً، هذا الخير والشر اللذان يفصلهما القرآن الكريم، فيعرض ألواناً ومظاهر منها، من ذلك قوله - تعالى - : « وَلَنَبْلُوكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » [١٥٥] [البقرة، الآية: ١٥٥]، فهذه المذكورات في الآية، مثلت ضرورة من البلاء، وألواناً من المصائب، وذلك « ليعلم هؤلاء أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله، لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب كاشفة لثباتهم على الإيمان، ومحبة الله، والتسليم لقضاءه، فينالون بذلك بهجة النفوس، بما أصحابهم في مرضاة الله، ويزدادون به رفعة، وزكاء ويزدادون يقيناً بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنواه حظوظهم من الدنيا، وينجر لهم من ذلك الثواب العظيم »<sup>(١)</sup>؛ لذلك أتبع سبحانه تلك البلاء بالتشير بالصبر، وكأنه الغرض والقصد، من ذلك حيث يزيد - سبحانه وتعالى - أن يربى في المكلفين هذه الملائكة الشمرة، للتحمل والثبات « ومتى رسمت هذه الملائكة، سمي صاحبها صبوراً أو صباراً »<sup>(٢)</sup>، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول: « إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بَعْيَرِ حِسَابٍ » [الزمر، الآية: ١٠]، وفيه الحث على الصبر، بتعظيم أجر الصابرين، ليكون إعلاماً للمخاطب، بأن أجره على ذلك عظيم، ووفر لا يحاط بمقداره، وذلك هو شأن جزاء الآخرة، الذي لا يخطر على قلب بشر<sup>(٣)</sup>. وأي جزاء أعظم من رام التلبس بمنقبة الصبر من التركة والرحمة والاهتداء، وكل ذلك أخبرت به الآية حيث يقول الله - تعالى - : « أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ

[البقرة، الآية: ١٥٧].

(١) التحرير والتنوير: ٥٤/٢.

(٢) تفسير المنار: ٣٥/٢.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٥٥/٢٣.

فمقام الابتلاء من خلال هذه الرؤيا - بالنسبة للجزاء - مقام موجه للمكلف، مقام على مفترق الطريقين - كما أسلفنا في النية - فاما الصير والشك، ومن ثم الظفر بالمراد، واما الوهن والكفر، ف تكون العاقبة خسرى.

والذى يستتبع من حديث القرآن، أن ما يلحق المكلف من خير أو شر في هذه الحياة، لا ينبغي أن يتصور أنه جزاء على العمل - نعم، قد يكون نوعاً من الجزاء العرضي الدنيوي - بل، هو ابتلاء القصد منه تحريك الجهد المسمى، تارة بالصدق، قال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ أَلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذَّابِينَ﴾ [العنكبوت، الآية: ٣٢]، وتارة بالصبر والجهاد، قال - تعالى - : ﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد، الآية: ٣١]، وأحياناً بالإحسان في العمل، قال - تعالى - : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوْهُرُ أَيْمَنَ أَخْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف، الآية: ٧]، فهو بمثابة الإجراء الوقائي، الذي يتمثل فيه نوع من التصدي لعناصر الابتلاء؛ لإثبات استحقاق الجزاء النهائي الأولي، ولا يخفى ما أعدد الله للصادقين، والصابرين، والمجاهدين، والمحسنين. وما يقال في البلايا والنقم، يقال في النجاح والنعم، بل إن الصبر على الشهوات، أشد بلاء من الصبر على المكاره، قال عمر - رضي الله عنه - : «بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر»، وقال أمير المؤمنين علي: من وسّع عليه في دنياه، ولم يعلم أن قد مكر به، فهو مخدوع عن عقله»<sup>(١)</sup>، ومن الآيات الدالة على هذا قوله - تعالى - : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَّأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال، الآية: ٢٨]، فجعل الأموال والأولاد فتنـة؛ لأنها من أقوى دواعي الافتتان، حقاً لكثرة حدوث فتنـة المرء من جراء أحـوالـهمـا، وقد ذيلـت الآية بالتنصيص على الجزاء الأولي، فيما لو حصل كـفـ النـفـسـ عنـ المـنـهـيـاتـ التي تـرـائـ أنهاـ مـنـافـعـ.

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٦٦

وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَمْدُنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه، الآية: ١٣١] ، والشاهد عندنا في الآية هو قوله : ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ ، وهي الزينة المعبدة المبهة من : اللباس ، والأنعام ، والنساء ، والبنين كل ذلك ليحصل به الاختان ، أما خاتمة الآية ، فهي مفيدة أن ما يedo للناظر ، من حسن شارتهم مشوب وبطن بفتنة في النفس ، وشقاء في العيش ، وعقاب عليه في الآخرة ، ورزقه - عَزَّ وَجَلَّ - خير من ذلك وأبقى في الدنيا لما يقارنه من الشكر ، وأنفع في الآخرة ، وفيه إيماء إلى أن الخيرية حقيقة اعتبارية ، تختلف باختلاف نواحيها فمنها خير لصاحبها في العاجل ، شر عليه في الآجل ، ومنها خير مشوب بفتنة ، ومنها ما هو صاف من ذلك<sup>(١)</sup> .



(١) انظر التحرير والتفسير: ٣٤٠/١٦ وما بعدها.

## المطلب الرابع :

### الجزاء والإملاء

والإملاء سنة من سنن الله - تعالى - مع المكذبين، حيث يرخي لهم العنان، ويلقي لهم في العصيان والطغيان؛ استدراجاً لهم في طريق الهملة، وإمعاناً في الكيد لهم، قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِغَايَتِنَا سَنَسْتَدِرُ جُهُمَّ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦١] وَأَمْلَى لَهُمْ إِلَّا كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف، الآيات: ١٨٢، ١٨٣] وهي السبيل التي انتهجها القرآن للتعامل مع المكذبين من المستهزئين، والظالمين، والمعرضين الناسين.

أما المستهزؤون، فقد أخبر عنهم قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَئَ بِرُؤْسِلِ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِمْ أَخْذَتْهُمْ فِيْكَيْفَ كَانَ عِقَابٌ﴾ [٢٢] [الرعد، الآية: ٢٢]، لقد استهزئ بنوح، فكان من هذا الاستهزء أنه ﴿وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود، الآية: ٣٨]، واستهزئ بهود في قوله ﴿فَالْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف، الآية: ٦٦]، واستهزئ بموسى حيث قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ﴾ [٥٢] [الزخرف، الآيات: ٥٢]، واستهزئ بشعيب، فقيل له من قبل قومه: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود، الآية: ٨٧]، على سبيل السخرية، واستهزئ بسواهم من الأنبياء والمرسلين، فكان أن قابل الله هذه السخرية والامتهان، بالأخذ بعد الإمهال، واللث بعده مدة، وأما الظالمون، فقد حكى القرآن الكريم عن القرى الظالمة، وما أصابها بعد الإملاء من عذاب أتاها على حين غرة قال - تعالى - : ﴿وَكَانَتِنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتُهَا وَلَيَّ أَمْصِيرُ﴾ [٤٨] [الحج، الآية: ٤٨]، فحين أمهلوا ظنوا أنه قد أريد بهم خيراً، وما دروا أن العذاب مدخل لهم، إذا صاروا إلى باريهم، فالغرور أعمى بصائرهم،

خصوصاً حين رأوا النعمة بدل النعمة، والكثرة بدل القلة، والعمارة بدل الخراب، «قال الحسن - رحمه الله -: والسبب في تأخر العذاب عنهم واستئصالهم، أن العذاب مشروط بأمرتين: أحدهما أن عند الله حداً من الكفر من بلغه عذبه. والثاني: أن الله لا يعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر أنبياءه فيدعون على أئمهم فيستجيب الله دعاءهم، فيعذبهم بعد العذاب الاستئصال، وهو المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَسْتَيْشَ الرُّسُل﴾<sup>(١)</sup> [يوسف، الآية: ١١٠].

وأما المعرضون، فقد أخبر عنهم القرآن - أيضاً - في قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ، فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حيث انصرفوا عن فطنة ما ذكروا به، ولم يهتدوا إلى تدارك أمرهم، فحينئذ بادر الحق - سبحانه - إلى فتح أبواب الحيرات على سبيل الاستدراج، وهو نظير قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيبَةِ تِينَ تَيْيَيْ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْأَسْلَأِ وَالْأَضْرَأِ لَعَلَّهُمْ يَصْرَعُونَ ﴾٩٦﴿ ثُمَّ بَدَّلَنَا مَكَانَ الْسَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ إِيمَانَنَا الْأَضْرَأُ وَالسَّرَّأُ فَأَخْذَنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾٩٥﴿ [الأعراف، الآيات: ٩٤، ٩٥] فكان إحلال الحيرات بهم عسامهم أن يتذكروا وكان هذا الابتلاء بالضر والخير ليستقصي لهم سببي التذكرة والخوف<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَا نَقْسِمُهُمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران، الآية: ١٧٨] وهي الحقيقة التي ينبغي ألا تغيب عن الأذهان؛ لأنه إذا لم يرعوا، فإن الإثم المفترض إبان الإمهال، سيضاف إلى الآثام السابقة، فهو مقدر محسوب عليهم ولا يظنون أن بقاءهم فيه نفع، إنما هو من أجل أن يزدادوا مع آثامهم ليكون بعد ذلك أخذه - تعالى - أليماً شديداً<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر التفسير الكبير: ٤٤/٢٣.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٧/٢٣٠-٢٣١.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٤/١٧٥ وما بعدها.

فتبيّن من خلال هذه الإطلالة على أفباء الآيات، أن الاستدراج شأنه خطير، يخالف الابتلاء؛ لأن هذا الأخير يمس المؤمن والكافر، أما الاستدراج فهو نوع احتجاج غير مباشر شديد اللهجة، يسجل أضعافاً من الخطايا التي يبوء بها أصحابها، وهو مخصوص بطائفة آثرت المعاندة والمكابرة على الطاعة والانصياع.



## المبحث السابع :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد

\* ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام، الآية: ١٦٤، الإسراء، الآية: ١٥، فاطر، الآية: ١٨، الزمر، الآية: ٧، النجم، الآية: ٣٨].

## المطلب الأول :

### ذكر بعض مظان ورودها تنصيحاً ودلالة

#### ١ - مظان ورودها لفظاً :

\* في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نَرِدُ وَازِرٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام، الآية: ١٦٤].

\* في سورة الإسراء: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا نَرِدُ وَازِرٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء، الآية: ١٥].

\* في سورة فاطر: ﴿وَلَا تَرِدُ وَازِرٌ وِزْرَ أُخْرَى وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر، الآية: ١٨].

\* في سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفَّارُ وَإِن شَكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِدُ وَازْرَهُ وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِن رَّتِكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَتَّشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر، الآية: ٢٧].

\* في سورة النجم: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَقَاتَ ﴿٣٧﴾ أَلَا تَرُدُّ وَزَرَهُ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [النجم، الآيات: ٣٧-٣٨].

## ٢- مظان ورودها معنى :

\* في سورة البقرة: ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجِدُونَ نَفْسًی عَنْ تَقْسِ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَذَّلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا سَفَنَةٌ وَلَا هُمْ يُنَصَّرُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٢٣]، قوله - تعالى - : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبَتُمْ وَلَا تُشَ�ؤُنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة، الآية: ١٣٤].

\* في سورة الأنعام: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا يَلْقَاءَ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَعْدَهُمْ قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ٣١].

\* في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [النساء، الآية: ١١١].

\* في سورة النحل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلُلُنَّهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ [النحل، الآية: ٢٥].

\* في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّا إِنْسَنَ الْزَمَنَهُ طَبِيرَهُ فِي عُنْقِهِ، وَتَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمةَ كِتَابًا يَلْقَنُهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء، الآية: ١٣]، قوله - تعالى - : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء، الآية: ٧].

\* في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَعْمَلُونَا سَيِّلَانًا وَلَنَحْمِلْ خَطَائِكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِيلِنَ مِنْ خَطَائِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ وَلَيَحْمِلُنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْعَلُنَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت، الآيات: ١٢، ١٣].

\* في سورة لقمان: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْفُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشُوا يَوْمًا لَا يَجِزِي وَالَّذِي عَنْ وَلَدِيهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالَّذِي شَيَّأَ﴾ [لقمان، الآية: ٣٣].

\* في سورة غافر: ﴿وَإِذَا يَتَحَاجَجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الظَّعَفُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبِرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْدًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبُكُمْ مِنَ النَّارِ﴾ [غافر، الآية: ٤٧].

\* في سورة الدخان: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الدخان، الآية: ٤١].

\* في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَغْرِيَ الْمَرْءَ مِنْ أَخِيهِ وَأَمِهِ، وَأَبِيهِ وَصَاحِبِيهِ، وَتَبِيهِ لِكُلِّ أَمْرٍ يَتَّهِمُهُ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُعْتَدِيهِ﴾ [عبس، الآيات: ٣٤-٣٧].

\* في سورة الانفطار: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار، الآية: ١٩].

## المطلب الثاني :

### فقه القاعدة

الوزر - بكسر الواو -: الحمل الثقيل، يقال: وزر يزر؛ إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب.

والآثم تسمى أوزاراً؛ لأنها أحمال تُثقل<sup>(١)</sup> «وتسمية الإثم وزرا؛ لأنه يتخيل ثقيلا على نفس المؤمن»<sup>(٢)</sup>.

ومعنى الآية: «أن وزر أحد لا يحمله غيره، فإذا كان قد تسبب بوزره في إيقاع غيره في الوزر، حُمِّل عليه وزر بوزر غيره؛ لأنه متسبب فيه، وليس ذلك بحمل وزر الغير عليه، ولكنه حمل وزر نفسه عليها، وهو وزر التسبب في الأوزار»<sup>(٣)</sup>.

فكل أحد إنما يحاسب على نفسه لا عن غيره.

وبهذه الآية نزعت عائشة - رضي الله عنها - في الرد على من قال: إن الميت يعذب بيكان الحي عليه<sup>(٤)</sup> «فكل نفس تزر وزر نفسها، فلا تبعه لأحد من وزر غيره من قريب أو صديق»<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

(١) لسان العرب، مادة «وزر» ، وبصائر ذوي التمييز: ٢٠٢/٥، بصيرة في «وزر» .

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠٨/٨.

(٣) التحرير والتنوير: ٥٠/١٤.

(٤) المحرر الوجيز ٢٧٠/١٠، وسيرد الكلام في هذا الحديث.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٠٨/٨.

## المطلب الثالث :

## قيمتها

## أ- تجلی عدل الله في رحابها :

لقد رأينا من خلال هذه الآية القاعدة أن هذا الجزاء الحزري الذي أقامه القرآن مطبوع بطابع العدل، وموسوم بسم الرحمة والرأفة، فقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَلَا نَزِرُ وَازْرَةً وَنَزِرَ أُخْرَى﴾ نص على الضابط المتجلبي في «فردية التبعة، وشخصية الجزاء، وهو مبدأ إسلامي كبير؛ لتحقیق العدل في أجلی مظاهره، وأفضل أوضاعه»<sup>(١)</sup> ، الواقع أن شخصية العقوبة وفردية التبعة، هو عین ما يقتضيه العدل ويمليه الإنصال، فلا يصح في الأذهان أن يؤخذ الفرد بجريرة غيره؛ إذ العقاب لم يشرع إلا لزجر مرتكب الجناية، ومؤاخذته على سوء ما اقترفه في جنب الله وجنب المجتمع، فلو أن العقوبة سرت إلى غيره من الأبرياء - قريباً أو بعيداً - لعد ذلك من المفاسد المضادة لحكمة تشريع هذه العقوبة، قال ابن القيم - رحمه الله - قوله - تعالى - : ﴿وَلَا نَزِرُ وَازْرَةً وَنَزِرَ أُخْرَى﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ آياتان محكمتان، يقتضيما عدل الرب - تعالى - وحكمه، وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما، فال الأولى تقتضي أنه لا يعاقب ب مجرم غيره، والثانية تقتضي أنه لا يفلح بعمله وسعيه، فال الأولى تومن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما هو عليه أصحاب الطمع الكاذب.

(١) في ظلال القرآن: ٢٧٢٤/٥

ونظيره قوله - تعالى - : ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَصْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرٌ وَازِرٌ وَزِرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء، الآية: ١٥] ، قوله - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ مُعَذِّبِينَ حَقَّ بَعْثَكَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، الآية: ١٥] فحكم - سبحانه - لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

أحدها : أن هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني : أن ضلاله بقواته ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره.

الثالث : أن أحداً لا يؤخذ على جريمة غيره.

الرابع : أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله، فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته - تعالى - وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة، وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته<sup>(١)</sup> .

وكذلك قوله - تعالى - : ﴿فَالَّيْلَمَ لَا تُظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [بس، الآية: ٤٥] ، فهي من أصرح الآيات في الدلالة على نفي العقوبة بعمل الغير، حيث نفي الحق - تعالى - أن يظلم أحد، فيزاد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره.

ومن صور العدل المسطرة في القرآن الكريم، النهي عن الإسراف في القتل، وتجاوز المقدار الذي يمله الشرع، قال - تعالى - : ﴿وَلَا نَقْتُلُوا النَّفَسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء، الآية: ٣٣] ، فالسرف في الآية، يعني: أن يقتل غير القاتل، فسيقت الآية مساق التشريع للأمة، ومثلت مبدأً عظيماً لصلاح المجتمع الإسلامي، وذلك بنبذ ما

كان على عهد الجاهلية من قتل الجماعة بالواحد؛ إذ إن أولياء المقتول، قلما يرضون بقتل القاتل، فيعمدون إلى الأخذ بالثأر وذلك بقتل أكثر من واحد، كما أنهم عرفوا بتكميل الدماء، فيجعلونها متفاوتة بحسب الشرف<sup>(١)</sup>.

### ب - شموليتها :

حيث إنها أثبتت في كل دين قويم، وعند كل ذي عقل سليم، فإذا كان قد تقرر في كلية الجزاء العظمى؛ أن القصد من الجزاء هو جلب المصالح ودرء المفاسد عن المكلف - وذلك لأجل الدفع نحو مجتمعات مستقيمة عادلة - فإننا رأينا أن المنهج القرآني في مجال التربية قد أقام بناءه على دعامتين أساسيتين قبل البلوغ إلى مرحلة الجزاء وهما:

- الواجب الخلقي، الذي يعتبر ضرورة حتمية، قال ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت»<sup>(٢)</sup> ، هذا الواجب الذي لا ريب أنه ينبع من الإيمان، والحاافز إليه هو الترغيب الذي يعتبر أحد شقي هذه الدعامة.

- الإجراء الجزري، وذلك عند الجانب السلبي من الجزاء، وهو الذي يتمثل فيه جانب الترهيب.

وهذا الإصلاح تناوله القرآن فيما أوحاه الله - تعالى - إلى إبراهيم أبي الأنبياء، ثم من بعده من الذين ساروا على ملته، قال - تعالى -: ﴿أَعْنَدُمُ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ٢٥﴾ آمَ لَمْ يُبْنَاٰ بِمَاٰ فِي صُحْفٍ مُّوسَىٰ ٢٦﴿ وَإِنَّرَهِمَ الَّذِي وَقَاتَ ٢٧﴾ آلَّا نَزَدُ وَزَرَهُ وَرَدَ أُخْرَىٰ

(١) انظر التحرير والتنوير: ٩٤/١٤ بتصريف يسيراً.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥١٠/٦ (كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤).

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣﴾ وَأَن سَعِيهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤﴾ ثُمَّ يُبَرِّزُهُ الْجَزَاءُ  
الْأَوَّلُ ﴿٥﴾ <sup>(١)</sup> [النجم، الآيات: ٤١-٣٥].

ولو تأملنا السياق من أوله إلى آخره، فإنه كالصريح في إرادة العموم لقوله- تعالى - : «وَأَن سَعِيهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤﴾ ثُمَّ يُبَرِّزُهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ ﴿٥﴾» وهو عام في الخير والشر قطعاً، ويتناول البر والفاجر، والمؤمن والكافر؛ كقوله في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» <sup>(٢)</sup> ، قال ابن القيم في قوله- تعالى -: «وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣﴾» : «لا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن: الإنسان ها هنا أبو جهل، والإنسان ها هنا: عقبة بن أبي معيط، والإنسان هاهنا: الوليد بن المغيرة، فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بوحد بعينه؛ كقوله- تعالى -: «إِنَّ الْإِنْسَنَ لَفِي حُسْنٍ  
[العرس، الآية: ٢]، قوله- تعالى -: «إِنَّ الْإِنْسَنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿١﴾» [العاديات، الآية: ٦]، قوله- تعالى -: «إِنَّ الْإِنْسَنَ حَلَقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾» [المعارج، الآية: ١٩]، قوله- تعالى -: «إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَنْطِقُ ﴿٢﴾» [العلق، الآية: ٦]، قوله- تعالى -: «إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾» [إبراهيم، الآية: ٣٤]، قوله- تعالى -: «وَحَمَّلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلَومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾» [الأحزاب، الآية: ٧٢]، فهذا الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه

(١) ولقد وجدنا من العلماء من تأويل قوله تعالى: «وَلَا تُرُدُّ وَازِرًا وَرَدُّ أُخْرَى» قوله تعالى: «وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣﴾» بتأويلات بعيدة تارة بدعوى النسخ وتارة بدعوى كونهما من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعا وتأارة بتخصيصهما بالكافار دون المسلمين، وغفلوا كون مضمونهما من قواعد الدين وأصول الإسلام الثابتة على ألسنة جميع الرسل مؤيداً بآيات كثيرة بلقطها ومعناها، كما أثبتناه تحت عنوان: «مظان ورود القاعدة»، وانظر هذه التأويلات في تفسير التحرير والتبيير

. ٢٧/١٣٣

(٢) صحيح مسلم: ١٧/٨ (كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم...).

الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنتها عليه لا من ذاته، وما به من نعمة فمن الله وحده<sup>(١)</sup>.

فتكون آيات النجم - إِذَا - ناصحة على أن أصل دين الله - تَعَالَى - لجميع رسليه هو أنه لا تحمل نفس خاطئة خطيئة نفس أخرى، بفداء ولا غيره، فلا يُجزئ بعمل غيره أحد ولا ينفعه عمل غيره ولا يضره.

وهذا مما كان في صحف إبراهيم، وقد قصَّ الله عنه في القرآن - أيضاً - ﴿وَلَا تُخْرِي يَوْمَ يَبْعَثُونَ ﴾٨٧﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنْوَنَ ﴾٨٩﴿ إِلَّا مَنْ أَنَّ اللَّهَ بِقُلْبٍ سَلِيمٍ ﴾٨٩﴾ [الشعراء، الآيات: ٨٧، ٨٩]، وحكي الله عن موسى - عليه السلام - قوله: ﴿أَتَهْلَكُنَا إِمَّا فَعَلَ السُّفَهَاءَ إِمَّا نَحْنُ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٥]، وفي التوراة: (لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخططيته يقتل)<sup>(٢)</sup> ، ولذلك قال الحق - سبحانه وتعالى - لبني إسرائيل: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجِدُونَ نَفْسَ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾٤٨﴾ [البقرة، الآية: ٤٨]، مريداً بذلك انتزاع عقيدة رسخت في صدورهم، وتمكنت من عقولهم، وذلك؛ لأنهم «توهموا أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله كفيلة بأن تقيهم العذاب، وقد أشير إلى هذا التوهم في غير ما آية من ذلك قوله - تَعَالَى - : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَهُنْ أَبْنَتُوا اللَّهَ وَأَحَبَّتُهُمْ﴾ [المائدة، الآية: ١٨]، فجاء الجواب أنه لا غناه لأحد كائناً من كان على أحد، وذلك في طيات قوله: ﴿فُلْ فَلِمْ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾؟ ونظيره قوله - تَعَالَى - : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الإنفطار، الآية: ١٩]؛ إذ لا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى، «وعmom لفظ نفس الأولى والثانية في سياق النفي يقتضي عموم الحكم في كل نفس»<sup>(٣)</sup> كل ذلك روعي فيه إبطال أوهام القوم، حيث ظنوا أن أوزارهم محمولة

(١) الروح، ص: ١٧٠.

(٢) سفر الشنية إصلاح: ٢٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/١٨٥.

عنهم فين سبحانه - إبطال ذلك إنقاذاً لكل من غرتهم أنسابهم، وحسبوها ملجاً وملاذاً، وبذلك اعتبرت هذه الآية - كما قال ابن عاشور رحمه الله - أصلاً عظيماً في التشريع وتفرع عنها أحكام كثيرة<sup>(١)</sup>.

### ج - دفع إيهام التعارض :

إذا ثبت أنَّ هذه الآية قاعدة، كما هو منصوص عليه في القرآن، فكيف بعض الآيات التي قد يظن أنها معارضة من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَيَحِلُّنَّ لَهُمْ أَنْقَالُهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَنْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت، الآية: ١٢]، قوله - تعالى -: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوزَارِ الَّذِينَ يُضْلُّنَّهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرْزُونَ﴾ [التحليل، الآية: ٢٥]، وكذلك بعض الأحاديث منها:

- ما رواه مسلم - رحمه الله - في صحيحه عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم، وقد أصابتهم حاجة، فتح الناس على الصدقة فأبطاؤا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تابعوا حتى عرف السرور في وجهه، فقال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعميل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»<sup>(٢)</sup>.

(١) التحرير والتبيير : ٥٠/١٥

(٢) صحيح مسلم : ٨٧/٣ (كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة).

- ما رواه الإمام أحمد - رحمة الله عنه - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلاله، كان عليه مثل الإثم من آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»<sup>(١)</sup>.

- ما جاء في كتابه عَلَيْهِ الْكَفَافُ الذي وَجَهَهُ إِلَى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، وفيه: «إِنْ تُولِّيَتْ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرْبَيْسِين»<sup>(٢)</sup>.

- ما جاء في صحيح البخاري عن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أن النبي ﷺ قال: «إن الميت ليعذب يكاء الحى»<sup>(٣)</sup>.

١) مسند أَحْمَد: ٢/٥٠٥

٢) مسند أحمد: ١/٢٦٣.

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٥٢/٣ (كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ): «يعذب الميت بكاء أهله عليه» وحديث تعذيب الميت يكاء أهله ذهب العلماء فيه مذاهب شتى رأينا أن نعرضها من خلال ما ساقه ابن حجر في كتابه الفتح مراعين في ذلك الأقضاب وإليك ما قاله ابن حجر: «منهم من حمل هذا الحديث على ظاهره كما جاء في حديث أبي بردة عن أبيه قال: «لما أصيب عمر - رضي الله عنه - جعل صهيب يقول: ما أخاه، فقال عمر: أما علمت أن النبي ﷺ قال: إن الميت ليعدب بكاء الحي»؟، ويحتمل أن يكون عمر يرى أن المؤاخذة تقع على الميت إذا كان قادرًا على النهي ولم يقع منه، فلذلك بادر إلى نهي صهيب».

ومنهم من رد الحديث وعارضه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُرِدْ وَازْدَهْ وَنَذْ أَخْرَى﴾، وممن روی عنه الانكار مطلقاً أبو هريرة - رضي الله عنه - «والله لمن انطلق رجل مجاهد في سبيل الله فاستشهاده فعمدت امرأة سفها وجهلاً فكانت عليه ليعذبن هذا الشهيد يذنب هذه السفهة» !

ومنهم من أَوْلَ قَالَ فِي قَوْلِهِ : «بِكَاءُ أَهْلِهِ» الباء هنا للحال أي أن مبدأ عذاب الميت يقع عند بكاء أهله عليه، فكان معنى الحديث: أن الميت يذهب حالة بكاء أهله عليه ولعل قائل هذا إنما أخذه من قول عائشة-رضي الله عنها-: «إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّهُ لَيَعْذَبُ بِمَعْصِيَتِهِ أَوْ بِذَنْبِهِ وَإِنَّ أَهْلَهُ لِيَكُونُ عَلَيْهِ الْآنَ». صحيح مسلم: ٤٤ / ٣ (كتاب الجنائز، باب الميت يذهب

- ما جاء في صحيح البخاري - أيضاً - من قوله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها »<sup>(١)</sup>.

- ما نصَّت عليه بعض القواعد المتفق عليها، أو كالمتفق عليها<sup>(٢)</sup> ، « كقاعدة الصدقة عن الغير، وهي عبادة؛ لأنها إنما تكون صدقة إذا قصد بها وجه الله - تعالى -، وامتثال أمره، فإذا تصدق الرجل عن الرجل أجزأه ذلك عن المتصدق عنه، وانفع به

= ومنهم من أَوْلَهُ عَلَى أَنَّ الرَّاوِي سَعَى بِعَضِ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَسْمَعْ بِعَضِهِ وَأَنَّ اللَّامَ فِي « الْمِيتَ » لِعَهْوَدِ مَعِينٍ وَحْجَةٍ هُؤُلَاءِ، رَوَايَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا سَمِعَتْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : « إِنَّمَا مَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى يَهُودِيَّةٍ يَبْكِيُ عَلَيْهَا أَهْلَهَا ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ لَيَكُونُ عَلَيْهَا ، وَإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِي قَبْرِهَا » صَحِيحُ البَخَارِيِّ بِشَرْحِ فَتحِ الْبَارِيِّ : ١٥٢ / ٣ (كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ : يَعْذَبُ الْمِيتَ يَبْكِيَ أَهْلَهُ عَلَيْهِ).

ومنهم من أَوْلَهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَصٌ بِالْكَافِرِ وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَعْذَبُ بِذَنْبِ غَيْرِهِ أَصْلًا وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَالَ : « فَلِمَا مَاتَ عَمْرُ ذَكْرَتْ ذَلِكَ لَعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَالَتْ : رَحْمَ اللَّهُ عَمْرُ وَاللَّهُ مَا حَدَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ لَيَعْذَبَ الْمُؤْمِنَ يَبْكِيَ أَهْلَهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ لِيُزِيدَ الْكَافِرَ بِعَذَابِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ » نَفْسَهُ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنْ قَوْلَهُ : « يَعْذَبُ الْمِيتَ يَبْكِيَ أَهْلَهُ » أَيْ بِنَظِيرِ مَا يَبْكِيَهُ أَهْلُهُ بِهِ مِنْ تَعْدَادِ لِمَنَاقِبِ لِيْسَ فِيهِ أَوْ بِمَا هُوَ مَنْهِيَ عَنْهُ .

وَقَيلَ : إِنَّ التَّعَذِيبَ الَّذِي يَعْذَبُ بِهِ، هُوَ تَوْبِيعُ الْمَلَائِكَةِ لِهِ بِمَا يَنْدِبُهُ أَهْلُهُ . وَقَيلَ : إِنَّ التَّأْلُمَ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِمَا يَقْعُدُ مِنَ النِّيَاجَةِ، وَقَدْ رَجَعَ هَذَا الْقَوْلُ صَفْوَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ كَالطَّبَرِيِّ، وَالْقَاضِيِّ عِيَاضٍ وَنَصْرَهُ ابْنِ تَيمِيَّةَ وَجَمَاعَةَ الْمُتَأْخِرِينَ، وَاسْتَشْهَدَ هَذَا التَّأْوِيلُ بِمَحْدِيثِ قِيلَةِ بْنِ عَمْرَةَ قَلَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَقَدْ وَلَدْتَنِي فَقَاتَلَنِي مَعَكَ يَوْمَ الْرِّبَذَةِ، ثُمَّ أَصَابَتِي الْحُمَّى فَهَمَتْ وَنَزَلَ عَلَى الْبَكَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيْغَلُبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَصَاحِبَ صَوْبِحَهُ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَإِذَا مَاتَ اسْتَرْجَعَ فَوَالَّذِي نَفْسِي يَبْدِئُ إِنَّ أَحَدُكُمْ لَيَبْكِي فَيَسْتَعْبُرُ إِلَيْهِ صَوْبِحَهُ، فَيَا عَبَادَ اللَّهِ لَا تَعْذِبُوا مُوتَاكُمْ قَالَ ابْنُ حَمْرَاءَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - نَفَلًا عَنْ ابْنِ الْمَرَابِطِ - رَحْمَهُ اللَّهُ - : حَدِيثُ قِيلَةِ هَذَا نَصٌّ فِي الْمَسَأَلَةِ فَلَا يَعْدُ عَنْهُ فَتْحُ الْبَارِيِّ : ١٥٠ / ٣ وَالْفَرْوَقُ ١٥٣ / ٢ .

١٧٦ وَ ١٨٢ .

(١) نفسه.

(٢) المسألة خلافية كما نصَّ عليها ابن القيم، انظر إعلام الموقعين.

ولا سيما إن كان ميتاً، فهذه عبادة حصلت فيها النيابة، ويؤكد ذلك ما كان من الصدقة فرضاً، كالزكوة فإن إخراجها عن الغير جائز وجاز عن ذلك الغير<sup>(١)</sup>.

فهذه النصوص القرآنية والحديثية مع القاعدة المذكورة، وكذا القاعدة تنص على أن الإنسان لا يأخذ بفعل غيره، وهي قاعدة صحيحة<sup>(٢)</sup> ، مما يتوبهم أنه معارض للقاعدة القرآنية بحيث يتوجه السؤال إلى الآيتين، فيقال: ما وجه تحملهم أوزار الغير؟

**والجواب : أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين :**

**أحدهما : وزر ضلالهم في أنفسهم.**

الثاني : وزر إضلالهم غيرهم، وإنما أخذوا بعمل غيرهم؛ لأنهم هم الذين تسببوا فيه فعocabوا عليه من هذه الجهة، فصار غير مناف للآيتين، فليس - إذا - حمل المتسبب في وزر غيره حملًا زائداً على وزره، ولكنه من قبيل زيادة العقاب لأجل تصليل الغير<sup>(٣)</sup>.

أما الأحاديث، فالمتأمل فيها يلحظ أن المسألة من حيث الجملة لا تعدو ما قيل في الآيتين، إذ الأمر متعلق بالتسبيب - أيضاً -، ألا ترى أن البخاري - رحمه الله -، حين أورد حديث: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها» عقب بقوله: «إن كان ذلك من سنته» وهو مظاهر من مظاهر فقهه - رحمه الله - في أثناء تبويبه.

ومثل هذا يقال في حديث تعذيب الميت بيقاء أهله عليه، فقد ذيل الباب بقوله:  
**«إن كان النوح من سنته».**

(١) المواقفات: ٥٢٦/١.

(٢) الفروق: ١٧٦/٢.

(٣) انظر أضواء البيان: ٤٠٥-٤٠٦ وأنوار التنزيل: ١٣٦/٤.

قال الشاطبي - رحمه الله -: «وَحِدِيثُ تَعْذِيبِ الْمَيْتِ بِبَكَاءِ الْحَيِّ ظَاهِرُ حَمْلِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي تَحْرِيصِ الْمَرِيضِ - إِذَا ظَنَ الْمَوْتَ - أَهْلَهُ عَلَى الْبَكَاءِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا حِدِيثُ: «مِنْ سَنْ سَنَةٍ»، وَحِدِيثُ: «ابن آدَمَ الْأَوَّلُ»، وَحِدِيثُ: «انْقِطَاعُ الْعَمَلِ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ» وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ فِيهَا راجِعٌ إِلَى عَمَلِ الْمَأْجُورِ أَوِ الْمَأْزُورِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي تَسْبِبَ فِيهِ أَوْلًا، فَعَلَى جَرِيَانِ سَبِبِهِ تَجْرِيَ الْمُسَبَّباتِ، وَالْكَفْلُ الرَّاجِعُ إِلَى الْمُتَسْبِبِ نَاسِئٌ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ الْمُتَسْبِبِ الثَّانِي. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرْجِعُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَالَّذِينَ أَمَّنُوا وَأَبْعَثُنَّهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ يَأْمَنُنَّ الْحَقْنَانَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَنْتَهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ يُمْكَنُ إِيمَانُهُ كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور، الآية: ٢١]؛ لِأَنَّ وَلَدَهُ كَسْبٌ مِنْ كَسْبِهِ، فَمَا جَرِيَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ فَكَانَهُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأَبِ، وَبِذَلِكَ فَسَرَّ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَا لَهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد، الآية: ٢]، أَنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ، فَلَا غُرُورٌ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلَتِهِ وَتَقْرِيرِ عِينِهِ، كَمَا تَقْرِيرِ عِينِهِ بِسَائِرِ أَعْمَالِهِ الصَّالِحةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا أَنْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ إِنْ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وَمِنْ هَاهُنَا يَكُونُ اسْتِدْلَالُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بِالْقَاعِدَةِ الْقُرْآنِيَّةِ مُوافِقًا لِهَذَا التَّقْيِيدِ - الَّذِي هُوَ التَّسْبِبُ - وَيَكُونُ إِنْكَارُهَا حِينَئِذٍ مُحْمَلاً عَلَى إِنْكَارِ عُمُومِ التَّعْذِيبِ لِكُلِّ مَيْتٍ يُبْكِيُ عَلَيْهِ، وَقَدْ وَقَفَنَا عَلَى بَعْضِ الْرَوَايَاتِ الْمُعَضِّدةِ لِهَذَا الْمَنْحِيِّ؛ مِنْهَا مَا رَوَاهُ عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ أَبِي مُسْعُودَ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: «رُخْصٌ لَنَا فِي الْبَكَاءِ عِنْ الْمَصِيبةِ فِي غَيْرِ نُوحٍ»<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِمَنْ مَنَعَ نِسْوَةَ بَنِي الْمَغِيرَةِ الْلَّاتِي أَرْدَنَ الْبَكَاءَ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «دَعْهُنَ يَبْكِيْنَ عَلَى أَبِي سَلِيْمَانَ مَا لَمْ يَكُنْ نَقْعُ أَوْ لَقْلَقَةً»<sup>(٣)</sup>.

(١) المواقفات: ٥٣٠/١.

(٢) المستدرك: ٣٨٣/١ (كتاب الجنائز، باب استثناء النياحة).

(٣) فتح الباري: ١٦٠/٣. والنَّقْعُ: وضع التَّرَابِ عَلَى الرَّءُوسِ، واللَّقْلَقَةُ: الصَّوتُ. النِّهايَةُ فِي غَرِيبِ

الْمَحْدِثُ وَالْأَثْرُ: ١٠٩/٥.

أما كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، فإنه يفيد أن توليه ينشأ عنه تولي أمته، فيكون بذلك قد فتح لهم باب الضلال، ونهج لهم الطريق إليه.

وأما قاعدة الصدقة عن الغير، فإن من العلماء من لم يجعلها في عداد العبادات واعتبر أنها ليست من هذا الباب، وإنما هي من قبيل التصرفات المالية<sup>(١)</sup>.

فهذه الأحاديث والآثار دالة على أن المكلف لا يذهب بفعل غيره ما لم يكن متسبياً في ذلك، وهو قول عامة أهل العلم كما نقله ابن حجر في الفتح، وكذا نقله التوسي عن الجمهور<sup>(٢)</sup>. وبه قال ابن القيم كما نصّ عليه في كتابه الروح<sup>(٣)</sup>.



(١) انظر المواقفات: ٥٢٩/١.

(٢) انظر فتح الباري: ١٦٠/٣.

(٣) انظر الروح، ص: ١٥٩.

## المطلب الرابع :

### تطبيقات

النيابة في التعبدات الشرعية ولحوق ثواب الأعمال إلى غير عاملها.

#### أ- النيابة في التعبدات الشرعية:

وهي صورة تستدعي تبيان محل هذه النيابة؛ «لأن المطلوب الشرعي إما أن يكون من قبل العadiات الجارية بين الخلق في الاكتساب، وسائل المحاولات الدنيوية كالعقود على اختلافها والتصرافات المالية على تنوعها، فالنيابة في هذا صحيحة ما لم يكن مشروعاً لحكمة موقوفة على ذلك المكلف بعينه عادة وشرعًا؛ كالأكل، واللبس، والشراب، والسكن والنكاح - وأحكامه التابعة له من وجوه الاستمتاع التي لا تصح النيابة فيه شرعاً - وإنما أن يكون من قبل العبادات الالزامة للمكلف من جهة توجهه إلى خالقه المعبد»<sup>(١)</sup> ، وفي هذا يقول ابن عاشور - رحمه الله -: «ومما يجب تقاديمه أن التكاليف الواجبة على العين فرضاً أو سنة مرتبة، المقصود من مطالبة المكلف بها ما يحصل بسببها من تزكية نفسه ليكون جزءاً صالحاً، فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مطالبة أعيان المسلمين بها، وكذا اجتناب منهيات لا تتصور فيها النيابة، فهذا النوع ليس للإنسان فيه إلا ما سعى، ولا تجزئ فيه نيابة عنه في أدائه»<sup>(٢)</sup> .

وفي موضع آخر يقول: «فأما ما هو منها - أي من شرائع الإسلام الواجبة - من عمل الأبدان فليس للإنسان إلا ما سعى منه، ولا يجزئ عنه سعي غيره؛ لأن المقصود

(١) المواقف: ٥٢٤-٥٢٣/١ بتصريف يسير.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/١٣٥.

من الأمور المطالب بها المرء بنفسه، هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير، ما لم تكن هذه القربات غير معينة بالطلب، والقصد منها تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال، فإن هذا الاعتبار لا تفيته النيابة<sup>(١)</sup>؛ لأنه لو صحت النيابة في الأعمال البدنية لعذى ذلك إلى الأعمال القلبية؛ كالإيمان، مما يفضي إلى جعل التكاليف غير ممحومة على المكلف عيناً، وهو باطل باتفاق<sup>(٢)</sup>؛ ولأن التكاليف ما هي إلا ابتلاءات غير قابلة للبدل، والمقصود منها المكلف العامل المنهي، فلا بدل للمكلف الممتحن بغيره، ولا ينوب غيره عنه في ذلك، وكيف يتم ذلك والمراد طاعته هو، وعبوديته هو، والقرآن قد حكم أنه لن يتتفع إلا بسعيه، وهذه سنة الله أجرتها على خلقه، ولو نفعه عمل غيره لنفعته توبته عنه، ولكن الله - تعالى - لا يقبل إسلام أحد عن أحد، ولا صلاة عن صلاته<sup>(٣)</sup>، وهو ما نقله ابن الفرس في الأحكام ونصّ على أنه مجمع عليه<sup>(٤)</sup>.

والأدلة على ألا نية في العبادات البدنية والقلبية، هي جماع القاعدة وفيها يقول الشاطبي - رحمه الله -: « وهي كلها عمومات لا تتحمل التخصيص؛ لأنها محكمات نزلت بمكة احتجاجاً على الكفار ورداً عليهم في اعتقادهم حمل بعضهم على بعض، ولو كانت تحتمل الخصوص، لم يكن فيها رد عليهم، ولما قامت عليهم بها حجة<sup>(٥)</sup>. ولكننا وجدنا من النصوص ما يعارض هذه الأدلة، حيث نصت على جواز النيابة في العبادات، واكتساب الأجر والثواب من الغير وعلى من يعمل، ومن هذه النصوص:

(١) نفسه بتصرف يسير.

(٢) انظر المواقفات: ٥٢٤/١.

(٣) انظر الروح، ص: ١٦٨/١٦٧.

(٤) انظر أحكام القرآن: ٦٥/١ (بحث مرقوم).

(٥) المواقفات: ٥٢٤/١.

### \* ما ورد في شأن الحج :

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، فأفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيتها؟ أقضوا الله، فالله أحق بالوفاء<sup>(١)</sup> .

ما أخرجه الإمام مالك في الموطأ من حديث عبد الله بن عباس - أيضاً - : «أن امرأة من خثعم سالت رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، فأفأحج عنه؟ قال نعم» وذلك في حجة الوداع<sup>(٢)</sup> .

\* ما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : «أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم».

\* ما رواه - أيضاً - عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ ، فقال: إن أمي ماتت وعليها نذر لم تقضه، فقال: أقض عنها<sup>(٣)</sup> .

\* ما أخرجه أبو داود - أيضاً - عن عروة عن عائشة - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»<sup>(٤)</sup> .

فكانَت هذه الأخبار مجالاً لأنظار الفقهاء في الجمع بينها وبين الآية القاعدة أو الأخذ بظاهر الآية، والاقتصار على نوع ما ورد فيه الإذن من النبي ﷺ أو القياس.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٤/٦٤ (كتاب جزاء الصيد، باب الحج والتنور عن الميت..).

(٢) المسوى شرح الموطأ: ١/٥٠٤ (كتاب الحج، باب الحج عنمن لا يستطيع أن يثبت على الراحلة).

(٣) معالم السنن شرح سنن أبي داود: ٤/٦١-٦٠ (كتاب النذر، باب النذر على الميت).

(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود: ٤/٦١ (كتاب النذر، باب من مات وعليه صيام).

أما حديث النيابة في الحج، فقد نقل ابن العربي - رحمه الله - في الأحكام أنه قول جماعة من المتقدمين، وهو اختيار الشافعي من المتأخرین، وأئمَّ ذلك الحنفية والمالكية، قال - رحمه الله -: «وهم فيه أعدل قضية، فإن المقصود من الحديث الحث على بر الوالدين، والنظر في مصالحهم ديناً ودنياً، وجلب المنفعة إليها جبلاً وشرعاً، فإنه رأى من المرأة افعالاً بيناً وطوعاً ظاهرة ورغبة صادقة في بُرِّ أيها، وتأسفت أن تفوته بركة الحج ويكون عن ثواب هذه العبادة بمعزل، وطاعت بأن تحج عنه فأذن لها النبي ﷺ فيه»<sup>(١)</sup> ، و اختيار المالكية ناجم عن كون ظاهر حديث الحنفية مخالفًا لظاهر القرآن، فرجحوا ظاهر القرآن - كما نقله ابن حجر عن القرطبي<sup>(٢)</sup> ، وهو ما نقل عن الإمام مالك - رحمه الله - فإنه سُئل عن الصلاة والصيام والحج، فقال: «أما الصلاة والصيام والحج فلا نرى ذلك»<sup>(٣)</sup> ، وقال في المدونة: «يتطوع عنه بغير هذا أحب إلىه: يهدى عنه أو يتصدق عنه أو يعتق عنه».

وعقب الباقي على ما جاء في المدونة بقوله: «فصل بينهما وبين النفقات»<sup>(٤)</sup> ولا ينافي ما ذكره الإمام مالك مع ما نقل عنه؛ من أن الميت إذا أوصى بالحج عنه، نفذت وصيته؛ لأنه يرى ذلك من قبيل سعي الميت<sup>(٥)</sup>.

ومن ثم اعتبر مالك - رحمه الله - ومن تبعه من جعلوا العبادات ثلاثة أقسام: مالية، وبدنية، ومركبة منها:

- فقسم البدنية لا تدخله النيابة بحال؛ كالإسلام والصلوة والصيام - كما سنراه - فهو قسم يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينفل عنده، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد

(١) أحكام القرآن: ٢٨٩/١.

(٢) انظر فتح الباري: ٧٠/٤.

(٣) التحرير والتبيير: ١٣٦/٢٧.

(٤) نقلًا عن المرجع السابق.

(٥) نفسه: ١٣٦/٢٧.

عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره.

- وقسم المالية تدخله النيابة؛ كرد الودائع، وأداء الديون، وإخراج الصدقة.

- وقسم مركب من المالية والبدنية، ومنها الحج، ومنها ساغ لابن العربي - رحمة الله - القول بجواز حج الغير عن الغير حيث علل بقوله: «لأنها عبادة بدنية مالية، والبدن وإن كان لا يتحمل النيابة، فإن المال يتحملها، فروعي في هذه العبادة جهة المال، وجازت فيه النيابة»<sup>(١)</sup>.

ومن العلماء من نظر إلى الطاعات المفروضة ففرق بينها وبين النذور فرأى أن النذور جائزة فيها النيابة دون الفرائض، «وسر الفرق أن النذر: التزام المكلف لما شغل به ذمته لأن الشارع ألزمه به ابتداء، فهو أخف حكما مما جعله الشارع حقا له عليه شاء أم أبى، والذمة تسع المقدور عليه، والمعجز عنه؛ ولهذا تقبل أن يشغلها المكلف بما لا قدرة له عليه، بخلاف واجبات الشرع فإنها على قدرة طاقة البدن، لا تجب على عاجز، فواجب الذمة أوسع من واجب الشرع الأصلي؛ لأن المكلف متمكن من إيجاب واجبات كثيرة على نفسه لم يوجبها عليه الشارع، والذمة واسعة وطريق أداء واجبها أوسع من طريق أداء واجب الشرع، فلا يلزم من دخول النيابة في واجبها بعد الموت دخولها في واجب الشرع، وهذا يبين أن الصحابة أفقه الخلق وأعمقهم علمًا، وأعرفهم بأسرار الشرع ومقاصده وحكمه»<sup>(٢)</sup>.

وأما حديث التصدق فقد رأينا أن بعض العلماء لم يعتبر ذلك من العبادات وإنما عدّه من قبيل التصرفات<sup>(٣)</sup>.

(١) أحكام القرآن: ٢٨٩/١.

(٢) عن العبود: ٣٨/٧ (كتاب الصيام. باب من قال: يصوم عنه وليه).

(٣) انظر المواقفات: ٥٢٩/١.

أما أحاديث الصيام فإن الجواب عنها من وجوه:

\* ما روتته عائشة - رضي الله عنها - : « لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم »<sup>(١)</sup>، وقد حاول الخطابي - في معالم السنن - توجيه الحديث فرأى أنه يحتمل وجهين: أحدهما: مباشرة الصيام - وهو ما ذهب إليه قوم من أصحاب الحديث - والوجه الآخر: أن يكون معناه الكفارة، فعبر بالصوم عنها؛ لأنها كانت بدلاً عنه، قال - رحمة الله - : وعلى هذا قول أكثر الفقهاء<sup>(٢)</sup> ، وفي مقام آخر نجده يتأنى بعض الفاظ الحديث فيقول: « فإذا فعل ذلك - أي الإطعام - فكأنه قد صام عنه، وسمى الإطعام صياماً على سبيل المجال والاتساع؛ إذ الطعام ينوب عنه، وقد قال - سبحانه - : ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، فدل على أنهما يتناوبان<sup>(٣)</sup> ، وبمثله يتأنى الماوردي الحديث، فيقول: « وهو نظير قوله: « التراب وضوء المسلم إذا لم يجد الماء » فسمى البدل باسم المبدل، فكذلك هنا<sup>(٤)</sup> .

\* ما رواه ابن عباس - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: « لا يصلی أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن آخر، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم ممداً من جنطة »<sup>(٥)</sup> ، فهو كالمذكور عن عائشة - رضي الله عنها - وإن كان حديثها مطلقاً، وهذا مقيد -.

قال صاحب عون المعبد: « ويكون المراد بالصيام صيام النذر »<sup>(٦)</sup> ، وبهذا يظهر اتفاق الروايتين، وموافقة فتاوى الصحابة لها، وهو مقتضى الدليل والقياس؛ لأن النذر ليس واجباً بأصل الشرع، وإنما أوجبه العبد على نفسه فصار منزلة الدين الذي

(١) السنن الكبرى: ٤/٢٥٧ (كتاب الصيام، باب من قال يصوم عنه وليه).

(٢) معالم السنن: ٤/٦١.

(٣) معالم السنن: ٢/١٢٢.

(٤) فتح الباري: ٤/١١٤.

(٥) نقله ابن حجر انظر فتح الباري: ٤/١٩٤.

(٦) عون المعبد: ٧/٣٧.

استداته؛ ولهذا شبهه الرسول ﷺ بالّذين في حديث ابن عباس، والمسئول عنه فيه أنه كان صوم نذر، والذين تدخله النيابة، وأما الصوم الذي افترضه عليه ابتداء فهو أحد أركان الإسلام، فلا تدخله النيابة بحال كما لا يدخل الصلاة والشهادتين، فإن المقصود منها طاعة العبد بنفسه، وقيامه بحق العبودية التي خلق لها وأمر بها، وهذا الأمر لا يؤديه غيره كما لا يُسلِّم عنه غيره ولا يصلِّي عنه غيره<sup>(١)</sup>، «وهو قول الإمام الشافعي في الجديد والإمامين مالك وأبي حنيفة»<sup>(٢)</sup>.

\* «أن هذه الأحاديث معارضة بالقياس على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحداً لا يفعلها عن أحد»<sup>(٣)</sup>.

## ب - لحوق ثواب الأعمال إلى غير عاملها :

وهي من متممات الصورة، وقد أجمع العلماء - كما نقله ابن القيم<sup>(٤)</sup> على أن الميت يلحقه سعي الحي ويتفعل به وذلك في أمرين:

١ - ما تسبب إليه الميت أثناء حياته؛ كانتفاع الوالدين المؤمنين ببعض أعمال أولادهم بالتبع والسببية، وقد قال ﷺ : «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وولده من كسبه»<sup>(٥)</sup>، كما أنه أجاب من ذكر له: أن والده يريد ماله بقوله ﷺ : «أنت ومالك لأريك»<sup>(٦)</sup>، وقد ورد أن الله - تعالى - يرفع درجة

(١) انظر عون المعبد: ٣٨/٧.

(٢) فتح الباري: ١٩٤/٤.

(٣) الروح، ص: ١٦٩.

(٤) انظر الروح، ص: ١٥٩.

(٥) سنن الدارمي: ٢٤٧/٢ (كتاب البيوع، باب في الكسب وعمل الرجل بيده).

(٦) انظر نصه في سنن ابن ماجة: ٧٦٩/٢ (كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده).

الرجل في الجنة «فيقول: أني هذا؟، فيقال: باستغفار ولدك لك»<sup>(١)</sup> ، قال صاحب النار: «وأحاديث الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منها، وبصل إليهما ثوابهما، فتكون هذه النصوص الثابتة مخصصة قوله - تعالى - : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم، الآية: ٣٩] ، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى التخصيص»<sup>(٢)</sup> .

ومسألة التسبب لا ينبغي حصرها في الأولاد؛ لأن من النصوص ما يدل على عدم هذا التقييد، كما في عموم انتفاع «من سن في الإسلام سنة حسنة فعميل بها بعده كتب له من مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء»<sup>(٣)</sup> .

« ومن ثُمَّ يعلم أن ثواب الأعمال ليس أعياناً مملوكة للعامل يتصرف فيها كيف يشاء بل هو جزاء من فضل الله - تعالى - وهو نوعان:

\* ما يكون مرتبًا على تأثير الأفعال في تزكية النفس مباشرة وهو ما يبتاه آنفًا.

\* ما يترتب على الأفعال التي يتعدى فيها النفع إلى غير العامل، كالصدقة الجارية والعلم الذي يث في صدور الناس، والولد الصالح الذي يدعو له والسنة الحسنة وهو ما نحن بقصد الحديث عنه.

- الأمر الثاني، وهو الذي منه دعاء المسلمين واستغفارهم له، والدليل على انتفاعه بمثل هذا قوله - عز وجل - : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَإِلَهُنَا أَنَّا لَذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر، الآية: ١٠] ، قال ابن القيم - رحمه الله - : «فأئنني الله - سبحانه وتعالى - عليهم باستغفارهم

(١) سنن ابن ماجة: ١٢٠٦ / ٢ (كتاب الأدب، باب بر الوالدين).

(٢) تفسير النار: ٢٦٤ / ٨ بتصرف يسر.

(٣) صحيح مسلم: ٨٧ / ٣ (كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة).

للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء<sup>(١)</sup> ، وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقول: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظَتْ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاعْفْ عَنْهُ، وَأَكْرَمْ نَزْلَهُ، وَوَسْعُ مَدْخَلِهِ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرْدِ، وَنَقْهُ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يَنْقِي الشَّوْبَ الْأَيْضَنْ مِنَ الدَّنْسِ، وَأَبْدَلَهُ دَارَّا خَيْرًا مِنْ دَارَّهُ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعْذِهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، قَالَ: حَتَّى ذَلِكَ تَبَيَّنَتْ أَنَّ أَكُونَ الْمَيْتَ<sup>(٢)</sup> ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ بِقَوْلِهِ: «السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمَ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَ الْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلَّا حَقُولُونَ»<sup>(٣)</sup> .

وقد أمر عَلَيْهِ اللَّهُ بِالدُّعَاءِ لِلْمَيْتِ، فعن عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: كان النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»<sup>(٤)</sup> ، ودعاء النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ للأموات فعلاً وتعليقًا، ودعاء الصحابة والتابعين المسلمين عصرًا بعد عصر، أكثر من أن يذكر، وأشهر من أن يذكر<sup>(٥)</sup> .

\* \* \*

(١) الروح، ص: ١٦١.

(٢) صحيح مسلم: ٥٩/٣ (كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة).

(٣) صحيح مسلم: ٦٤/٣.

(٤) سنن أبي داود: ٤٩٦/٨ (كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت).

(٥) انظر الروح، ص: ١٦١، ١٦٢.

## الفصل الثالث :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

المبحث الأول : حول السنن الكونية

المبحث الثاني : نماذج منها في القرآن الكريم

المبحث الثالث : بسط بعض مظان كلية التغيير

المبحث الرابع : فقهها

المبحث الخامس : قيمتها

المبحث السادس : من مقومات التغيير

المبحث السابع : من عوائق التغيير

المبحث الثامن : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد



## المبحث الأول :

### حول السنن الكونية

#### المطلب الأول :

#### مفهوم السنة الكونية

لقد وردت لفظة «السنة» في القرآن الكريم - بالإفراد والجمع - مضافة إلى الله تعالى - أحياناً كما في قوله - تعالى -: **﴿سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَقَ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ يَجِدُ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبَدِيلًا﴾** [الأحزاب، الآية: ٦٢]، وفي قوله: **﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾** [الإسراء، الآية: ٧٧]، وأحياناً تردد مضافة إلى أنبياء الله كما في قوله - عز وجل -: **﴿سُنَّةُ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسُولِنَا﴾** [الإسراء، الآية: ٧٧]. وقد تجيء مضافة إلى الأولين أو الذين من قبل، ومنه قوله - تعالى -: **﴿رُبِيدَ اللَّهُ لِسَبَبِنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَّنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾** [النساء، الآية: ٢٦]، وسواء أضيفت السنن إلى الله، أو إلى غيره، فهي عائدة إليه سبحانه، فهو خالقها وفاعلها «وإضافتها إلى الأولين، باعتبار تعلقها بهم وإنما هي سنة الله فيهم»<sup>(١)</sup> ، لذلك فإن التعريف سيتناول المركب الإضافي الذي هو «سنة الله».

جاء في اللسان: السنة: الطريقة، والسنن أيضا.. وفي التهذيب، السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة أي من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ... وهي في الأصل: سنة الطريق وهو طريق سنة أولئك الناس، فصار مسلكاً لمن بعدهم، وسراً فلان طريقاً من الخير يسنه، إذا ابتدأ أمراً من البر، لم يعرفه قومه

(١) التحرير والتنوير: ٢٥/١٤

فاستثوا به وسلكوه<sup>(١)</sup>.

فمدار الكلمة- إذا- على معنى الطريقة المسلوكة أو المتبعة. وبذلك تكون سنة الله هي: طريقة المتبعة في معاملته- تعالى- للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم و موقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة<sup>(٢)</sup> ، أو «العادة المألوفة التي تتضمن أن يفعل في الثانية مثلما فعل بنظيره الأول»<sup>(٣)</sup> ، وقد يخبرنا- عَزَّ وَجَلَّ- عن السنن بغير لفظها، كأن يعبر بتقرير نتيجة معينة، حصولها مرتبط بأسباب أو شروط معينة، فيكون هذا الإخبار بهذه الصيغة إخباراً عن سنة ثابتة له- عَزَّ وَجَلَّ- كما في قوله: ﴿وَتِلَكَ الْقُرْبَى أَهْلَكُنَّهُمْ لَمَّا ظَاهَرُوا﴾ [الكهف، الآية: ٥٩]، قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتَهِزَ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَهُوَ يَسْتَهِزُ بِهِنَّ﴾ [الأعراف، الآية: ١٠]، قوله: ﴿وَالْعِنْقَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ١٠]، الأعراف، الآية: ١٢٨].

وعليه فموارد السنة الكونية إما بالتنصيص عليها، وإما بالدلالة والفحوى، وحيث إن سنة الله المتعلقة بأفعال البشر وسلوكهم، هي طريقة- سبحانه- المتبعة في معاملته إياهم- كما ذكر- وما يترتب على ذلك من نتائج معينة في الدنيا والآخرة، فإن هذا يعني أن معنى السنة هو القانون العام الذي يضبط أحوال البشر، وي Pax سلوكهم إلى أحكام معينة.

لذلك أمكن تسميتها- أيضاً- بالقانون العام<sup>(٤)</sup> . «أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية»<sup>(٥)</sup> ، «فإن أمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من مصارعة الحق

(١) لسان العرب: ٢٢٦/١٣، مادة "سن".

(٢) السنن الإلهية، ص: ١٣.

(٣) الفتاوى: ٢٠/١٣.

(٤) السنن الإلهية، ص: ١٤.

(٥) تفسير المنار: ٤/١٣٩.

للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك، قد جرى على طرق قوية، وقواعد ثابتة، اقتضاها ذلك القانون العام، وليس الأمر <sup>أثناً</sup> كما يزعمه القدريّة<sup>(١)</sup>.



## المطلب الثاني :

### ضرورة فقه السنن الربانية

ما بسطتُ هذه القواعد والقوانين في أرجاء الكتاب والسنة إلا لأجل تدبرها، ومن ثم فقهها، قال - تعالى - : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفَقَالُهَا﴾ [٢٤] [محمد، الآية: ٢٤]، وقال : ﴿أَفَلَمْ يَدْبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءُهُمْ مَا لَزِمَّ يَأْتِي إِبَاهُمُ الْأُولَئِينَ﴾ [الثوبان، الآية: ٦٨] فاعتبر فقه السنن من الواجبات على أهل القرآن؛ لئلا يشلهم التعريض بأن قلوبهم من ذوات الأफال، وعلم من ذلك أن فقه السنن من الدين، قال - تعالى - : ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبَيَّنَتِ الْكِتَابُ شَرِيعَةً وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلنَّاسِ﴾ [النحل، الآية: ٨٩]، قال الألوسي - رحمه الله - عند شرحه لهذه الآية: «والمراد بكل شيء» ما يتعلق بأمور الدين أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع الأنبيائهم<sup>(١)</sup> ، فكان من فقهه - رحمه الله - للآية أن جعل أحوال الأمم مع الأنبيائهم في «كل شيء» واعتباره من جملة الدين، بما فيها من صراعات وتحولات، ومواقف مع الدعاة، وكل ذلك معدود ضمن القواعد العامة التي تضبط حركات البشرية، وتفرز تطوراتها سلباً وإيجاباً، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به، نبه - سبحانه - على هذا التطبيق في الأنفس، فأرشد إلى تطبيقه على أحوال الأمم فقال - عز وجل - : ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيقَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٧]، فيتحصل من هذا أن فقه السنن جزء لا يتجزأ عن فقه الدين؛ لأنه يصرنا بواقع أولئك وأسباب الرقي والانحطاط فيهم، وما ينبغي إتيانه وتركه؛ لئلا يقع الخلل فيما وقع فيه السلف، وبذلك تكون النجاة والظفر بالمحكمات، وذلك هو الاعتبار والاتزان والنظر في العاقبة،

(١) روح المعاني: ٢١٤/١٤

وهو من مقاصد القرآن، قال - تعالى - : «**رَبُّكُمْ اللَّهُ يُشَبِّهُنَّ لَكُمْ وَيَهْدِي كُمْ مُنَّ**  
**الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» [النساء، الآية: ٢٦]. ومن ثم تكون السنن مرتبطة بالأمر والنهي والطاعة والمعصية والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك. فمتي جاء المكلف بالأمر، وجانب النهي، ووقف عند حدود الله؛ أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وخالقه وارتكب النهي عنه، ووقع في حدود الله؛ أصاب شر السنة الربانية<sup>(١)</sup>. ومن تنبه إلى أثر السنن في المجتمعات والاعتبار بها ابن تيمية - رحمه الله -، حيث يقول: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولو لا القياس واطراد فعله وستته، لم يصلح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن»<sup>(٢)</sup> ، فالإمام، والإحاطة بها، وبأثيرها في الأنفس أمر ضروري لمعرفة طبيعة هذا الدين، وطبيعة الجاهلية المقابلة، وما الحديث عنها في القرآن المكي - على وجه الخصوص - إلا ليتمس المسلمين حقيقة الصراع بين الحق والباطل حتى يكونوا على بينة من تباين السبل، واختلاف المذاهب والتوجهات، ومن ثم اختلف الأهداف، قال - تعالى - : «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَتُغْرِيَنَا أَوْ**  
**لَتَعُودُنَا فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** ١٣ ﴿١٣﴾ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ**  
**بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ١٤ ﴿١٤﴾ [إبراهيم، الآيات: ١٣، ١٤]، وبطاعنا من خلال هذه الآية - الترابط العضوي بين الجهد والعمل بالنسبة لعمال الحقل الدعوي وفق سنن الله التي لا تعرف المحاباة، فالنتائج التي يطمح إليها أكثر المؤمنين إيمانا وأشدهم تصديقا، سوف يجنيها أشد الكافرين كفرا وأعتاهم تكذيباً وفسقاً، إن هو إلا ربط الأسباب بمسبباتها «فمعركة التعامل مع سنن الله، أمر يشمل الفريقين معاً، وفقه هذه السنن يعطي النتائج حتى للكافر، ولهذا حين قال الله - تعالى - : «**وَإِنْ يَكُنْ**  
**مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**» [الأفال، الآية: ٦٥]، أعقبه مباشرة بقوله:

(١) انظر كيف نفسر التاريخ، مقال محمد بن حامل السلمي، مجلة البيان، عدد: ٥٠ ص: ٩٨.

(٢) جامع الرسائل، ص: ٥٥.

﴿يَأَيُّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال، الآية: ٦٥]، مما يدل على تدخل فقه الكافر - أيضاً - كمَا وكيفاً، ولا سيما الفقه لسن الحياة الدنيا؛ لأن الله - تعالى - يمد الجميع: المؤمن والكافر قال - تعالى - : ﴿كُلًاً نُعِدُ هَنْوَلَةً وَهَنْوَلَةً مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾<sup>(١)</sup> [الإسراء، الآية: ٢٠]، ومزوج ذلك كله أن السنن لا تميل ولا تخابي، ولا تتأثر بالأمانى وإنما بالأعمال، قال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَمْحَدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> [النساء، الآية: ١٢٣]، إنه بيان الله لسنة الجزاء، فالامر ليس منوطاً بالأمانى والتشهيات، وإنما باتباع الحق والوقوف على حكم الله، وأن الجزاء في ذلك بحسب تلك القاعدة الإلهية التي لن تجد لها تبديلاً أو تحويلًا<sup>(٣)</sup>.

ونجزم أن هذه الكثرة من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر السنة الإلهية وتطبيقاتها، تدل دلالة قاطعة على أهمية فقهها وسر أغوارها من قبل المسلمين، فهي والعبادات سواء؛ لأنه - تعالى - لا يخص بالذكر في القرآن إلا ما يلزم ذكره، ويحتاج الناس إلى معرفته، ولهذا جاء في هذه الآيات - كما أشرنا من قبل - إلى ما يدعوه إلى التأمل والاتعاظ في هذه السنن، كما وردت فيها دعوة صريحة إلى وجوب عقلها<sup>(٤)</sup>. فلم يبق للمجتمعات الإسلامية إلا أن تخل عنها وثقها، وتعي وزر فشلها، وتفهم شرعة الله ومنهاجه في جميع نواحيه، وأن تأخذ بكل سبب وكل شرط وكل عنصر من العناصر المحركة الفاعلة.

\* \* \*

(١) انظر حتى يغروا ما بأنفسهم، ص: ٤٠.

(٢) انظر تفسير المنار: ٤٣٤/٥.

(٣) انظر السنن الإلهية، ص: ٢٥.

## المطلب الثالث :

## بعض خصائصها

أ- الاطراد : لا ريب أن الخصيصة الأولى، التي تنسم بها السنة الإلهية هي الربانية، وهي ملحوظة من خلال ما أوردناه في أثناء حديثنا عن المفهوم اللغوي، أضف إلى هذه الخصيصة؛ أن السنة مطردة، وهو ما نبه عليه القرآن الكريم عند قوله - تعالى - : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسْتَنِ اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَنِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر، الآية: ٤٣]، ومن أمارات اطرادها وثبوتها أنها قد بسطت في وحي الله، وعلمتها أناس قبل أن تتبلى في القرآن، فهذا ورقة بن نوفل - الذي كان لديه علم الكتاب - يقول للنبي ﷺ بعد سماعه خبر الوحي لأول مرة -: يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيَاً إذ يخرجك قومك، فيسأله النبي ﷺ أو مخرجي هم؟ فيقول له ورقة «نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»<sup>(١)</sup> ، وهذا قيسر الروم يقول في أثناء حديثه مع أبي سفيان «سألتك كيف كان قاتلكم إيه، فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل بتقلي، ثم تكون لهم العاقبة»<sup>(٢)</sup> ، وجاء في الحديث الصحيح «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقطان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذا يبلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم تُغزِّكَ، وأنفق فستنفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل من أطاعك من عصاك»<sup>(٣)</sup> ففي الحديث دلالة اعتبار ذلك الواقع الضخم

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٢/١ (كتاب بدء الوحي باب، حدثنا يحيى بن بکير).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٢٠/٦ (كتاب الجهاد، باب قول الله عز وجل ﴿فَلَمْ تَرْبُصُوكَ إِنَّا إِلَّا إِعْلَمُ الْحُسْنَيْنِ﴾).

(٣) صحيح مسلم: ١٥٩/٨ (كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

ومراعاته، وكذلك جسامه التكليف في بدء حمل رسالة الله، كما يجلي الحديث- إلى جانب ذلك- كيفية التقاء السنن الربانية، كسنة اشتراط الجهد البشري، وابتلاء بعض الناس ببعض مع سنة العهد الإلهي بالنصر والتمكين لخزبه ولو طال أمد الابلاء.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن الحكم من اطراد السنن، هي انضباط الموازين واستقرار معاير الحكم على الأشياء والأحداث والرجال. على أنه لا ينبغي اغترار المؤمن بهذا الاطراد الذي قد تورثه الغفلة، قال- تعالى- : ﴿لَا يَغْرِنَكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَيَّلَدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] ، فإن عاين المؤمن ما عليه أهل العصيان من التمكين، فليقطع بأن ذلك ليس من قبيل تمكين الرضا، وإنما يندرج ذلك ضمن تمكين الاستدراج، أو نقل: ضمن سنة الإملاء، وهي من السنن الجارية على المترفين الذين يؤمرون بالطاعات فيفسدون ويفسدون، قال- تعالى- : ﴿وَكَائِنٌ مِّنْ قَرِيبَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتُهَا وَلَئِنَّ الْمَصِيرَ﴾ [الحج، الآية: ٤٨].

ب- الشمول: لأن سنة الله لا تكون كذلك إلا إذا كانت عامة، فهي سنن اجتماعية وليس فردية، فحين قال الحق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد، الآية: ١١] بين أن هذه السنة عامة، وذلك من التعبير بلفظ **(فَوَمِرَ)** عملية التغيير هذه تخص مجتمعاً، أو أمة، أو قوم، بكل محتويات القوم أو المجتمع أو الأمة، ويتجزء عن هذه الملاحظة في الآية الكريمة أنه لا يشترط أن يغير الله ما بشخص، إذا غير ما بنفسه أو العكس؛ لأن القضية تخص المجتمعات برمتها وليس فرداً أو أفراداً بآعیانهم<sup>(١)</sup>.



(١) انظر حتى يغروا ما بأنفسهم، ص: ٣٨.

## المبحث الثاني :

### نماذج منها في القرآن الكريم

#### المطلب الأول :

#### سنة الله في الأخذ بالأسباب

إن السبب هو كل ما يتوصل به إلى غيره كما ينتهيه اللغة<sup>(١)</sup>.

وبهذا المفهوم نطق القرآن الكريم قال - تعالى - : ﴿وَأَنْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا \* فَأَتَيْتُكَ سَبِيلًا﴾ [الكهف، الآيتين: ٨٤-٨٣] ، قال الفيروزآبادي - رحمه الله - : «أي آتاه الله من كل شيء معرفة وذرية يتوصل بها، فأتبع واحداً من تلك الأسباب»<sup>(٢)</sup>.

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن هذا القانون يحكم كل المخلوقات، فهو عام وشامل لكل ما في العالم بما فيه الإنسان، قال ابن تيمية - رحمه الله - : «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»<sup>(٣)</sup>. فالقرآن الكريم - كما يذكر ابن القيم - رحمه الله - مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية، والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي أحياناً بباء السبيبة، كقوله - تعالى - : ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّارِ الْخَالِيَّةِ﴾ [الحاقة، الآية: ٢٤] ، وأحياناً يأتي باللام؛ كقوله - تعالى - : ﴿كِتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ

(١) انظر لسان العرب: ٤٥٨/١، مادة «سب».

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١٦٩/٣ بصيرة في «السبب».

(٣) الفتاوي.

**أَفْلَمْنَا إِلَى الْتُّورِ يَأْذِنُ رَبِّهِمْ** [ابراهيم، الآية: ١]، وтaraة يأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم؛ كقوله - تعالى -: **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَغْرَاجاً** [الطلاق، الآية: ١]، وтaraة أخرى يذكر صريح التعليل كقوله - تعالى -: **وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** [المائدة، الآية: ٨٥].

فكان من هذا كله أن افتضت حكمته - تعالى - ربط المسبيات بأسبابها<sup>(١)</sup>. وفي السنة ما يلزمـنا أن نأخذ بالأسباب بعيداً عن التواكل، فعن علي - رضي الله عنه -: «عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة، فأخذ عوداً ينكـت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة، قالوا: يا رسول الله! أفلـا تتكلـ؟ قال: اعملوا فـكل ميسـر لما خلقـ له...»<sup>(٢)</sup>، فهي سنة الله وسنة رسـولـه كما قال القرطـي - رـحـمه اللهـ: وهو الحقـ المـبـينـ والـطـرـيقـ الـمـسـتـقـيمـ الـذـي انـعـدـ عـلـيـهـ إـجـمـاعـ الـمـسـلـمـينـ... ثم قال: وفي التنـزـيلـ حيثـ خـاطـبـ مـوسـىـ الـكـلـيمـ **أَضـرـبـ يـعـصـاكـ الـبـحـرـ** [الـشـعـراءـ، الآية: ٦٣]، وقدـ كانـ قـادـراـ عـلـىـ فـلـقـ الـبـحـرـ دونـ ضـرـبـ عـصـاـ، وـكـذـلـكـ مـرـيمـ عـلـيـهـاـ السـلامـ: **وَهُزِئَ إِلَيْكَ بِمَنْعَ الْخَلَقَ** [مرـيمـ، الآية: ٢٥]، وقدـ كانـ قـادـراـ عـلـىـ هـزـ الرـطبـ دونـ هـزـ وـلـاـ تـعبـ، وـمـعـ هـذـاـ كـلـهـ فـلـاـ نـكـرـ أـنـ يـكـونـ رـجـلـ يـلـطـفـ بـهـ وـيـعـانـ، أـوـ تـجـابـ دـعـوـتـهـ، أـوـ يـكـرمـ بـكـرـامـةـ فـيـ خـاصـةـ نـفـسـهـ أـوـ لـأـجلـ غـيرـهـ، وـلـاـ تـهـدـمـ لـذـلـكـ القـوـاعـدـ الـكـلـيـةـ وـالـأـمـرـ الـجـمـلـيـةـ هـيـهـاتـ هـيـهـاتـ، لـاـ يـقـالـ: فـقـدـ قـالـ اللـهـ - تعالىـ -: **وَفِي أَسْمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴿٢﴾ [الـذـارـيـاتـ، الآية: ٢٢]، فـإـنـماـ نـقـولـ صـدـقـ اللـهـ الـعـظـيمـ، وـصـدـقـ رسـولـهـ الـكـرـيمـ، وـأـنـ الرـزـقـ هـنـاـ المـطـرـ يـأـجـمـاعـ أـهـلـ التـأـوـيلـ بـدـلـيـلـ قـولـهـ: **وَيَنْزَلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا** [غـافـرـ، الآية: ١٣]، وـلـمـ يـشـاهـدـ يـنـزـلـ مـنـ السـمـاءـ عـلـىـ الـخـلـقـ أـطـبـاقـ الـحـبـزـ.

(١) مدارج السالكين: ٤٧٨، ٤٩٨.

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٥٢١/١٣ (كتاب التوحيد، باب قوله تعالى فاقرؤوا ما تيسر منه).

ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل وجود ذلك وهو معنى قوله ﷺ «اطلبو الرزق في خبايا الأرض»، أي بالحرث والحفر والغرس<sup>(١)</sup>.

ويتجلى احترام منطق السببية في هجرة الرسول ﷺ واضحاً فلقد نبئ ﷺ وهو على رأس الأربعين، وكان القرآن يتنزل عليه يطمئنه إلى أن المستقبل له، وأن عاقبة الصراع مع الوثنية ستختتم بالنصر، فقد أصفعى بكل اطمئنان لقوله - عَزَّ وَجَلَّ -:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَدَّ جَهَنَّمَ لَهُمُ الْعَذَابُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصفات، الآيات: ١٧١-١٧٣]، كما أصفعى لقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَكَانَ حَفَّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم، الآية: ٤٧]، ولقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَسْهَدُ﴾ [غافر، الآية: ٥١]، لقد أصفعى إلى هنا كله حتى غدا ينظر إلى النصر كأنما ينظر إليه من خلال ستار رقيق. لكن لم يشهه هذا اليقين لأن يتخذ الأسباب - عليه الصلاة والسلام -.

لقد رأينا يهبي الإجراءات الوقائية ويجهد فيها، فقد هاجر ﷺ مستخفياً بليل واتخذ صاحباً - تمثلت فيه البطانة الصالحة والخاشية الناصحة - كما اتخذ خريتاً، وانتقى رواحل قوية أعلفها وأراحها؛ حتى تستطيع تحمل متاعب السفر ووعائده، واختفى في الغار ثلاث ليال حتى يؤمن له الطريق. كل ذلك جاء تطبيقاً لقانون الأخذ بالأسباب.

فلا بد - إذا - من رعاية هذا القانون وألا يبعث بمقدماته ونتائجها باسم التوكل الذي هو في الحقيقة توأكل وفوضى، لابد من سلك سبيله أن يجني المر.



## المطلب الثاني :

### سنة التداول

وهي من السنن الإلهية المثبتة في الكتاب، قال - تعالى - : ﴿إِن يَمْسِكُمْ قَرْبَهُ فَقَدْ سَأَلَ الْقَوْمَ قَرْبَهُ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ أَلَّا تَرَى إِمَانُكُمْ وَيَتَخَذَّ وَنِكْمَ شَهَادَةً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ١٤٠] قال محمد عبده - رحمه الله - «هذه قاعدة كقاعدة ﴿فَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران، الآية: ١٣٨]، أي هذه سنة من تلك السنن، وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين، على أن هذه المداولة تكون مبنية على أعمال الناس، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافاً، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها»<sup>(١)</sup> . وهي سنة نافذة بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس، قال - عز وجل - : ﴿ذَلِكَ يُكَفِّرُ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا تَعْمَلُهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يَأْنَسُهُمْ﴾ [الأنفال، الآية: ٥٣]، وعليه فالمداولة منوطه بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة، وإعداد ما يستطيع من القوة ووسائل إرهاب العدو، كل هذا ينبغي الأخذ به، وإحكامه، أشد الإحكام واستيفاء أسبابه، مع الإيمان بأن ذلك اقتضته سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، وأن أزمنة الظفر والفوز والعلو مرأة للمبطل ومرة للمحق، على أن المضمون لصاحب الحق أن تكون له العاقبة، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَنْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٨] .

(١) تفسير المنار: ١٤٨/٤.

هذه العاقبة التي لا تأتي - بحسب سنة الله - دون جهد يبذل، وتضحية تقدم، ومدافعة لأهل الباطل والطغيان، بل لا بد من هذا ومعه الأذى الشديد من قبل قوى الباطل وغلاة لهم - في بعض الأحيان - وهو ما لا يتعارض وسنة الله في المداولة؛ إذ إن الأمور بخواتيمها، قال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُلَّمَا نَعْبَدُنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿إِنَّمَا لَهُمُ الْمُنْصُرُونَ ﴾ ﴿وَلَئِنْ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَنَيْمَةُ﴾ [الصفات، الآيات: ١٧١-١٧٣]، فهو وعد منه - تعالى - بعلوهم على عدوهم، ولا يلزم من انهزامهم في بعض المشاهد أن يكون نقضاً للغلبة<sup>(١)</sup> ، وله - تعالى - الحكمة البالغة فيما يصيب حزبه من أذى قبل بلوغ النصر الحاسم، فلا ينبغي أن يضعف الحق، وأن تفتر همته ما دام على هدى من الله وعدوه على ضلاله.

\* \* \*

## المطلب الثالث :

## سنة الله في الاستدراج والإملاء

والاستدراج: الإدناء على التدريج<sup>(١)</sup> ، قال - تعالى -: ﴿سَنَسْتَرِّجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأَمْتِلُ لَهُم﴾ [الأعراف، الآيتين: ١٨٢-١٨٣] ، قال الراغب - رحمه الله -: «سنستدرجهم معناه: نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناوهم من الشيء شيئاً فشيئاً؛ كالمراسي والمنازل في ارتفاعها وننزلها<sup>(٢)</sup> ، وقال القرطبي - رحمه الله -: «الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة»<sup>(٣)</sup> ، فمن سنة الله - تعالى - الاستدراج، ومعنى الآية أن الله يستدرنـي «الكفرة والعصاة قليلاً إلى ما يهلكـهم ويضاعـف عقابـهم من حيث لا يـعلمـونـ ما يـرادـ بهـمـ، وذلكـ أنـ يـواتـرـ اللهـ نـعمـهـ عـلـيـهـمـ معـ انـهـماـكـهمـ فيـ الغـيـ، فـكـلـماـ جـدـدـ عـلـيـهـمـ نـعـمـةـ، اـزـدـادـواـ بـطـرـاـ، وـجـدـدـواـ مـعـصـيـةـ، فـيـتـدـرـجـونـ فيـ الـعـاصـيـ بـسـبـبـ تـرـادـفـ النـعـمـ، ظـانـينـ أـنـ مـوـاتـرـ النـعـمـ أـثـرـةـ مـنـ اللهـ وـتـقـرـيبـ، وـإـنـماـ هيـ خـذـلـانـ مـنـهـ وـتـبـيـعـ، فـهـوـ اـسـتـدـرـاجـ مـنـهـ - عـزـ وـجـلـ -»<sup>(٤)</sup> ؛ قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَعْتَهُ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ٤٤] ، وذلك بفعل الاستدراج الذي يوصلـهمـ إـلـىـ الـهـلـكـةـ.

ولا ريب أن النص القرآني دائمًا أبعد مدى من المناسبة الخاصة، والعموم سمة من سمات السنن الكونية، فكل من اغتر بمجتمعه الكبير وبماله الوفير اغتراراً ينسيه التوبـةـ

(١) لسان العرب: ٩٢/٣ . مادة «درج» .

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٦٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٩/٧ .

(٤) انظر الكشاف: ١٣٣/٢ .

إلى الله والأوبة إليه، ويلهيه عن شكر النعم إلى أن ينخدع ولا يفطن، حتى ينتهي إلى ما يسوءه من مخبره وغايته، كان من شملتهم سنة الله هذه.

وفي الحديث الشريف ما ينبيء عن هذه القاعدة، فعن أبي موسى - رضي الله عنه -، قال: **﴿وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرَى وَهِيَ ظَلَمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾**<sup>(١)</sup> [هود، الآية: ١٠٢]، فمضت سنة الله ولا راد لسته في الأمم والأفراد بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، والشعوب والمجتمعات الظالمة لا بد أن يزول سلطانها وتدول دولتها ولو بعد حين<sup>(٢)</sup> ، والعاقل من اتعظ بالسنن. وحتى يظن المجتمع أنه أريد به خيراً لا إملاعاً، ينبغي أن يسارع إلى شكر النعم لا بطرها، ليكون ذلك من أمارات الترجيح أن هذه النعم إكرام وإنعام، وليس استدراجاً وإمهالاً، ثم يواصل من كل ما من شأنه أن يطيل عمر هذا العطاء؛ فيضعه في موضعه، ويزيد عليه في طاعته، ويأتي ويندر بكل ما يحبه الله ويرضاه<sup>(٣)</sup> .



(١) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري: ٣٥٤/٨ (كتاب التفسير، باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذى القرى وهي ظلمة إن أخذه أليم شديد).

(٢) انظر تفسير المنار: ٤٥٢/٩.

(٣) هذه النماذج المعروضة إنما هي على سبيل التمثيل لا الحصر، وإنما هي من السنن المودعة في القرآن شيء كثير، منها: سنة التدافع، وسنة الأجل المسمى، وسنة الاختلاف، وسنة التدرج وغيرها...



### المبحث الثالث :

## بسط بعض مظان كلية التغيير في القرآن

### أ - بعض مظانها تنصيصاً :

- قوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُكِنْ مُغَرِّراً لِعَمَّةَ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَرِّرُوا مَا يُنَفِّسُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [الأفال، الآية: ٥٣].

### ب - بعض مظانها دلالة :

- قوله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٨].

- قوله - تعالى - : ﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِنْ شَيْءٍ لَعَنْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدِيسَةً﴾ [المائدة، الآية: ١٣].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَفَامُوا أَلْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة، الآية: ٦٦].

- قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام، الآية: ٤٤].

- قوله - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَا سُوا وَأَنَّقُوا لَفَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف، الآية: ٩٦].

- قوله - تعالى - : ﴿وَنَقْلَبُ أَفِدَّهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ مَوْتُمُوا بِهِ أَوْ أَوْلَ مَرْقَدٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ١١٠].

- قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْنَا مُتَرَفِّهِا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء، الآية: ١٦].

- قوله - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَبِيْ فِي مَسْكِيْهِمْ إِعْيَاهُ جَنَّاتِنَا عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِهِمْ كُلُّوْ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكَرُوا لِهُ بَلَدَهُ طَبِيَّهُ وَرَبُّ عَفْوٍ ﴾١٦﴿ فَأَعْرَضُوا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَيَدَلَّهُمْ بِجَنَّاتِنَا ذَوَاقَ أَكْلِ حَمَطٍ وَأَثْلٍ وَشَقِّيْهِ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾١٧﴿ ذَلِكَ جَزِيَّهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُنَّ بُخْرَى إِلَّا الْكُفَّارُ﴾ [سبأ].

الآيات: ١٥، ١٦، ١٧.

- قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّفِيقِينَ﴾

[الصف، الآية: ٥].

- قوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ مِنْ أَعْنَى وَلَقَنَ ﴾١﴿ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴾٢﴿ فَسَيِّسَهُ لِلنُّسْرَى  
وَمَمَّا مِنْ يَخْلُ وَاسْتَغْفَنَ ﴾٣﴿ وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى ﴾٤﴿ فَسَيِّسَهُ لِلنُّسْرَى ﴾٥﴾ [الليل، الآيات: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١].

الآيات: ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

- قوله - تعالى - : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾٦﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين، الآية: ٤، ٥].

\* \* \*

## المبحث الرابع :

### فقها

#### المطلب الأول :

#### مفهوم التغير في اللغة

جاء في اللسان: تغير الشيء عن حاله: تحول، وغيره: حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا لَعَمَّا أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَذِّبُوا مَا يَأْفَسُّهُمْ﴾ [الأفال، الآية: ٥٣]، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله ... يقال غير فلان عن بعيره: إذا حط عنه رحله وأصلح من شأنه... وورد في حديث الاستسقاء: «من يكفر الله يلق الغير»، أي تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد<sup>(١)</sup> والتغيير: التبديل بالغاير<sup>(٢)</sup>.



(١) لسان العرب: ٤٠/٥ مادة «غير».

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/١٠٢.

## المطلب الثاني :

### مفهوم التغير في الاصطلاح

ولم ينأ المفهوم الاصطلاحي عن المعنى اللغوي؛ حيث بقيت مادة التحويل والتبديل والانتقال بارزة في الاصطلاح.

قال الجرجاني - رحمه الله -: «التغيير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى<sup>(١)</sup>. وقال الراغب: التغيير يقال على وجهين: أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، والثاني، لتبديله بغيره نحو غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلت بهما غيرهما»<sup>(٢)</sup> ، وعرفه جودة سعيد بقوله: «التغيير: هو انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقه بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان، وبين هذه الأركان توازن»<sup>(٣)</sup>.

فالتغيير - إذا - هو ذلك التغير الكمي والكمي المعلن لانتهاء فترة وانتقال لفترة أخرى أو لنقل: اللحظة الحاسمة بين عهدين متناقضين يتجاوز فيها الماضي والمستقبل تفصلهما الإرادة بكل عناصرها الفاترة أو الحياة. وليس من شك في أن المراد هنا هو استئناف حياة طيبة، والبحث عن كل وسيلة موصلة إليها؛ فكرية كانت أو مادية.

فالتغيير المنشود، هو ذلك الانتقال من عهد الفوضى والجمود إلى عهد التنظيم والتوجيه والبعث من جديد.

(١) التعريفات، ص: ٦٣.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٨٢.

(٣) حتى يغروا ما بأنفسهم، ص: ٢٧.

ومن هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل في أيام الذين خلوا من قبل؛ لاستخلاص العبر والعظات وأن يدركونا سنن الله في التغيير، والحق أنهم لو فعلوا فبدعوا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها، ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها، لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن التغيير وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق الله، ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيراً في الأرض، وأشد منهم استباطاً لسنن الاجتماع، وأعرف منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين، والانتعاظ بجهل المعاصرين.

فالمؤمن هو من يهتدى بهذا الكتاب ويتعظ بمواعظه، ومن مواضعه هذه السنة التي يجب فقها والقيام بحقوقها التي وردت بص صريح لا يحتمل التأويل لا في شكله ولا في مضمونه، قال - تعالى - **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِالْأَرْضِ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [الرعد، الآية: ١١]. ولقد تناولها المفسرون بالشرح والتحليل، فأجمعوا على أن المراد لا يغير الله ما يقوم بهم فيه من النعم بإنزال الانتقام، إلا بأن يكون منهم العاصي والفساد<sup>(١)</sup>. وفي خطبة الإمام علي - رضي الله عنه - كما ينقلها - رحمه الله -، قال: قال علي - رضي الله عنه -: كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدائي، وإذا سأله عن الخبر أبئني، وإنه حدثني عن ربه - عَزَّ وَجَلَّ - قال: «قال رب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعة، إلا تحولت لهم مما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي». قال ابن كثير: وهذا غريب وفي إسناده من لا أعرفه<sup>(٢)</sup>. قال صاحب الظلال - رحمه الله -: «وإنها لحقيقة تلقي على

(١) انظر التفسير الكبير: ٢٣/١٩، وانظر فتح القدير: ٦٩/٣، وأنوار التنزيل: ١٤٨/٣، ومحاسن التأويل ٣٣٩/٩، وتفسير القرآن العظيم: ٥٠٤/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٠٤/٢.

البشر تبعة ثقيلة، فقد مضت مشيئه الله، وجرت بها سنته أن تترتب مشيئته - تعالى -  
بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعريضهم لهذه السنة  
بسلاوكهم «<sup>(١)</sup>».

(١) في ظلال القرآن: ٤٠٤٩.

## المبحث الخامس :

### قيمتها

### المطلب الأول :

### ضرورة فقه سنة التغيير

#### أ - في المجال التربوي:

إن مفعول القرآن كله سيتعطل إذا ما أصبحت توجيهاته التربوية مجرد شعارات جوفاء، وغدت آياته يتبرك بها، وصار منتهى الدين هي تلك الطقوس الباردة التي لا تحدث في النفس أي انتباه أو حركة.

والآفة كل الآفة في هذه الظاهرة التي نسميها للأسف الإسلام، والتي أبعدت المسلمين عن ممارستهم العملية لمفاهيم القرآن الكريم، «فالأسس التي وضعها القرآن للتكامل الاجتماعي والفردي قد غابت عن ذهنية الإنسان المسلم، وأضجحى أفراد المجتمع الإسلامي يتخبطون في النطاق الضيق لذاتياتهم»<sup>(١)</sup> ، إن المسلمين تعوزهم الحاجة إلى حقيقة الترابط بين السلوك والعقيدة، ولن يتحقق ذلك إلا بعد البحث والتحصيل لإدراك هذه النتيجة التي يمكن تلخيصها في معرفة أركان الإيمان والإسلام وشروطهما «التي يعني بها الشروط النفسية؛ لأن مثل هذا الفقه ينبع ثمرات الإيمان أي شرط مطابقة العمل مع العقيدة»<sup>(٢)</sup> فتفدو هذه الأمكانية والأزمنة العبادية مجرد

(١) الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي، ص: ٣١.

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ١٢، ١٣.

وقفات شحن طاقاتها مشمرة للإرادة الفاعلة التي يتوصل بها إلى ماهية النفس وما أحدق بها من أقسام أحالتها إلى عين كليلة لا تطيق أن ترى النور؛ مما يعطي حق البقاء لهذه الأقسام، فيشعر المسلم بثقل وطأتها عليه وفي الوقت ذاته لا يدرى كيف يتخلص منها.

وفي القرآن الكريم المراقي للصعود والإشراف على لب المشكلة وهي أن «ما بالنفس ليس بالظلم الذي يتحقق بالإنسان من الخارج، بل من الظلم الذي أنزله بنفسه وهو ما تقرره الآيات القرآنية..»

كما أنه من أكبر الظلم الذي ينزله المسلم بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بينه وبين الكون والمجتمع، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيهما<sup>(١)</sup> سلباً أو إيجاباً، فكلما انفتحت قاعدة الإسلام في فكره، إلا وتبادر ذلك في عمله وعلاقاته، وفي تمثيله للحياة كلها، وصارت لديه الحصانة التي تعصمه من أن يرتد عن ذاته، فلا بد - إذا - من العمل على إبقاء الفكرة الإسلامية يقظة بداخله؛ لأنها ضمان لاستمرار الحاضر، وتطلع إلى المستقبل<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا يمكن القول: إن فهم المسلم للفكرة الإسلامية مبدأً أساسي وركيزة لتشييد بناء التغيير - وأعني به البناء العملي - لأن المشكلة تكمن في التفاعل مع الإسلام، فالقضية آيلة إلى المسلم نفسه الذي هو في حاجة إلى تفكير، ثم إلى تدبير؛ لأنه محور الفاعلية، وفعاليته رهينة بتفعيل مبدئه الذي من خلاله سينطلق.

فالانطلاق الأولى لعملية التفعيل هي الإسلام، مما يدل على أن مرحلة الروح مرحلة حساسة، تؤسس في فكر الإنسان أول ما تؤسس: العبودية لله، والاستخلاف في

(١) حتى يغروا ما بأنفسهم، ص: ١٥.

(٢) انظر المشروع الحضاري، ص: ٤٣، ٤٤.

الأرض، وسيادة الأخلاق، وكلها عناصر فاعلة في توجيه المسيرة الإنسانية نحو خط إيجابي، كما أنها تعتبر الأساس المعنوي الملائم للشعور بالتغيير، والقرآن الكريم يقرر هذا في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْمَاءَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٠]، حيث تبرز الآية دور الإنسان المتمثل في الاستخلاف، والذي هو بجعل من الله - عز وجل - مقصوده عمارة الأرض على أساس منهج الله وعطاء الله، الذي ينبغي أن يستحضر في كل ما هو إيجابي ومفيد فلا استغراب - بعد هذا - من كون الوحي محطة تفعيلية - كما قررناه - ذلك لأن الكثير من الدارسين غالباً ما ينظرون الوحي في دائرة الغيب، حيث انسداد باب الفهم والتلقي، لا لعمق ذاتي في الوحي، ولكن لسوء تعاطيهم وتفاعلهم مع نصوص الوحي.

وخير نموذج لهذا التفعيل، رسول الله ﷺ حيث طالعنا تلك اللحظات الأولى المؤذنة بميلاد حياة جديدة، والتي يedo فيها الاستعداد الكامل للتفاعل بين الرسول ﷺ وبين الوحي، وذلك في قوله - عز وجل - : ﴿يَأَيُّهَا الْمُرْمَلُ ۝ قُرْ أَلَّا قَلِيلًا ۝ يَضْفَهُ ۝ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ ۲ ۝ أَوْ زَدْ عَلَيْهِ ۝ وَرَتَّلَ الْقَزْمَانَ تَرْتِيلًا ۝ ۳ ۝﴾ [المزمول، الآيات: ٤٢، ٤٣، ٤٤]، إن الوقت وقت فعالية واستعداد، لا وقت تزميل وخمول، إنه وقت الصلاة، وقت الإعداد الروحي، وتكوين الأساس النفسي من أجل النهوض والفعالية.

ولماذا كان هذا الإعداد؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ۵ ۝﴾ [المزمول، الآية: ٥]، إنه القرآن وما وراءه من التكليف، ولا ريب أن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه أمر ثقيل في حاجة إلى استعداد طويل<sup>(١)</sup>. وعرض القرآن للعملية التفعيلية بين الذات النبوية والوحي ما هو إلا نموذج للإنسان المسلم؛ لترسيخ البذور الفكرية من خلال المنهجية القرآنية أثناء التعامل مع محتوياته.

(١) انظر في ظلال القرآن: ٣٧٤٥ / ٦.

## أ- في المجال الدعوي:

إن الداعية شأنه كشأن الطبيب العارف، لا بد له - كي يحدث تغييرًا من السقم إلى البرء - أن يحيط بقوانين المرض، وكلما توغل علمه في كشف الظواهر المرضية، كلما كان حظه وفيرًا لتحويل خلل الجسم إلى توازن.

والمجتمعات الإسلامية - بلة غيرها - تبدو عليها الأمراض التي لن تستعصي على كل ذي كفاءة دعوية - رغم ضخامة الكم - إذ من شأنه قبل أن يباشر العمل - أن يبحث عن ماتى الخلل بكل أسبابه ومقدماته إذا ما خابر السنن الاجتماعية التي يخضع لها هذا المجتمع أو ذاك؛ لأن الخبرير يمكنه - بعد إدراكها - أن يتخذ إجراءات تغييرية، «ويفرض نظام الحمية على الأغذية الفكرية التي يتناولها، لما تحمل هذه الأغذية من جراثيم فكرية تعطل قوى المجتمع، وتحل من تماسته، فكما يمكن استخدام الحجر الصحي لإيقاف الأوبئة في مستوى المرض الصحي، يمكن كذلك استخدامه في مستوى المرض الاجتماعي بإعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد أفكار مرضية»<sup>(١)</sup>.

وأول طريق الداعية العالم بالسنن هو التفاؤل بالتغيير؛ إذ إنه ينفع في روعه الإقبال على العمل التغييري وكله ثقة واطمئنان وطمأن في نجاح العملية التغييرية، وحسبك بهذا زاد يضمن النفس الطويل رغم وعورة المسالك، كما إن هذا النوع من الفقه يجعله محسوباً ضمن حملة هموم المجتمع ومشاكله، لا باعتبارها مشاكل مزمنة يقف بين يديها مع الواقعين مشدوهاً يحوقل، بل باعتبارها مشاكل في حاجة إلى مصارعة فكرية لإيجاد الحلول ولو بعد حين بكل شجاعة وجرأة ومزاحمة لسير الزمان

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٢١ بتصرف.

المنحرف، وكلما عظم هذا في نفسه ووجادانه نادى منادي التجديد والتغيير الذي ينتهي به إلى أبعد مرحلة؛ وهي المتابكة والمفاصلة مع الجاهلية بكل ألوانها، حتى لا يكاد يصبر على رؤية أدنى أثر من آثارها في أي جزء من بناء الإسلام مهما كان تافها.

وال المجتمع الإسلامي أحوج ما يكون إلى هذه العينة التي تكونت في جوهرها من الإرادات والذكاء والانتباه والمعاناة، وهي عناصر رئيسة في منهج التغيير؛ تحصر الضوابط والوسائل أولاً، ثم تربط العمل بالهدف مع عدم إغفال سير العملية في ضوء كتاب الله وسنة رسوله وقواعدهما الكلية.

وهي عملية أول ما يطالعنا - من خلالها - تصحيح العقيدة في النفوس وتعظيمها في القلوب؛ لأنها أول مرض تشكو منه المجتمعات الإسلامية، وليس غريباً أن نجد القرآن الكريم حين يذكر المرض في القلب - في عدة مواضع - لا يذكره على أساس أنه مرض عضوي في جسم الفرد، وإنما على أساس أنه مرض اجتماعي في نفس المجتمع... يقصد به مرضًا فكريًا يصيب الإنسان في علاقته بالمثل الأعلى؛ فيحيل الشخص إلى عاجز عن القيام بأداء وظيفته الاجتماعية في جسم الأمة<sup>(١)</sup>. وذلك هو الإفراز الذي يوجده الإيمان الجدي الذي يعني الترعة الفردية، كإيمان الرهبان الذي يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم<sup>(٢)</sup>. ومصدبة المجتمعات الإسلامية هو هذا النوع من الإيمان الذي لم تدرك فيه أغوار «لا إله إلا الله» وعمقها؛ فقعد أفرادها بكل صراط يرددونها بأسنتهم دون أن تعيها قلوبهم، وهي في الواقع أول شارة تدهم بال الحاجة إلى التحول من أزمة الذل والعار، إلى مقومات العزة والكرامة في دنياهم وأخرتهم.



(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص: ٢٢.

(٢) انظر وجهة العالم الإسلامي، ص: ٢٨.



## المبحث السادس :

### من مقومات التغيير

#### المطلب الأول :

#### فقه الإنسان لدوره في الحياة

لقد سبقت الكلمة في أن وجود الإنسان معنى بالعبدية لله، فلابد - إذا - من خصائص يتسم بها ووظيفة يمارسها.

من ذلك؛ إشراب قلبه وجهة الإسلام، ونظرته، وأسلوبه الفكري، وسلوكه الخلقي، بحيث يغدو في طريق تفكيره، ومقصد حياته، ومنهج عمله وميزانه لقيم الأشياء وأقدارها، متطبعاً بطابع الإسلام، وهذه هي وجهة الإنسان، وهذه هي طريقه، باعتبارها الوسيلة المؤدية إلى الكمال الإنساني الذي يريده الله - تعالى -، وذلك هو مغزى قوله - عز وجل -: «يَأَيُّهَا النَّاسُ أَبْعُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [٢١] [البقرة، الآية: ٢١].

وتعظم هذه الوجهة الربانية كلما عظم سواد الميمين شطرها -؛ لأن الأمر يحتاج إلى تآزر وتعاون - حيث يتكون المجتمع ذو التركيبة المحكمة، مجتمع البنية المرصوص، ذو الرابطة القلبية التي ستظل وحدتها الرابطة الوثيقة الموحدة بين الأفراد والمؤهلة لتأدية الوظيفة والرسالة.

وإنما يقع هذا، حين يتم الإقبال على الله بقلوب واعية وأذان صاغية وأبصار نافذة، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [١٧] (ق، الآية: ٣٧)، «صاحب القلب الحي»، بين قلبه وبين معاني الوحي أتم اتصال<sup>(١)</sup> ، هذه المعاني التي تنطلق به نحو توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم إلى دعوة رسول الله؛ التي هي منهاج شرع الله، ليجد في نهاية الطريق المعاد الذي يجعله يقف من جديد بين يدي الله، فأول الطريق - إذن - خضوعه لنهاج الله الذي يعتبر مقياس حركته.

(١) التفسير القيم، ص: ٤٤٥.

## المطلب الثاني :

### إدراك السنن الفاعلة في التغيير

إنه بقدر ما يتم توظيف الحواس في مجال التفكير والنظر بقدر ما يكون الطريق متوصلا نحو عقل الأشياء وإدراكتها.

فمني ألغى دور هذه الحواس فقد الإنسان إنسانيته وصار أقرب ما يكون إلى العجمادات، بل أضل، قال - تعالى - : «**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُصْرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذْنَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**» [الأعراف، الآية: ١٧٩]، فعدم الانتفاع بموهبة القلوب والأسماع والأبصار؛ التي هي آلات العلم والعرفان وطرق الهدایة والإيمان، وتوجيهه ذلك كله إلى التأمل والتفكير في أخبار التاريخ والقصص الدالة على سنته - تعالى - في خلقه، غفلة تردي في دركة الأنعام، بل فوق ذلك في الضلال؛ «لأن للأنعام استعدادات فطرية تهديها، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الوعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا... فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهدایة»<sup>(١)</sup>. ألا ترى إلى القرآن - وهو يتحدث عن عملية الإخراج من البطون؛ فيمتن على الإنسان بأن ركب فيه آلات الإدراك - حيث يقول - عز وجل - : «**وَاللَّهُ أَخْرِجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَادَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ**» [النحل، الآية: ٧٨]. قال القرطبي - رحمة الله - : «أي التي تعلمون بها وتدركون»<sup>(٢)</sup> ، وقال الزمخشري - رحمة الله - :

(١) في ظلال القرآن: ١٤٠١/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥١/١٠.

**﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾** أي وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واحتلاط العلم والعمل به<sup>(١)</sup>.

ولعمري إن في قوله - تعالى -: **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** أسراراً تستأهل الشكر، وكأنني أرى أن الشكر مستمر جنباً إلى جنب مع ما تتوجه المدركات من طاقات معرفية هائلة، وكأن هذا الشكر بدوره عنصر من عناصر التفعيل الإدراكي والاعتباري، قال الألوسي - في معنى الآية - «والمعنى: جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفتدتكم - أي بعقولكم - وتنبهوا لما بينها من المشاركات والمبادرات بتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية»<sup>(٢)</sup>.

ولقد أمر القرآن بالنظر والتفكير في آيات الله - تعالى - : في الأنفس والأفاق؛ ليزداد الناس يقيناً بأنه هو الخالق، وليعلموا أن كل شيء خلقه قدره تقدير، وأن كل ما فيه يجري بأمره وفق ما وضعه به من نظام.

ومن هذه الآيات الداعية إلى النظر في الكون والتأمل فيه قوله - تعالى - : **﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [يونس، الآية: ١٠١]، فكان الأصل في معرفة هذا القانون العام، هو النظر والمشاهدة والتأمل والتجارب والاستقراء، وقال - تعالى - : **﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِينَ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾** [١١] **﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ سُوقَ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزُ فَنَخْرُجُ بِهِ، زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَغْنَمُهُمْ وَأَنْفَسُهُمْ أَفَلَا يَبْصِرُونَ ﴾** [السجدة، الآية: ٢٧، ٢٦]، وهما مثلان للآيات البصرية والسمعية وحافر إلى التشبع بفقه الأحداث الكونية العامة

(١) الكشاف: ٤٢٢/٢

(٢) روح المعاني: ٢٠١/١٤

والخاصة بالإنسان، وما هذه الحضارات البائدة إلا دليل قوي على الحاجة الملحة لإدراك السنن ﴿فَاعْتَرُوا يَتَأْوِلِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر، الآية: ٢].

على أن هذا العلم مشاع للجميع، لا اختصاص لأحد به إلا إذا استثنينا القصد من تعلمه وأوجه الانتفاع به؛ لأن قصد المسلم فيما يتعلم وفيما يعلم، محكم بحكم شرع الله.





## المبحث السابع :

### من عوائق التغيير

### المطلب الأول : المقلدة

كلما أعرض الإنسان ونأى بجانبه عن المبدأ الحق - مبدأ العقيدة السليمة - وانغمس في واقع فكري متغصن وتصور عقدي آسن، إلا وضرب بينه وبين التغيير بسور، فلا يجد التغيير إليه سبيلاً؛ لأجل أنه لم يعد قابلاً للتحرر والانعتاق، والانتقال من حال الجمود الفكري إلى حال التحرر والتغيير. تلك هي حقيقة من أخلدوا إلى الأرض واتبعوا آباءهم، قال - تعالى - : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْيَانَا عَلَيْهِ أَبَاءَهُمْ أَوْ أَنُوْكَ كَانَ أَبَكَأُؤُمُّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (١٧٠) [البقرة، الآية: ١٧٠]، «وَالآية تندد بتلقى شيء في أمر العقيدة من غير الله، وتندد بالتقليد في هذا الشأن، والنفل بلا تعلم ولا إدراك، ثم ترسم صورة مزرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها»<sup>(١)</sup> ، وذلك حين يضي السياق القرآني فينعتهم بقوله: «كَثُلَ الَّذِي يَنْعِي بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً رُمْ بِكُمْ غَمْيٌ فَهُمْ لَا يَقْلُونَ» [البقرة، الآية: ١٧١].

والقرآن الكريم يدين الذين يلزمون ما كان عليه الآباء، ويقدسونهم، ثم يصير ذلك حسبيهم، قال - تعالى - : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَابَأَهَنَا» (المائدة، الآية: ٤٠)، لقد عميت عليهم الأنبياء، فأشربوا في قلوبهم الإعراض، وتمسكون بما كان عليه الآباء، ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد، واختاروا عبودية العقل والضمير للأباء والأجداد.

(١) في ظلال القرآن: ١٥٥/١.

وأحسب أن استمراء مثل هذه العقائد تورث الدعة والاستكانة والرضا بالواقع الذليل، ومن ثم تشنل حركة الحياة التي قصدها القرآن في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ [الذاريات، الآية: ٥٦].

كما أنها تقطع السبيل على الذين يرغبون في استئناف حياة إسلامية تحت ظلال الشريعة وتعاليمها، والقرآن يحكي نموذجاً من هذا القبيل، وذلك حين تأتي البيانات على أيدي الرسل - حاملي راية التغيير - فيقول - تعالى - : ﴿ قَالَ رَسُولُهُ أَفِي اللَّهِ شَكٌ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْخِرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىٰ قَاتِلُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِنْنَا ثُرِيدُونَ أَنْ تَصْدُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ إِبَّا اُوْنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم، الآية: ١٠] إنهم جعلوا اختيار الرسل مثار شك وريبة، وعللوا دعوتهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان عليه الآباء.

قال سيد - رحمه الله - : « ... ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟ وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول، لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم: ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير، وبطبيعة الجمود العقلي كذلك، لا يفكرون في الدعوة الجديدة، إنما يطلبون خارقة ترغفهم على التصديق! »<sup>(١)</sup>. مثل هؤلاء يتهيأ الحق للصراع، ويتوكل على الله في مواجهة « الطغيان بالإيمان والأذى بالثبات »<sup>(٢)</sup> ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبُلًا وَلَنَصِرَنَّ عَلَى مَا مَاءَذِيَّمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم، الآية: ١٢]، ولعمري إن في الآية تجسيداً لموقف المصلح الذي يطمح إلى التغيير وسط زحمة المقلدة دون تغيب آياته؛ من توكل على الله، واطمئنان بالهدى، والصبر على الأذى، وكل ذلك محسوب ضمن عناصر معركة التغيير، كما أنه من سمات الأهلية المohoبة للقيادة والكفاءة للبناء والإنشاء.

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٩١/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٠٩١/٤.

## المطلب الثاني :

### المستكرون

إن من أهداف الإسلام الرئيسية «تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لتأثير القوة الظاهرة التي يتميز بها المترفون والمستكرون، باعتبارها سبيلاً من سبل تحرير حياة الإنسان من الاستسلام لأفكار هؤلاء ونزاواتهم ومخططاتهم التي لا تسير غالباً في اتجاه الخير، وإنما تظل معنة في دروب الشر؛ لذا فمن البديهي أن يمثل هؤلاء عبر العصور الحاجز الأساس في طريق عملية التغيير؛ لأن أي تغيير يكون انتعاقاً لأمة من الناس من نير العبودية العقدية والفكريّة، وحينها ستنكسر أعلام المستكرين، ويضعف نفوذهم، وتختور قواهم. لذلك فهم لا يزالون - بحكم هذا الاستعلاء وهذا الكبرياء - يحاولون الاستبداد بالأمور، فيطمحون إلى تأليه أنفسهم وإحاطتها بخصوصية الخلود والأبدية، ولنستمع إلى إحدى الطواهر الاستكبارية، إلى فرعون وهو يلقي بالكلمة الفاجرة في أسماع الملايين الذين تلقوها بالإقرار والتسليم - قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عِلْمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص، الآية: ٣٨] لقد اعتمد في مقولته هذه - كما يقول سيد - رحمه الله -: «على الأساطير التي كانت سائدة من نسب الملوك للآلهة، ثم على الدهر الذي لا يدع لعقل أن يفكر ولا للسان أن يعبر، وهم يرونه بشراً مثلكم يحيى ويموت، ولكنه يقول فيهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراف أو تعقيب»<sup>(١)</sup> ! ثم يعلل القرآن مقوله فرعون فيقول - تعالى -: ﴿وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجَهُودُهُ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الْحَقَّ﴾ [القصص، الآية: ٣٩]، وذلك هو منطق المستكرين في كل عصر ومصر، فهم على صعيد قلب واحد، إنهم غير مستعدين للإيمان بالمثل الأعلى الذي دع� إليه الرسل؛ إذ هو الذي سيزعزع الوهابتهم، ويهدد

(١) في ظلال القرآن: ٢٦٩٤/٥

عروشهم، ويعيد الحاكمة إلى الإله الحق بعد أن اغتصبواها، ومعها كرامة المجتمعات وحرية الشعوب التي سيمت ألوانا من العذاب، ومنعت الإنفاق.

إن دعوة الأديان - وخصوصا الإسلام - أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذرعة الألوهية؛ فاستبعدوا الناس بحيلهم ومكايدهم وتحكموا في رقابهم، فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم وتستأصل شأفتهم.

فليس غريباً أن نجد المترفين والجبارية يثورون على دعوات الإصلاح ويحاولون إجهاضها بشتى العرقل، لما ستحدثه هذه الدعوة من انقلاب اجتماعي، تنهر معه طموحاتهم وأحلامهم وتقرير آمالهم ومتمنياتهم.

ولا تزال عدوى المستكبرين في الحياة الاجتماعية تسري وتدب فيها ديب السرطان في الجسد، «ومن آفة الآفات أن المستكبرين كانوا ولا يزالون يتقنعون بلبس ديني علانيتهم الإقرار بالتوحيد والإيمان بالرسالة، والمحافظة على الفرائض، والاستشهاد بالكتاب والسنة، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب»<sup>(١)</sup>، ولا ريب أنها إحدى معضلات التغيير التي ليس من السهل إخمادها، لاسيما وقاعدة المجتمعات مطبوعة بطبع الجهل، الذي يفتح على هؤلاء باب انتلاء الحيلة عليهم، وتستمر الطغمة الغاشمة في اللعبة تسعفها إمداداتها المادية وغضيرتها الفرعونية، مما يجعل الأمر صعباً وعسيراً. غير أن الأمل عريض ومناهج التغيير مختلفة ولو طال أمله وبعدت شقتها، فهو كائن - إن شاء الله تعالى -، وهو ما قررناه آنفاً.



(١) واقع المسلمين وسيط النهوض بهم، ص: ٣٦.

## المبحث الثامن :

### ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد القرآنية

#### المطلب الأول :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَا مَسَوا وَأَتَقْوَى لَفَنَحَنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف، الآية: ٩٦].

قاعدة :

أ - فقهها :

تقرر الآية أن الإيمان الصحيح والدين الحق سبب للسعادة الدنيوية وانتفاء الضلال والشقاء كما في قوله - عز وجل - ﴿فَإِمَّا يَأْلِمَنَّكُمْ مِّنْ هُدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىً فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه، الآية: ١٢٣]، وما يفتح الله على المؤمنين يكون بركة ونعمه، ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاغتباط بفضله، واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الإصلاح دون الإفساد، ويكون جزاؤهم عليه من الله - تعالى - زيادة النعم ونموها في الدنيا وتوسيتها عليهم وتيسيرها لهم من كل جانب بفتح أبوابها في سهولة تناولها<sup>(١)</sup>.

(١) انظر تفسير المنار: ٢٥/٩.

ب - قيمتها :

كما أنها تقرر أمراً عظيماً، وهو أن العقيدة الإيمانية في الله وقواه ليست بمعزل عن واقع الحياة.

فمتى تفاعل هذان العنصران، عنصر الإيمان الحق وعنصر التقوى القائم مقام التسبيح والرعاية لهذا الإيمان، متى تفاعلاً، أهلاً لفيض البركات من السماء والأرض. وأثمراً القوة كما في قوله - تعالى - : ﴿وَتَنَعَّمُ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوَبُوا إِلَيْهِ يُرِسِّلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مَدَارًا وَيَزِدُكُمْ قُوَّةً إِنَّ فَوْتَكُمْ﴾ [هود، الآية: ٥٢].

فالملائمة للآلية القاعدة ونظيرتها يرى أن الوعد فيما منوط بالإيمان، والتقوى، والاستغفار - وهو من لوازم الإيمان - وكلها أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود<sup>(١)</sup>.

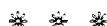
ولا ريب أن البركات والقوة إنما هي كناية عن مظاهر حضارة ضاربة بفضل سيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرازاً لا يدينون لغير الله، كما إنها تطلق طاقاتهم نحو العمل والإنتاج وتأدية تكاليف الخلافة في الأرض؛ لأن الإيمان الحق المسيح بالتفوى، لا شك أنه سيمثل الإدراك الإنساني الكامل، ومن ثم الحيوية ورحابة الإحساس بحقائق الوجود التي منها؛ إحساس الإنسان بدوره في هذه الحياة، وشعوره بانتفاء العيشية من خلقه وتلك هي كوة الإشراف على النجاح في الحياة الواقعية.

فالإيمان الذي عنته الآية، هو هذا النوع الذي يشكل القوة الدافعة لتحقيق مشيئة الله في عمارة الأرض؛ بإحلال الخير فيها، ومدافعة الفساد والشر؛ لترقية الحياة ونمائها.

(١) انظر في ظلال القرآن: ٤/١٨٩٧.

فلا مقارنة - إِذَا - بين هذا الإيمان وما تعيشه المجتمعات الإسلامية من إيمان متخيّل في صورة تعبدية بحثة مقطوع الصلة بواقع الناس، فإنه من غمط الحق وقصور النظر أن نحسب هذا الإيمان على الإيمان المُحرَك، وأن ننظمه في سلك الإيمان المنتج لتنمية حضارة حافلة، وهي تلك البركات الموعودة في الكتاب، وما حال الأمة عنا ببعيد، والخلل لا ينجم عنه إلا الخلل.

ولقد قرر صاحب الظلال - رحمه الله - حقيقة الإيمان الحي الذي يغدو مُوصَلاً بالملائكة الأعلى فيشم الإنسان المكلَف، الإنسان المشبع بالإحساس بالمسؤولية، ثم يتخذ الأسباب لأجل تحقيق هذا التكليف، لقد قرر - رحمه الله - هذا بقوله: «... وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض منطلقة إلى السماء متحرّرة من الهوى والطغيان البشري، عابدة خاشعة لله، تسير سيرة صالحة ممنتجة، تستحق مدد الله بعد رضاها، فلا جرم تحفها البركة ويعمها الخير ويظلها الفلاح»<sup>(١)</sup>.



(١) في ظلال القرآن: ١٢٣٩/٣.

## المطلب الثاني :

**قاعدة :**

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَفَّ﴾ [الأنعام، الآية: ٤٤].

**أ - فقهها :**

والمعنى أنه لما تركوا الاعاظ بما وعظهم به الرسل، وأعرضوا عما أنذروهم به، كثرت لهم النعم والخيرات من صنوف السعادة وراحة البال والراغب؛ ظنًا منهم أن ذلك باستحقاقهم وإنما هو استدراج وإملاء ومكر بهم<sup>(١)</sup>.

**ب - قيمتها :**

والآلية القاعدة تجسد سنة الاستدراج في الذين خلوا من قبل وهي مقررة في غير ما آية، قال - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادَ ٦١ إِنَّمَا ذَاتَ الْعَمَادَ ٧ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ٨ وَتَمُودُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطًا عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُ الصَّادَ ١٤﴾ [الفجر، الآيات: ١٤-٦]، «فقد جمع في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم والذي طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وليس وراء الطغيان إلا الفساد، الفساد الذي يحول الحياة عن خطها السليم النظيف المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر التفسير الكبير: ١٢/٢٣٧، وتفسير المثار: ٤١٥/٧، ومحاسن التأويل: ٥٢٩/٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٣٩٠.

ولقد أخذ الله - تعالى - هؤلاء ونظائرهم في الطغيان والجبروت ونسيان ما ذكروا به، أخذهم بهذه السنة، ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ذلك السر المغيب من قدر الله، وهذا القدر الظاهر من سنته، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف<sup>(١)</sup>.

وكل ذلك كان مأثار الجهل بالسنة الكونية، وعدم الشعور بالاستدراج وفق هذه السنة.

وتتأمل القاعدتين لدرك البون بينهما: فالقاعدة الأولى تتحدث عن الفتح الرباني المisher بالرضا والإنعم، وهذه تتحدث عن الفتح المنذر بالسخط والانتقام، فالفتح الأول إعلان عن بداية خير ولادة إنسان سيقىض له الله أن يحيى حياة طيبة في ظلال شريعة الله الوارفة.

والفتح الثاني بلاغ عن انقراض الشر واستئصال شأته، وتطهير الأرض من الذين ظلموا: ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ أَظْلَمُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ٤٧]، ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَسِيقُونَ﴾ [الأحقاف، الآية: ٣٥].



(١) في ظلال القرآن: ١٠٩١/٢.

## المطلب الثالث :

### تطبيقات

#### أ- نموذج أحد :

ويعتبر من النماذج المهمة في سنة التغيير، وفي ذلك يقول - تعالى -: «أَوْ لَمَّا  
أَصْبَثْتُكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْنَمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ» [آل عمران،  
الآية: ١٦٥]، والآية بيان وإرشاد عام؛ أن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على  
جميع الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، تقيمهم وفاجرهم، كما أنها دحض لشبهة المشركين  
والمنافقين؛ إذ قالوا: لو كان محمد ﷺ رسولاً من عند الله لما نيل منه، فكأن الآية  
أجابتهم بأن سنن الله حاكمة على رسليه وأنبيائه، كما هي حاكمة على سائر خلقه،  
فما من جند يكون في الحالة التي كان عليها المسلمين يوم أحد ويتصرف كما تصرفوا  
إلا وينال منه؛ نتيجة مخالفة أوامر القيادة، وتركهم للشغر الذي أوتوا من قبله،  
وتخليتهم بينهم وبين عدوهم، أضعف إلى هذا فشلهم جراء تنازعهم.

كما أن في الآية نكتة تأديب المسلمين؛ لأن النصر المحرز من قبل المشركين لم يكن  
سوى نصر آني، سرعان ما تخبو جذوته، إلا إن في ثباته غمزاً للمسلمين؛ لإيقاظهم  
وانتباهم؛ لثلا يغيبوا الأسباب التي منها عدم الخروج على القائد ومخالفة أمره، فكان  
ذلك وقفة تربوية وتعلمية مفادها: أن من خرج عن سنن الله في أسباب الظفر حلّت به  
النكبات؛ لأن سنن الله لا تحيي أحداً من خلقه ولا تجاري أهواءه، وإنما تساير عمله، فلا  
نصر بغير اتخاذ الأسباب الجارية «في النصر والهزيمة؛ حتى تتعلم الجماعة وتزداد طاعة لله  
وتوكلاً عليه والتصاقاً بركته، وتعرف طبيعة هذا المنهج وتكليف معرفة اليقين»<sup>(١)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ٤٨١/١.

## ب - نموذج سحرة فرعون :

وهو نموذج يشي بعدم اكتراث الحق بالباطل، كما أن مشاهده صورت إجراء مباراة كانت نتائجها قلب موازين قوى الباطل، وتحويل أتباع فرعون إلى زمرة من المنافقين عن الدين.

فبعد أن كان جمهرة السحرة يسبحون بعزة فرعون ويجعلونها سنداً ومعيناً قال - تعالى - : **﴿وَقَالُوا يَعْرِفُهُ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالَمُونَ﴾** [الشعراء، الآية: ٤٤] ، كان ذلك في أول الجولة، حتى إذا أتى عليهم آخرها قلبوا له ظهر المجن - لما رأوا من حق ويقين لا تطيقه البطلة - فإذا هم بقلوب غير التي عهدها فرعون يواجهون الطاغية بقولهم : **﴿لَنْ تُؤْرِكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَلَنْ يَكُنْ فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** [طه، الآية: ٧٢] ، «إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون، وتعد القربي منه مغناًماً يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة وترخص ملكه وزخرفه وسلطانه»<sup>(١)</sup> فبعد أن كان الحرص والخوف يفعلان فعلهما في إضعاف النفوس، وإحناء الرؤوس، وإذلال الأعناق، إذ بالإيمان يحل في القلوب، فيحيل الخوف إلى شجاعة، والإذلال إلى عزة، والحرص إلى استهانة بكل زخارف الحياة، بل انقلب القوم إلى دعاة يبشرون وينذرؤون وذلك حين أخبر الحق عن قولهم **﴿إِنَّا ءامَنَّا بِرَبِّنَا لِيغْفِرَ لَنَا خَطَّابَنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْسَّيِّئَاتِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَّأَبْقَى﴾**<sup>(٢)</sup> [طه، الآية: ١٧٣] فانظر إلى القلوب كيف تحبّ ثم يغدو أصحابها ضمن الدعاة الذين يرغبون في التغيير؛ إذ لم يكفهم أن يتغيروا، بل رغبوا في الإسهام في عملية التغيير، وهي من مقامات التوبة النصوح ودلائلها قال - تعالى - : **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَمَاءَنَّ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَتِي وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** [الفرقان، الآية: ٧٠].

(١) انظر الإيمان والحياة، ص: ٢٣٦.

(٢) في الظلال: ٤/٢٣٤٣.



## الخاتمة

والآن بعد أن أتينا على عرض الكليات الثمان التي عليها مدار القرآن - كما قررناه - فإنه يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- قصد القرآن الكريم إلى إبداع أكثر المضامين والمعاني في أقل القوالب والمباني، فالعبرة عنده بالمضمون والكيف والمنهج، دون الكثرة والشكل، وهو من مظاهر الإعجاز البصري فيه.

- كليات القرآن على كثرتها ت導 إلى الأصول الثمانية المسطرة، وهذه الأصول الثمانية هي بذاتها تنظم في ثلاثة دوائر كبرى، وهي:  
العقيدة، والعبادة، والجزاء.

- تجلّي عنصر التكامل والتفرع في كليات القرآن، وهو ملحوظ في ذلك الترتيب الذي لم يجيء اعتماداً، كما أن التفريع نلمسه من خلال القواعد المذيلة لهذه الكليات.

- صلاحية التشريع القرآني لكل زمان ومكان وإنسان نابعة من كليات القرآن.

- وعالمية الكليات تعتبر نوعاً من أنواع إعجاز القرآن التشريعي، وهو ما ينطبق على قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَقْرَئُنَّ ظَهِيرَةً﴾ [الإسراء، الآية: ٨٨].

- إبراز كليات القرآن وأصولها الكبرى، هو الجواب العلمي لمسألة: ضبط نصوص الشرع - وهي محدودة - قضايا الناس - وهي غير محدودة ولا متناهية -.

- كليات القرآن كلها مودعة في ألم الكتاب.

- \* كليات القرآن مجتمعة في الأصول الثمانية، والأصول الثمانية ترجع إلى الأنواع الثلاثة الكبرى، وهي آيلة إلى النوع الأول، (وهو العقيدة)، فتحصل من هذا أن أصل الأصول هو العلم بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو دليل على وحدانيه - سبحانه وتعالى -.
- \* القرآن المكي أغزر وأكثر كليات وأصولاً.
- \* أصول الإسلام وقواعده وفكرته العامة، كل ذلك مستوفى في القرآن المكي عن طريق الكليات.
- \* النظر في القرآن من جهة ما فيه من الكليات يري في الناظر العقلية التركيبة الشمولية الواسعة المستوعبة.
- كما يخلصه من العقلية التجزئية التي تنظر إلى الأمور من زوايا دون أخرى، ومن ثم تحكم على الأشياء أحکاماً قاصرة وتزنها بالميزان المختل.
- \* بالنظر في الكليات القرآنية ودراستها نتعرف على ما هو ثابت وما هو متغير في التشريع الإسلامي.

\* \* \*

## قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن.
- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، (ت ٩١١ هـ).
- تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .  
المكتبة العصرية - بيروت - طبعة ٤٠٧ هـ / ١٩٨٩ م .
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان .  
للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ، (ت ٧٣٩ هـ) .  
قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت.
- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ، ٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- الإحکام في أصول الأحكام .  
لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) .
- تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، تقدیم الدكتور إحسان عباس .  
دار الآفاق - بيروت - الطبعة الثانية ، ٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- أحكام القرآن .  
لابن الفرس، بحث مرقوم أعده محمد الدبلالي لنيل دبلوم الدراسات الإسلامية  
جامعة مولاي إسماعيل، السنة الجامعية، ٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

• إحياء علوم الدين.

لأبي حامد محمد الغزالى (٢٠٥٣ هـ).

دار المعرفة - بيروت - طبعة (د. ت).

• الإخلاص.

للدكتور عمر سليمان الأشقر.

دار النفائس - عمان - الأردن، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

• إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول.

لمحمد علي الشوکاني (ت ١٢٥٠ هـ).

تحقيق: أبي مصعب محمد سعيد البدرى.

مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة السادسة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

• أساس البلاغة.

لجار الله أبي القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د- ت).

• أسباب النزول.

لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٦٨٤ هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة (د. ت).

• أسد الغابة في معرفة الصحابة.

لابن الأثير الجزري .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* الإسلام .

لتوomas كرليل .

\* الإسلام والدولة .

محمد حسن الوزاني .

مؤسسة محمد حسن الوزاني - فاس - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

\* الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي .

للشيخ محمد حسين الطباطبائي .

تعريب محمد علي آذرشب .

منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى وقسم الإعلام الخارجي لمؤسسة البعثة .

الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ .

\* الأشباء والنظائر .

لتاج الدين بن علي السبكي (ت ٧٧١ هـ) .

تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض .

دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

\* الأشباء والنظائر .

لزين الدين بن إبراهيم المعروف بابن نجيم الحنفي (ت ٩٧٠ هـ).

تحقيق وتقديم: محمد مطيع الحافظ.

دار الفكر، تصوير ١٩٨٦ عن الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

• الأشباء والنظائر.

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ).

ضبط وتعليق: الشيخ علي المكي.

مطبعة محمد بمصر، طبعة (د.ت).

• الإشراف في مسائل الخلاف.

للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي (ت ٤٢٢ هـ).

مطبعة الإرادة (تونس) طبعة (د.ت).

• أصول الفقه.

محمد أبي زهرة.

دار الفكر العربي، طبعة (د.ت).

• أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

محمد الطاهر بن عاشور.

الشركة التونسية للتوزيع، طبعة (د.ت).

• أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ).

عالم الكتب - بيروت - طبعة ١٣٨٣ هـ.

• الأعصاب.

لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ).

در الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

• الاعتقاد على مذهب السلف.

لأبي بكر أحمد بن الحسين البهقي (ت ٤٥٨ هـ).

صححه: محمد الشيخ أحمد المرسي.

الناشر: حديث أكادمي نشاط آباء، وفيصل آباد باكستان طبعة (د.ت).

• إعلام الموقعين عن رب العالمين.

لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٥٧٥ هـ).

راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد.

دار الجليل - بيروت - طبعة (د.ت).

• إغاثة اللّهفان من مصايد الشيطان.

لابن قيم الجوزية.

تحقيق: محمد سيد الكيلاني.

مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - طبعة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

◦ أنوار التزيل وأسرار التأويل.

لناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي .

دار صادر - بيروت - طبعة (د.ت) .

◦ الإيمان والحياة .

للدكتور يوسف القرضاوي .

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة عشرة ٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

◦ بدائع الفوائد .

لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) .

ضبط نصه وخرج آياته: أحمد عبد السلام .

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

◦ بداية المجتهد ونهاية المقتضى .

لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي (ت ٥٩٥ هـ) .

دار الفكر، طبعة (د.ت) .

◦ بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز .

لحمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) .

تحقيق: محمد علي النجار .

المكتبة العلمية - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* تاريخ الأمم والملوك .

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

\* تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية ملكية العقود .

لبدران أبي العينين بدران .

دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* التحرير والتتوير .

للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

الدار التونسية للنشر، طبعة ١٩٨٤ م .

\* تفسير الخازن المسمى «باب التأويل في معاني التزيل» .

لعلاء الدين محمد بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن (ت ٧٢٥ هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* تفسير سورة النور .

لأبي الأعلى المودودي .

تعريب محمد عاصم الحداد .

دار الفكر، طبعة (د.ت) .

\* تفسير القرآن العظيم .

لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) .

صححها نخبة من العلماء .

دار إحياء التراث العربي - بيروت - طبعة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

\* التفسير القيم .

لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) .

جمعه: محمد أweis الندوي، وحققه: محمد حامد الفقي .

دار العلوم الحديثة - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* التفسير الكبير .

لفخر الدين الرازي (ت ٤٦٠ هـ) .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

\* تفسير الماوردي (النكت والعيون) .

لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٥٤٠ هـ) .

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

\* تفسير القرآن المسمى «تبصير الرحمن وتيسير المنان» .

لعلي بن أحمد بن إبراهيم المهافي (ت ٨٣٥ هـ) عالم الكتب - بيروت - ط

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

\* تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار .

للأستاذ محمد عبده .

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية (د.ت) .

\* تفسير النصوص في الفقه الإسلامي .

للدكتور محمد أديب صالح .

المكتب الإسلامي . الطبعة الثالثة ٤١٤٠ هـ / م ١٩٨٤ .

\* توضيح المقاصد وتصحيح القواعد .

لابن عيسى .

المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ .

\* تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد .

سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣ هـ) .

المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ .

\* جامع الأصول في أحاديث الرسول .

لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير الجوزي (ت ٦٠٦ هـ) .

تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ٤١٤٠ هـ / م ١٩٠٣ .

\* جامع بيان العلم وفضله .

لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) .

- دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .
- \* جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
- لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٥ هـ) .
- دار الفكر - بيروت - طبعة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.
- \* جامع الرسائل لابن تيمية .
- تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة المدنى، ط١ (د.ت) .
- \* الجامع الصحيح .
- لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النسابوري (ت ...هـ) .
- منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر - بيروت - طبعة (د.ت) .
- \* الجامع لأحكام القرآن .
- لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ) .
- تصحيح: أحمد بن عبد الحليم البردوني .
- دار الكتب المصرية، طبعة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.
- \* الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .
- لتقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) .
- مطابع المجد التجارية، طبعة (د.ت) .
- \* جواهر القرآن .

لأبي حامد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥ هـ).

تحقيق الدكتور محمد رشيد رضا القباني.

دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

هـ حاشية ابن عابدين.

هـ حاشية الصاوي على الجلالين.

لأحمد الصاوي المالكي (ت ١٢٤١ هـ) دار الفكر - بيروت - طبعة ١٤٠٦ هـ /

١٩٨٦ م.

هـ الحسبة في الإسلام.

لتقي الدين أحمد بن تيمية.

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، طبعة (د.ت).

هـ خصائص الشريعة الإسلامية.

للدكتور عمر سليمان الأشقر.

مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

هـ الخصائص العامة للإسلام.

للدكتور يوسف القرضاوي.

دار المعرفة - الدار البيضاء طبعة (د.ت).

\* خطب الرسول.

لعبد الحميد شاكر.

جروس بريس، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

• الدرر البهية في إيضاح القواعد الفقهية.

لمحمد نور الدين مربو بنجر المكي.

مجلس إحياء دار التراث، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

• دستور الأخلاق في القرآن.

للدكتور محمد عبد الله دراز.

تعریف وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهین.

مراجعة الدكتور السيد محمد البدوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

• دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية.

جمع وتقديم وتحقيق: الدكتور محمد السيد الجليند.

مؤسسة علوم القرآن - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

• دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة.

لأبي بكر محمد بن الحسين البهيفي (ت ٤٥٨).

وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

\* الدين الخالص.

للسيد محمد صديق خان القنوجي.

دار التراث - القاهرة - طبعة (د.ت).

\* الرسالة.

للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٤٢٠ هـ).

تحقيق أحمد محمد شاكر.

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٠٩ هـ.

\* رفع الحرج في الشريعة الإسلامية.

للدكتور عدنان محمد جمعة.

دار العلوم الإنسانية - دمشق - الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م.

\* روح المعاني.

لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ).

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

\* زاد المعاد لابن قيم الجوزية.

راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف طه.

مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - طبعة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

\* السنن الإلهية.

للدكتور عبد الكريم زيدان .

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

ه سنن الترمذى .

لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (ت ٢٧٩ هـ) .

حققه وصححه: عبد الوهاب عبد اللطيف .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

ه سنن الدارمي .

لأبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) .

دار الفكر - القاهرة - طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

ه السنن الكبرى .

لأبي بكر أحمد بن الحسين البهقي (ت ٤٥٨ هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

ه سنن النسائي بشرح الخافض جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .

ه سير أعلام البلاء .

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) .

أشرف على تحقيقه وتخریج أحادیثه: شعیب الأرناؤوط .

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

\* السيرة النبوية .

لابن هشام .

حققتها وضبطتها وشرحها مصطفى السقا وإبراهيم الإيباري وعبد الحفيظ شلبي

مطبعة مصطفى الباجي الحلبي - مصر - الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٥ م.

\* شرح تنقیح الفصول في اختصار المخصل في الأصول .

للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المالكي (ت ٦٨٤ هـ) .

تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - دار الفكر - القاهرة طبعة أولى ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

\* شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب وإجماع الصحابة  
والتابعين .

لأبي القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبراني الالكائي (ت ٤١٨ هـ) .

تحقيق: الدكتور أحمد سعد حمدان .

دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض .

الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

\* شرح السنة .

للحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ) .

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش .

المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

◦ شرح العقيدة الطحاوية .

للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (ت ٧٩٢هـ) .  
حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي  
وشعيب الأرناؤوط .

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثامنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .

◦ صفة التفاسير .

محمد علي الصابوني .

دار القرآن الكريم - بيروت - الطبعة الخامسة، طبع بالمانيا الغربية شوتغارت  
١٤٠٢هـ / ١٩٨١ م .

◦ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناقشة .

لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

◦ الطبقات الكبرى .

لابن سعد .

دار صادر - بيروت - طبعة (د.ت) .

◦ عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى .

لابن العربي المالكى (ت ٤٣٥هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* العبادة في الإسلام.

للدكتور: يوسف القرضاوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثامنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

\* العبودية.

لتقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ).

دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

\* إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام.

لابن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ).

طبعة دار الشعب - نشر مكتبة عالم الفكر - القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٦ م.

\* عون المعبود في شرح سنن أبي داود.

لأبي الطيب محمد شمس الحق آبادي.

ضبط وتحقيق، عبد الرحمن بن عثمان.

دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

\* غاية الأماني في الرد على النبهاني.

لأبي المعالي محمود شكري الألوسي (ت ١٣٤٢ هـ).

الطبعة الثانية عام ١٣٩١ هـ.

\* غريب القرآن وتفسيره.

لأبي عبد الرحمن عبد الله بن يحيى المعروف بابن اليزيدي .

تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين .

مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

\* فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

لأحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) .

قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

المطبعة السلفية - القاهرة - طبعة ١٣٨٠هـ .

\* الفرائد البهية في القواعد والفوائد الفقهية .

لمفتى دمشق محمود حمزة (ت ١٣٠٥هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٩٨٦م .

\* الفروق .

لشهاب الدين أبي العباس الصنهاجي القرافي .

واضعه: محمد رواس قلعجي .

دار المعرفة - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* الفروق اللغوية .

لابن عساكر .

مكتبة القدمي .

\* الفصل في الملل والأهواء والنحل.

لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ).

تحقيق الدكتور: محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمن عميره.

دار الجليل - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

\* فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنّة.

للدكتور: يوسف القرضاوي.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة السادسة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

\* الفوائد.

لابن قيم الجوزية.

الناشر زكريا علي يوسف.

مطبعة الإمام - القاهرة - طبعة (د.ت).

\* الفوز الكبير في أصول التفسير.

لولي الله الدهلوi (ت ١١٧٦هـ).

عربه من الفارسية: سلمان الحسيني الندوi.

دار الصحوة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

\* في ظلال القرآن.

لسيد قطب (ت ١٣٨٦هـ).

دار الشروق، الطبيعة الشرعية التاسعة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

\* القاموس المحيط.

لodge الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ).

تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

\* القواعد.

لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقرى (ت ٧٥٨هـ).

تحقيق ودراسة: أحمد بن عبد الله بن حميد.

مركز إحياء التراث الإسلامي - مكة - طبعة (د.ت).

\* قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

لأبي محمد عز الدين بن عبد السلام السلمي (ت ٦٦٠هـ).

مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - طبعة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

\* القواعد والأصول الجامعة والفرق والتقسيم البدعة النافعة.

لعبد الرحمن بن ناصر السعدي.

مكتبة المعارف الرياض - طبعة جديدة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

\* القواعد الكلية للأسماء والصفات.

للدكتور: إبراهيم بن محمد بن عبد الله البريكان.

دار الهجرة للنشر والتوزيع، طبعة (د.ت).

\* الكامل في التاريخ.

لابن الأثير. دار صادر - بيروت - طبعة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

\* كتاب الأسماء والصفات.

لأبي بكر البهقي.

دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة (د.ت).

\* كتاب الأموال.

لأبي عبيد القاسم بن سلام.

تصحيح وتعليق محمد حامد الفقهى.

مطبعة عبد اللطيف حجازي، طبعة ١٣٥٣هـ.

\* كتاب الحدائق في علم الحديث والزهدية.

لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٩٧٥هـ).

حققه وعلق عليه: مصطفى السبكي.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

\* كتاب الخراج.

لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة (ت ١٨٢هـ).

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - .

اعتمد فيها على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه - مع  
معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢ هـ.

\* كتاب فهم القرآن ومعانيه.

للحراث بن أسد المخسيبي (ت ٢٤٣ هـ).

تحقيق وتقديم: حسين القوتلي.

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

\* كتب العهد القديم والجديد.

دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

Arabic. Bible 053

UBS. EPF. 1987-407M

\* الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقوايل في وجوه التأويل.

لأبي القاسم جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ).

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

\* الكليات معجم في المصطلحات والفرق اللغوية.

لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ).

قابله وأعده للطبع: دكتور عدنان درويش ومحمد المصري.

مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

«كنز العمال».

لعلاء الدين الهندي، ضبطه وفسر غريبه: بكري حياني، صححه ووضع فهرسه  
ومفاتيحه ضوء السقا - مؤسسة الرسالة - بيروت - طبعة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

«كيف نتعامل مع القرآن».

لمحمد الغزالى.

دار الوفاء، الطبعة الثانية عام ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

«لسان العرب».

لابن منظور.

دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى (د.ت).

«ما أنا عليه وأصحابي».

لأحمد سلام.

دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

«مجاز القرآن».

لأبي عبيدة معمر بن المشني (ت ٢٠٦هـ).

تحقيق محمد فؤاد سزكين.

مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- مجلة البيان، عدد: ٥٠، شوال ١٤١٢ هـ أبريل ١٩٩٢ م.
- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية.
- السنة الأولى نوفمبر ١٩٨٤ م.
- مجمع الزوائد ومنع الفوائد.
- علي بن أبي بكر الهشمي (ت ٧٠٧هـ).
- تحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر.
- الناشر: مؤسسة المعرف - بيروت - طبعة ١٤٠٦/١٩٨٦.
- مجموع فتاوى ابن تيمية (ت ٦٢٨هـ).
- جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.
- أشرف على الطباعة والإخراج: المكتب التعليمي السعودي بال المغرب.
- مكتبة المعرف - الرباط - طبعة (د.ت).
- الخاور الخمسة.
- للشيخ محمد الغزالي.
- دار الوفاء للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٢/٥١٩٩٢ م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
- لأبي محمد إسحاق بن عطية الأندلسي (ت ٤٦٥هـ).
- تحقيق: نخبة من أعضاء المجالس العلمية بالمغرب.

الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م.

\* المسوى شرح الموطأ.

لولي الله الدهلوi (ت ١٧٦هـ).

علق عليها وصححها جماعة من العلماء بإشراف الناشر.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

\* المشروع الحضاري في الإسلام.

في حوار مع السيد محمد فضل الله.

مؤسسة المعارف للمطبوعات - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.

\* معالم السنن.

لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ).

منشورات المكتبة العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

\* معجم مفردات ألفاظ القرآن.

للراغب الأصبغاني.

تحقيق: نديم مرعشلي.

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت).

\* مجموعة الرسائل المفيدة.

للشيخ حافظ الحكمي.

تحقيق وتعليق: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، على نفقه الراجحي  
طبعة(د.ت) .

• محسن التأويل .

محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) .

وقف على طبعه وتصححه وترقيمه وتخریج آياته وأحادیثه: محمد فؤاد  
عبد الباقی، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

• مدارج السالكين .

لابن قيم الجوزية .

تحقيق: محمد حامد الفقي .

دار الفكر - بيروت - الطبعة الأخيرة عام ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٨ م.

• المستدرك على الصحيحين .

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥ هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

• مسنن الإمام أحمد بن حنبل (ت ٤٢٠ هـ) .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

• المستصفي .

لأبي حامد الغزالی (ت ٥٥٠ هـ) .

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

\* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.

لأحمد بن محمد بن علي المقرى الفيومي (ت ٧٧٠ هـ).

مكتبة لبنان طبعة (د.ت.).

\* المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفى.

لمصطفى زيد.

دار الفكر العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٤ م.

\* معاني القرآن.

لأبي زكريا زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ).

عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة ٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

\* المعتمد في أصول الفقه.

لأبي الحسين محمد بن علي البصري (ت ٤٣٦ هـ).

قدم له وضبطه: الشيخ خليل الميس.

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

\* مفاهيم إسلامية.

لعبد الله كنون.

دار الكتاب اللبناني، طبعة أولى ١٩٦٤ م.

\* مفتاح دار السعادة.

لابن قيم الجوزية .

تصحيح ومراقبة: د. فكري أبو النصر، دار الفكر للطباعة والنشر طبعة (د.ت) .

\* مقاصد الشريعة .

محمد الطاهر بن عاشور .

الشركة التونسية للتوزيع، طبعة (د.ت) .

\* مقدمة ابن خلدون .

الطبعة البهية المصرية، طبعة (د.ت) .

\* المنشور في القواعد .

لبدر الدين محمد الشافعي الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) .

تحقيق: الدكتور. تيسير فائق أحمد محمود، راجعه الدكتور. عبد الستار أبو غدة،  
مصورة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

\* منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات .

للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ) .

توزيع المكتب التعليمي السعودي بالمغرب. مكتبة المعارف - الرباط - طبعة (د.ت) .

\* المواقفات في أصول الأحكام .

لأبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) .

طبعه دار الفكر التي عليها تعليقات الأستاذ السيد محمد الخضر حسين التولسي،  
طبعة (د.ت) .

وطبعة دار المعرفة التي عليها تعلیقات وشرح الشیخ عبد الله دراز .  
وضبط أحادیثها وخرج آیاتها الشیخ إبراهیم رمضان . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / م ١٩٩٤.

\* مواهب الجليل لشرح مختصر خلیل .  
لأبي عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن المغربي المعروف بالخطاب (ت ٤٩٥هـ) .  
دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ / م ١٩٧٨ .

\* میزان الاعتدال في نقد الرجال .  
لأحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) .  
تحقيق: علي محمد البجاوي .

دار الفكر - بيروت - طبعة (د.ت) .

\* نحن والحضارة الغربية .

لأبي الأعلى المودودي .

دار السعودية للنشر والتوزيع .

طبعة ٤١٤٠هـ / م ١٩٨٤ .

\* نظم الدرر من تناسب الآيات والسور .

لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) .

طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية حیدر آباد .

تحت إشراف: محمد عبد المعين خان، الطبعة الأولى م ١٣٨٩.

\* النهاية في غريب الحديث والأثر.

لابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ).

تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي.

المكتبة العلمية - بيروت - طبعة (د.ت).

\* نهج البلاغة.

للإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: وهو مجموع ما اختاره الشرييف  
الرضي.

شرح محمد عبده.

طبعة دار الفكر (د.ت).

\* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار.

لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥ هـ).

مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر - القاهرة - طبعة (د.ت).

\* واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم.

لأبي الأعلى المودودي.

مؤسسة الرسالة، طبعة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.

\* وجهة العالم الإسلامي.

مالك بن نبي (ت ١٣٩٢ هـ).

ترجمة عبد الصبور شاهين.

إصدار ندوة مالك بن نبي دار الفكر - دمشق - ، طبعة (د.ت).

• الوحي الحمدي.

محمد رشيد رضا.

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ.





## فهرس الموضوعات

٥ ..... تقدیم

### الباب الأول : كليات في الاعتقاد

#### الفصل الأول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلُهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

٤٣ ..... البحث الأول : بسط بعض مظان الكلية

٥١ ..... البحث الثاني : فقه الكلية

٥٩ ..... البحث الثالث : قيمتها

٦٩ ..... البحث الرابع : توحيد الربوبية

٧٣ ..... البحث الخامس : توحيد الأسماء والصفات

٧٩ ..... البحث السادس : توحيد الألوهية

٨٥ ..... البحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

٩١ ..... البحث الثامن : تطبيقات على بعض الأسماء والصفات

## الفصل الثاني: ﴿وَمَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

١٠٣	المبحث الأول: القرآن كتاب هدى وإعجاز
١٣٥	المبحث الثاني: القرآن أصل الأصول
١٥١	المبحث الثالث: القرآن والكتب السماوية
١٦٨	المبحث الرابع: القرآن والسنة النبوية
١٧٣	المبحث الخامس: من مقاصد القرآن الكريم
١٩٧	المبحث السادس: خصائص القرآن الكريم

## الباب الثاني: كليات في مقاصد الشرع

### الفصل الأول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦

٢٢٣	المبحث الأول: تحرير محال ورودها في القرآن
٢٣١	المبحث الثاني: فقهها
٢٣٩	المبحث الثالث: قيمتها
٢٤٩	المبحث الرابع: مقوماتها
٢٥٩	المبحث الخامس: بعض مظاهرها
٢٦٧	المبحث السادس: المثل الأعلى في العبادة

المبحث السابع : من ثمرات العبادة	٢٧٥
المبحث الثامن : دواعي الاستكبار عن عبادة الله وعاقبة ذلك	٢٨٣
المبحث التاسع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد	٢٨٩
<b>الفصل الثاني : «أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين»</b>	
المبحث الأول : من محال ورود الكلية في القرآن	٣٠٧
المبحث الثاني : مفهوم الصلاح والفساد	٣١٧
المبحث الثالث : قيمة الصلاح في القرآن	٣٣١
المبحث الرابع : بعض مظاهر الصلاح والفساد	٣٤١
المبحث الخامس : مقومات الصلاح	٣٥٣
المبحث السادس : من آثار الصلاح والفساد	٣٦١
المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد	٣٦٩
<b>الفصل الثالث : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»</b>	
المبحث الأول : ذكر بعض محال ورودها في القرآن	٣٨٣
المبحث الثاني : فقهها	٣٨٩
المبحث الثالث : قيمتها	٣٩٩

٤٠٩	المبحث الرابع: منهج القرآن في رفع الحرج
٤١٥	المبحث الخامس: مواكبة الكلية لمجالات الحياة
٤١٩	المبحث السادس: الكلية والتشريع
٤٤١	المبحث السابع: ما يمكن أن يتفرع عن الكلية

### الباب الثالث: كليات في الطاعة والجزاء

#### الفصل الأول: ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ﴾

٤٦٥	المبحث الأول: تحرير بعض مظان ورودها في القرآن
٤٦٩	المبحث الثاني: فقهها
٤٧٥	المبحث الثالث: قيمتها
٤٨٣	المبحث الرابع: من تجليلات الطاعة
٤٨٧	المبحث الخامس: من مشمرات الطاعة
٤٩٣	المبحث السادس: من مثبطات الطاعة
٥٠١	المبحث السابع: ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد



الفصل الثاني : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ	
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ	
المبحث الأول : ذكر بعض مظان ورود الكلية في القرآن	٥١٧
المبحث الثاني : فقهها	٥٤٣
المبحث الثالث : قيمتها	٥٤٥
المبحث الرابع : أنواع الجزاء.	٥٧٣
المبحث الخامس : الجزاء الأخرى وبعض مظاهره	٥٨٣
المبحث السادس : الجزاء بين الاستعجال والاستبطاء	٥٨٩
المبحث السابع : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد	٦٠١
الفصل الثالث : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ بِهِ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا يَأْفَسِّهُمْ﴾	
المبحث الأول : حول السنن الكونية	٦٢٧
المبحث الثاني : نماذج منها في القرآن	٦٣٥
المبحث الثالث : بسط بعض مظان كمية التغيير في القرآن	٦٤٣
المبحث الرابع : فقهها	٦٤٥
المبحث الخامس : قيمتها	٦٤٩

٦٥٥	المبحث السادس : من مقومات التغيير
٦٦١	المبحث السابع : من عوائق التغيير
٦٦٥	المبحث الثامن : ما يمكن أن يتفرع عن الكلية من القواعد
٦٧٣	الخاتمة
٦٧٥	فهرس المصادر والمراجع
٧٠٧	فهرس الموضوعات

